

معالم الفتن

نظرات في حركة الإسلام وتاريخ المسلمين

(الجزء الثاني)

تأليف

سعيد أيوب



فهرس المطالب

معارك الإمام

• أولاً - يوم الجمل

• ثانياً - أيام صفين

• ثالثاً - التخاذل وغياب القمر

جداول الدماء

• أولاً - عاصفة الأمطار الحمضية

• ثانياً - دماء حول كهف النفاق

ما أشبه الليلة بالبارحة

• أولاً - رياح الوعونية

• ثانياً - آراء وشهود

• العراجع



معرك الإمام

أولا - يوم الجمل

تحركت أم المؤمنين عائشة ومن معها نحو البصرة. وروي أن أمير المؤمنين علي خرج على رأس قوة وهو يروجو أن يركبهم فيحول بينهم وبين الخروج. نظرا لما سيقرب على خروجهم. وبينما هو يستعد للخروج لقيه عبد الله بن سلام. فقال: " يا أمير المؤمنين لا تخرج منها - أي من المدينة - فوالله لئن خرجت منها لا توجع إليها. ولا يعود سلطان المسلمين أبدا " (1) ، وابن سلام لا يقول هذا من فراغ. ولكنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا عندما اعتوض عليه أصحاب أمير المؤمنين. قال لهم الإمام: دعوا الرجل فنعلم الرجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم " (2) ، ثم قال: " وأيم الله لقد أخونني به رسول الله صلى الله عليه وسلم " (3) ، لقد عرف ابن سلام أن أمير المؤمنين باتجاهه نحو الناكثين يكون قد بدأ طويقا طويلا ينتهي بقتله. ولقد رأى أن الخطوة الأولى في اتجاه يوم الجمل تلتقي مع الخطوة الأخيرة يوم النهروان. فالأحداث ذات نسيج واحد وإن اختلفت الأعلام

(1) الطبري 170 / 5، البداية والنهاية 234 / 7.

(2) الطوي 170 / 5.

(3) رواه أبو يعلى والنوار وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 138 / 9) ، ورواه الحاكم وصححه (المستدرک 140 / 3).

الصفحة 6

والأسماء. لذلك قال ابن سلام في الحديث الصحيح للإمام: " لا تقدم العواق فإنني أخشى أن يصيبك بها ذباب السيف فقال: وأيم الله لقد أخونني به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن سلام: فمارأيت كالיום قط محلرا يخبر بذا عن نفسه - وفي رواية - مارأيت كالיום محلرا يحدث الناس بمثل هذا " (1) ، أي مارأيت محلرا يحدث الناس بأنه سيقتل على هذا الطويق، وقتله واقع لا محالة.

وبينما كان الإمام يتجهز لود الناكثين جاء رجل من أهل الكوفة فقال: " ما هذا؟ فقالوا: أمير المؤمنين. قال: ما له، قالوا: غلبه طلحة والزبير فخرج يعتوض لهما لودهما. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. آتي عليا فأقاتل معه هذين الرجلين وأم المؤمنين أو أخالفه إن هذا لشديد " (2) ، وكانت هذه أول صفحة على طويق الجمل وفيها التباس الأمور عند الناس.

وروي أن الحسن بن علي رضي الله عنه كان قد أشار على والده في أمور منها: " أنه قال له أخرج من المدينة يوم حصار عثمان. ولكن الإمام عصاه في ذلك وقال له: أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان. فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط عثمان " (3)

به " ، ويبقى سؤال: من الذي أحاط بأهل البيت وبعثمان في وقت واحد؟ لقد كان هناك حصار منظور وحصار غير منظور ولكن الإمام الخبير بالرجال يعلمه جيدا. إن الإجابة على هذا السؤال يتعذر الوقوف على علمها. ولا يعلم حقائقها إلا من شاهدها ولا بسها. بل لعل الحاضرين المشاهدين لها لا يعلم الكثير منهم باطن الأمر، وروي أن الحسن بن علي كان له رأي في خروج طلحة والزبير ومن معهما. وهو أن يجلس الإمام في بيته ثم راقب الأحداث. فقال الإمام: وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فإن ذلك كان

(1) رواه أبو يعلى والبزار ورجاله ثقات والحاكم وصححه والحميدي وابن حبان في صحيحه (الزوائد 138 / 9)، (المستدرک 140 / 3)، (الخصائص الكبرى للسيوطي 235 / 2).

(2) الطوي 170 / 5.

(3) الطوي 170 / 5.

الصفحة 7

وهنا على أهل الإسلام. والله ما زلت مقهرا مذ وليت. منقوصا لا أصل إلى شيء مما ينبغي وأما قولك: اجلس في بيتك. فكيف لي بما قد تؤمني أو من يريدني. أريد أن أكون مثل الضبع الذي يحاط بها ويقال دباب دباب ليست ههنا حتى يحل عوقباها ثم تخرج. وإذا لم أنظر فيما تؤمني من هذا الأمر ويعينني. فمن ينظر فيه، فكف عنك أي بني " (1).

لقد كان الإمام يتصرف تصرف الحجة. فهو لم يؤمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يرفع سيفاً ما دام الناس لم يلتفتوا حوله باختيلهم. فإذا التفتوا حوله فقد تؤمه أن يسوقهم إلى ما يعرف والإتعط الدين. وهذا هو شأن الحجة على امتداد التاريخ الإنساني إن تركه الناس بعد دعوته إياهم. إما أن يعقوب بمن آمن معه. وإما أن يهاجر. فإن وقع على أتباعه ما يستأصلهم من حوله فهنا يدخل فقه الدفاع والقتال ولا قتال إلا بنص. وفي جميع الحالات فإن الحجة لا يهمل من تؤمه أو من يريد. وروي أن أمير المؤمنين عندما كان يتجهز لود الناكثين كان فريق أم المؤمنين قد خطا خطوات واسعة نحو الحرب الشاملة.

1 - الناكثون في البصرة:

دخلت أم المؤمنين فناء البصرة. فلقبها عمير بن عامر التميمي فأوصاها أن تأسل وجوه البصرة قبل اقتحامها (2). وكان على البصرة عثمان بن حنيف عاملا لأمير المؤمنين. فقالت أم المؤمنين لابن عامر: جئتني بالوأي وأنت امرؤ صالح. وكتبت السيدة عائشة إلى رجال من أهل البصرة منهم الأحنف بن قيس. ثم تحركت بقواتها لتحسين أوضاعها حتى إذا كانت بالحفير انتظرت الجواب (3).

وروى البيهقي عن الحسن البصري أن الأحنف بن قيس قال لأم المؤمنين: يا أم المؤمنين. هل عهد إليك رسول الله هذا

المسير؟ قالت: اللهم لا، قال: فهل

وجدته في شيء من كتاب الله جل ذكره؟ قالت: ما نؤأ إلا ما تؤأون. فقال:

فهل رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعان بشيء من نسائه إذا كان في قلة والمشركين في كثرة؟ قالت: اللهم لا. فقال الأحنف: فإذن ما هو ذنبنا " (1).

وروي أن عثمان بن حنيف عندما علم برسائل السيدة عائشة إلى وجه أهل البصرة دعا عيران بن حصين وأبا الأسود الدؤلي وقال: انطلقا إلى هذه المرأة، فاعلما علمها وعلم من معها، فخرجا، ودخلا على عائشة بعد أن استأذنا وأذنت وقالوا: إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك. فهل أنت مخيرتنا. فقالت:

أطالب بدم عثمان، فقال أبو الأسود: إنه ليس في البصرة من قتلة عثمان أحد.

قالت: صدقت، ولكنهم مع علي بن أبي طالب في المدينة. وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله. أنغضب لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم؟ فقال: ما أنت من السوط والسيوف إنما أنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم. أمرك أن تؤي في بيتك وتتلي كتاب ربك، وليس على النساء قتال ولا لهن الطلب بالدماء، وإن أمير المؤمنين لأولي بعثمان منك وأحسن رحما، فإنهما أبناء عبد مناف. قالت: لست بمنصرفة حتى أمضي لما قدمت إليه. أفنظن يا أبا الأسود أن أحدا يقدم على قتالي. فقال: أما والله لنقاتلنك قتالا أهونه لشديد. ورجعا إلى عثمان بن حنيف وقال أبو الأسود إنها الحرب فتأهب لها " (2).

ومما سبق يضاف إلى أسباب خروج السيدة عائشة. أن القوم ظنوا أن أحدا لن يجرؤ على قتالها. ويترتب على ذلك أن يقف أمير المؤمنين علي وحده في العواء ومعه قلة لا تغني عنه أمام الكثرة شيئا. وبدأ عثمان بن حنيف يتجهز لصد العوان. وكان يعلم أن للناكثين أعوانا بالبصرة (3). وأقبلت قوات أم المؤمنين،

حتى إذا انتهوا إلى المرقد ودخلوا من أعلاه. أمسكوا ووقفوا حتى خرج ابن حنيف فيمن معه. وخرج إلى السيدة عائشة من أهل البصرة من أراد أن يخرج إليها ويكون معها (1). واصطف الفريقان. وتحدث طلحة فذكر عثمان بن عفان.

ودعا إلى الطلب بدمه. وقال: إن في ذلك إغزاز دين الله عز وجل. وتكلم التوبير بمثل ذلك. وبعد حديثهما انقسم الناس. (2)

فقال البعض: صدقا ووا، وقال البعض الآخر: فحوا وغروا، وقالوا الباطل وأمروا به. قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان " ، وكان من نتيجة هذا الانقسام أن تحاتى الناس وتحاصروا وأرهبوا (3) . وعندئذ تكلمت أم المؤمنين. وكانت جهرية يعلو صوتها كثة كأن صوت امرأة جليلة (4) ، فقالت: كان الناس يتجنون على عثمان بن عفان ويذرون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم، ويرون حسنا من كلامنا في صلاح بينهم. ثم قالت: ألا إن مما ينبغي لا ينبغي لكم غوه. أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله عز وجل " (5) ، وتوتب على بيان السيدة عائشة. افترق أصحاب عثمان بن حنيف أمير علي فرقتين. فرقة قالت: صدقت والله وجاءت والله بالمعروف. وقال الآخرون: كذبتم والله ما نعرف ما تقولون، فتحاتوا وتحاصروا وأرهبوا (6) ... ومال بعضهم إلى عائشة وبقي بعضهم مع عثمان.

وبينما يضوب الناس بعضهم بعضا بالحجارة. أقبل جارية بن قدامة السعدي وقال: يا أم المؤمنين. والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عوضة للسلاح. إنه كان لك من الله ستر وحرمة. فهتكت سترك وأبحت حرمتك. إنه من رأي قتالك فإنه روى قتلك. إن كنت أتيتنا

(1) الطبري 175 / 5.

(2) الطوي 175 / 5.

(3) الطوي 175 / 5.

(4) الطوي 175 / 5 البداية والنهاية 333 / 7.

(5) الطوي 175 / 5 البداية والنهاية 333 / 7.

(6) الطوي 175 / 5 البداية والنهاية 333 / 7.

الصفحة 10

طائفة فرجعي إلى متوك. وإن كنت أتيتنا مستكوهة. فاستعيني بالناس " (1) ، ولكن فوات أم المؤمنين قامت بتنفيذ أمر القتال الأول الذي سمعه أبو الأسود الدؤلي حين بعثه ابن حنيف إلى السيدة عائشة. وهذا الأمر " لست بمنصرفة حتى أمضي لما قدمت إليه (2) ، ودار قتال شديد وكثر عدد القتلى في أصحاب ابن حنيف (3) ، وتدخلت أطراف لإنهاء هذا النزاع ولكن الأمور كانت تجري بسوعة نحو يوم الجمل. ففي نهاية المطاف تم الاستيلاء على البصوة. وأخرجوا عثمان بن حنيف، من قصوه. وروى الطوي: أنهم أرسلوا إلى عائشة يستشيرونها في أمر ابن حنيف فقالت: إقتلوه. فقالت لها امرأة: نشدتك بالله يا أم المؤمنين في عثمان وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت عائشة: احبسوه ولا تقتلوه " (4) .

وأمر مجاشع بن مسعود وكان أحد جنود أم المؤمنين بضوب عثمان ونسف شعر لحيته: فضربوه أربعين سوطا ومنتوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشعار عينيه وحبسوه (5) وخطبت أم المؤمنين: أيها الناس، إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحل به دمه. مصتموه كما يماص الثوب الرخيص. ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه وبايعتم ابن أبي طالب بغير مشورة من الجماعة ابورا وغصبا أتروني أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه. ولا أغضب لعثمان من سيوفكم. ألا إن

عثمان قتل مظلوما فاطلوا قتلته. فإذا ظفوتهم بهم فاقتلوههم. ثم اجعلوا الأمر شورى بين الوهط الذين اختلهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

ولا يدخل فيهم من شوك في دم عثمان " (6).

وهكذا خرج علي بن أبي طالب من الخلافة عند أول خطوة داخل البصرة

(1) الطبري 176 / 5، البداية والنهاية 233 / 7، الكامل 109 / 3.

(2) العقد الفريد 2 / 278، الإمام والسياسة 1 / 57.

(3) الطوي 177 / 5، البداية 333 / 7.

(4) الطوي 178 / 5، البداية والنهاية 233 / 7.

(5) الطوي 178 / 5، البداية والنهاية 233 / 7.

(6) الإمامة والسياسة 64، 65 / 1، ابن أبي الحديد 357 / 3.

الصفحة 11

لأنه عندهم من الذين اشتركوا في دم عثمان. وروى اليعقوبي أنهم بعد استيلائهم على البصرة. انتهوا بيت المال وأخذوا ما فيه. فلما حضر وقت الصلاة تنزع طلحة والزبير وجذب كل منهما صاحبه حتى فات وقت الصلاة. وصاح الناس: الصلاة الصلاة يا أصحاب محمد، فقالت أم المؤمنين رضي الله عنها: يصلي محمد بن طلحة يوما وعبد الله بن الزبير يوما. وروى ابن الأثير: لما بايع أهل البصرة طلحة والزبير قال الزبير: ريد ألف فرس أسير بهم إلى علي بن أبي طالب أقتله بياتا أو صباحا قبل أن يصل إلينا. فلم يجبه أحد. فقال: إن هذه للفتنة التي كنا نحدث عنها. فقال له مولاه: أتسميها فتنة وتقاتل فيها؟ قال:

ويلك إنا نبصر ولا تبصر. ما كان أمر قط إلا وأنا أعلم موضع قدمي فيه. غير هذا الأمر. فإني لا أوري أمقبل أنا فيه أم مدير (1)، وعندما لم يجب الزبير أحد. قال طلحة والزبير: إن قدم علينا علي ونحن على هذا الحال من القلة والضعف ليأخذن بأعناقنا. فأجمعا على مراسلة القبائل واستمالة العرب، فبايعهم. على ذلك الأرد وضبة وقيس غيلان.

وبعث طلحة والزبير إلى أهل الشام بما صنعوا وصلوا إليه وقالوا: " وإنا نناشدكم الله في أنفسكم. ألا نهضتم بمنثل ما نهضنا به " (2)، وكتبت أم المؤمنين إلى أهل الكوفة بما كان منهم وأمرتهم أن يثبطوا الناس عن علي بن أبي طالب وتحثهم على طلب قتلة عثمان وكتبت إلى أهل اليمامة وإلى أهل المدينة بما كان منهم أيضا وسوت الكتب (3) وروى ابن الأثير أن أم المؤمنين بعثت إلى أبي موسى الأشعري بكتاب تأمره فيه بملازمة بيته أو نصوتها (4). وكانت سوة أبي موسى بعد ذلك هي نصوه أم المؤمنين على امتداد الطريق. وكتبت عائشة إلى زيد بن صوحان (5) تقول له: " من عائشة ابنة أبي

بكر أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان. أما بعد: فإذا أتاك كتابي هذا. فأقدم فانصونا على أمرنا هذا.

فإن لم تفعل فخذل الناس عن علي بن أبي طالب " (1) ، فكتب إليها. من زيد بن صوحان إلى عائشة ابنة أبي بكر حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما بعد. فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلى بيتك. وإلا فأنا أول من نابذك، وقال زيد رضي الله عنه: "رحم الله أم المؤمنين أموت أن تؤرم بيتها.

وأمرنا أن نقاتل فتركنا ما أمرت به وأموتنا به. وصنعت ما أمرنا به ونهتتنا عنه " (2) .

وروى ابن كثير أن أبا موسى وهو يثبط الناس عن علي. قام زيد بن صوحان وقال للناس: أيها الناس سيروا إلى أمير

المؤمنين وسيد المسلمين.

سيروا إليه أجمعين " (3) ، وإذا سبقنا الأحداث بخطوتين سنجد زيدا على أرض معوكة الجمل شهيدا. وروي عنه أنه قال: لا تتروعا عني ثوبا ولا تغسلوا عني دما فإني رجل مخاصم " (4) .

2 - مسير الإمام علي:

لم يترك الإمام طويقا إلا أقام فيه حجة على القوم، فلقد بعث إليهم بالوسائل وبأصحابه وطالب بالتحكيم بينه وبينهم بواسطة أطراف تخلفت عنه وعنهم. ولكن القوم أخوا إلا المضي في طريقهم الذي خرجوا من أجله. فعندما علم الإمام بهياج المعرضين من مكة وجاءته رسالة من أم المؤمنين أم سلمة وفيها: أما بعد فإن طلحة والظبير وأشياعهم. أشياع الضلالة يريدون أن يخرجوا بعائشة ومعهم عبد الله بن عامر. يذكرون أن عثمان قتل مظلوما والله كافيهم

بحوله وقوته. ولولا ما نهانا الله عن الخروج وأنت لم ترض به. لم أدع الخروج إليك والنصرة لك. ولكنني باعثة إليك بابني

وهو عدل نفسي عمر بن سلمة، يشهد شاهدك فاستوص به يا أمير المؤمنين خوا " . وكانت عائشة قد كتبت إلى أم المؤمنين أم سلمة تريد. منها الخروج للطلب بدم عثمان. ولكن أم سلمة وعظمتها موعظة بليغة رواها ابن قتيبة في كتابه غريب الحديث فقالت: إن عمود الإسلام لا يثأب بالنساء. ولا وأب بهن إن صدع... ما كنت قائلة لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضك في بعض هذه الفلوات... والله لو سوت سيرك هذا ثم قيل لي ادخلي الفدوس. لاستحييت أن ألقى محمدا هاتكة حجابا ضوبه علي " .

وروي أن الإمام خطب يومئذ فقال: إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله. فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم. فقام أبو قتادة الأنصلي وقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلدني هذا السيف وقد أغمدته زمانا. وقد حان تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة غشا " (2) ، وتحرك الإمام من المدينة إلى الوبذة فأقام فيها أياما بمن معه من قوات. وفي أثناء مسوه بعث إلى أهل الكوفة وغوهم. للإصلاح فقال: " أما بعد فإني خرجت من حيي هذا إما ظالما وإما مظلوما وإما باغيا وإما مبغيا عليه.

وإني أذكر الله من بلغه كتابي هذا. لما نفر إلى. فإن كنت محسنا أعانني وإن كنت مسيئا استعطني " (3) إنه صوت الحجة - فالإمام يخاطب الحاضر وفقا لما يعلم عن المستقبل الذي كشف عنه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه عز وجل. والإمام يخبر الحاضر قبل أن يأتي المستقبل وهذا عين العدل في الشريعة الغواء وروي أنه كتب إلى الأمصار لما قدم إلى الوبذة؟ كونوا لدين الله أعوانا وأنصرا وأيدونا وانفضوا إلينا فالإصلاح ما نريد لتعود الأمة

(1) الطبري 5 / 167 ، الكامل 3 / 113 ، الحاكم (المستدرک 119 / 3) ابن أبي الحديد 2 / 411 .

(2) الكامل 113 / 3 ، الطوي 167 / 5 .

(3) ابن أبي الحديد.

إخوانا. ومن أحب ذلك وآؤه فقد أحب الحق وآؤه، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمضه " ، وقال: " لقد أصيب هذا الرجل .. يعني عثمان - بأيدي هؤلاء القوم. الذين زعمهم الشيطان ليؤغ بين هذه الأمة. ألا إن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افتوتت الأمم قبلهم فنعوذ بالله من شر ما هو كائن " ، ثم قال: " إنه لا بد مما هو كائن أن يكون. ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة. وشوها فرقة تنتحلني ولا تعمل بعلمي. فقد أركتم ورأيتم. فالزموا دينكم واهنوا بهدي نبيكم صلى الله عليه وسلم. واتبعوا سنته. واعرضوا ما أشكل عليكم على القوان. فما عرفه القوان فالزموه وما أنكوه فزوه. ورضوا بالله جل وعز ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقوان حكما وإماما " (1) - فالإمام كان يتحرك تحرك الدعوة، يخاطب الحاضر زاد الماضي الطاهر المطهر. ليعبر الحاضر إلى المستقبل في أمان، وفي علم الله المطلق أن كل حاضر فيه غناء لا يسمع ولا يبصر - وهذا الغناء يسير زاد الآباء والأهواء، لذا فهو عدو لكل حاضر ولكل مستقبل فيه من الله وهان، وهنا كانت الحجة مهمة يقوم بها الهداة إلى الله حتى لا يكون للغناء على الله حجة يوم لا ينفع مال ولا بنون. وروي أن الإمام

عندما بعث إلى الأمصار للإصلاح. كتب أيضا إلى طلحة والزبير وأرسل كتابه مع عروان بن حصين وفيه: أما بعد: فقد علمتما وإن كنتمما أني لم أرد الناس حتى رأوني. ولم أبايعهم حتى بايعوني. وإنكما ممن رأوني وبايعني، وإن العامة لم تبايعني لسلطان غالب. ولا لحوص حاضر. فإن كنتمما بايعتماني طائعين فرجعا وتوبا إلى الله من قريب. وإن كنتمما بايعتماني كل هين. فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسوركما المعصية.

ولعوي ما كنتمما بأحق المهاجرين بالنقية والكتمان، وإن دفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلتما فيه. كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به.

وقدر عمتما أني قتلت عثمان. فبيني وبينكما من تخلف عني وعنكما من أهل

(1) الطبري 185 / 5، الكامل 115 / 3.

الصفحة 15

المدينة. ثم يؤرم كل امرئ بقدر ما احتمل. فرجعا أيها الشيخان عن رأيكما. فإن الآن أعظم أمركما بالعار. من قبل أن يجتمع العار والنار. والسلام " (1)

وبينما الإمام يبعث برسائله، علم وهو في الوبدة بما حدث لعامله عثمان بن حنيفة في البصرة وبالقتلى الذين قتلوا ظلما وعدوانا (2)، كما علم أن أبا موسى الأشعري يثبط الناس عنه بالكوفة. وتحرك الإمام إلى ذي قار، يقول ابن عباس عندما دخل عليه: فأتيته فوجدته يخصف نعلا (3). فقلت له: نحن إلى أن تصلح من أمورنا أوج منا إلى ما تصنع. فلم يكلمني حتى فوغ من نعله. ثم ضمها إلى صاحبته وقال لي: قومهما. فقلت: ليس لهما قيمة، قال:

ذاك! قلت: كسر وهمه، قال: والله أيهما أحب إلى من أمركم هذا إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلا. ثم خرج فخطب الناس

فقال:

إن الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم، وليس أحد من العرب يقوأ كتابا، ولا يدعي نوة. فساق الناس حتى بوأهم محلثهم (4) وبلغهم منجاتهم. فاستقامت قناتهم (5). واطمأنت صفاتهم (6). أما والله إن كنت لفي ساقتهما. حتى تولت بحذافرها. ما عجزت ولا جنبنت وإن مسوي هذا لمتلها.

فلأنقين الباطل حتى يخرج الحق من جنبه. ما لي ولقويش! والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنهم مفتونين، وإني لصاحبهم بالأمس. كما أنا صاحبهم اليوم والله ما تتقم منا قريش إلا أن الله اخترنا عليهم. فأدخلناهم في حيزنا " (7).

فالإمام في كلامه. كأنه جعل الباطل كشيء قد اشتمل على الحق. واحقوى عليه. وصار الحق في طيه. كالشيء الكامن

المستتر فيه. فأقسم لينقين ذلك.

(1) ابن أبي الحديد 95 / 5.

(2) الطوي 186 / 5.

(3) يخصف بغله / أي يخزرها.

(4) أي أسكنهم متزلهم، أي ضوب الناس على الإسلام حتى أوصلهم إليه.

(5) أي كانت قناتهم معوجة فاستقامت.

(6) أي كانت تزوله فاستوتت.

(7) ابن أبي الحديد 404 / 1.

الصفحة 16

الباطل إلى أن يخرج الحق من جنبه. ثم قال: ما لي ولقويش، ولم يقل: ما لي وطلحة والزيبير. وذلك لأن الإمام ينظر إلى مساحة طويلة وعريضة. بصفته خبير بمعرفة الرجال، ثم أخبر عن هذه المساحة الطويلة العريضة فقال: لقد قاتلتهم كافرين. ثم قال خاصف النعل الأول. أي نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولأقاتلتهم مفتونين. يقول ابن أبي الحديد: لأن الباقي على الإمام مفتون فاسق⁽¹⁾. ثم ربط الإمام بين ماضي المساحة وحاضرها برباط واحد، فقال: وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم، ثم اختصر أسباب الزاع كله فقال: والله ما تنتقم منا قريش إلا أن الله اختلنا عليهم. فأدخلناهم في حزننا. هكذا تحدث الإمام بعد إن خصف نعله.

وروي أن الإمام علي بعث إلى أبي موسى بعد أن علم خوه. أنه اختار الكوفة للتزول بين أظهرهم. وإنه اختلهم على الأمصار. لأنهم أشد الناس حبا له. فلما دخل مبعوثا علي قال أبو موسى: أما والله إن بيعة عثمان بن عفان في عنقي وعنق صاحبكما الذي رسلكما. إن أردنا أن نقاتل لا نقاتل حتى لا يبقى أحد من قتلة عثمان إلا قتل حيث كان⁽²⁾، فانطلق المبعوثان إلى علي بن أبي طالب بذي قار وأخواه الخبر⁽³⁾، فرسل الإمام علي مبعوثا آخر هو عبد الله بن عباس ومعه الأشر⁽⁴⁾، وعندما لم تغلح هذه المحاولة أيضا مع أبي موسى.

بعث الإمام بالحسن بن علي وعمار بن ياسر، وروى ابن الأثير. أن عبد الخير الحيواني قال: يا أبا موسى. هل بايع طلحة والزيبير؟ قال: نعم، قال: هل أحدث علي بن أبي طالب ما يحل به نقض بيعته. قال: لا أوري، فقال: لا تربت، نحن نتركك حتى توري، هل تعلم أحدا خرجا من هذه الفتنة، إنما الناس رُبع فوق، علي بظهر الكوفة، وطلحة والزيبير بالبصرة. ومعاوية بالشام، وفوقه بالحجاز لا غناء بها ولا يقاتل بها عدو، قال أبو موسى: أولئك خير

(1) ابن أبي الحديد 405 / 1.

(2) الطوي 184 / 5.

(3) الطوي 187 / 1.

(4) الطوي 187 / 5.

الصفحة 17

(1) الناس وهي فتنة. فقال عبد الخير: غلب عليك غشك يا أبا موسى " .

وعندما قدم الحسن بن علي وعمار بن ياسر إلى الكوفة. صعدا المنبر فكان الحسن فوق المنبر في أعلاه وقام عمار أسفل من الحسن (2) ، قال في فتح البلي: فقال الحسن: إن عليا يقول: إني أذكركم الله رجلا رعي الله حقا إلا نفر فإن كنت مظلوما أعانني، وإن كنت ظالما خذني. والله إن طلحة والزبير لأول من بايعني ثم نكثا. ولم أستأثر بمال. ولا بدلت حكما (3) ، والبخري لم يرو شيئا من كلمة الحسن. علما بأنه ذكر أن الحسن كان في أعلى المنبر. وروى البخري ما قاله عمار. فقال: قال عمار: إن عائشة قد سرت إلى البصرة ووالله إنها لزوجبة نبيكم في الدنيا والآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي (4) ، وقال في فتح البلي: قال بعض الشراح: الضمير في إياه.

لعلي بن أبي طالب، والظاهر خلافه وأنه لله تعالى (5) ، وأقول: إن الكتاب وأهل البيت في حبل واحد كما روى مسلم وغيره. وروي أن أبا موسى قال لعمار: يا أبا اليقظان أعذت فيمن عدا على عثمان أمير المؤمنين فأحللت نفسك مع الفجار. فقال عمار: لم أفعل ولم يسوءني (6) ، قال الحسن: يا أبا موسى لم تثبط الناس عنا. فوالله ما أردنا إلا الإصلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء. فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي والماشي خير من الراكب فقال عمار: يا أيها الناس. إنما قال له خاصة: أنت فيها قاعدا خير منك قائما. فقام رجل فقال لعمار: اسكت أيها العبد أنت أمس مع الغوغاء واليوم تسافه أميرنا. وثار زيد بن صوحان وطبقته وثار

(1) الكامل 117 / 3، الطبري 190 / 5.

(2) البخري (الصحيح 229 / 4) أحمد (الفتح الرباني 140 / 23).

(3) رواه أبو يعلى (فتح البلي 58 / 13).

(4) البخري ك الفتنة (الصحيح 229 / 4) أحمد (الفتح الرباني 140 / 23).

(5) فتح البلي / ابن حجر 58 / 13.

(6) الطوي 187 / 5 ، البداية والنهاية 236 / 7.

الصفحة 18

(1) الناس "

ثم ألقى زيد بالمفاجأة. جاء ومعه كتابان من عائشة إلى أهل الكوفة كتاب للخاصة وآخر للعامة وفيهما: أما بعد فثبطوا أيها الناس واجلسوا في بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان. فلما فرغ زيد من قراءة الكتاب في المسجد قال: أموت بأمر وأمرنا بأمر. أموت أن تقر في بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة.

فأمرتنا بما أموت به. وركبت ما أمرنا به (2) . وبعد أن فرغ زيد من كلامه. انقسم الناس. فريق هنا وفريق هناك. وقام الحسن بن علي فقال: أيها الناس أجيئوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم. فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولو النهى. أمثل في العاجلة وخير في العاقبة. فأجيئوا دعوتنا. وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم (3) ، وقام حجر بن عدي فقال: أيها الناس أجيئوا أمير المؤمنين. وانفروا خفافا وثقالا. وأنا أولكم (4) ، وقام زيد بن صوحان وقال:

أيها الناس. سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين. سيروا إليه أجمعين " (5).

ثم جاءت المفاجأة الأخرى على يد عمار بن ياسر، قال عمار: يا أبا موسى أنشدك الله. ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، وأنا سائلك عن حديث. فإن صدقت وإلا بعثت عليك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من يقررك به.

أنشدك الله. أليس إنما عنك رسول الله أنت نفسك فقال: إنها ستكون فتنة بين أمتي أنت يا أبا موسى فيه نائما خير منك قاعدا. وقاعدا خير منك قائما. وقائما خير منك ماشيا. فخصك رسول الله ولم يعم الناس. فخرج أبو موسى ولم يرد عليه شيئا " (6)، وعن أبي نداء قال: كنت جالسا مع عمار، فجاء أبو موسى

(1) الطبري 188 / 5.

(2) الطوي 188 / 5.

(3) الطوي 189 / 5، الكامل 118 / 3.

(4) الطوي 189 / 5، البداية والنهاية 237 / 7.

(5) البداية والنهاية 237 / 7.

(6) رواه ابن عساکر (كنز العمال 274 / 11)، وأبو يعلى (كنز 246 / 7) وحديث الفتنة التي

الصفحة 19

قال: ما لي وما لك، ألسنت أخاك. فقال عمار: ما أوري ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلعنك ليلة الجبل!! قال أبو موسى: قد استغفر لي.

فقال عمار: قد شهدت اللعن ولم أشهد الاستغفار (1)، وإذا أخذنا خطوتين إلى الإمام نحو الأحداث. نجد أن الإمام عليا كان

يرفض اشتراك أبي موسى في التحكيم بعد صفين (2). ولكن القوم أصروا على اشتراكه. فقال الإمام: إنه ليس لي بتقة قد

فرقني. وخذل الناس عني ثم هرب مني (3). وعندما أصروا قال الإمام: لقد كنت بالأمس أمورا. فأصبحت اليوم مأمورا.

وكنت بالأمس ناهيا فأصبحت اليوم منهيها. وسيأتي هذا في موضعه.

وروي أن أبا موسى لم يكف عن تثبيط الناس. فبعث الإمام علي قوطة بن كعب الأنصلي أمورا على الكوفة. وكتب معه

إلى أبي موسى: إني قد بعثت الحسن وعمرا يستنوان الناس. وبعثت قوطة بن كعب واليا على الكوفة. فاعتزل عملنا مذموما

مدحورا. وإن لم تفعل فإني قد أموته أن يباذلك. فإن نابذته فظفر بك يقطعك ربا ربا (4) ثم بعث الأشتر فجاء وكان لا يمر

بقبيلة فيها جماعة إلا دعاهم ويقول:

اتبعوني إلى القصر. فانتهي إلى القصر في جماعة من الناس فدخله. وأخرج الأشتر غلمان أبي موسى من القصر. فخرجوا

ينادون: يا أبا موسى هذا الأشتر قد دخل القصر. فضربنا وأخرجنا. فتول أبو موسى فدخل القصر. فصاح به الأشتر: أخرج

لا أم لك. أخرج الله نفسك. فقال: أجلني هذه العشية، فقال: هي لك (5) فلما قدم الكتاب على أبي موسى اعتزل (6) واستجاب

= يكون فيها القاعد خبير من القائم رواه أبو داوود حديث 4262 ولكنه لم يخص فيه أبو موسى.

(1) رواه ابن عساكر (كنز العمال 608 / 13).

(2) الطوي 28 / 6 ، مروج الذهب 406 / 2.

(3) الطوي 28 / 6.

(4) الكامل 133 / 3.

(5) الكامل 118 / 3 ، البداية 237 / 7.

(6) الكامل 133 / 3.

الصفحة 20

(1)

الناس للنفير .

وروي عن زيد بن علي عن ابن عباس قال: لما تولنا مع علي ذي قار، قلت: يا أمير المؤمنين ما أقل من يأتيك من أهل الكوفة فيما أظن. فقال: والله ليأتيني منهم ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً. لا يزيدون ولا ينقصون. قال ابن عباس: فدخلني والله من ذلك شك شديد في قوله. وقلت في نفسي: والله إن قدموا لأعدنهم. وروى ابن إسحاق عن عمه بن يسار قال: نفر إلى علي إلى ذي قار من الكوفة في البحر والبر ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً حتى سمع صهيل الخيل وشحیح البغال حوله - فلما سار بهم منقلة⁽²⁾ قال ابن عباس:

والله لأعدنهم فإن كانوا كما قال: وإلا أتممتهم من غورهم. فإن الناس قد كانوا سمعوا قوله: قال: فعرضتهم فوالله ما وجدتهم يزيدون رجلاً ولا ينقصون رجلاً.

فقلت: الله أكبر. صدق الله ورسوله. ثم سونا⁽³⁾ ، وقبل أن يأخذ الإمام على الخطوة التالية بعث عبد الله بن عباس وزيد بن صوحان إلى عائشة وقال لهما:

إذهبا إلى عائشة وقلوا لها إن الله أمرك أن توي في بيتك وألا تخرجني منه.

وإنك لتعلمين ذلك، غير أن جماعة قد أغروك فخرجت من بيتك. فوقع الناس لاتفاقك معهم في البلاء والعناء. وخير لك أن تعودني إلى بيتك. ولا تحومي حول الخصام والقتال. وإن لم تعودني ولم تطفئي هذه الناوة فإنها سوف يعقب القتال. ويقتل فيها خلق كثير. فاتقي الله يا عائشة وتوبي إلى الله فإن الله يقبل التوبة من عباده ويعفو. وإياك أن يدفعك حب عبد الله بن الزبير وقوابة طلحة إلى أمر تعقبه النار. فجاء إلى عائشة وبلغا رسالة علي إليها. فقالت: إنني لا أرد علي بن أبي طالب بالكلام لأنني لا أبلغه في الحجاج. فوجعا إليه وأخواه بما قالت⁽⁴⁾ ، ثم بعث عبد الله بن عباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب ليستفيئه إلى

(1) البداية والنهاية 237 / 7.

(2) مرحلة السفر.

(3) ابن أبي الحديد 406 / 1 ، البداية والنهاية وقال ابن كثير رواه الطواني 212 / 6.

(4) تزيخ ابن أعثم ص 175.

الصفحة 21

(1) وقال له: " لا تلقين طلحة. فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصا قونه (2) .
يركب الصعب (3) ويقول: هو الذلول، ولكن الق الزبير فإنه ألين عويكة (4) فقل له: يقول لك ابن خالك. عوفتي بالحجاز
وأنكوتتي بالواق. فما عدا مما بدا " (5) .

ورجع رسل الإمام يؤنونه بالحرب، فقام فحمد الله وأنتي عليه وصلى على رسول الله ثم قال: أيها الناس إني راقبت هؤلاء
القوم كي رعووا أن يرجعوا ووبختهم بنكثهم. وعوفتهم بغيهم فلم يستحيوا. وقد بعثوا إلى أن أبرز للطعان.
وأصبر للجلاد. وإنما تمنيك نفسك أمانى الباطل. وتعذك الغور. ألا هبلتهم.
الهبول. لقد كنت وما أهدد بالحرب. ولا أُرهب بالضوب. ولقد أنصف القرة من رماها فلو عونا وليبروا. فقدر أوني
قديما. وعرفوا نكايتي. فكيف رأوني.

أنا أبو الحسن. الذي فللت حد المشركين. وفوقت جماعتهم. وبذلك القلب ألقى عوي اليوم. وإني لعلى ما وعدني ربي من
النصر والتأييد. وعلى يقين من أموي. وفي غير شبهة من ديني أيها الناس. إن الموت لا يفوته المقيم. ولا يعجزه الهرب.
ليس عن الموت محيدولا محيص. من لم يقتل. مات، إن أفضل الموت القتل. والذي نفس علي بيده لألف ضوبة بالسيف
أهون من موتة واحدة على الفواش. الله إن طلحة نكث بيعتي وألب على عثمان حتى قتله. ثم عضهني (6) به ورماني. اللهم
فلا تمهله. اللهم إن الزبير قطع رحمي ونكث بيعتي، وظاهر علي عوي. فاكفينه اليوم بما شئت... ثم قول (7) .

(1) ليستفيئه / أي يسترجعه.

(2) عاقصا قونه / أي قد القى قونه على أذنيه.

(3) يركب الصعب / أي يستهين بالمستصعب من الأمور.

(4) العويكة / أي الطبيعة.

(5) ابن أبي الحديد 388 / 1.

(6) عضه / قال فيه ما لم يكن.

(7) ابن أبي الحديد 247 / 1.

الصفحة 22

3 - على أعتاب الحرب:

واجه الإمام علي صعوبات كثرة على طريق الحرب وكان تقادي هذه الصعوبات ليس بالأمر اليسير. فهي ستور بين أهل

القبلة وفي كل طرف من الأطراف يوجد رجال من أهل بدر. وعلى رأس هذه الأطراف أعلام لا يمكن تجاهلها. والحرب ستدور بعد أن غاب عن ذهن الغالب الأعم أحاديث كثرة كان النبي صلى الله عليه وسلم يحذر فيها من أمور ويسمى فيها رؤوس الفتن بأسمائهم وأسماء آبائهم كما في حديث حذيفة وغوه. وعندما أمر الإمام برواية الحديث لم يعط الوقت الكافي لغلبة هذه الأحاديث وبيان مقاصد الصحيح منها. فعندما أصبحت الحرب على الأبواب ظهرت أحاديث الاعتراف والتماس سيوف من خشب والقائل والمقتول في النار. وأحاديث في أعماقها سلب مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كي تصبح الأمة بلا مهمة وتمهد الطريق لأغليمة قريش، وكان الإمام علي وسط هذه الأمواج المتلاطمة حجة بذاته ومن حوله نجوم ساطعة كعمار وزيد وحذيفة وغوهم، وفي هؤلاء نصوص من النبي صلى الله عليه وسلم تدعو للالتفاف حول علي. وعلى الرغم من هذا فإن الإنسان هو الإنسان. فالإنسان الذي ارتدى ثياب النفاق بينما كان الوحي يقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من السهل عليه أن يشق طريقه في عهد ما بعد النبي وإن كان في هذه العهود من هو خبير بمعرفة الرجال، ولأن الساحة بها الحق والباطل وبها باطل ابتلع الحق في بطنه ليتكلم على لسانه. كان الإمام علي يحشد الناس من حوله متفاديا لكل جدل عقيم يكون في صالح التيارات المعادية. كان يسأل فيجب إجابة الخبير، وكان يعرض عن كل إنسان لا يريد أن ينتظم في جيشه. وذلك لأنه يعرف نتيجة الحرب مقدما وفقا لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يخبره. ومن كان هذا شأنه فهو في دائرة الحجة وليس في دائرة الحشد من أجل الأموال والغنائم. ونحن هنا سنلقي ضوءا على بعض ما كان يجري على أعتاب الحرب، لئلا نرى حجم الصعوبات التي كان الإمام يواجهها وهو يأخذ بالأسباب ليصل إلى نتيجة وهو يعرفها مقدما. وكان يسير في اتجاهها على الرغم من معرفته أنه مقتول في نهاية طريقها. لأنه كان

الصفحة 23

يعلم أن الاختبار سنة إلهية جلية، وأن جيله يختبر بأحداث يمثل الإمام نفسه الحق فيها، وأن نتائج هذه الأحداث سوف تمتد إلى أجيال قادمة.

وأول ضوء نلقيه هنا سيكون على ما برز من طروحات فكرية في هذه الآونة، روي أن الحارث الليثي دخل على أمير المؤمنين فقال: يا أمير المؤمنين.

أي فتنة أعظم من هذه، إن أصحاب بدر يمشون بعضهم إلى بعض بالسيف، فقال الإمام: ويحك أتكون فتنة أنا أموها وقائدها. والذي بعث محمدا بالحق وكرم وجهه. ما كذبت ولا كذبت. ولا ضللت ولا ضل بي. ولا زلت ولا زل بي. وإني لعلى بيعة من ربي. بينها الله لرسوله. وبينها رسوله لي. وسأدعى يوم القيامة ولا ذنب لي. ولو كان لي ذنب لكفر عني ذنوبي ما أنا فيه من قتالهم " (1)

وروي أن الإمام خطب الناس فقال عن الفتن: إنما بدء وقرع الفتن أهواء تتبع. وأحكام تبندع. يخالف فيها كتاب الله. ويتولى عليها رجال رجالا... " (2)، وذكر ابن أبي الحديد: إن الإمام تكلم عن الفتنة. فقال:

" عليكم بكتاب الله " أي إذا وقع الأمر واختلط الناس. فعليكم بكتاب الله. وقد قام إليه من سأله عن الفتنة فقال: أخونا عن

الفتنة وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وقد روى كثير من المحدثين عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: إن الله قد كتب عليك جهاد المفتونين. كما كتب علي جهاد المشركين. فقال علي: يا رسول الله. ما هذه الفتنة التي كتب علي فيها الجهاد؟ قال: قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. وهم مخالفون للسنة. فقلت: يا رسول الله، فعلام أقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد؟

قال: علي الإحداث في الدين. ومخالفة الأمر. فقلت: يا رسول الله. إنك كنت وعدتني الشهادة. فأسأل أن يجعلها لي بين يديك. قال: فمن يقاتل الناكثين

(1) ابن أبي الحديد.

(2) ابن أبي الحديد 667 / 1.

الصفحة 24

والقاسطين والملقين. أما إنني وعدتك الشهادة وتستشهد. تضوب على هذه. يعني رأسك. فتخضب هذه - يعني لحيتك. فكيف صورك إذن؟ قلت: يا رسول الله ليس ذا بموطن صبر. هذا موطن شكر. قال: أجل. فأعد للخصومة فإنك مخاصم. فقلت: يا رسول الله. لو بينت لي قليلا. فقال: إن أمتي سنتفتن من بعدي. فتتأول القوآن وتعمل بالوأي. وتستحل الخمر بالنبيذ. والسحت بالهدية. والوبا بالبيع... فكن جليس بيتك حتى تقلدها. فإذا قلدها جاشت عليك الصدور. وقلبت لك الأمور. تقاثل حينئذ على تأويل القوآن. كما قاتلت على تزييله... فقلت يا رسول الله: فبأي المنزل أتزل هؤلاء المفتونين من بعدك أبتولة فتنة أم بمتولة ردة؟ فقال: بمتولة فتنة يعمهون فيها إلى أن يبركهم العدل. فقلت: يا رسول الله. أيركهم العدل منا أم من غيرنا؟ قال: بل منا. بنا فتح الله وبنا يختم. وبنا ألف الله القلوب بعد الشرك. وبنا يؤلف بين القلوب بعد الفتنة " (1).

وقتل المفتونين وشدته وضع في داوة الدهن. وكان أبو ذر رضي الله عنه يحدث به. قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، "والذي نفسي بيده.

إن فيكم لرجال يقاتل الناس من بعدي على تأويل القوآن كما قاتلت المشركين على تزييله. وهم يشهدون أن لا إله إلا الله. فيكبر قتلهم على الناس. حتى يطعنون على ولي الله ويسخطون عمله كما سخط موسى أمر السفينة والغلام والجدار. فكان ذلك كله رضي الله تعالى " (2)، ورغم أن أبا ذر كان يحدث بقتال المفتونين قبل أن يأتي زمانه. إلا أن زمانه عندما جاء، قال من قال: يا أمير المؤمنين أي فتنة أعظم من هذه. ولقد رأينا كيف أجاب الإمام على هذا. ولم تكن هذه العقبة الوحيدة التي راحها الإمام. وإنما كانت هناك عقبات وعقبات وأجابتها ثقافات متعددة، وروي أن الحرث بن حوط الليثي دخل على أمير المؤمنين. فقال: يا أمير المؤمنين ما رأي طلحة والزبير وعائشة: أضحوا إلا

(1) ابن أبي الحديد 277 / 3، ورواه وكيع (كنز المال 183 / 16).

على الحق، والحلث ما قال ذلك إلا من يريق العناوين التي يحملها هؤلاء.
ولكن الإمام في إجابته أخذ الحلث بعيدا عن اليريق والخرق. فقال: يا حلث. إنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك: إن الحق والباطل لا يعرفان بالناس. ولكن إعرف الحق باتباع من اتبعه. والباطل باجتتاب من اجتنبه ⁽¹⁾.
وعلق الغوالي في كتابه المنقذ من الضلال على هذا القول فقال: العاقل من يقتدي بسيد العقلاء علي كرم الله وجهه حيث قال: " لا يعرف الحق بالرجال إعرف الحق تعرف أهله ".
وإذا كانت هناك عقبات فكرية قد واجهت الإمام. فلقد رأينا كيف تعامل الإمام مع أصحاب هذا الفكر بالمنطق وإقامة الحججة. وبنفس المنطق واجه الإمام العقبات التي واجهته عند التعبئة العامة قبل الحرب، وكما ذكرنا أن بعض الأحاديث قد ظهرت على السطح ويكمن فيها الاعتوال في غير موضعه. ومن هذه الأحاديث ما روي عن الأحنف أنه قال: خرجت وأنا أريد نصر ابن عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيني أبو بكر فقال: يا أحنف رجعت فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. فقلت: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه قد راد قتل صاحبه " ⁽²⁾ ، يقول سعيد حوي وهو يعقب على هذا الحديث: إن القتال مع علي بن أبي طالب كان حقا وصوابا. ولكن أبو بكر حمل حديثا ورد في غير الحالة التي قاتل فيها علي. على حالة قتال علي للباغين. وهو فهم من أبي بكر. ولكنه فهم في غير محله. ومن هذه الروايات نذكر أن عقبات متعددة واجهت عليا في معركته مع الآخرين. منها أمثال هذه الفقوى التي هي أثر من الورع أكثر منها أثر عند فقوى تصيب محلها " ⁽³⁾.
وورد عن الإمام علي قد حدث الناس أن يعقلوا الخبر فقال: " إعقلوا الخبر

(1) البيان والتبيين / الجاحظ 112 / 2، تاريخ يعقوبي 152 / 2.

(2) رواه مسلم (الصحيح 11 / 18).

(3) الأساس في السنة 1711 / 4.

إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية. فإن رواية العلم كثير ورعته قليل " ⁽¹⁾.
وقال: " ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة " ⁽²⁾ ، وروي أنه لما بلغه حديث أبو بكر قال: القاتل والمقتول منهم... ونحن إذا نظرنا في جانب آخر.
نجد أن أبا بكر كان يوجه أن أهل الجمل لن يفلحوا. ووفقا على توجيهه هذا حدد خطوات نفسه. ولم يحدد خطواته على حديث القاتل والمقتول في النار.
روى البخاري عنه أنه قال: " لقد نفعني الله بكلمة أيام الجمل لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن فرسا ملكوا ابنة كسرى

قال: " لن يفلح قوم ولوا.

أمهم امرأة" (3) ، وقال في فتح البلري: زاد الإسماعيلي عن طويق عوف " قال أبو بكوة: فعرفت أن أصحاب الجمل لن يفلحوا "، ونقل ابن بطلال عن المهلب أن ظاهر حديث أبي بكوة يؤهم توهين رأي عائشة فيما فعلت (4) ، وروى الترمذي أن أبا بكوة بعد أن ساق الحديث قال: " فلما قدمت عائشة ذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فعصمني الله " (5) .

مما سبق نعلم أن أبا بكوة كان يرجح أن الهزيمة ستصب على أهل الجمل. لكنه قال لمن أراد أن يلتحق بجيش علي " القاتل والمقتول في النار " وهذا من خوفه على الأحنف من شدة القتال. وترتب على هذا اعتزال الأحنف بأتباعه وكان معه زهاء ستة آلاف مقاتل (6) . وفي موقف آخر التبتت فيها الأمور عند عملية حشد القوات. روي أن الإمام علي ذهب إلى لاهيان بن

صيفي. وكان له صحبة. فقام الإمام علي باب حجرته وقال له: كيف أنت يا أبا مسلم. قال:

بخير. فقال الإمام: ألا تخرج معي إلى هؤلاء القوم فتعينني. قال: إن خليتي عليه الصلاة والسلام وابن عمك. عهد إلى إذا

كانت فتنة بين المسلمين أن اتخذ

(1) ابن أبي الحديد 374 / 5 .

(2) ابن أبي الحديد 449 / 5 .

(3) البخاري ك الفتن (الصحيح 228 / 4) .

(4) فتح البلري 56 / 13 .

(5) الترمذي وصححه (الجامع 528 / 4) ، والحاكم وأوه الذهبي (المستدرک 119 / 3) .

(6) الكامل 122 / 3 ، الطوي 198 / 5) .



(1) سيفاً من خشب، فهذا سيفي فإن شئت خرجت به معك، فقال الإمام: لا حاجة لنا فيك ولا في سيفك. ورجع من باب الحوة ولم يدخل "

لقد رجع الإمام نون أن يوجه أي اتهام إلى أن أحد. فكما ذكرنا أن المقام مقام حجة، والاختيار مفقوح. وهو يأخذ بالأسباب ويكدح من أجل نهاية سيقتل عندها. والله يفعل ما يريد. ليبتلّي الحاضرين وينظر كيف يعملون ويبتلّي الذين من بعدهم في موافقهم من هذه الأحداث. والإمام قبل اتخاذه قرار الحرب في جميع معركه. كان يشاور ثم يضع الجميع أمام قوله وفي قوله لا تجد إلا مصلحة الدعوة فعن طلق بن شهاب قال: رأيت علياً عليه رحل رث بالربذة وهو يقول للحسن والحسين: ما لكما تحنان حنين الجلية. والله لقد ضربت هذا الأمر ظهراً لبطن. فما وجدت بدا من قتال القوم أو الكفر بما أتول على محمد (2) ، إن الإمام إذ أرفض القتال فلا معنى لعهد النبي له بقتال الناكثين والفاسقين والملقين. لذا فهو يخوض الصعب. ولا يخوض الصعب أحد سواه.

وعلى طريق الصعب كان يخفف عن اتباعه فيخوهم قبل كل معركة خاضها بنتيجتها وأهم معالمها. قال ذلك يوم الجمل وأيام صفين وفي قتال الخورج.

وروي عن ابن عباس قال: لما بلغ أصحاب علي حين سلروا إلى البصرة. أن أهل البصرة وليقتلن طلحة والزبير. وليخرجن إليكم من الكوفة ستة آلاف وخمسمائة رجلاً... (3) ، ولقد تحدثنا من قبل أن ابن عباس وجد أن العدد كما ذكر الإمام وذلك لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخوه.

والخلاصة: أن مجمل الصعوبات التي واجهت الإمام كانت نتيجة لعدم الرواية بعدرسول الله. فهناك أحاديث تحذير فيها أسماء رؤوس الفتن كل ذلك على امتداد ربع قرن كان قد ضاع من ذاكرة البعض أو تناسوه كما في حديث حذيفة. ومن الأسباب أيضاً تعدد مصادر الفوى ومنها من لا يصل بالإنسان إلى حقيقة.

(1) رواه أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه ونعيم ابن حماد وأورده ابن حجر في الإصابة وابن كثير في البداية (الفتح الرباني 138 / 23)، (جامع الترمذي 4 / 490).

(2) رواه الحاكم (المستدرک 3 / 115)، (كنز العمال 11 / 349).

(3) رواه الطواني، وابن كثير في البداية (البداية 6 / 212).

4 - الحرب:

فشلت جميع محاولات أمير المؤمنين لتجنب القتال وأبى الناكثون إلا المواجهة. وكان الأحنف بن قيس عندما سمع ومن معه فوى أبي بكر قد اعتزل القتال. وأعلن هذا أمام معسكر أمير المؤمنين. وعلى الرغم من هذا إلا أن وجد أن الأحنف كان مع علي. فرسل إليه. إن شئت أتيتك وإن شئت كفت عنك عشرة آلاف سيف. وكان علي قد علم أن الأحنف قد أعلن الاعتزال

أمام المعسكر الآخر. وفي هذا الوقت العصيب لم يقل له الإمام: تعال إلي وأعني.

وإنما قال له: كيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال، فقال الأحنف: إن من الوفاء الله عز وجل قتالهم.

لقد كان للفقوى أثر سئ. لأنه قد ترتب عليها عهود، والإمام يحترم عهود الناس حتى في أحلك الأوقات. ولذا قال له: كف من قدرت على كفه " (1) ، وفي ميدان القتال وقف الإمام علي في مواجهة الناكثين على أول طويق البغي الطويل. كان الإمام يركب بغلة النبي صلى الله عليه وسلم (2) .

وروى البلازري أنها بقيت إلى زمن معاوية (3) . وكان محمد بن الحنفية يرفع راية رسول الله السوداء وتعرف بالعقاب.

وروي أن أم المؤمنين عائشة كانت على جمل يدعى عسكرا اشتراه لها يعلى بن أمية. وكان الجمل لواء القوم (4) وألبسوا

هودج أم المؤمنين الأوع (5) ووضعوا عليه جلود البقر (6) ، وفي لحظات السكون قبل بدء المعركة خرج طلحة والزبير. فخرج إليها الإمام علي،

(1) الكامل 122 / 3، الطبري 199 / 5.

(2) البداية والنهاية 242 / 7 ، مروج الذهب 390 / 2.

(3) أنساب الأشراف 511 / 1.

(4) ابن أبي الحديد 416 / 2.

(5) الطوي 203 / 5.

(6) مروج الذهب 400 / 2.

الصفحة 29

حتى اختلفت أعناق جوابهم فقال الإمام: لعوي قد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا. فهلا أعددتما عزرا يوم القيامة فاتقيا الله. ولا تكونا كالتى نقصت غزلها من بعد قوة أنكاثا. ألم أكن حاكما في دمكما. تورمان دمي وأحرم دمكما فهل من حدث أحل لكم ذمي؟ قال طلحة: ألبت الناس على عثمان. فقال الإمام:

يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق. يا طلحة، تطلب بدم عثمان! فلعن الله قاتل عثمان! يا طلحة أجئت بعوس رسول الله تقاثل بها وخبأت عوسك في البيت، أما بايعتني؟ قال: بايعتك والسيف على عنقي!! ثم قال الإمام: يا زبير ما أخرجك؟

قال: أنت! ولا أراك لهذا الأمر أهلا ولا أولى به مني!! فقال الإمام: ألسنت له أهلا بعد عثمان. قد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء فوق بيننا " (1) .

لقد كان الزبير أكثر صراحة. فعندما سأله الإمام عن سبب الخروج. حدثه عن الحكم والكوسي. وبعد هذا الحديث عادت الخيول إلى مواقعها. ثم وقف الإمام علي بين الصفيين ودعا الزبير وقال: أنت آمن. تعال حتى أعلمك. فأتاه.

فقال له الإمام: أتشدك الله؟ أسمعك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

إنك تقاثل عليا وأنت له ظالم؟ قال: نعم ولم أذكر ذاك إلا في مقامي هذا. ثم انصرف (2) . وفي رواية: لتقاثلنه وأنت له ظالم

ثم لينصون عليك. قال: قد سمعت لا حرم. لا أقاتلك (3) وعندما انصوف قال له ابنه: ما لك؟ فقال: ذكرني علي حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول: لتقاتلنه وأنت له ظالم. فقال عبد الله ابنه: ولتقاتل جئت! إنما جئت تصلح بين الناس. ويصلح الله هذا الأمر. قال: لقد حلفت أن لا أقاتله فقال: فاعتق غلامك وقف.

(1) الكامل 122 / 3، البداية والنهاية 241، 263 / 7.

(2) (رواه أبو يعلى والبيهقي وابن عساكر (كنز العمال 11 / 340) والبداية والنهاية 241 / 7، أسد الغابة 252 / 2، الكامل 122 / 3، مروج الذهب 401 / 2، الطوي 200 / 5، ابن أبي الحديد 207 / 3. (3) فتح البلي 55 / 13.

الصفحة 30

(1) فأعتق غلامه ووقف وفي بداية القتال انطلق الزبير بغوسه وخرج من أرض المعركة. فتول بوادي السباع وقام يصلي فأناه ابن جرموز فقتله (2).

وبعد أن أقام الإمام الحجة على طلحة والزبير مرة وعلى الزبير وحده مرة.

بعث إلى طلحة. أن القني. فلقية فقال: أنشدك الله أسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من كنت هولاه فعلي هولاه. اللهم وال من ولناه وعاد من عاداه. قال: نعم، فقال: فلم تقاتلني!! (3) وانطلق طلحة للقتال ولم يفعل ما فعل الزبير. ولم يبق غير أم المؤمنين لم تسمع من أمير المؤمنين كما سمع طلحة والزبير. وشاء الله أن تخاطب أم المؤمنين علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر قبل المعركة، روي أن عمرا دنا من موضع أم المؤمنين وقال: ماذا تدعين؟ قالت: الطلب بدم عثمان. فقال: قاتل الله في هذا اليوم الباغي والطالب بغير الحق. ثم قال: أيها الناس إنكم لتعلمون أيننا الممالي في قتل عثمان (4). وما أن انتهى عمار حتى جاء في اتجاه أم المؤمنين فورس أربعة. فهتفت: فيهم رجل عرفته.

ابن أبي طالب ورب الكعبة. سلوه ما يريد فقال لها أمير المؤمنين: أنشدك بالله الذي أتول الكتاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك. أتعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلني وصيا على أهله وفي أهله، قالت: اللهم نعم. قال: فما لك؟ قالت: أطلب بدم أمير المؤمنين عثمان قال: رأيت قتلة عثمان، ثم انصوف (5). مما سبق علمنا أن عمرا ذكر أم المؤمنين بقتال البغاة وذلك في قوله:

" قاتل الله في هذا اليوم الباغي " أما أمير المؤمنين لقد تحدث على في أمر لا نعلم باطنه. لقد كشف أنه وصي على أهل النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم.

(1) الكامل 122 / 3، البيهقي وابن عساكر (كنز العمال 330 / 11).

(2) أسد الغابة 252 / 52، الطوي 219 / 5.

(3) (رواه الحاكم (المستترك 371 / 3)، وابن عساكر (كنز العمال 333 / 11) مروج الذهب 403 / 2، الطوي 304 /

(4) مروج الذهب 371 / 2.

(5) رواه الطواني (كنز العمال 238 / 7)، (الزوائد 238 / 7).

الصفحة 31

ومن المعروف أن لقب أمهات المؤمنين لا يزوع عنهن بوفاة الرسول، وإنما هو لقب ملاصق لهن حتى قيام الساعة. ولحاملة اللقب حقوق وواجبات حددها الشوع الحكيم. وهذا الامتداد لا بد له من عين تحرسه. ولقد ورد أنه لا يؤدي عن النبي في حياته إلا علي وبما أن اسم النبي تحمله أمهات المؤمنين ولا يزوع بوفاة النبي فإن الذي يسهر على مصلحة أمهات المؤمنين حتى لا يطمع الذي في قلبه مرض أو أصحاب المخططات، لا يكون غير رأس النولة. وهذا على أي حال تفسير لقول الإمام بأن النبي جعله وصيا على أهله وفي أهله. فالسؤال طوح أثناء معركة. وعندما وافقت أم المؤمنين على قول أمير المؤمنين قال: فما لك؟ والله أعلم بمراده. ولقد روى أن أم المؤمنين صفة قالت للنبي لما حضر: فإن حدث فإلي من؟ قال: إلى علي بن أبي طالب (1) ، وبعد أن بين الإمام وصايته. سألتها عن قتلة عثمان فقال: رأيت قتلة عثمان. فإذا كانت قد جاءت بالقوات من أجل هذا. فعليها إن كانت تعرفهم أن تدل الإمام عليهم كي تجري محاكمتهم وتحقق دماء المقاتلين، وإن كانت لا تعرفهم فما فائدة الحشد - فلقد كان من الواجب أن تعطي للإمام فرصة ليجمع أطراف القضية. وبعد أن قال الإمام هذا انصرف. وصدر أمر القتال. قال الإمام: عباد الله، اتقوا الله، وعضوا الأبصار.

واخفضوا الأصوات، وأقلوا الكلام، ووطئوا أنفسكم على المنزلة والمجادلة والمبارزة والمناضلة والمبادلة والمعانقة والمكادمة والملازمة فاثبتوا. واذكروا الله كثيرا لعلمكم تفلحون. ولا تنزعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم. واصبروا إن الله مع الصابرين. اللهم ألهمهم الصبر وأتزل عليهم النصر وأعظم لهم الأجر (2) ، ثم نادي مناديه: لا يتبع مدبر. ولا يذفف على جريح، ولا يقتل أسير ومن أغلق بابه فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن (3) ، ثم نادي المنادي: لا تبدلوا القوم

(1) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (الزوائد 112 / 9).

(2) الطوي 6 / 6.

(3) رواه ابن أبي شيبة والبيهقي (كنز العمال 335 / 11).

الصفحة 32

بالقتال وكلوهم بألطف الكلام. فإن هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة. فنادي معسكر عائشة: يا ثرات عثمان. فقال الإمام: ما يقولون؟ فقال محمد بن الحنفية: يقولون يا ثرات عثمان فرفع الإمام يديه وقال: اللهم كب اليوم قتلة عثمان لوجههم (1) اللهم خذ أيديهم وأقدامهم (2) ، ثم قال الإمام لأصحابه: أيكم يعرض عليهم هذا المصحف. فإن قطع يده أخذه بيده الأخرى. فقال له فتى شاب: أنا، قال: اعرض عليهم هذا، وقل هو بيننا وبينكم من أوله إلى آخره. والله الله في دماننا ودمائكم. فلما جاءهم الفتى حملوا عليه حتى قتل.

فقال الإمام: قد طاب لكم الضواب فقاتلوهم ⁽³⁾ .

وما إن بدأت المعركة حتى لاحت هزيمة أصحاب الجمل، يقول ابن كثير.

تقدم علي بالراية. وقتل خلق كثير وجم غفير ولم تر واقعة أكثر من قطع الأيدي والأرجل فيها من هذه الواقعة ⁽⁴⁾ . وقال عبد الله الكاهلي: لما كان يوم الجمل وأميننا بالنبل حتى فنيت وتطاعنا الرواح حتى تكسوت. وتشبكت صدورنا وصدورهم حتى لو سيرت الخيل عليها لسرت. وعلم أهل المدينة بالواقعة يوم الحرب قبل أن تغرب الشمس من نسر مر بماء حول المدينة ومعه شئ معلق فسقط معه. فإذا أكف فيه خاتم نقشه عبد الرحمن بن عتاب وعلم من بين مكة والمدينة والبصرة بالواقعة بما نقل إليهم النور من الأيدي والأقدام ⁽⁵⁾ ، وكان هدف قوات أم المؤمنين الحفاظ على الجمل. فكان لا يأخذ بالراية ولا بخطام الجمل إلا شجاع معروف ⁽⁶⁾ ، ومن حرص الرجال على الجمل وحبهم له. روي أن رجالا من الأزد كانوا يأخنون بعير الجمل فيفتنونه ويشموننه ويقولون بعير جمل

(1) رواه البيهقي (كنز العمال 338 / 11).

(2) البداية والنهاية 7 / 8.

(3) الطوي 304، 305 / 5 ، مروج الذهب 399 / 2 ، ابن أبي الحديد 208 / 3 ، كنز العمال 338 / 11 ، الكامل 133

3 /

(4) البداية 243 / 7.

(5) الكامل 133 / 3 ، البداية 247 / 7 ، الطوي 218 / 5.

(6) البداية 244 / 7.

الصفحة 33

أما ريحه مسك ⁽¹⁾ . وكان معسكر علي يقولون: لا تزال الحرب قائمة ما دام هذا الجمل واقفا. وذلك لأن معسكر عائشة يدافعون عنه ويعملون على رفع رأسه وكلما قتل منهم أحد سلع الآخر ليمسك بزمام الجمل. وعندما فنى بنو ضبة. أخذ الخطام سبعون رجلا من قريش. وكل واحد يقتل بعد صاحبه. وكان محمد بن طلحة منهم قال لعائشة: مريني بأموك يا أمه، فقالت: أموك أن تكون كخير ابني آدم. فثبت في مكانه يقول: حم لا ينصرون. فتقدم إليه نفر فحملوا عليه فقتلوه ⁽²⁾ . وأمر الإمام بقتل الجمل ⁽³⁾ ، ولما سقط البعير على الأرض انهمز من حوله من الناس. وحمل هودج عائشة، وإنه كالفنذ من السهام. ونادي منادي علي في الناس: أنه لا يتبع مدبرولا يذفف على جريح ⁽⁴⁾ ، وبعد أن هدا غبار المعركة. ظهر على أرض القتال عشوة آلاف قتيل ⁽⁵⁾ . أما الجرحى فلا يحصون ⁽⁶⁾ .

وكان من بين القتلى طلحة بن عبيد الله. قتله مروان بن الحكم وكان معه في معسكر واحد وتحت قيادة واحدة. ولكن مروان كانت له مهمة تختلف عن مهمة طلحة. وهي قتل طلحة ⁽⁷⁾ . ولم تعلم أم المؤمنين بقتل طلحة والوزير إلا عندما علمت بهزيمة قواتها. فلقد علمت رضي الله عنها بالأمور الثلاثة في وقت واحد. كما علمت في نفس الوقت بمقتل زيد بن صوحان الذي قال

فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من سوه أن ينظر إلى من يسبقه بعض أعضائه إلى

(1) الطبري 263 / 5.

(2) البداية 244 / 7 ، الطوي 214 / 5.

(3) البداية 266 / 7 ، الطوي 210 / 5.

(4) البداية 245 / 7 ، الطوي 208 / 5.

(5) الكامل 131 / 3 ، البداية 247 / 7 ، الطوي 222 / 5 ، وقيل قتل فيها من أصحاب الجمل ثلاثة عشر ألفا ومن

أصحاب علي خمسة آلاف (مروج الذهب 387 / 2).

(6) البداية 247 / 7.

(7) لا خلاف بين أهل العلم على أن مروان بن الحكم هو الذي قتل طلحة راجع (البداية والنهاية 278 / 8)، (أسد الغابة

3 / 88).

الصفحة 34

الجنة فلينظر إلى زيد بن صوحان " (1) . روي أن عائشة قالت يوم الجمل لخالد بن الواشمة: أنشدك الله أصادقي أنت إن

سألتك. قال: نعم، قالت: ما فعل طلحة؟ قال، قتل! فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم قالت: ما فعل الزبير؟ قال: قتل! قالت: إنا

له وإنا إليه راجعون. فقال لها: بل نحن لله ونحن إليه راجعون. على زيد وأصحاب زيد قالت: زيد بن صوحان، فقال: نعم،

قالت: خرا، فقال لها: والله لا يجمع الله بينه وبينهما في الجنة أبدا. قالت: لا تقل ذلك فإن رحمته واسعة وهو على كل شيء

قدير " (2) .

وروي عن زيد من وجه أنه قال: " شنوا علي ثيابي ولا تتعوا عني ثوبا.

ولا تغسلوا عني دما. فإني رجل مخاصم - أو قال - فإنا قوم مخاصمون " (3) .

وانتهت حرب الجمل وهوب رؤوس بني أمية الذين وقفوا بالأموال والعتاد وراء طلحة والزبير (4) . وروي أن الإمام علي

وقف عند عائشة فضرب الهودج بقضيب وقال: يا حمراء رسول الله أموك بهذا. ألم يأموك أن تقوي في بيتك. والله ما

أنصفك الذين أخرجوك إذا صانوا عقائلهم وأبرزوك. وأمر أخاها محمد فأقولها في دار صافية بنت الحرث (5) ، وروي أن

عمرا قال لعائشة لما فرغوا من الجمل: " ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عهد إليكم - يشير إلى قوله تعالى:

" وقرن في بيوتكن - فقالت: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قالت، والله إنك ما علمت لقال بالحق، قال: الحمد لله الذي قضى لي

على لسانك " (6) .

وروي عن أبي البحتري أنه قال: لما انهزم أهل الجمل قال علي: لا يطلبن عبد خولج المعسكر وما كان من دابة أو سلاح

فهو لكم. وليس لكم أم ولد:

(1) رواه أبو يعلى وابن مندة (الإصابة 582 / 1)، والبيهقي (214 / 6).

(2) رواه ابن منده والبيهقي (الإستيعاب 560 / 1).

(3) رواه البخاري ويعقوب بن سفيان في تليخهما. وابن منده (الإصابة 583 / 1)، (الإستيعاب 560 / 1).

(4) الطوي 220 / 5.

(5) مروج الذهب 3176 / 2.

(6) (الطواني بسند صحيح (فتح البري 58 / 13)، الكامل 133 / 3 ، الطوي 225 / 5.

الصفحة 35

والموريث على فائض الله. وأي امرأة قتل زوجها. فلتعد أربعة أشهر وعشوا.

قالوا: يا أمير المؤمنين تحل لنا دمؤهم ولا تحل لنا نسؤهم. فقال: كذلك السوة في أهل القبلة. فخاصموه. فقال: فهاتوا

سهامكم واقوعوا على عائشة.

فهي رأس الأمر وقائدهم. قال: ففوقوا وقالوا: نستغفر الله فخصمهم أمير المؤمنين " (1).

وانتقلت أم المؤمنين إلى دار صفية زوجة عبد الله بن خلف الذي قتله الإمام يوم الجمل. وروي أن أمير المؤمنين أقبل إلى

مقر عائشة. فإذا عائشة جالسة حولها نومة من نساء أهل البصرة. وهي تبكي وهن يبكين معها. فنظرت صفية بنت الحرث

وأنت عليا. فصاحت هي ومن كان معها هناك من النسوة وقلن: يا قاتل الأحبة. يا مفوق بين الجميع، أيتم الله بنيك كما أيتمت

ولد عبد الله بن خلف. فنظر إليها علي فعرفها فقال: أما إني لا ألومك أن تبغضيني.

وقد قتلت جدك يوم بدر. وقتلت عمك يوم أحد. وقتلت زوجك الآن. ولو كنت قاتل الأحبة كما تقولين. لقتلت من في هذا

البيت ومن في هذه الدار. ثم أقبل على عائشة فقال: ألا تتحين كلابك هؤلاء عني. أما إني قد هممت أن أفتح باب هذا البيت

فأقتل من فيه. ولولا حبي للعافية. لأخرجتهم الساعة فضربت أعناقهم صوا. فسكتت عائشة وسكتت النسوة فلم تتطرق واحدة

منهن (2). وروي أن الأبواب التي هدد علي بفتحها كان من ورائها أناس من الجرحى قد لجأوا إلى عائشة (3). وتغافل عنهم

علي لأن مذهبه كان لا يقتل مدواولا يذفف على جريح ولا يكشف سواولا يأخذ مالا (4).

وروي أن ابن عباس دخل على عائشة في دار صفية بغير إذننها. واجتذب

(1) ابن أبي شيبة (كنز 336 / 11).

(2) فوح ابن أعثم (339 / 2 ، الطوي 224 / 5، الكامل 131 / 3 . واللغظ لابن أعثم، مروج الذهب 2 / 408.

(3) الطوي 222 / 5، الكامل 131 / 3.

(4) الكامل 131 / 3.

الصفحة 36

وسادة فجلس عليها. فقالت: يا ابن عباس أخطأت السنة المأمور بها. ودخلت إلينا بغير إذننا. وجلست على رحلنا بغير

أمرنا. فقال: لو كنت في البيت الذي خلفك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ما دخلت إلا بإذنك. وما جلسنا على رحلك إلا بأمرك. وإن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يأمرك بسوعة الأوبة والتأهب للخروج إلى المدينة " (1) ، وعندما كانت أم المؤمنين تستعد للذهاب إلى المدينة. كان قد سبقها بعض الذين يبحثون عن الحقيقة. روي عن ثابت مولى أبي ذر أنه قال: كنت مع علي يوم الجمل. فلما رأيت عائشة واقفة دخلني بعض ما يدخل الناس (2) ، فكشف الله عني ذلك عند صلاة الظهر. فقاتلت مع أمير المؤمنين. فلما فرغ ذهبت إلى المدينة. فأنتيت أم سلمة. فقلت: إني والله ما جئت أسأل طعاما ولا شوبا، ولكني مولى لأبي ذر. فقالت مرحبا، فقصصت عليها قصتي. فقالت: أين كنت حين طرت القلوب سطاؤها. قلت: إلى حيث كشف الله عني عند زوال الشمس. قالت: أحسنت. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: علي مع القآن والقآن مع علي. لن يتوقفا حتى يردا على الحوض " (3) وعن حوي بن سموة قال: لما كان من أهل البصرة ما كان بينهم وبين علي بن أبي طالب انطلقت حتى أتيت المدينة، فأنتيت ميمونة بنت الحرث فقالت: ما جاء بك، قال: كان بين علي وطلحة الذي كان فأقبلت فبايعت عليا. قالت: فالحق به فوالله ما ضل ولا ضل - قالتها ثلاث مرات " (4) .

كان هذا في المدينة أما في البصرة، فلقد روي أن الإمام عندما دخلها منتصوا خطب في الناس خطبة طويلة جاء فيها: " يا أهل البصرة (5) يا أهل المؤتفكة. أنتفكت بأهلك من الدهر ثلاثا. وعلى الله تمام الوابعة يا جند المرأة.

(1) مروج الذهب 377 / 2.

(2) أي أنه استصعب قتالها.

(3) رواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي (المستترك 124 / 3).

(4) رواه الطواني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 9 / 135)، والحاكم وصححه (المستترك 141 / 3).

(5) موضع يعلوه الملوحة.

الصفحة 37

يا أتباع البهيمة. رغا فأجبتكم، وعقر فانهزمتكم، أخلاقكم رفاق. وأعمالكم نفاق.

ودينكم زيغ وشقاق، وماؤكم أجاج وزعاق " (1) .

وقوله رضي الله عنه: " يا أهل البصرة " إشارة إلى حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " إن الناس يمضون أمصوا

وإن مصوا منها يقال لها البصرة.

فإن أنت مررت بها أو دخلتها فإياك وسباخها وكلاءها وسوقها وباب أمرائها وعليك بضواحيها. فإنه يكون بها خسف

وقذف ورجف وقوم يبيتون فيصبحون قودة وخنزير " (2) ، فلقد وصفها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بفساد العقول وكثرة

الظلم الواقع بها، والبصرة كما ذكرنا من قبل أن يمصوها مصوها عمر بن الخطاب وسكنتها أجناس مختلفة كان لهم تأثير بالغ

على ثقافتها. وأبرز معالم هذه الثقافة هي القودية والختوية. أي تلجيم العقل كل تافه ورخيص والسير في طويق المادة لاتهام

غذاء الدنس والعار.

وروي أن رجلا قال للإمام بعد الفواغ من يوم الجمل: يا أمير المؤمنين.

وددت أن أخي فلانا كان شاهدا. لوي ما نصرك الله به على أعدائك. فقال الإمام: أهوى أخيك معنا؟ قال: نعم، فقال: فقد شهدنا. ولقد شهدنا في عسكرنا هذا، أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء. سوعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان " (3) ، وفي كلام الإمام إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " الوء مع من أحب " (4) ، وقوله: " إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرها. كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فوضيها كان كمن

(1) مروج الذهب 2 / 407.

(2) رواه أبو داود حديث رقم 4285 ، والطواني (عون المعبود 11 / 420) ، وقال السيوطي: هذا الحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات من غير الطويق الذي أخرجه منها المصنف، وغفل عن هذا الطويق. وقد تعقبته فيما كتبت على كتابه (عون المعبود 11 / 420).

(3) ابن أبي الحديد.

(4) البخاري (الصحيح 4 / 77).

الصفحة 38

(1) شهدها " .

وانتهى يوم الذي نادى الإمام في بداية طريقه بالمصالحة. ولكن أحدا لم يتقدم ليصلح بين الطائفتين. ولم ينصت أصحاب الجمل إلى رسائل الإمام ورسله إليهم. ولو قام الذين اعتزلوا القتال وغروهم بالوساطة من أجل المصالحة. لعلمنا بكل يسر من هم البغاة. ولكنهم لم يفعلوا ذلك. وترتب على هذا أن البحث عن الحقيقة كان لا بد أن يتم على طريق شاق نظرا لوجود آيات متعددة الأسماء.

(1) رواه أبو داود حديث 4345.

الصفحة 39

ثانيا - أيام صفين

في سنة ست وثلاثين قامت موقعة الجمل وانتهت. وقيل: إنه كان بين خلافة علي إلى وقعة الجمل خمسة أشهر وإحدى وعشرون يوما. وقتل في هذه الوقعة ما يقرب من عشرين ألفا منهم خمسة آلاف من قوات أمير المؤمنين.

وبينما الدماء لم تجف بعد، وإذا بمعوية بن أبي سفيان يخرج على رأس أهل الشام في خمس وثمانين ألف مقاتل، ليقابل جيش أمير المؤمنين بعد فواغه من يوم الجمل بحوالي أربعة أشهر. وبوابة سريعة لخلفية معاوية نجد أن عمر بن الخطاب ولاء الشام بعد موت أخيه يزيد. وكانت وصية هند لولدها معاوية " إن هذا الرجل استنهضك في هذا الأمر. فاعمل بطاعته فيما

(1)

أحببت وكهت " ، ووصاه والده أبو سفيان: " وقد ولوك جسيما من أمرهم فلا تخالفهم. فإنك تحري إلى أمد. فنافس فإن بلغته أورثته عقبك " (2) ، وكان معاوية يقول لعمر: " موني يا أمير المؤمنين بما شئت. فيقول له: لا آموك ولا أنهاك " (3) ، وكان عمر لا يذكر معاوية إلا بخير. كان يقول للناس: " تذكرون كسوى وعندكم

(1) البداية والنهاية 118 / 8.

(2) البداية والنهاية 118 / 5.

(3) البداية والنهاية 125 / 8 ، الطوي 184 / 6.

الصفحة 40

معاوية " (1) ، ويقول: " دعا فتى قريش وابن سيدها " (2) ، وكان يدخر قرات الشام للحفاظ على حدود الدولة ولذا أطلق عمر صيحة: " يا أهل الشام استعنوا لأهل العواق. فإن الشيطان قد باض فيهم " (3) ، وفي عهد عثمان كان معاوية يتفاخر بأبيه ويقول: " قد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها... ولا أظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حلما " (4) ، وفي نفس العهد بدأ كعب الأخبار يلقي في نفس معاوية طلب الخلافة. فقال له: أنت الأمير بعد عثمان (5) . وعندما استجد عثمان بقوات الشام أثناء محنته تباطأ معاوية (6) . كانت هذه خلفية معاوية وقد بينا هذا في موضعه من الأحداث فيما ذكرنا.

وهناك شخصية أخرى وهو عمرو بن العاص سنلقي ضوءا على خليفته نظرا لأهمية دوره في أحداث صفين. وعمرو استخدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخدام الرسول لأنماط عديدة من الناس يخضع في المقام الأول لحركة الدعوة وهذه الحركة كانت تقتفي التأليف بين القلوب. وكان جميع العاملين على طريقها. يخضعون لكشف سرائرهم بواسطة الوحي فتحت الوحي يعلم النبي صلى الله عليه وسلم حقائقهم، ولهذا كان استخدام الرسول الإنسان ما يختلف عن استخدام غيره لهذا الإنسان. ففي عهد عمر بن الخطاب لمع نجم عمرو بن العاص حتى أن عمر كان يقول: ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أموا " (7) ، وولاه فلسطين والأردن ثم مصر. فلم يزل واليا عليها حتى مات عمر. وأقره عثمان عليها أربع سنين أو نحوها ثم عزله عنها وولاهها عبد الله بن أبي السوح. وعندما عزله عثمان جعل يطعن عليه ويسعى في إفساد

(1) الطوي 184 / 6.

(2) البداية والنهاية 124 / 8 ، الديلمي (كنز العمال 587 / 13).

(3) ابن سعد (كنز العمال 354 / 12).

(4) الطوي 89 / 5.

(5) الطوي 100 / 5 ، البداية والنهاية 85 / 5.

أمره. فلما بلغه قتل عثمان وكان معزلاً بفلسطين قال: إني إذا أنكأت قوحة أدميتها " (1).

وروى الطوي وغوه: عندما قتل عثمان وعلم بمبايعة الناس لعلي وما وقع لأهل الجمل. لتحل يبكي كما تبكي الوأة ويقول: واعثماناه، أنعي الحياء والدين حتى قدم دمشق (2)، فوجد أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان، فقال عمرو: أنتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم (3). وقال معاوية لعمرو: بايعني فقال: لا والله لا أعطيك من ديني حتى أنال من دنياك قال: سل، فقال: مصر طعمة. فأجابه إلى ذلك وكتب له به كتاباً (4). وكانت مصر في نفس عمرو بن العاص. لأنه هو الذي فتحها. ويقول الجاحظ: فكان لعظمها في نفسه وجلالتها في صوه، وما قد عرفه من أموالها وسعة الدنيا، لا يستعظم أن يجعلها ثمنا من دينه (5). وروي أنه عندما خرج عمرو من عند معاوية. قال له ابنه: ما صنعت؟ قال: أعطانا مصر طعمة. قالوا: وما مصر في ملك العرب! فقال: لا أشبع الله بطونكما إن لم تشبعكما مصر " (6).

فوفقاً لخليفة هذا وذاك نرى أن الأول هدفه الخلافة. والثاني هدفه الإمارة وبالتحديد أن تكون له مصر ما بقي حياً، وهذه الأهداف تسير في طريق البغاة وعليها قميص عثمان. ذلك الشعار الوراق الذي يلتف من حوله العامة. وهذه الفئة على طريق البغاة تعرف باسم " القاسطين " وليس معنى القاسط: أنه المطالب بدم عثمان، وإنما معناه: " الجائر عن الحق الناكب عنه " فاللفظ والمعنى يتحدثان عن حقيقة الهدف وليس عن طريق الشعار. وقول أمير المؤمنين " أموني رسول الله

صلى الله عليه وسلم بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين " يعني أن هذا القتال لا علاقة له بالشعرات المرفوعة. وإنما علاقته بالأهداف الحقيقية التي تخفيها الجلود الآدمية. ولقد عبر الإمام علي عن مبايعة عمرو لمعاوية بأنها مبايعة مبتورة ومشلولة وفقاً لميزان الحقيقة الذي يقره الأئمة. فقال: قد بلغني أن عمرو بن العاص الأبتري بن الأبتري (1) بايع معاوية على الطلب بدم عثمان وحضهم عليه. فالعضد والله الشلاء عمرو ونصوته " (2).

1 - إقامة الحجّة:

بعد مقتل عثمان بدأ الإمام علي يجري تغييرات تستقيم مع سياسته. ولكن معاوية رفض هذه التغييرات والتي كان من بينها غزله عن الشام. وبينما كان الإمام يستعد للذهاب إلى الشام لإزالة هذه العقبة التي على أرض الدولة. خرج عليه أصحاب الجمل. وما أن فرغ من أهل الجمل حتى بلغه أن أهل الشام يتجهزون للقتال. وأن عمرو بن العاص يذيع عليهم " أن أهل العواق قد فرّوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم وفلوا حدهم. وأن أهل البصرة مخالفون لعلي بعد أن وتّهم وقتلهم. وقد تقانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل. وأن عليا قد سار في شوزمة قليلة منهم وقد قتل خليفتم. فإله الله في حركم أن تضيعوه وفي دمكم أن تبطلوه " (3) ، وعمرو في بيانه لم يهمل موقف خصمه القتالي. وإنما أخوهم بأن الصناديد قد قتلوا إشلة إلى أن المهمة لن تكون عسوة بعد أن نصجت الثرة. وبينما أهل الشام يشقون طويقهم بواكب الدهاء والكيد. كان الإمام علي يشق طويقه إليهم بواكب الحجّة. حتى لا تكون لهم حجّة في يوم لا يغني فيه الندم. فبعث إليهم جرير بن عبد الله البجلي يدعو إلى البيعة. ولكن معاوية ركب الصعب. ثم بعث إليه الإمام برسالة جاء فيها: إن الله

(1) روى ابن كثير أن قوله تعالى: (إن شانئك هو الأبتر) نزلت في العاص بن وائل (تفسير ابن كثير 559 / 4).

(2) الطبقات الكبرى 4 / 254.

(3) البداية والنهاية 255 / 7 ، الطوي 236 / 5.

الصفحة 43

سبحانه جعل الدنيا لما بعدها. وابتلى فيها أهلها. ليعلم أيهم أحسن عملا. ولسنا للدنيا خلقنا. ولا بالسعي فيها أمرنا. وإنما وضعنا فيها لنبتلي بها. وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي. فجعل أحدنا حجّة على الآخر. فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القوان. وطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني. وعصبتك أنت وأهل الشام بي. وألب عالمكم جاهلكم. وقائمكم قاعدكم. فاتق الله في نفسك.

ونزع الشيطان قيادك. واصرف إلى الآخرة وجهك. فهي طريقنا وطريقك.

واحذر أن يصيبك الله منه بعاجل قرعة تمس الأصل. وتقطع الدابر. فإني أولى لك بالله ألية غير فاجرة. لئن جمعتني وإياك جوامع الأقدار لا أزال بباحتك " حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين " (1).

لقد أخوه أن الله جعل الدنيا طريقا إلى الآخرة. وابتلى فيها أهلها أي اختوهم ليعلم أيهم أحسن عملا، وأخوه بأن الإنسان لم يؤمر بالسعي في الدنيا لها. بل أمر بالسعي فيها لغرها. وكشف له الحقيقة التي يدورها شعار قميص عثمان فقال: " فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القوان " أي تعديت وظلمت ومن هذا الظلم قولك: " أنا ولي عثمان ". وعلى طويق الظلم أؤمتي بما لم تجن يدي ولا لساني. وحرضتم الناس على هذا. ولم يلتفت معاوية إلى الحجّة. وظل يتاجر بقميص عثمان فرسل إليه الإمام رسالة قال فيها: فسبحان الله. ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة، والحرّة المتبعة. مع تضبيع الحقائق واطراح الوثائق:

التي هي لله تعالى طلبة. وعلى عباده حجّة. فأما إكثرك الحجاج على عثمان وقتلته. فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان

النصر لك. وخذلته حيث كان النصر له، والسلام " (2).

ولقد رأينا كيف تتأقل معاوية عن نصوة عثمان، وفي هذا التخاذل والتناقل يقول البلاذري وهو المعروف بالثقة والضبط "

وإنما صنع ذلك معاوية ليقتل

(1) ابن أبي الحديد 98 / 5.

(2) ابن أبي الحديد 784 / 4.

الصفحة 44

عثمان فيدعوا إلى نفسه " (1) ، ولم يكتف الإمام بمرسال الرسائل. وإنما بعث إليه بالصحابة ليقوموا عليه الحجة على امتداد الطريق إلى صفين. روي أن الإمام بعث إليه عدي بن حاتم... فقال عدي لمعاوية: إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ونصلح ذات البين، إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام أثرا. وقد استجمع له الناس. ولم يبق أحد غيرك وغير من معك. فاحذر يا معاوية أن يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل. فقال له معاوية: كأنك إنما جئت متهددا لم تأت مصلحا. هيهات يا عدي. كلا والله إني لابن حرب لا يقعق له بالسنان. وإنك والله من المجلبين على عثمان وإنك من قتلته وإنني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به. فقال شيبث بن زياد بن خصفة: يا معاوية. جرابا واحدا، أتيناك فيما يصلحنا وإياك. فأقبلت تضرب لنا الأمثال. دع ما لا ينفع وأجبننا فيما يعم نفعه. وقال له يزيد بن قيس: إنا لم نأت إلا لنبلغك ما أرسلنا به إليك. ونؤدي عنك ما سمعنا منك. ولن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ما يكون به الحجة عليك ووجع إلى الألفة والجماعة. إن صاحبنا من قد عرف المسلمون فضله ولا يخفى عليك. فاتق الله يا معاوية ولا تخالف. فإنا والله ما رأينا في الناس رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أرهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه. فقال لهم معاوية: إنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة.

فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي. وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها " (2) وبعد بعث عدي بن حاتم ثم بعث إليه إليه أبا عمر وبشير بن عمرو بن.

محسن وسعيد بن قيس... وعندما دخلوا عليه قال بشير: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة. وإن الله محاسبك بعملك ومجزيك عليه، وإنني أنشدك الله ألا تنوق جماعة هذه الأمة وألا تسفك دماءها بينها. فقطع عليه معاوية الكلام وقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك؟ فقال أبو عمر: إن صاحبي ليس مثلك. إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل

والدين والسابقة في

(1) ابن أبي الحديد 785 / 4.

(2) الكامل 148 / 3 ، الطوي 2 / 6.

الصفحة 45

الإسلام والقوابة بالرسول صلى الله عليه وسلم قال معاوية: فماذا يقول؟

فقال أبو عمر: يأمر بك بتقوى الله وأن تجيب ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق. فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمورك. قال: ونترك دم ابن عفان لا والله لا أفعل ذلك أبدا. فباوره شبت بن ربيعي وقال: يا معاوية إنك لم تجد شيئا تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك: (قتل إمامكم مظلوما فنحن نطلب بدمه) فاستجاب لك سفهاء طغام. وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر. وأحبيت له القتل لهذه المتولة التي أصبحت تطلب. ورب متمن أمر وطالبه يحول الله دونه. وبما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته. ووالله ما لك في واحدة منهما خير. والله إن أخطأت ما ترجو إنك لشرب العوب حالا. ولئن أحبيت ما تتمناه لا تصيبه حتى تستحق من ربك صلى النار.

فاتق الله يا معاوية. ودع ما أنت عليه. ولا تتلوع الأمر أهله فقال له معاوية: لقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت. انصرفوا من عندي وليس بيني وبينكم إلا السيف " (1).

لم ينصت معاوية لصوت الحجة. لأن وصية أمه وأبيه وفقوى كعب الأحبار. كل ذلك كان قد استولى عليه. وما استولى عليه هذا إلا لأنه يوافق هواه الذي تحت جلده.

2 - معاوية وسياسة التشكيك:

سرت سياسة تعبئة الناس تحت لافتة " قميص عثمان " جنبا إلى جنب مع سياسة التشكيك في الأحاديث التي رويت في فضل أهل البيت ومناقب علي بن أبي طالب فمعاوية كان يبرك خطورة هذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث التي حذر فيها النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن. ولعن فيها قبائل وبيوتا نظرا لخطورتها على الدعوة. لهذا رفع معاوية أمام هذه الأحاديث لافتة " أساطير الأولين " ولم يكتف معاوية بهذه اللافتة وإنما تاجر بقتل طلحة والزبير وهزيمة

(1) الكامل 146 / 3، الطبري 243 / 5.

الصفحة 46

عائشة. وحاول أن يجذب علي بن أبي طالب إلى معوكة كلامية. حول الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن دخول الإمام في هذه الدائرة سيجعله من وجهة نظر معاوية يفقد أصوات العامة في الأمصار مما يسهل على معاوية اختراق الساحة بعد ذلك. وبالجملة: لم يترك معاوية طريقا فيه هواه إلا وطرقه ووضع فيه العوائق.

وسياسة شكيك في الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ظهرت معالمها في رسالة أرسلها معاوية إلى أمير المؤمنين علي يقول له فيها:

أما بعد. فدعني من أساطيرك. واكفف عني من أحاديث. وأقصر عن تقولك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وافترائك من الكذب ما لم يقل. وغرور من معك والخداع لهم. فقد استغويتهم. ويوشك أمورك أن ينكشف لهم فيعتولوك. ويعلموا أن ما جئت به باطل مضمحل. والسلام " (1).

فكتب إليه أمير المؤمنين: أما بعد. فطالما دعوت أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الرجيم الحق أساطير الأولين ونبذتموه وراء

ظهوركم. وجهتكم بإطفاء نورا الله بأيديكم وأفواهكم. والله متم نوره ولو كره الكافرون. ولعمري ليتمن النور على كرهك. ولينفذ العلم بصغرك. ولتجزلن بعملك. فعث في دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك. فكأنك بباطلك وقد انقضى. وبعملك وقد هوى.

ثم تصير إلى لظى. لم يظلمك الله شيئا. وماربك بظلام للعبيد.

ولم تكثف الحملة الإعلامية للقاسطين على رفع لافتة "أساطير الأولين" وإنما قامت بتغذية الساحة بمادة إعلامية هدفها التقليل من شأن أمير المؤمنين في أول الطويق ليتمكنوا من سبه في نهاية الطويق. يقول معاوية في رسالة له إلى أمير المؤمنين: أما بعد فما أعظم الدين على قلبك. والغطاء على بصرك. الشوه من شيمتك. والحسد من خليقتك. فشمّر للحرب واصبر إلى الضوب. فوالله ليرجع الأمر إلى ما علمت. والعاقبة للمتقين!!!⁽²⁾ .

(1) ابن أبي الحديد 4 / 769

(2) المصدر السابق 4 / 769

الصفحة 47

يقول ابن أبي الحديد: وأعجب وأطرب ما جاء به الدهر، وإن كانت عجائبه وبدائعه جمّة - أن يفضي أمر علي كرم الله وجهه إلى أن يصير معاوية ندا له ونظوا مماثلا. يتعرضان الكتاب والجواب. ويتساويان فيما يواجه به أحدهما صاحبه. ولا يقول له علي كرم الله وجهه كلمة إلا قال مثلها. وأخشن مسا منها.

فليت محمد صلى الله عليه وسلم كان شاهد ذلك لوى عيانا لا خوا أن الدعوة التي قام بها. وقاسي أعظم المشاق في تحملها. وكابد الأهوال في الذب عنها. وضوب بالسيوف عليها لتأييد دولتها. وشيد أركانها. وملأ الآفاق بها. خلصت صفوا عفوا لا عدائه الذين كذبوه لما دعا إليها. وأخرجه عن أوطانه لما حصن عليها. وأدموا وجهه وقتلوا عمه وأهله. فكأنه كان يسعى لهم ويدأب لاحتهم، كما قال أبو سفيان في أيام عثمان.

وقد مر بقبر حنزة. وضوبه وجله وقال: يا أبا عمرة: إن الأمر الذي اختلفنا عليه بالسيف أمسي في يد غلماننا اليوم يتلعبون به ثم آل الأمر أن يفاخر معاوية عليا. كما يتفاخر الأكفاء والنظراء! ثم أقول ثانيا لأمير المؤمنين علي كرم الله وجهه لبيت شعوي. لماذا فتح باب الكتاب والجواب بينه وبين معاوية؟

وإذا كانت الضرورة قد قادت إلى ذلك فهلا اقتصر في الكتاب إليه على الموعظة من غير تعوض للمفاخرة⁽¹⁾ والمناوأة. وإذا كان لا بد منهما. فهلا اكتفى بهما من غير تعوض لأمر آخر يوجب المقابلة والمعرضة بمثله. وبأشد منه (لا تسبوا الذين يدعون من نون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم)⁽²⁾ ، وهلا دفع هذا الرجل العظيم الجليل نفسه عن سباب هذا السفیه الأحمق. هذا مع أنه القائل: من واجه الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون. أي افتروا عليه

(1) المصدر السابق 4 / 769

(2) كان الإمام قد تفاخر في رسالة وقال: إن كنت صادقا فيما تسطر.. فدع الناس جانبا.

وتيسر لما دعوتني إليه من الحرب... واعف الفويقين من القتال. ليعلم أينا المرين على قلبه. المغطي على بصره، فأنا أبو الحسن، قاتل جدك وأخيك وخالك. (ابن أبي الحديد 770 / 4).

الصفحة 48

وقالوا فيه الباطل " (1)

وأقول: شاء الله أن يرد الإمام ردا يوجب المقابلة والمعرضة. وشاء الله أن نجد هذه الوسائل في أكثر من مصدر لتعلم منها أصول الحقيقة الغائبة. والإمام لا يظوه سباب ألف سفيه أحمق. لأن هؤلاء لا يكتب لسبابهم وعروشهم الخلود. فانظر إلى الوراء منذ عهد آدم عليه السلام كم من كلاب نبحت على قافلة الأنبياء. لقد ذهب النباح كهباء ضائع في خلاء يصلي أصحابه لظى. وكتب الخلود لدعوة الوسل والأنبياء. وكذلك ترى سورة الأئمة والهداة لقد رصدتهم أسنة أصحاب السوء وشوهمتهم الأفلام المأجورة. وفي النهاية ذهب أهل السوء والباطل ولم يكتب لأهلهم الخلود ولم يبق إلا السائرون على طريق الفطرة. وبعد التكذيب بالحديث بدأ إعلام معاوية يتاجر بمقتل طلحة والزبير وهزيمة عائشة. روي أن عمرو بن العاص قال لعائشة: لوددت أنك كنت قتلت يوم الجمل. فقالت: ولم لا أبا لك؟ فقال: تموتين بأجلك وتدخلين الجنة ونجعلك أكبر التشيع على علي بن أبي طالب " (2) ، ومن هذا نعلم أن المتاحرة بأهل الجمل لها جنور وأصول. وفي رسالة من معاوية إلى أمير المؤمنين علي يقول: معاوية... دعوت الناس إلى نفسك. وأكروهت أعيان المسلمين على بيعتك. ثم كان منك بعدما كان من قتلك شيخي المسلمين أبا محمد طلحة وأبا عبد الله الزبير. وهما من الموعودين بالجنة. والمبشر قاتل أحدهما بالنار في الآخرة هذا إلى تشريدك بأمر المؤمنين عائشة. وإحلالها محل الهون. مبتذلة بين أيدي الأعراب وفسقة أهل الكوفة. فمن بين مشهر لها، وبين شامت بها. وبين ساخر منها. ترى ابن عمك كان بهذا لوراها راضيا. أم يكون عليك ساخطة. ولك عنده زاجرا. أن تؤذي أهله وتثود بحليلته. وتسفك دماء أهل ملته. ثم تركك دار الهوة التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها: " إن المدينة لتتفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد " فلعمري قد صح وعده وصدق قوله.

(1) سورة الأنعام: الآية 108.

(2) ابن أبي الحديد 770 / 4.

الصفحة 49

ولقد نفت خبثها. وطردت عنها من ليس بأهل أن يستوطنها. فأقمت بين المصوين. وبعدت عن بوكة الحرمين. ورضيت بالكوفة بدلا من المدينة.

وبمجاورة الخرنق والحوة. عوضا عن مجاورة خاتم النبوة... " (1)

ورد أمير المؤمنين عليه في رسالة طويلة منها:... فوق بيننا وبينكم أمس أنا آمنة وكفوتم. واليوم أنا استقمنا وفتنتم. وما أسلم مسلمكم إلا كوها. وبعد أن كان أنف الإسلام كله لرسول الله صلى الله عليه وسلم حربا. وذكوت أنني قتلت طلحة والزبير.

وشردت بعائشة. وتولت بين المصوين. وذلك أمر غبت عنه - فلا عليك. ولا العذر فيه إليك... " (2).

وقال ابن أبي الحديد: فأما الجواب المفصل فأن يقال: إن طلحة والزبير قتلا أنفسهما ببغيهما ونكثهما. ولو استقاما على الطريقة لسلما ومن قتله الحق فدمه هدر... وأصحابنا يذهبون إلى أنهما تابا وفرقا الدنيا نادمين على ما صنعا. وكذلك نقول نحن... فهما من أهل الجنة لتوبتهما. ولولا توبتهما لكانا هالكين كما هلك غوهما. فإن الله تعالى لا يحابي أحدا في الطاعة والتقى.

(ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة) (3)، وأما الوعد لهما بالجنة فمشروط بسلامة العاقبة. والكلام في سلامتهما. وإذا ثبتت توبتهما فقد صح الوعد لهما وتحقق... أما أم المؤمنين عائشة فقد صحت توبتها. والأخبار الواردة في توبتها أكثر من الأخبار الواردة في توبة طلحة والزبير. لأنها عاشت زمانا طويلا. وهما لم يبقيا. والذي حوى لها كان خطأ منها. فأبي ذنب لأمر المؤمنين كرم الله وجهه في ذلك؟ ولو أقامت في منزلها لم تبتذل بين الأعواب وأهل الكوفة، على أن أمير المؤمنين كرم الله وجهه أكرمها وصانها وعظم من شأنها... ولو كانت فعلت بعمر بن الخطاب ما فعلت به. وشقت عصا الأمة عليه. ثم ظفر بها. لقتلها ورفقها ربا ربا. ولكن عليا كان حليما كريما.

(1) الكامل / للمبرد ط ليدن ص 151 / 1.

(2) ابن أبي الحديد 178 / 5.

(3) ابن أبي الحديد 177 / 5.



وأما قوله: " لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم. فربك هل كان يرضي لك أن تؤذي حليلته ". فلعلي كرم الله وجهه أن يقلب الكلام عليه.

فيقول: " افتراه لو عاش. أكان يرضي لحليلته أن تؤذي أخاه ووصيه. وأيضا أتراه لو عاش أكان يرضي لك يا ابن أبي سفيان أن تتلوع عليا الخلافة، وتتوق جماعة هذه الأمة. وأيضا أتراه لو عاش أكان يرضي لطلحة والزيبير أن يبايعا. ثم ينكثا لا لسبب. بل قالوا: جئنا نطلب الواهم. فقد قيل لنا: إن بالبصرة أموالا كثرة هذا الكلام يقوله لمثلهما.

فأما قوله: " تركت دار الهجرة " فلا عيب عليه إذا انتقضت عليه أطراف الإسلام بالبغي والفساد أن يخرج من المدينة إليها، ويهذب أهلها، وليس كل من خرج من المدينة كان خبثا. فقد خرج عنها عمر مورا إلى الشام. ثم لعلي كرم الله وجهه أن يقلب عليه الكلام فيقول له: وأنت يا معاوية قد نفتك المدينة أيضا عنها. فأنت إذن خبث. وكذلك طلحة والزيبير وعائشة الذين تتعصب لهم وتحتج على الناس بهم، وقد خرج من المدينة الصالحون. كابن مسعود وأبي ذر وغروهما وماتوا في بلاد نائية عنها.

وأما قوله: " بعدت عن حرمة الحرمين، ومجورة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم "، فكلام إقناعي ضعيف، والواجب على الإمام أن يقدم الأهم فالأهم من مصالح الإسلام. وتقديم قتال أهل البغي على المقام بين الحرمين أولى... (1)

إن خطاب معاوية ليس فيه علم وى. وهو خطاب إعلامي في المقام الأول يخاطب به غوغاء الشام ومن على شاكلتهم على الرغم من أن الرسالة موجهة إلى أمير المؤمنين علي: وعلى هذا المنوال بعث معاوية برسالة أخرى إلى أمير المؤمنين علي يقول له فيها: أما بعد، يقول الله تعالى في محكم كتابه (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن

من

(1) سورة الأنفال: الآية 42.

(1) الخاسرين) ، وإني أحذرك الله أن تحبط عملك وسابقتك بشق عصا هذه الأمة وتفريق جماعتها. فاتق الله واذكر موقف القيامة. وأقلع عما أسرفت فيه من الخوض في دماء المسلمين. وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لو تمالا أهل صنعاء وعدن على قتل رجل واحد من المسلمين. لأكبهم الله على مناخرهم في النار " فكيف يكون حال من قتل أعلام المسلمين وسادات المهاجرين. بل ما طحنت رحا حربه من أهل القآن. وذي العبادة والإيمان. من شيخ كبير. وشاب غرير. كلهم بالله تعالى مؤمن. وله مخلص ورسوله مقر علف. فإن كنت أبا الحسن أنما تحارب على الإهرة والخلافة. فلعمري لو صحت خلافتك لكنت قريبا من أن تعذر في حرب المسلمين. ولكنها ما صحت لك. أني بصحتها وأهل الشام لم يدخلوا فيها. ولم يرتضوا بها؟ وخف الله وسطوته. واتق بأسه ونكاله. وأغمد سيفك عن الناس. فقد والله أكلتهم الحرب... (2)

وهذا أيضا خطاب إعلامي كتبه معاوية لتبدأ إذاعته في بثه بمجرد أن يتحرك حامل الرسالة في اتجاه أمير المؤمنين. ولقد

رد أمير المؤمنين علي على هذه الرسالة وغورها من باب إقامة الحجة.

فقال: أما بعد. فقد أنتني منك موعظة موصلة. ورسالة محورة. فمقتها بضلالك. وأمضيتها بسوء رأيك. وكتاب امرئ ليس

له بصر يهديه. ولا قائد يرشده. دعاه الهوى فأجابته. وقاده الضلال فاتبعه. فهجر لا غطا. وضل خابطا.

فأما أموك لي بالتقوى فلرجو أن أكون من أهلها، واستعيذ بالله من أن أكون من الذين إذا أمروا بها أخذتهم الغوة بالإثم.

وأما تحذيرك إياي أن يحيط عملي وسابقتي في الإسلام. فلعمري لو كنت الباغي عليك. لكان لك أن تحذرنني ذلك. ولكني

وجدت الله تعالى يقول: (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ إلى أمر

(1) ابن أبي الحديد 180 / 5 .

(2) سورة الزمر: الآية 65.

الصفحة 52

(1) الله ، فنظرنا إلى الفئتين. أما الفئة الباغية فوجدناها الفئة التي أنت فيها. لأن بيعتي بالمدينة لأميرك وأنت بالشام. كما لأميرك بيعة عثمان بالمدينة. وأنت أمير لعمر على الشام. وكما لأمير يزيد أخاك بيعة عمر وهو أمير لأبي بكر على الشام. وأما شق عصا هذه الأمة. فأنا أحق أن أنهاك عنه. فأما تخويفك لي من قتال أهل البغي. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني بقتالهم وقتلهم.

وقال لأصحابه: " إن فيكم من يقاثل على تأويل القرآن كما قاتلت على تأويله "، وأشار إلي وأنا أولى من اتبع أمره. وأما

قولك: إن بيعتي لم تصح لأن أهل الشام لم يدخلوا فيها. كيف وإنما هي بيعة واحدة. تؤم الحاضر والغائب. لا يثني فيها النظر. ولا يستأنف فيها الخيار. الخراج منها طاعن. والمروي فيها مدهن. فربح على ظلعك، وازع سوبال غيك... (2)

لقد خاطبه، وفقا لثقافته وما سرت عليه الأمور بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ليحاكمه بما ارتضوه وانتقوا عليه وهو

أن الاختيار طريق الخلافة. فبين له أن الخلافة ليس بعد عقدها خيار لمن عقدها ولا لغوهم. لأنها تؤم غير العاقدين كما تؤم العاقدين. فيسقط الخيار فيها. ووفقا لهذا التعريف فقد لُمت أمراء الشام من قبل. وعليه فهي تؤم معاوية.

كان هذا بعضا من سياسة التشكيك في الحديث حتى يتم التعقيم مرة أخرى على مناقب أمير المؤمنين، وسلت سياسة

التقليل من شأن أمير المؤمنين جنبا إلى جنب مع سياسة التشكيك في الحديث. ووصف بأن يفوق الكلمة ويقتل المتقين ويفرق

المدينة. وكان هذا لهدف لا يخفي على الباحث عن الحقيقة.

وفي حياة أمير المؤمنين عتموا على مناقبه مرة، ثم رأوا أن يعتموا عليها ويشوهوه مرة... وبعد وفاته سيوه على المنابر.

وكما زج معاوية بأصحاب الجمل في حربه الإعلامية. زج أيضا بقضية الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان يريد من وراء هذا أن يقول أمير المؤمنين في أبي بكر.

(1) ابن أبي الحديد 316 / 4 .

وعمر، بما لا يرضي الرأي العام لأن الغالب الأعم في الأمصار كانوا يعتقدون إمامة الشيخين إلا القليل... من خواص أمير المؤمنين، كان معاوية يريد أن يسجل عليه قوله أنهما غصباه حقه. فيجعل ذلك حجة عليه عند أهل الشام ويضيفه إلى ما وضعه في عقولهم من انتقاص علي كمازعم. كان يريد أن وينسبهما إلى الظلم ومخالفة الرسول في أمر الخلافة. فالحصول على تسجيل مثل هذا كفيل بأن يفسد عليه أهل العواق أيضا وهم جنده وبطانته وأنصاره. لأن الغالب الأعم فيهم كانوا يعتقدون إمامة الشيخين. لهذا لم يدخر معاوية جهدا من أجل فتح هذا الباب. فرسل كتابا مع أبي مسلم الخولاني قصد أن يغضب عليا ويجرحه إذا ذكر أبي بكر وأنه أفضل المسلمين إلى أن يخلط خطة في الجواب بكلمة تقتضي طعنا في أبي بكر. فجاءه الود من علي غير واضح غير بين. ليس فيه تصريح بالتظلم لهما وتلوة يترحم عليهما. وتلوة يقول: أخذنا حقي وقد تركته لهما. فأشار عمرو به العاص مع معاوية أن يكتب كتابا ثانيا للكتاب الأول ليستوا فيه عليا. ويحمله الغضب أن يكتب كلاما يتعلقان به في تقبيح حاله. فكتب معاوية إلى أمير المؤمنين كتابا أنفذه مع أبي أمامة الباهلي ومما جاء فيه: " لقد حسدت أبا بكر والتويت عليه. ورمت إفساد أمره. وقعدت في بيتك واستغويت عصابة من الناس حتى تأخروا عن بيعته. ثم كرهت خلافة عمر.

وحسدته واستطلت مدته. وسرت لقتله. وأظهرت السماتة بمصابه. حتى أنك حاولت قتل ولده لأنه قتل قاتل أبيه. ثم لم تكن أشد منك حسدا لابن عمك عثمان نشرت مقابحه. وطعنت في فقهه. ثم في دينه. ثم في سيرته ثم في عقله. وأغرقت به السفهاء من أصحابك وشيعتك. حتى قتلوه بمحضر منك " وجاء فيها: " فدع اللجاج، والعبث جانبا، وادفع إلينا قتلة عثمان، وأعد الأمر شورى بين المسلمين ليتفقوا على من هو لرضاء. فلا بيعة لك في أعناقنا. ولا طاعة لك علينا ولا عتبي لك عندنا. وليس لك ولأصحابك عندي إلا السيف "، وجاء فيها: " فأما ما لا زال تمن به من سابقتك وجهادك. فإني وجدت الله سبحانه يقول: " يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم

(1) ، ولو نظرت في حال نفسك لوجدتها أشد الأنفس امتنانا على الله بعملها، وإذا كان الامتنان على السائل يبطل (صادقين) أجر الصدقة. فالامتنان على الله يبطل أمر الجهاد، ويجعله (كمثل صفوان عليه رآب... الآية) (2) ، فهكذا نسج معاوية وابن العاص شباك الصيد التي تخدم أهواءهما كي يركبا على أعناق الأمة. ورد أمير المؤمنين وكان رده من محاسن الكتب. وجاء فيه: " أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمدا صلى الله عليه وسلم لدينه. وتأبيده إياه لمن أيده من الصحابة. فلقد خبأ لنا الدهر منك عجا، إذ طفقت تخوننا ببلاء الله تعالى عندنا. ونعمته علينا في نبينا. فكننت في ذلك كناقل التمر إلى هجر أو داعي مسدده إلى النضال.

والمعنى: " فلقد خبأ لنا الدهر منك عجا " موضع التعجب أن معاوية يخبر عليا كرم الله وجهه باصطفاء الله تعالى محمدا

وتشريفه له. وتأبيده له. وهذا ظريف لأنه يعري كإخبار زيد عمرا عن حال عمرو. إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم وعلي كرم الله وجهه كالشئى الواحد وقوله: " فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر " وهجر اسم مدينة. وهي بلدة كثرة النخل يحمل منها التمر إلى غوها ⁽³⁾ . ثم قال الإمام في خطابه: " وزعمت أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان، فذكرت أمرا إن تم اعتورك كله. وإن نقص لم يلحقك ثلمه. وما أنت والفاضل والمفضول. والسائس والمسوس، وما للطلاق وأبناء الطلقاء والتميز بين المهاجرين الأولين وتوتيب درجاتهم. هيهات لقد جن قدح ليس منها ⁽⁴⁾ . وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها ⁽⁵⁾ . ألا تربع أيها الإنسان على ظلعك ⁽⁶⁾ .

(1) ابن أبي الحديد 316 / 4 .

(2) سورة الحوات: الآية 17.

(3) سورة البقرة: الآية 264.

(4) ابن أبي الحديد 605 / 4 .

(5) هذا مثل يضوب لمن يدخل نفسه بين قوم ليس له أن يدخل بينهم.

(6) أي وطفق يحكم في هذه القصة أو في القضية من يجب أن يكون الحكم لها عليه لا له فيها.

الصفحة 55

وتعرف قصور نوعك. وتتأخر حيث أحرك القدر ⁽¹⁾ فما عليك غلبة المغلوب ولا ظفر الظافر ⁽²⁾ . فإنك لذهاب في التيه. رواج عن القصد ⁽³⁾ ، ثم كشف له أمير المؤمنين عن أمور يعرفونها فقال: " ومنا النبي ومنكم المكذب ومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف، ومنا سيد شباب أهل الجنة ومنكم صبية النار. ومناخير نساء العالمين، ومنكم حمالة الحطب، في كثير مما لنا وعليكم. فإسلامنا ما قد سمع. وجاهليتنا لا تدفع. وكتاب الله يجمع لنا ما شذ عنا. وهو قوله سبحانه وتعالى: (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) ⁽⁴⁾ ، وقوله تعالى:

(إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) ⁽⁵⁾ . فنحن مرة أولى بالقوبة، وترة

أخرى أولى بالطاعة، ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلجوا عليهم - فإن يكن الفلج به. فالحق لنا نونكم. وإن يكن بغوه فالأنصار على دعواهم. وزعمت أنى لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت. فإن يكن ذلك كذلك. فليست الجناية عليك. فيكون العذر إليك. وقلت: إني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أباع، ولعمر الله لقد ردت أن تدم فمدحت.

وأن تفضح فافتضحت. وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكاً في دينه. ولا موتاباً بيقينه. وهذه حجتى إلى غيرك قصداً. ولكني أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكها. ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان، فلك أن تجاب عن هذه لوحكم منه. فأينا كان أعدي له وأهدي إلى مقاتله؟ أمن بذل له نصرته فاستنقده واستكفه، أمن استنصوه

فزاخي عنه وبث

(1) أي ألا تفرق بنفسك وتكف ولا تحمل عليها ما لا تطيقه.

(2) مثل قولك: ضع نفسك حيث وضعها الله.

(3) أي ما الذي أدخلك بيني وبين أبي بكر وعمر وأنت من بني أمية لست هاشميا ولا تيميا ولا عنويا، ولست مهاجرا.

(4) أي تتوك ما يؤمك فعله وتتحدث عن الصحابة وما جرى بعد موت النبي. ونحن إلى الكلام في غير هذا أخرج منا إلى

الكلام في البيعة وحقن الدماء والدخول تحت طاعة الإمام (5) سورة الأنفال: الآية 75.

الصفحة 56

(1) المنون إليه حتى أتى قوره عليه... " .

لقد فتح معاوية بابا فيه من الحجج الكثير. وكان الإمام لا يريد لهذا الباب أن يفتح على مصراعيه. لأنه كان في حاجة لحقن الدماء بالدخول تحت بيعته.

وعندما أصر معاوية قال الإمام في رسالته: " ألا ترى غير مخير لك. ولكن بنعمة الله أحدث " أي لست عندي أهلا لأن أخبرك بذلك. فإنك تعلمه. ومن يعلم الشيء لا يجوز أن يخبر به. ولكن أذكر ذلك. لأنه تحدث بنعمة الله علينا. وقد أمرنا بأن نتحدث بنعمته سبحانه (2) .

ويبدو أن حديث معاوية في هذا الباب الذي يعلمه. دفع الآخرين كي يذكروه إن كان قد نسي رغبة منهم في حقن الدماء. ومن هؤلاء محمد بن أبي بكر. فلقد بعث برسالة إلى معاوية ومما جاء فيها " إن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته خلق خلقا بلا عبث ولا ضعف في قوة: لا حاجة به إلى خلقهم. ولكنه خلقهم عبيدا وجعل منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا. ثم اختلهم على علمه. فاصطفى منهم محمدا صلى الله عليه وسلم. فاختره رسالته. واختره لوحيه. وائتمنه على أمره. وبعثه رسولا مصدقا لما بين يديه من الكتب. ودليلا على الشرائع. فدعا إلى سبيل أمره بالحكمة والموعظة الحسنة. فكان أول من أجاب وأجاب، وصدق ووافق فأسلم وسلم. أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب. فصدقه بالغيب المكتوم وآثره على كل حميم - ووقاه كل هول، وواساه بنفسه في كل خوف. فحرب حربه، وسالم سلمه " (3) ، وقال محمد بن أبي بكر في رسالته: " وقد رأيتك تساميه وأنت أنت.. وهو هو السابق المبرز في كل خير... وأنت اللعين ابن اللعين. لم تول أنت وأبوك تبغيان لدين الله الغوائل وتجتهدان على إطفاء نور الله. وتجمعان على ذلك الجوع وتبذلان فيه المال. وتحالفان في ذلك القبائل. على هذا مات أبوك. وعلى ذلك

(1) سورة آل عمران: الآية 68.

(2) ابن أبي الحديد 599 / 4.

(3) ابن أبي الحديد 607 / 4.

الصفحة 57

خلفته. والشاهد عليك بذلك من يؤي ويلجأ إليك من بقية الأخاب ورؤوس النفاق والشقاق لرسول الله صلى الله عليه وسلم. والشاهد لعلي مع فضله وسابقته القديمة أنصله الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن. فضلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار. فهم معه كتائب وعصائب. يجالون حوله بأسيا فهم ويهزقون دماءهم نونه. يرون الفضل في اتباعه والشقاق والعصيان في خلافه.

فكيف يا لك الويل تعدل نفسك بعلي. وهو وراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصيه وأبو ولده، وأول الناس له اتباعا وآخوهم به عهدا بخوه بسوه ويشركه في أمره. وأنت عدوه وابن عدوه. فتمتع ما استطعت بباطلك ولبيدك ابن العاص في غوايتك. فكأن أجلك قد انقضى وكيدك قد وهى. وسوف تستبين لمن تكون العاقبة العليا. واعلم أنك إنما تكادربك الذي قد أمنت كيده وأيست من روحه وهو لك بالموصاد. وأنت منه في غرور بالله. وبالله وأهل رسوله عنك الغناء. والسلام على من اتبع الهدى " (1)

لقد أراد محمد بن أبي بكر أن يذكر معاوية لعله يعقل الأمور. وإذا كانت لهجة الخطاب بها قوة فإن هذه القوة دعوة ليتخطى معاوية حواجز النفس الأمارة بالسوء. وينتصر على نفسه فيدخل فيما دخل فيه الناس. لتحقق دماء المسلمين ويفوز برضارب العالمين. فماذا كان جواب معاوية؟ لقد كتب إلى محمد بن أبي بكر: من معاوية بن أبي سفيان إلى الولي علي أبيه محمد بن أبي بكر. سلام على أهل طاعة الله. أما بعد. فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله في قدرته وسلطانه. وما اصطفى به نبيه. مع كلام ألقته ووضعته. لرأيك فيه تضعيف ولأبيك فيه تعنيف. ذكرت حق ابن أبي طالب وقديم سابقته وقوابته من نبي الله ونصوته له ومواساته إياه في كل خوف وهول. واحتجاجك علي وفخرك يفضل غيرك لا بفضلك.. فأحمد إليها صرف ذلك الفضل عنك. وجعله لغيرك. فقد كنا وأبوك معنا في حياة نبينا نرى حق ابن أبي طالب لازما لنا وفضله مبرزا علينا، فلما اختار الله لنبيه ما عنده وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته. وأفلح

(1) ابن أبي الحديد 632 / 1.

الصفحة 58

حجته (1) . قبضه الله إليه فكان أبوك وفاروقه أول من ابته وخالفه. على ذلك اتفاقا واتسقا. ثم دعواه إلى أنفسهما فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما. فهما به الهجوم ورأدا به العظيم - فبايعهما وسلم لهما. لا يشركانه في أمرهما. ولا يطلعانه على سرهما حتى قبضا وانقضى أمرهما. ثم أقاما بعدهما ثالثهما عثمان بن عفان.

يهتدي بهديهما ويسير بسيرتهما. فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأفاصي من أهل المعاصي. وبطنتما له وظهرتما وكشفتما له عدوتكما وغلتما حتى بلغتما منه مناكما. فخذ حنوك يا ابن أبي بكر فسوي وبال أمرك. وقس شوك بفترك كقصر عن أن تسوي أن تولي من يزن الجبال بحلمه. ولا تلين على قسر قناته.

ولا يترك ذو مدى أناته. أبوك مهد له مهاده وبنى ملكه وشاده. فإن يكن ما نحن فيه صوابا فأبوك أولى. وإن يكن جورا فأبوك أسه ونحن شركؤه. فبهديه أخذنا وبفعله اقتدينا ورأينا أباك فعل ما فعل فاحتدنا مثاله واقتدينا بفعاله. فعتب أباك بما بدا

لك. أو دع. والسلام على من أناب ورجع من غايبته وناب " (2) .

إن سياسة معاوية التي اعتمدها ليشكك بها في مناقب أمير المؤمنين علي.

لم تقف عند التشكيك والمتاحرة بحرب الجمل وإنما اندفعت نحو الخلافة لتسجل على أمير المؤمنين أي اعتراض يخدم

القاسطين في بؤغ أهدافهم.

وعندما أدلى محمد بن أبي بكر بدلوه رغبة منه في الإصلاح. كانت رسالة معاوية التهديدية إليه. فمعنى الرسالة: أنك إذا

تكلمت مس جنورك ما تقول. وما تقوله لن يبطل دم عثمان وستهتف الجماهير بالقصاص تكلمت أو صمت، ولن تجد الجماهير

بديلا عن اختيار المسلمين لأنفسهم.

ولكن محمد بن أبي بكر تكلم بدليل أن خطابه وخطاب معاوية إليه بين أيدينا في أكثر من مصدر. ولقد ظهرت في الساحة

قبل وبعد صفين أحاديث وأسئلة حائرة. جاءت نتيجة لسياسة معاوية الإعلامية في هذا الباب. وما كان لهذه الأسئلة أن تطرح

في هذا الوقت العصيب الذي يبحث فيه الإمام عن وحدة

(1) أي قومها وأظهرها.

(2) ابن أبي الحديد 632 / 1.

الصفحة 59

الأمة. لولا أن معاوية فتح لها الباب بغية أن تصب نتائجها العرجة في سلته.

ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن. صحيح أن هناك من هاجر إلى معاوية وكان الدافع إلى هجرتهم الحصول على

الأموال. وليس الاقتناع بما يقول، ولكن الأهم أن أهل البصائر فرقوه بعد أن عرفوه. يقول أمير المؤمنين له في رسالة أثناء

تلك الحملة الإعلامية: ورديت (1) جيلا من الناس كثرا (2) .

خدعتهم بغيك (3) . وألقيتهم في موج بحوك تغشاهم الظلمات. وتتلاطم بهم الشبهات. فجاروا (4) . عن وجهتهم (5) . ونكصوا

على أعقابهم. وتولوا على أدبيلهم. وعولوا على أحسابهم (6) . إلا من فاء من أهل البصائر. فإنهم فرقوك بعد معرفتك.

وهربوا إلى الله من مولزرتك. إذ حملتهم على الصعب. وعدلت بهم عن القصد، فاتق الله يا معاوية في نفسك. وجاذب

الشیطان قيادك. فإن الدنيا منقطعة عنك. والآخرة قبيبة منك (7) .

3 - الإعلام العلوي:

كان من نتائج التشكيك الأموي بروز أسئلة لا بد أن يجيب عليها الإمام وحده وليس أحدا غيره. سأله بعض أصحابه: كيف

دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟ فقال: أما الاستبداد (8) علينا بهذا المقام. ونحن الأعلون نسبا والأشون بالرسول

صلى الله عليه وسلم نوطا (9) . فإنها كانت

(1) أرديتهم / أهلكتهم.

(2) جيلا من الناس / أي صنفا من الناس.

(3) الغي / الضلال.

(4) وجلروا / أي عدلوا عن القصد.

(5) ووجهتهم / يقال: هذا وجهه الرأي، أي هو الرأي بنفسه.

(6) أي لم يعتموا على الدين وإنما أردتهم الحمية ونخوة الجاهلية فأخلوا إليها وتوكلوا الدين.

(7) ابن أبي الحديد 4 / 767.

(8) الاستبداد بالشئ / التفود به.

(9) النوط / الالتصاق.

الصفحة 60

أؤة⁽¹⁾ شحت⁽²⁾ عليها نفوس قوم. وسخت⁽³⁾ عنها نفوس آخرين. والحكم الله والمعود إليه يوم القيامة.

ودع عنك نهبا صحيح في حواته * ولكن حديثا ما حديث الرواحل

وهلم الخطب في ابن أبي سفيان. فلقد أضحكني الدهر بعد إيكائه⁽⁴⁾.

ولا غرر والله. فيا له خطبا يستوغ العجب. ويكثر الأود⁽⁵⁾. حاول القوم إطفاء نور الله من مصباحه. وسد فوره من

ينوعه. وجد هوا بيني وبينهم شربا وبيئا.

فإن ترفع عنا وعنهم محن البلوي، أحملهم من الحق. وإن تكن الأخرى " فلا تذهب نفسك عليهم حسوات إن الله عليهم بما

يصنعون " ⁽⁶⁾.

وقال الإمام ردا على ما يشاع في الساحة، وقد قال قائل: إنك على هذا الأمر يا ابن أبي طالب لحريص. فقلت: بل أنتم والله

لأحرص وأبعد. وأنا أخص وأقرب. وإنما طلبت حقا لي وأنتم تحولون بيني وبينه. وتضربون وجهي نونه. فلما قوعته بالحجة

في الملاء الحاضرين. هب كأنه بهت لا يبوي ما يجيبني به. اللهم إني أستعديك⁽⁷⁾ على قريش ومن أعانهم. فإنهم قطعوا

رحمي⁽⁸⁾. وصغروا عظيم متولتي⁽⁹⁾، وأجمعوا على منزعتي أموا هو لي. ثم قالوا: إلا إن في الحق أن تأخذه. وفي الحق

أن توكله " ⁽¹⁰⁾.

كان الإمام يجيب على أسئلة الحاضر بوقائع حدثت في الماضي فبين أنهم

(1) أي استنثار بالأمر واستبدادا به.

(2) شحت / نحلت.

(3) سخت / جادت.

(4) يشير إلى ما كان عنده من الكأبة لتقدم من سلف عليه، ثم جاء معاوية نظوا له.

(5) الأود / العوج.

(6) ابن بي الحديد 303 / 3.

(7) أي أطلب أن تساعدني عليهم.

(8) لم وعوا قوبه من النبي.

(9) أي لم يقفوا مع النصوص الواردة فيه.

(10) ابن أبي الحديد 350 / 3.

الصفحة 61

لم يقتصروا على أخذ حقه ساكتين عن الدعوى. ولكنهم أخنوه وادعوا أن الحق لهم وأنه يجب عليه أن يتوك المنزعة فيه. فإيا لبيتهم أخنوه معترفين بأنه حقه. فكانت المصيبة به أخف وأهون (1).

ولقد ذكرنا في هذا الكتاب أن الساحة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كان بها العديد من التيارات التي تصد عن سبيل الله. وذكرنا أن الصحابة الكبار رأوا أن يحيوا هذه التيارات حتى لا تبتطش بالدعوة فكان ما جرى في السقيفة. والإمام هنا لا يخص إنسانا بعينه نزع الأمر. وإنما يذكر قريشا إذ تحدث عن الذين قطوارحمه وصغروا متولته وأجمعوا على منزلته. وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه في أن قريشا دبرت أمرا. وبعض قريش هموا بعمل كان في رأيهم إنقاذا للدعوة. وبعد السقيفة اعتزل الإمام علي وكانت له مكانته بين القوم حتى كان يوم الشورى وفيه رفعت أعلام " إنك على هذا الأمر يا ابن أبي طالب لحريص ".

وبعد أن وضع الإعلام العلوي النقاط فوق الحروف في قضية طرحها الإعلام الأموي الذي يبتغي التشكيك والمتاحرة بكل شيء.

طالب الإمام أتباعه إذا سألوا أن يسألوا تفقها فقال: سل تفقها. ولا تسأل تعنتا، فإن الجاهل المتعلم شبيهه بالعالم. وإن العالم المتعنت شبيهه بالجاهل (2).

وقال: " لا تجعلوا علمكم جهلا ويقينكم شكا. إذا علمتم فاعملوا. وإذا تيقنتم فأقدموا " (3)، وقال: " اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية.

لا عقل رواية. فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل (4)، ثم طالب الإمام بكتابة العلم ليكون حجة على امتداد الزمان فقال: " اللق نواتك. وأطل جلفة قلمك. وفوج بين السطور. وقومط بين الحروف فإن ذلك أجدر بصباحة

(1) ابن أبي الحديد 351 / 3.

(2) ابن أبي الحديد 620 / 5.

(3) ابن أبي الحديد 579 / 5.

(4) ابن أبي الحديد 374 / 5.

الخط " (1) ، وقال، " العلم علمان. مطوع ومسوع. ولا ينفع المسوع إذا لم يكن المطوع " (2) وجبت الناس في العلم فقال: " كل وعاء يضيق بما جعل فيه:

الإواعاء العلم فإنه يتسع " (3) ، وساق الناس إلى طريق الفكر فقيل له: صف لنا العاقل، فقال: هو الذي يضع الشيء في مواضعه فقيل: فصف لنا الجاهل، قال: قد فعلت (4) . وقيل له: ما هو الخير؟ فقال: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك. ولكن الخير أن يكثر علمك. وأن يعظم حلمك " (5) .

لقد كان الإعلام العلوي يدق أوتاد العلم في كل مكان ويعمل على نوام العلم ليكون حجه على كل زمان. قال الإمام حين سأله رجل أن يعرفه ما الإيمان قال له: إذا كان غدا فأنتي حتى أخبرك على أسمع الناس، فإن نسيت مقالتي حفظها عليك غيرك فإن الكلام كالشردة يتقفها هذا ويخطئها هذا " (6) .

وبينما كان الإعلام الأموي يدق أوتاد البدعة والوقفة كان الإعلام العلوي يدق أوتاد السنة والجماعة. عن يحيى بن عبد الله بن الحسن عن أبيه، قال: كان علي يخطب فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين. أخبرني من أهل الجماعة ومن أهل الوقفة. ومن أهل السنة ومن أهل البدعة؟ فقال: ويحك أما إذا سألتني فافهم عني، ولا عليك أن تسأل عنها أحدا بعدي. فأما أهل الجماعة فأنا ومن تبعني وإن قفوا. ذلك الحق من أمر الله وأمر رسوله. فأما أهل الوقفة فالمخالفون لي ومن اتبعني وإن كثروا. وأما أهل السنة المتمسكون بما سنه الله لهم ورسوله وإن قفوا، وأما أهل البدعة. فالمخالفون لأمر الله ولكتابه ورسوله العاملون وأبيهم وأهوائهم وإن كثروا. وقد مضى الفوج الأول وبقيت أفواج. وعلى الله

(1) ابن أبي الحديد 614 / 5.

(2) المصدر السابق 631 / 5.

(3) المصدر السابق 490 / 5.

(4) المصدر السابق 517 / 5.

(5) المصدر السابق 372 / 5.

(6) المصدر السابق 572 / 5.

قصهما واستئصالها عن حذبة الأرض " (1) .

وقال له رجل: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الفتنة؟ فقال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كيف صورك إذا خضبت هذه من هذا. وأهوي بيده إلى لحيتي ورأسي؟ فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله ليس ذلك من مواطن الصبر ولكن من مواطن البشوي والكشر. فقال لي: أجل. ثم قال لي: يا علي إنك باق بعدي ومبتلي بأمتي. ومخاصمهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى. فأعدد جوابا فقلت: بأبي أنت وأمي. بين لي ما هذه الفتنة التي يبتلون بها، وعلى ما أجاهدكم بعدك؟ فقال: إنك ستقتل

بعدي الناكثة والقاسطة والملرقة. وجلاهم وسماهم رجلا رجلا!! ثم قال لي: وتجاهد أمتي على كل من خالف القوان ممن يعمل في الدين بالوأي. ولارأي في الدين. إنما هو أمر من الرب ونهيه فقلت: يارسول الله فأرشدني إلى الفلج عند الخصومة يوم القيامة، فقال:

نعم. إذا كان ذلك فاعتصر على الهدى. إذا قومك عطفوا الهدى على العمى.

وعطفوا القوان على الوأي فتألولوه وأبهم. تتبع الحجج من القوان بمشتبهات الأشياء الكاذبة عند الطمأنينة إلى الدنيا والتهالك والتكاثر. فأعطف أنت الوأي على القوان إذا قومك حرفوا الكلم عن مواضعه عند الأهواء الساهية والهوج الآثم والقادة الناكثة والوفقة القاسطة والأخرى المرقة. أهل الإفك المردى والهوى المطغى والشبهة الحالقة. فلا تتكلن عن فضل العاقبة فإن العاقبة للمتقين... " (2) ، والحديث طويل ويشهد بصحته فضلا عن أنه حديث صحيح ما رواه حذيفة وعمار وأبو أيوب الأنصلي حين تحدث عن قتال علي للبغاة وسيأتي في موضعه.

ثم قال إمام المتقين. وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: وإياك يا علي أن يكون خصمك أولى بالعدل والإحسان والتواضع لله والافتداء بسنتي والعمل بالقوان منك. فإن من فلج الرب على العبد يوم القيامة، أن يخالف

(1) رواه وكيع (كنز العمال 183 / 16).

(2) رواه وكيع في الغرر (كنز العمال 183 / 16).

الصفحة 64

فرض الله أو سنة سنها نبي أو يعدل عن الحق ويعمل بالباطل. فعند ذلك يملي لهم فيزدادوا إثما قال تعالى: (إنما نملي لهم ليزدادوا إثما)، يا علي إن القوم سيفتتون ويفتخرون بأحسابهم وأموالهم ويؤمنون أنفسهم، ويمنون دينهم على ربهم. ويتمنون رحمته ويؤمنون عقابه. ويستحلون حوامه بالمشتبهات الكاذبة.

فيستحلون الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية والوبا بالبيع ويمنعون الزكاة ويطلب البر. ويتخذون فيما بين ذلك أشياء من الفسق لا توصف صفتها. ويلي أمرهم السفهاء ويكثر تتبعهم على الجور والخطأ، فيصير الحق عندهم باطلا والباطل حقا. ويتعاونون عليه ويؤمنونهم بالسنتهم، ويعيبون العلماء ويتخذونهم سخريا.

قلت: يارسول الله فبأية المنزل هم إذا فعلوا ذلك. بمقولة فتنة أو بمقولة ردة؟

قال: بمقولة فتنة. ينقذهم الله بنا أهل البيت عند ظهورنا (1) ... (يوجد بياض في المتن) ثم تحدث عن الفتن فبين أن الله فتح

بأهل البيت وبهم يختم وبهم يقصم كل جبار وكل منافق. ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي:

يا علي إنما مثل هذه الأمة كمثل الغيث لا يوري أوله خير أم أخوه. وبين ذلك نهج أعوج لست منه وليس مني " (2) ، وهذا

حديث رواه أيضا الإمام أحمد والماموزي.

وفي الفتوة بين موقعة الجمل وبين صفين. كان الإعلام العلوي يسوق الناس إلى صواط الله الغوير الحميد ولم يتوك الإمام

موقفا إلا وأقام عليه حجة.

ولم يترك باطلاً إلا وضوبه ليخرج الحق من جنبه. لقد كان الإمام يعرف المنافقين. نظراً لأن النبي صلى الله عليه وسلم وضع عنده أصول الأحداث في المستقبل. فوفقاً لهذه الأصول ترى النفاق يشع بدون تدخل من أحد. لذا كان الإمام يسوق الناس إليه في عالم ترك بنو أمية بصماتهم على امتداد طريقه فكان يقول: " أنا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الفجار "، وقال: معنى ذلك أن المؤمنين يتبعوني. والفجار يتبعون المال. كما تتبع النحل يعسوبها. وهو

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

الصفحة 65

(1) رئيسها ، وقال الإمام: لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني. ولو صببت الدنيا بجماتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني وذلك أنه قضى فانقضى على لسان النبي الأُمي صلى الله عليه وسلم أنه قال: يا علي. لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق (2) ، وفي وصف المنافقين يقول الإمام:

" أوصيكم عباد الله بتقوى الله. وأحذركم أهل النفاق. فإنهم الضالون المضلون. والزالون الغزلون. يتلونون ألوانا. ويفتنون افتنانا (3) . ويعمدونكم بكل عماد (4) . ويوصدونكم بكل موصاد (5) . قلوبهم دوية (6) . وصفاحهم نقية (7) . يمشون الخفاء. ويدبون الضواء. وصفهم نواء. وقولهم شفاء وفعلهم الداء العياء (8) ، حسدة الرخاء (9) . وموكدو البلاء (10) ، ومقنطوا الرجاء (11) لهم بكل طريق صريع. وإلى كل قلب شفيح (12) . ولكل شجو دموع (13) . ينقلضون الثناء (14) . ويتراقبون الخواء (15) . إن سأوا الحفوا (16) . وإن عدلوا

(1) ابن أبي الحديد 614 / 5.

(2) ابن أبي الحديد 324 / 5 والحديث روى شطوه الأخير مسلم والترمذي وغيرهم.

(3) أي يتشعبون فنونا أي ضروبا.

(4) يعمدونكم / يهدونكم ويفدحونكم. عماد / بأمر فادح.

(5) أي يعدون المكاييد لكم.

(6) قلب دو / أي فاسد.

(7) جمع صفحة الوجه.

(8) أي أقوالهم أقوال الزاهدين وأفعالهم أفعال الفاسقين الفاجرين.

(9) أي يحسنون كل النعم.

(10) أي إذا وقع واحد من الناس في البلاء أكنوه عليه بالسعايات وإغواء السلطان عليه.

(11) أي يبذلون بشروهم رجاء الراجي قنوطا.

(12) أي يستحونوا على قلوب الناس بالوباء والتصنع.

(13) أي يبكون عند أهل كل حزن ومصاب.

(14) أي يثني زيد على عمرو، ليثني عمرو عليه في ذلك المجلس.

(15) أي يوتقب كل واحد منهم على ثنائه ومدحه لصاحبه جزاء منه إما بالمال أو بأمر آخر.

(16) الإلحاف في السؤال: الاستقصاء فيه. وهو مذموم.

الصفحة 66

كشفوا⁽¹⁾ ، وإن حكوا أسرفوا⁽²⁾ . قد أعنوا لكل حق باطلا⁽³⁾ ، ولكل قائم مائلا. ولكن حي قاتلا، ولكل باب مفتاحا⁽⁴⁾ ،
ولكل ليل مصباحا⁽⁵⁾ .

يتوصلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم⁽⁶⁾ . وينفقوا به أعلاقهم⁽⁷⁾ .

يقولون فيشبهون. ويصفون فيموهون. قد هونوا الطويق، وأضلعوا المضيق⁽⁸⁾ .

فهم لمة الشيطان. وحة النوان⁽⁹⁾ ، (أولئك حزب الشيطان ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون)⁽¹⁰⁾ .

وبعد أن وصف أمير المؤمنين موبع النفاق وصفا جامعا شاملا سئل عن الإيمان فقال: الإيمان على أربع دعائم: على

الصبر واليقين. والعدل والجهاد.

والصبر منها على أربع شعب: على الشوق، والشفق، والرهق، والترقب، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن

أشفق من النار اجتنب المحرمات، ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات. ومن رتقب الموت سولع في الخوات.

واليقين منها على أربع شعب: على تبصرة الفطنة، وتأول الحكمة، وموعظة العورة، وسنة الأولين، فمن تبصر في الفطنة،

تبينت له الحكمة، ومن تبينت له الحكمة، عرف العورة، ومن عرف العورة فكأنما كان في الأولين.

والعدل منها على أربع شعب: على غائض الفهم. وغور العلم. وزهوة الحكم، ورساخة اللحم، فمن فهم علم غور العلم.

ومن علم غور العلم صدر.

(1) أي إذا عزلك أحدهم كشف عيوبك في ذلك اللوم والعدل. وربما كشفها لك بمختصر ممن لا تحب ذكرها بحضرته.

(2) إذا سأل أحدهم ففوضته في مالك أسرف ولم يقنع بشئ.

(3) يقيمون الباطل في معرضة الحق.

(4) أي ألسنتهم ذلقة قاهرة على فتح المغلفات.

(5) أي كل أمر مظلم فقد أعنوا له كلاما ينوه ويضئيه.

(6) أي لتتفق سلعتهم.

(7) الإغلاق / السلعة الثمينة.

(8) أضلعوا الطويق / أي أمالوه.

عن شوائح الحلم. ومن حلم لم يفوط في أمره. وعاش في الناس حميدا، والجهاد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر رُغم أنوف المنافقين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه. ومن شنأ الفاسقين وغضب لله غضب الله له ورأضاه يوم القيامة.

والكفر على أربع دعائم: على التعمق، والتنزع، والزيغ، والشقاق، فمن تعمق لم ينب إلى الحق، ومن كثر زاعه بالجهل دام عماء عن الحق.. ومن زاغ ساءت عنده الحسنة، وحسنت عنده السيئة. وسكر سكر الضلالة، ومن شاق وعوت عليه طوقه. وأعضل عليه أمره. وضاق عليه مخرجه.

والشك على أربع شعب: على التمادي، والهول، والتردد والاستسلام، فمن جعل العواء ديدنا لم يصبح ليلة، ومن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه.

ومن تردد في الريب. وطئته سنايك الشيطان. ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيهما " (1)

وبعد أن تحدث الإمام عن النفاق والإيمان. تحدث عن الإسلام فقال:

" لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي. الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين. واليقين هو التصديق، والتصديق هو الاقوار، والاقوار هو الأداء والأداء هو العمل " (2) ، وقال إمام المنقنين: " غدا ترون أيامي ويكشف لكم عن سواي.

وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غوي مقامي " (3) ، وقال الإمام: إن أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلا عبد مؤمن

امتحن الله قلبه للإيمان ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة، وأحلام رزينة، أيها الناس: سلوني قبل أن تفقدوني! (4) ، الله أكبر

(1) ابن أبي الحديد 302 / 5، ووكيع وابن عساكر وابن أبي الدنيا (كنز العمال 183 / 16، 206 / 96).

(2) ابن أبي الحديد 413 / 5.

(3) المصدر السابق 212 / 30.

(4) ابن أبي الحديد 135 / 4 ، وروى ابن سعد " سلوني عن كتاب الله... " ، الطبقات. 338 / 2.

يا أمير المؤمنين!! إنه قول باب مدينة العلم الذي يجلس على نروتها أحمد صلى الله عليه وسلم.. أيها الناس: سلوني قبل أن تفقدوني. فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض، قبل أن تشغر وجلها فتنة تطأ في خطامها.

وتذهب بأحلام قومها " (1)

يقول ابن أبي الحديد: أجمع الناس كلهم على أنه لم يقل أحد من الصحابة، ولا أحد من العلماء " سلوني " غير علي بن أبي

طالب كرم الله وجهه ذكر ذلك ابن عبد البر المحدث في كتاب "الإستيعاب" والمواد بقوله: " فلأنا أعلم بطرق السماء مني بطرق الأرض "، ما اختص به من العلم بمستقبل الأمور.

ولا سيما في الملاحم والدول. وقد صدق هذا القول عنه ما قوَّتر عنه من الأخبار بالغيوب المتكررة. لا هوة ولا مائة هوة. حتى زال الشك والريب في أنه إخبار عن علم. وأنه ليس عن طويق الاتفاق. وقد تأول قوم على وجه آخر قالوا: رُاد أنا بالأحكام الشوعية والفتوى الفقهية أعلم مني بالأمور الدنيوية، فعبر عن تلك بطرق السماء، لأنها أحكام إلهية، وعبر عن هذه بطرق الأرض لأنها من الأمور الأرضية ⁽²⁾.

وقال ابن أبي الحديد فيقول الإمام: " إن أمرنا هذا صعب مستصعب، ولا يحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه بالإيمان "، قال: هذه الكلمة قد قالها كرم الله وجهه مراراً. ووقفت في بعض الكتب على خطب من جملتها: إن قريشا طلبت السعادة فشقيت، وطلب النجاة فهلكت. وطلبت الهدى فضلت، ألم يسمعوأ ويحهم قوله تعالى: " والذين آمنوا واتبعتهم نزيهم بإيمان ألحقنا بهم نزيهم ⁽³⁾ "، فأين المعدل المزع عن نزية الرسول، الذين شيد الله بنيانهم فوق بنيانهم. وأعلى رؤوسهم فوق رؤوسهم، واختلهم عليهم، ألا إن النزية أفنان

(1) ابن أبي الحديد 135 / 4.

(2) ابن أبي الحديد 138 / 4.

(3) سورة الطور: الآية 21.

أنا شجرتها. ووحدة أنا ساقها. واني من أحمد بمقولة الضوء من الضوء... إن أمرنا صعب مستصعب. لا يعرف كنهه إلا ثلاثة: ملك مقرب. أو نبي مرسل.

أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان. فإذا انكشف لكم سر. أو وضح لكم أمر فاقبلوه. وإلا فاسكتوا تسلموا وردوا علمنا إلى الله. فإنكم في أوسع مما بين السماء والأرض " ⁽¹⁾.

وداؤة الملك المقرب أو النبي المرسل. هي داؤة الوحي حيث يوجد النبي صلى الله عليه وسلم وداؤة العبد الذي امتحن الله قلبه للإيمان هي داؤة أهل البيت. والداؤة الأولى تعطي الثانية، حيث طهر على طهر ويقول ابن أبي الحديد: أعلم أن أمير المؤمنين كرم الله وجهه لو فخر بنفسه. وبالغ في تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته التي آتاه الله تعالى إياها. واختصه بها، وساعده على ذلك فصحاء العرب كافة لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الرسول الصادق صلوات الله عليه في أمره. ولست أعني بذلك الأخبار العامة الشائعة التي يحتج بها الإمامية على إمامته كخبر الغدير والمقولة وقصة واءة، وخبر المناجاة وقصة خبير وخبر الدار بمكة في ابتداء الدعوة ونحو ذلك. بل الأخبار الخاصة التي رواها فيه أئمة الحديث التي لم يحصل أقل القليل منها لغوه " ⁽²⁾.

ومما سبق علمنا أن أهل الشام رفضوا كل نصيحة وشكوا في كل حقيقة، واستغلوا كل حادثة وكل حركة فشوا طورا

فيها. على أمل أن يصلوا إلى غايتهم حيث كوسي الحكم. وعلمنا كيف واجه الإمام هذا الإعلام وهذه المخططات.
وكيف أمر بالعلم وتدوينه نظرا لما سبقت فيهما بعد على هذه الأحداث. وما ترك الإمام ربما من الدروب إلا وأقام عليه
الحجة وحدد الحركة فيه تحديدا دقيقا. ومما سبق يمكن بوضوح معرفة أي دائرة من النواثر هي التي تقاوم لتكون كلمة الله هي
العليا. وأبن يوجد لواء الضلالة والأمواء الذين سيتمنون يوم القيامة أن نوائبهم كانت معلقة بالثريا. يتذبذبون بين السماء
والأرض ولم يكونوا عملوا.

(1) ابن أبي الحديد 138 / 4

(2) ابن أبي الحديد 249 / 3.

الصفحة 70

على شئ أو أنهم لم يولوا شيئا. كما ورد في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا.

4 - الاصطفاة للقتال:

على أرض صفت رفعت رايتان لا ثالث لهما. راية النبي صلى الله عليه وسلم بمودة أهلها وأعلن أن حربهم حربه وسلمهم
سلمة.. وبين أنهم يؤدون عنه وأنهم يورون مع الكتاب ولن يفتورا حتى يردا على الحوض. وأخبر أن الأمة ممتحنة بأصحاب
هذه الراية ولذلك أوصي بهم في كل موضع من المواضع وقال: "أوصيكم الله في أهل بيتي".
وراية حذر النبي صلى الله عليه وسلم من فتح الطريق لها. وحدد أسماء وبين معالم للفتن. كيف يقف الصحابة عند الأبواب
ويمنعوا الناس من الدخول فيها. لأن الدخول يعني فتح طريق آخر على امتداده توقع رايات أكثر من سبعين فوقة ووى على
امتداده الأئمة المضلون وأمواء الجور الذين يقتتلون على الملك ويحرصون على الإمرة. وفي نهاية المطاف عندما تهدم الدنيا
يتمنوا أن يخروا من الثريا ولم يلوا من أمر الناس شيئا. وأخبر النبي أن التكالب على الدنيا يعني عدم الورد على الحوض لأن
الكتاب لا يأمر الناس بالحرص على الإمرة واكتناز الذهب والفضة.

لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ويل لبني أمية" ثلاث مرات (1)، ولقد وردت أحاديث صحيحة أن النبي صلى الله
عليه وسلم ذكر أسماء قادة الفتن وحذر منهم. وكان حذيفة يقول: أنسي أصحابي أم تتاسوا. والله ما ترك رسول الله صلى الله
عليه وسلم من قائد فتنة إلى أن تتقضي الدنيا... ألا وقد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته (2)، وروي عن الإمام علي

وعمار

(1) رواه ابن منده وأبو نعيم عن حمران بن جابر ورواه ابن قانع عن سالم الحضرمي (كنز العمال 165 / 11).

(2) رواه أبو داود، وسبق تخريجه.

الصفحة 71

بمثل ذلك. وإذا كان النبي قد أخبر بأسماء رؤوس الفتن. فإنه أخبر أيضا بأسماء.

أعلام الهدى. ولقد ذكرنا ما ورد في أهل البيت. وأخبر عنهم أيضا آخر الزمان ولكن يبدو أن الصحابة نسوا هذه الأسماء كما ذكر حذيفة. وهذا الإخبار جاء في صحيح مسلم في مواضع. منها عندما تحدث عن القيادة الإسلامية التي ستفتح المدينة العظمى قبل خروج الدجال. يقول النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الفتح "... ويقبلون فيبعثون عشر فرس إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وأولاد خيولهم هم خير فرس على وجه الأرض " (1) ، فهنا توجد أسماء وعند مسلم أيضا " لا زال هذا الدين عزوا منيعا إلى اثني عشر خليفة " ولكن الولوي لم يسمع كلمة قالها النبي بعد ذلك: فقال: " فقال كلمة أصمناها الناس فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلهم من قريش " (2) .

هذه أحاديث ذكرت فيها أسماء. ولا يمكن لعامل أن يقول إن النبي احتفظ بهذه الأسماء لنفسه ولم يبلغها لأمته. لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه الله ليقوم حجة. وليس معنى أن في الصحابة من نسي أن جميعهم تناسوا. فبنوا أمية راية رويت فيهم أحاديث تحذر الناس من طريقتهم. فعند الباب أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أشد قومه بغضا له قبائل منهم بنو أمية (3) ، وأخبر أن بني أمية إذا تقلوا المناصب وبلغوا أربعين - وفي رواية - ثلاثين رجلا. فإنهم سيتخذون مال الله هولا أي يكون لقوم نون قوم. ودين الله دخلا أي يدخلوا فيه أمورا لم تود في كتاب أو سنة. وعباد الله هولا أي عبيدا يستخدمونهم ويستعبدونهم " (4) .

(1) رواه مسلم كتاب الفتن (الصحيح 178 / 8).

(2) رواه مسلم كتاب الإمارة (6 / 4).

(3) رواه البيهقي عن عمران وقال ابن كثير رجاله ثقات (البداية 268 / 6) (ورواه نعيم ابن حماد عن أبي سعيد (كنز العمال 169 / 11)).

(4) الحديث رواه الإمام أحمد والطواني والزار والحاكم وأبو يعلى والبيهقي عن أبي سعيد وأبي ذر وابن عباس وفي الحديث تحذير من بني أمية أو بني الحكم، ولقد تحدثنا عنه فيما سبق.



وأكثر الأحاديث التي ذكر فيها أسماء بعض الناس أو القبائل كي تحفهم الأمة. استغلها كعب الأخبار. وكان من المتخصصين في القص مستغلا أحاديث آخر الزمان والجنة والنار. فكعب على مساحة اللارواية. جاء بأحاديث من داوة التخدير ووضع عليها رداء التبشير، ولقد استفاد من هذا خط بني أمية من بدايته إلى نهايته. ومن الثابت بل ومن المشهور أن كعبا كان من المنحرفين عن علي بن أبي طالب (1) ، وكان أبو ذر يهاجمه في وجود عثمان إذ آراه يتدخل في توزيع الخراج. وبلغت المأساة ذروتها. عندما ألقى كعب في نفس معاوية بأحاديثه المختلفة وقصصه الإسرائيلية. وأخوه بأنه الخليفة بعد عثمان.

وبعد هذا البيان لا يستغرب أن نسمع أمير المؤمنين علي يقول لأصحابه يوم صفين: انفروا إلى بقية الأخواب، امضوا بنا إلى ما قاله الله ورسوله. إنا نقول صدق الله ورسوله. ويقولون: كذب الله ورسوله (2) ، وليس معنى أنهم يقولون هذا. أنهم يسبغون بين الناس ويرددونها. وإنما المعنى: أن لهم تأويلا خاصا في مال الله. ودين الله وعباد الله. ولهم موقفهم الخاص من رسول الله والذي يعلمه الله. وبينه رسوله عندما وضعهم ضمن الذين يبغضونه. ولا يستغرب أيضا أن نسمع الإمام يقول بعد أن رفع معسكر معاوية المصاحف ليعبر عن أهدافه من تحتها " إن معاوية وابن العاص وابن أبي معيط وحبیب بن سلمة وابن أبي السرح والضحاك، ليسوا بأصحاب دين ولا قآن، أنا أعرف بهم منكم " (3) ، وقوله أيضا في معاوية وأبيه " طليق بن طليق، حزب من الأخواب.

لم يزل حربا لله ورسوله هو وأبوه. حتى دخلا في الإسلام كل هين " (4) ، وقوله: "والذي فلق الحبة ورأى النسمة ما أسلموا. ولكن استسلموا، وأسروا الكفر. فلما وجدوا عليه أعوانا. رجعوا إلى عدوتهم لنا. إلا أنهم لم يتركوا

(1) قال ابن أبي الحديد: روى جماعة من أهل السير أن عليا كان يقول عن كعب الأخبار:

إنه لكذاب. وقال: وكان كعب منحرفا عن علي (ابن أبي الحديد 792 / 1).

(2) رواه الزوار بإسناده (الزوائد 239 / 7).

(3) الطوي 27 / 6، الكامل 161 / 3 ، مروج الذهب 433 / 2 ، البداية والنهاية 298 / 7.

(4) الكامل 148 / 3.

الصلاة " (1) ، ولا يستغرب أن نرى عمار بن ياسر الذي ورد فيه أنه يدعو إلى الجنة وخصومه يدعون إلى النار - إلى غير ذلك من الأحاديث التي ذكرناها - يقول يوم صفين وهو يشير إلى راية معاوية: قاتلت صاحب هذه الراية ثلاثا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه الرابعة " (2) ، وروي أن رجلا سأل عمرا: يا أبا اليقظان، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: قاتلوا الناس حتى يسلموا. فإذا أسلموا عصموا مني دماءهم وأموالهم؟ قال: بلى، ولكن والله ما أسلموا ولكن استسلموا وأسروا الكفر حتى وجوا عليه أعوانا " (3) ، ولا يستغرب أن نسمع ابن مسعود وهو يحدث بحديث فيه اسم من الأسماء التي

حذر النبي صلى الله عليه وسلم منها، قال عبد الله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا رأيت معاوية بن أبي سفيان يخطب على منبري فاضربوا عنقه"، وكان الحسن يقول: فوالله ما فعلوا ولا أفعلوا" (4)، وليس معنى قتله لأنه دخل المسجد، وإنما لأنه يخطب. لأن الخطبة لا بد أن تحمل فكه وثقافته في معنى مال الله ودين الله وعباد الله، وخطورة هذه الثقافة تبلغ مداها إذا كان معاوية ورجاله هم حراس الأمة، لهذا وجدنا الحسن بن علي بعد وفاة أمير المؤمنين. يقيم الحجة على الناس في كل ميدان. فلقد تجهز لقتال معاوية ولكنه خذل، ثم حث الناس على الصمود ولكنهم قالوا: البقية البقية!!

وظلوا الصلح. ثم اشترط الحسن شروطا. ولكن معاوية لم يف بها لسبب بسيط هو أن الأمة كانت تغط في نوم عميق. والحجة لا يأتي إلى الناس وإنما الناس هم الذين يأتون إليه لأن قانون الاختيار يدور على قوله تعالى: (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون" (5).

(1) ابن أبي الحديد 1 / 760.

(2) رواه الطواني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 7 / 243) وابن سعد (الطبقات 3 / 257) والطوري 21 / 6.

(3) ابن أبي الحديد 1 / 760.

(4) المصدر السابق 1 / 760.

(5) سورة يونس: الآية 14.

الصفحة 74

فالوايات يوم صفين، كان فيها من الله وهان. فالذي يقا تل تكون كلمة الله هي العليا معروف. وقتال بني أمية من أجل الملك مشهور. وهذا القتال له بنور غوست في الفتن. وروى أنه قد قيل لسفينة: إن بني أمية زعمون أن الخلافة فيهم. فقال: كذبوا بنو الزرقاء (1)، بل هم ملوك من شر الملوك" (2)، وبني أمية مازعموا هذا إلا على أساس. فلقد سمعوا الأحاديث التي تخبر بأنهم سيصلون إلى الملك (3). ولأن هذه الأحاديث تحذيرية. رفعها من دائرة التحذير إلى دائرة التبشير. وقائلوا على ذلك. ساروا وسط الأمة يتعونون من الفتنة وهم في الفتنة سقطوا لأنهم الذين حفروا حفوتها. وسوى فيما بعد ماذا صنعوا كي بخروهم أمير المؤمنين بخروهم في المستقبل. وسوى أن حركتهم خلال أحداث صفين ما تركت بابا يساعد على تأصيل هذا الشنوذ إلا فتحه ليخلطوا الأمور على الناس فيما بعد. فالذي يبحث في الخلافة يجدهم. والذي يبحث في الملك يجدهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وإذا كنا قد تحدثنا عن الوايات على أرض الاصطفاف. فلنتحدث عن بعض الرجال الذين تحت هذه الوايات. أما معسكر أمير المؤمنين. روى أنه كان في جيش علي ثمانون بديا ومائة وخمسون ممن بايع تحت الشجرة (4)، وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة (5) على رأس هؤلاء: عمار بن ياسر. الذي بشوه النبي صلى الله عليه وسلم بأن الفئة الباغية تقتله وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من عادي عمرا عاداه الله ومن أبغض

(1) الزرقاء امرأة من أمهات بني أمية، رواه ابن حبان (تحفة الأحوازي 479 / 6).

(2) رواه الترمذي وصححه وقال رواه غير واحد (الجامع 503 / 4) وأبو دلوود حديث 4646.

(3) الحديث تحدث به أبو ذر في وجود عثمان وكعب الأحماس، ومعاوية كانت يقوب مروان منه لمعرفته أن في صلبه ملوكا. والإمام علي أخبر مروان بالأحاديث التحذيرية بعد الجمل.

(4) الحاكم (المستترك 104 / 3) البداية 255 / 7.

(5) مروج الذهب 361 / 2.

الصفحة 75

عمرا أبغضه الله " (1) ، وقال: " ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوه إلى الجنة، ويدعونه إلى النار " (2) ، وتحت رواية علي نجد أيضا أويس بن عامر القوني. الذي لم ير النبي صلى الله عليه وسلم. وأخبر النبي أن أويسا خير التابعين - وظهر أويس في عهد عمر بن الخطاب واستغفر لعمر. وعندما طلب عمر أن يكون أويس بجانبه. فضل أويس أن يذهب إلى الكوفة. وعندما ود عمر أن يكتب للأمواء بشأنه. قال أويس إنه يفضل أن يعيش في غواء من الناس. وعاش أويس زاهدا حتى جاء عهد علي فخرج مقاتلا يضرب بالسيف ويصيح: يا خيل الله ركبي! وهناك الكثير تحت رواية الأمير كرم الله وجهه.

أما رواية بني أمية، فتحتها التجار بجميع عناوينهم، روي أن معاوية بعث رجلا إلى أمير المؤمنين وقال له: أبلغ عليا أنني أقاتله بمائة ألف. ما فيهم من يفوق بين الناقة والجمل. وقد بلغ من أوهام في طاعته لهم. أنه صلى بهم عند سوهام إلى صفين الجمعة يوم الأربعاء، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها (3) . إنهم العامة والغواء، الذين يمهدون الطريق لكل فتنة. أما قادة الأولوية الذين قاتلوا بجلد وقوة. فعلى رأسهم: أبو الأعور السلمي، ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعنه. وبسر بن رطاة الذي فعل الأفاعيل في مكة والمدينة واليمن. وأخبره مشهورة، ومنهم أيضا عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وحبيب بن مسلمة الفهري، وعندما قطعوا الماء كان على الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص. وحابس بن سعيد.

والضحاك بن قيس. وغير هؤلاء كثير (4) . وروي عن ابن إسحاق أنه قال:

اجتمع عند معاوية في ليلة من ليالي صفين عمرو بن العاص. وعتبة بن أبي سفيان. والوليد بن عقبة ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر وابن طلحة الطلحات القواعي، فقال عتبة: إن أمرنا وأمر علي بن أبي طالب لعجيب. ما

(1) رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح (الفتح 329 / 22) (الزوائد 293 / 9).

(2) رواه أحمد (الفتح 142 / 23) والبخري (كنز العمال 722 / 11).

(3) مروج الذهب 41 / 3.

(4) ابن أبي الحديد 649 / 1. والطوي أحداث سنة 36.

الصفحة 76

فينا إلا موتور محتاج. أما أنا فقتل جدي عتبة بن ربيعة. وأخي حنظلة، وشوك في دم عمي شيبية يوم بدر، وأما أنت يا وليد، فقتل أباك صوا، وأما أنت يا ابن عامر. فصوع أباك وسلب عمك، وأما أنت يا ابن طلحة، فقتل أباك يوم الجمل وأيتم إخوانك، وأما أنت يا مروان فكما قال الشاعر:

(1) وأفلتتهن عليا جريصا * ولو أدركنه صفر الوطاب

فقال معاوية: هذا الاقوار فأين الغير؟ قال مروان: وأي غير تريد؟ قال:

رُيد أن تشجروه بالوماح، قال: والله يا معاوية ما أراك إلا هاذيا أو هزئا. وما أنا إلا ثقلنا عليك، فقال ابن عقبة:

يقول لنا معاوية بن حرب * أما فيكم لو اتركم طلوب

يشد على أبي حسن علي * بأسمر لا تهجنه الكعوب

إلى أن قال:

فقلت له: ألكعب يا بن هند * كأنك بيننا رجل غريب

(2) أتغرينا بحية بطن واد * إذا نهشت فليس لها طيب

فهم يخافون لأنهم لا يستنون إلى حقيقة. وإنما إلى فتنة شقوا فيها طريقهم. ولأنهم خائفون كان لا بد لهم من جدر تحميهم وتحمي تريحهم.

ومن أجل إقامة هذه الجدر بعثوا المال على العقول والنفوس. وما تركوا خدعة إلا فعلوها ولا مصحفا لإرفعه. وهذا الأسلوب لا يقدم عليه أمير المؤمنين.

وَألا: لأنه حجة ويعلم أنه مقتول. وثانيا: لأن الغادر يرفع له لواء يوم القيامة.

ويظهر غوه على رؤوس الأشهاد.

5 - القتال:

قبل أن يتوجه معاوية إلى صفين، كان قد صالح ملك الروم على مال

(1) لامرئ القيس، علياء / قاتل والد امرئ القيس، الجريص / الذي يؤخذ بريقه، صفر الوطاب / كناية عن القتل.

(2) ابن أبي الحديد 478 / 2.

يحملة إليه لشغله بعلي (1). والذي أشار عليه بالتقريب إلى الروم لتتوخ لعلي هو عمرو بن العاص (2)، وعندما توجه إلى

صفين حاول السيطرة على مصادر المياه، ولكن خطته باءت بالفشل أمام قوات أمير المؤمنين عليه السلام. وعندما اصطف

الفيقان قبل القتال يقول ابن عباس: عقم النساء أن يأتين بمثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والله ما رأيت ولا سمعت

رئيسا يوزن به. رأيت في هذا اليوم عليا وعليه عمامة بيضاء وكان عينيه سواجا سليطا (3)، وهو يقف على طوائف الناس في

مراتبهم يحثهم ويحرضهم، حتى انتهى إلي وأنا في كثيف (4) من الناس. فقال: يا معشر المسلمين، عموا الأصوات، وأكملوا

- (5) اللامة، واستشعروا الخشية، وافلقوا السيوف في الأجفان قبل السل، والحظوا الشزر (6)، واطعنوا الهبر (7)، وناقخوا (8) بالظبا (9)، وصلوا السيوف بالخطا (10)، والنبال بالوماح، وطبخوا عن أنفسكم، فإنكم بعين الله، ومع ابن عمر رسول الله، علونوا الكر، واستقبحوا الفر، فإنه عار في الأعقاب، ونار يوم الحساب، وونكم هذا السواد الأعظم، والرواق (11) المطنب (12)، فاضربوا نهجه، فإن الشيطان راكب صعيده، مفتوض فواعيه، قد قدم للوثبة يدا وآخر

(1) مروج الذهب 418 / 2.

(2) الطوي 186 / 6.

(3) السواج السليط / المتقد بالزيت الجيد.

(4) كثيف / أي حشد وجماعة.

(5) اللامة / الروع.

(6) الشزر / النر بمؤخرة العين.

(7) الهبر / اللحم الكثير.

(8) ناقخوا / دافخوا.

(9) الظبا / حد السيف.

(10) الخطا / الرمي بالسهام.

(11) الرواق / ما بين يدي البيت.

(12) المطنب / المشدود.

الصفحة 78

- (1) للنكوص رجلا، فصبر جميل حتى تتجلي عن وجه الحق، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتوكم أعمالكم، وتقدم أمير المؤمنين على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء (2).
- ومن رآه أمير المؤمنين قبل القتال روي أنه قال: لا تقتلوا القوم حتى يبيدوكم. فأنتم بحمد الله عز وجل على حجة، وتوكم إياهم حتى يبيدوكم حجة أخرى لكم. فإذا قاتلتوهم فهزمتوهم، فلا تقتلوا مدوا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل. فإذا وصلتكم إلى رجال القوم، فلا تهتكوا سوا، ولا تدخلوا درا إلا بإذن، ولا تأخذوا من أموالهم إلى ما وجدتم في عسكوهم، ولا تهجوا امرأة بأذى - وإن شتمت أعضاكم وسببن أهواكم وصلحاءكم فإنهم ضعاف القوى والأنفس (3).
- وبعد هذه التعليمات الرفيعة المستوي، نادي أمير المؤمنين: يا كهيعص (4) اللهم إليك رفعت الأبصار وبسطت الأيدي، ونقلت الأقدام، ودعت الألسن، وأفضت القلوب، وتحركم إليك في الأعمال، فاحكم بيننا وبينهم بالحق، وأنت خير الفاتحين. اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا، وقلة عددنا، وكثرة عدونا، وتشتت أهواننا، وشدة الزمان، وظهور الفتن، فأعنا على ذلك بفتح منك تعجله، ونصر به سلطان الحق وتظوه (5).

وبعد أن فرغ أمير المؤمنين، روي عن الحرث أنه قال: رأيت بعوا من أهل الشاء جاء وعليه راكمه وثقله ⁽⁶⁾ فألقى ما عليه، وجعل يتخلل الصفوف إلى علي بن أبي طالب. فجعل شفه فيما بين رأس علي ومنكبه، وجعل يحركها

(1) النكوص / الفرار والهرب.

(2) مروج الذهب 2 / 420، ابن عساكر (كنز العمال 11 / 347).

(3) الطوي 6 / 6، ابن أبي الحديد 1 / 757.

(4) ابن أبي الحديد 2 / 209.

(5) ابن أبي الحديد 2 / 209.

(6) ثقله / حملة.

الصفحة 79

بحوانه، فقال أمير المؤمنين: والله إنها للعلامة بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ⁽¹⁾. وروي كان فرغ علي بن أبي طالب لا ظهر لها. فقيل له في ذلك، فقال: إذا استمكن عوي من ظهري فلا يبقى ⁽²⁾. وروي إنه كان بعد المعركة وفي نهاية كل يوم كان يظهر في رار ورداء. فقيل له: أنقتل أهل الشام بالغداة وتظهر بالعشي في رار ورداء؟! فقال: أبا لموت تخفوني؟! فوالله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط علي ⁽³⁾.

ولم يكن هدف الإمام القتل، وإنما إقامة الحجة، وفتح طريق الهداية أمام الذين وقوا تحت تأثير الإعلام الأموي، وكان هذا الإعلام قد بث في الناس أن عليا لا يصلى وأنه قتل عثمان، وإذا وقع في يده أسير فإن عليا يقتله صوا. ومن معالم إقامة الحجة أثناء المعركة على الذين سقطوا ضحية للإعلام الأموي. روي أن عليا أتى بأسير يوم صفين، فقال له الأسير: لا تقتلني صوا، فقال الإمام: لا أقتلك صوا إني أخاف الله رب العالمين، وخلي سبيله، ثم قال له: أفيك خير يتابع ⁽⁴⁾. وروي أن شابا من معسكر معاوية أنشد:

أنا ابن رباب الملوك غسان * والدائن اليوم بدين عثمان

نبأنا قواؤنا بما كان * أن عليا قتل ابن عفان

وظل الشاب يشتم ويلعن، فلقبه هاشم بن عتبة وكان من أصحاب علي فقال له: يا هذا إن الموقف وما أردت به. قال: فإني أقاتلكم لأن صاحبكم لا يصلني كما ذكر لي، وأنتم لا تصلون أيضا. وأقاتلكم لأن صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم ساعدتموه على قتله، فقال له هاشم: وما أنت وابن عفان، إنما قتله أصحاب محمد وأبناء الصحابة وقواء الناس، حين أحدث الأحداث وخالف حكم

(1) رواه أبو نعيم وابن عساكر (كنز العمال 11 / 350)، (الخصائص الكبرى 2 / 234).

(2) العقد الفريد 1 / 209.

(3) العقد الفريد 1 / 119. وابن كثير بلفظ آخر (البداية 7 / 265).

الكتاب!! وهم أهل الدين وأولى بالنظر في أمور الناس منك ومن أصحابك...
وأما قولك إن صاحبنا لا يصلي، فهو أول من صلى، وأفقه خلق الله في دين الله، وأولى بالرسول، وأما كل من توى معي
فكلهم قرئ لكتاب الله، لا ينام الليل تهجداً، فلا يغوينك عن دينك هؤلاء الأشقياء المغرورون. فقال له الفتى: يا عبد الله إني
أظنك أمراً صالحاً فتخونني، هل تجد لي من توبة؟ قال هاشم: نعم يا عبد الله تب إلى الله يتب عليك فإنه يقبل التوبة عن عباده
ويعفو عن السيئات ويحب المتطهرين. فوجع الفتى. فقال له أهل الشام: خدعك العواقي، خدعك العواقي. قال: لا ولكن نصح
لي (1).

وروي أن معاوية بعث وفداً ليستلم القتلى، فقابل الإمام علي هذا الوفد وقال لهم: معاوية الذي لم يجعل له سابقة في الدين،
ولا سلف صدق في الإسلام، طليق ابن طليق، حزب من الأحزاب، لم يزل حرباً لله ورسوله هو وأبوه، حتى دخلا في الإسلام
كلهين، ولا عجب إلا من انقيادكم له وتكون آل بيت نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم. ألا إني أدعوكم إلى كتاب
الله وسنة نبيه وإمارة الباطل وإحياء الحق ومعالم الدين. فقالوا: تشهد أن عثمان قتل مظلوماً. قال: لا أقول أنه قتل مظلوماً ولا
ظالماً. فقالوا: الذي لا يتوأ من قتل عثمان نحن نتوأ منه (2). فتلى الإمام (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا
ولوا مدبرين. وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم أن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) (3).

ولم يكتف الإعلام الأموي بهذه النتيجة، وهذا الحشد من الذين صلوا الجمعة يوم الأربعاء. وإنما جلسوا على أرض صفيين
يشتمون الإمام، ليثبتوا الباطل داخل الجماجم الآدمية، ليشق الباطل طريقه في عالم الاحتكاك، روي أن الإمام مر على جماعة
من أهل الشام فيها الوليد بن عقبة وهم يشتمونه فخبير

(1) الطبري 23 / 6، الكامل 159 / 3.

(2) الكامل 148 / 3.

(3) (سورة الروم: الآية 52،، 53.

بذلك، فوقف فيمن يليهم من أصحابه. فقال: انهضوا إليهم عليكم السكينة والوقار، وقار الإسلام وسيما الصالحين، فوالله
لأقرب قوم من الجهل قائدهم ومؤذنه معاوية، وابن النابغة، وأبو الأعرور السلمي، وابن أبي معيط شرب الخمر المجلود جلداً
في الإسلام. وهم أولى من يقومون فينتقصونني ويجذبونني. وقبل اليوم ما قاتلوني وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام، وهم
يدعونني إلى عبادة الأصنام، الحمد لله قديماً عاداني الفاسقون فعبدهم الله، ألم يفتحوا؟ إن هذا لهو الخطب الجليل، إن فساقاً
كانوا غير مرضيين وعلى الإسلام وأهله متخوفين. خدعوا شطر هذه الأمة. وأثروا قلوبهم حب الفتنة ما استمالوا أهواءهم
بالإفك والبهتان. قد نصوا لنا الحرب في إطفاء نور الله عز وجل، اللهم فافضض خدمتهم، وشتت كلمتهم، وأبسلهم بخطاياهم،

فإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت (1) .

لقد جلسوا على الطرقات يشتمون، فإذا أمير المؤمنين يصدر أوامره لاتباعه: انهوا إليهم السكينة والوقار، وقار الإسلام وسيما الصالحين!!

فأي فرق بين هذا وذاك؟! لقد كان عليه السلام في قتاله يقود الناس إلى صراط الله العزيز الحميد، رغم ضلوته في القتال. كان يقيم الحجة ولا ثم يضوب بكل قوة أصحاب الوقاب الغليظة الذين يشيدون الطرق نحو سنن اليهود والنصرى، حتى لا يقذفون بالأمة في دروبها المظلمة، وبقدر صمود الناس من حوله تكون قوة الضربات. روي أنه كان في صفين لا يجمع حتى يخصب سيفه، وأنه حمل ذات يوم على أعدائه فلم يجمع حتى انثنى سيفه، فألقاه إليهم وقال:

لولا أنه انثنى مارجعت (2) . وذكر علماء التلرخ وغوهم أنه بارز في أيام صفين، وقتل خلقا حتى ذكر بعضهم أنه قتل

خمسائة (3) . وكانت أقوى ضرباته بعد أن قتل عمار بن ياسر. وروي أنه في يوم من أيام صفين، قال الناس: إن

(1) الطبري 25 / 6.

(2) البداية والنهاية 294 / 7.

(3) البداية والنهاية 264 / 7.

الصفحة 82

معاوية قد مات. فقال أمير المؤمنين: قد أكثرتم من نعي معاوية، والله ما مات، ولا يموت حتى يملك ما تحت قدمي. وإنما أراد ابن أكلة الأكباد أن يعلم ذلك مني، فبعث من يشيع ذلك فيكم، ليعلم ويتيقن ما عندي فيه، وما يكون من أمره في المستقبل من الزمان. ثم ذكر أمير المؤمنين ما يكون من أمر معاوية وذكر الحجاج وما يسومهم من العذاب. فارتفع الضجيج. فقال رجل: إن ذلك كائن؟

قال الإمام: والله إن ذلك لكائن. فقال آخر: متى يكون؟ قال: إذا خضبت هذه من هذه - ووضع إحدى يديه على لحيته والأخرى على رأسه - وأكثر الناس من البكاء فقال: لا تبلوا في وقتكم هذا. فستكون بعدي طويلا. وبعد أن حدثهم الإمام، كاتب أكثر أهل الكوفة إلى معاوية سوا في أمرهم. واتخذوا عنده الأيادي (1) .

هنا تكمن حقيقة الابتلاء، وهنا ترى حركة التلرخ، فالإمام يقا تل بضولة وهو يعلم أنه مقتول وأن معاوية سيملك ما تحت قدمه، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يجاهد ويحذر وهو يعلم أن غلمان قو يش سينزون على منوه تزو القودة، وكان ينادي بوحدة الأمة وهو يعلم أنها ستفتوق إلى أكثر من سبعين شعبة، وكان يحذر من اتباع اليهود والنصرى وهو يعلم أن مساحة كبوة من الأمة ستبعم شوا بشبر وفواعا بفواع، والإمام علي من بايعه الناس وهو يخوض حروبا فتحوها عليه من كل جانب. ومع ذلك لم يهمل الاصلاح وإقامة الحجة وحشد الحشود، وهو يعلم أن الحشود من حوله ستنفض، ثم تأتيه ضوبة من أشقى الناس فتخضب لحيته من رأسه، فما معنى هذا؟ لقد ذكونا في هذا الكتاب أن كليات الدين موجودة في فطرة الإنسان نفسه، وهذه الفطرة تهدي الإنسان إلى صراط الله العزيز. ومعنى أنها تهديه إلى طريق وإن هناك طريقا آخر يحمل معالم أخرى

لا تهدي إلى صراط الله العزيز. ودائرة الفطرة يسهر عليها أنبياء الله ورسله - فالله يبعثهم بالدين، والدين طريق خاصة في الحياة تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي. أما دائرة اللاهدي، فيسهر عليها

(1) مروج الذهب 2 / 465.

الصفحة 83

الشیطان. وبرنامج الشيطان يعتمد على التريين والإغواء، ليصل بالإنسان إلى مرحلة الاحتكاك، وهي مرحلة خدمة الأهواء والسياسة الشيطانية، والإنسان بين برنامج الفطرة وبين برنامج الشيطان حر مختار، بمعنى أن الله تعالى حاصر الإنسان بجميع الحجج في نفسه وفي الوجود حتى لا تكون له على الله حجة. ثم أمر سبحانه الجرح أن تطيع صاحبها فيما يريد، ويختار، وكلما اختار الإنسان شيئاً من دائرة الشيطان، انطفاً نور من أوار الفطرة بداخله - فإذا اختار الكفر خرج الإيمان من قلبه، وفي كل إنسان قلب واحد وهذا القلب لا يحمل إلا شيئاً واحداً. قال تعالى: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) (1)، ولأن الله تعالى يعلم أن وسائل الشيطان لها بريقها، وأن هذا البريق سيكون عاملاً مهماً في الصد عن سبيل الله، بعث سبحانه الرسل على فترات، ليبينوا للناس أسباب الهدى كي تطرد القلوب الكفر وتعمر بالإيمان.

والرسالة الخاتمة جاءت لتدعو الناس إلى صراط الله العزيز، وحثرت من نوائر الشيطان أشد التحذير، وما توكت الرسالة سبيلاً إلى الهدى إلا بينته. ومن فضل الله تعالى على الأمة الخاتمة أنه سبحانه أوحى إلى رسوله بما سيحدث في أمته حتى قيام الساعة، وأخوه بخطوات الشيطان في بعض القبائل وداخل بعض النفوس ليحذر أمته من هذا ومن ذلك، وأخوه سبحانه بعلمه المطلق أنه رغم تحذره إياهم إلا أن الغالب الأعم من الأمة لن ينصت إلى هذا التحذير وأن الأمة ستختلف ثم ستفترق ثم ستتبع سنن الأولين شوا بشبر ونواعا بزواع، وعلى امتداد هذا الطويق فإن الحجة فوق الرؤوس، وفي الكون وفي أعماق أعماق النفس حيث الفطرة والموعد الله. ومعنى أن الحجة فوق الرؤوس أن الحجة مستوية وتسوق الناس إلى صراط الله العزيز. ولا يضوها من خالفها أو خذلها أو نوأها. ولا يضوها قتل أو قطع رؤوس أو سجن أو طرد أو نفي. فالملك لله، والموعد الله.

وفي عهد الإمام علي كان الإمام يعلم نهايته. فلم يتألم لأنه سيضوب على

(1) سورة الأحزاب: الآية 4.

الصفحة 84

رأسه، وإنما كان يقول: فوالله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط علي " (1). ولم يكن الإمام يتألم من هذا، وإنما كان يتألم أن يرى باطلاً ولا يستطيع كسوه.

وذلك لأنه يعيش في دائرة الإيمان الكامل. وأصحاب هذه الدائرة لا تشعر جرحهم إلا بما في مخزون الفطرة ودائرة

العبادة الحق. لقد كان الإمام يعلم بأنه مقتول، ولكنه كان يأخذ بأسباب إقامة المجتمع الصالح. وليس معنى أن الله تعالى كتب على كل إنسان الموت وأن يجلس الإنسان على سوره لينتظر الموت، وإنما عليه أن يكد ويحصل العلوم ويأخذ بأسباب الحياة الكريمة التي تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي.

والإمام أعلن أمام الجميع إخبار الرسول له بأنه مقتول. وهناك فرق بين مقتول وميت. فإذا كانت الأمة ستقتل الإمام، فهل هذا أخذاً بأسباب الحياة الكريمة؟ قد يقال إن الذي قتله إنسان واحد، فنقول إن الذي قتل الناقة كان إنسان واحد، ولكن الله عندما أخبرنا بقتلها قال: " فكذبوه ففعلوها " ثم أخبرهم الإمام أن بعد القتل سيأتيهم العذاب. والعجيب أن الإمام عندما أخبرهم بأنه سيقتل وأن معاوية سيملك ما تحت قدمه. سارع البعض بارسال الرسائل إلى معاوية واتخذوا عنده الأيادي. فهل هذا أخذاً بالأسباب الكريمة؟. فإذا جاء العذاب فهل يكون العذاب إلا نتيجة طبيعية لأعمالهم. لأن الله لا يظلم مثقال نواة.

إن الإنسان الذي يفسد دينه الفطري لا تتعادل قواه الحسية الداخلية، وتصبح معظم ملكات نفسه في حالة هوع دائم. واليهود عندما فسد دينهم الفطري جاعت نفوسهم، وعندما جاء إليهم أنبياء الله ورسله لإطعامهم الحلال، لم يجنوا في الحلال كفاية، فقتلوا الأنبياء، ولما كان لا بد أن يسير اليهود وراء إمام لهم، بشروط أن يكون هذا الإمام موافق لما يريدون، بدأوا ينقبون في أحاديث الغيب وأخبار المستقبل التي تركتها رسلهم. فوجنوا أحاديث عليها علامات تحذيرية وأخرى عليها علامات تبشيرية، واختلط الأمر عليهم فهناك

(1) العقد الفريد 119 / 1.

الصفحة 85

أشياء يريدونها وعليها تحذير وأخرى لا يريدونها وعليها تبشير. ووجنوا أن الغيب فيه مسيحان الأول يولد من عواء والآخر دجال. ووجنوا أن ابن العواء لن يعطيهم إلا بمزان بينما الآخر سيصيب عليهم الدنيا صبا، واختلط عليهم الأمر، وهنا تدخل أخبار السوء في كل زمان وكل مكان، الأخبار الذين يسعون في الأرض فسادا، فقالوا أنهم أحباء الله والله لا يعطي أحباءه بمزان. وقد يكون الأولون قد أخطأوا في تحديد التحذير والتبشير. ثم استقروا على المسيح الثاني. وحاولوا قتل المسيح الأول عندما بعثه الله إليهم، ولما كان المسيح الذي وقعوا عليه هو الدجال الذي وصفته الأحاديث بأنه يهودي أي أنه على هوى اليهود (1).

وعالم ابتغاء الفتنة عالم طويل عريض، ويبحث أصحابه دائما في أصولهم التي في صدورهم، ثم يعملوا من أجل إيجاد رداء لهم يسبغون به في الحياة، وكلما كان الوداء له قداسة كانت العقبات في طريقهم أقل. ولقد استغل تيار النفاق الجلباب الإسلامي. بل استغلوا فيما بعد القوان، قال تعالى: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) (2)، ثم استغلوه عندما رفعوه طلبا للتحكيم بينهم وبين أمير المؤمنين الذي يقاثلهم أصلا على التأويل. وكانوا يريدون من وراء ذلك

وَأولاً: الخروج من المعركة أحياء، وثانياً: إخراج الإمام من دائرة أنه الأعم بالتأويل. كما حاولوا من قبل إخراجه من دائرة

التطهير.

6 - مشاهد من ميدان القتال:

لقد كان هناك من خذل الإمام من البداية، عندما علموا أن الأمر سيكون لمعاوية في النهاية. وكان هناك أيضا الذين علموا بنهاية الإمام ولكنهم أخذوا بالأسباب نحو الحياة الكريمة. ومنهم من كان يعلم أن الفئة الباغية ستقتله في هذه المعركة لا محالة، ولكن لم يمنعه ذلك من أن يسير وراء أمير المؤمنين.

باختصار: كان هناك من يأخذ بالأسباب لينظر الله إلى عمله وهو يسير نحو

(1) راجع بحوثنا في المسيح الدجال و صدر منها خمس بحوث.

(2) سورة آل عمران: الآية 7.

الصفحة 86

غايته. أما نتيجة هذا العمل فعند الله أمرها.

● من هؤلاء (يزيد بن قيس الأرجي):

لقد حرض الناس فقال: إن المسلم السليم من سلم دينه ورأيه، وإن هؤلاء القوم والله إن يقاتلوننا على إقامة دين رؤنا امتناه. وإن يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا، ليكونوا جبارة فيها ملوكا. فلو ظهروا عليكم لا أراهم الله ظهروا ولا سرورا. أؤموكم بمثل سعيد والوليد وعبد الله بن عامر السفية الضال. يجيز أحدهم في مجلسه بمثل ديتة ودية أبيه وجده، يقول هذا لي ولا إثم علي. كأنما أعطى تائه عن أبيه وأمه، وإنما هو مال الله عز وجل، أفاءه علينا بأسيافنا وأرماحنا. فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين الحاكمين بغير ما أتول الله، ولا يأخذكم في جهادهم لوم لائم. ثم فإنهم ما لادوا إلى يومهم إلا شوا⁽¹⁾.

● ومنهم (عبد الله بن بديل):

قال في الناس: إلا أن معاوية ادعي ما ليس أهله، ونزع هذا الأمر من ليس مثله، وجادل بالباطل ليدحض به الحق، وصال عليكم بالأعواب والأخواب قد زين لهم الضلالة وزرع في قلوبهم حب الفتنة. وليس عليهم الأمر، وزادهم رجسا إلى رجسهم، وأنتم على نور من ربكم، ووهان مبين. فقاتلوا الطغاة الجفاة ولا تخشوهم. فكيف تخشونهم وفي أيديكم كتاب الله عز وجل طاهوا مبرورا؟ "أتخشونهم فإله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخوهم وينصوكم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين"، وقد قاتلناهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة، وهذه ثانية، والله ما هم في هذه بأتقى ولا لُكي ولا لُشد قوموا إلى عنوكم، برك الله عليكم، فقاتل قتالا شديدا هو وأصحابه⁽²⁾.

وروي: كان على عبد الله بن بديل بصفين ومعه سيفان فكان يضرب

(1) الطبري 10 / 6، الكامل 152 / 3.

(2) الطوي 9 / 6، الكامل 151 / 3، الإصابة 40 / 4.

الصفحة 87

أهل الشام وهو يقول:

لم يبق إلا الصبر والتوكل * ثم التمشي في الوعيل الأول
مشى الجمال في حياض المنهل * والله يقضي ما يشاء ويفعل⁽¹⁾

وروي أن الصحابي الجليل عبد الله بن بديل هو ونفر من أصحابه على الموت، فاقتحم هو وأصحابه قبة معاوية وكان عدد أصحابه بين المائتين والثلاثمائة. وعندما أرسل إليه الأشر أن يقاتل بين الناس لأن في هذا بقاء له ولأصحابه أبي. وانطلق نحو معاوية وكان حول معاوية رجال كالجبال يقول الطوي: كان في يده سيفان وخروج أمام أصحابه. فأخذ كلما دنا منه رجل ضربه فقتله حتى قتل سبعة، ودنا من معاوية فهض إليه الناس من كل جانب، وأحبط به وبطائفة من أصحابه، فقاتل حتى قتل وقتل ناس من أصحابه ورجعت طائفة⁽²⁾.

● ومنهم (أويس بن عامر القرني):

أخبر عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليكون حجة على التابعين كي ينصروا عليا، روي الإمام مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن خير التابعين رجل يقال له أويس "⁽³⁾ ، وقال الحاكم: أويس لم يصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما ذكره رسول الله ودل على فضله⁽⁴⁾ ، وقال النووي: هو من دلائل النوبة لأنه أخبر عن اسمه واسم أبيه ونعته وقبيلته، وإنه يجتمع بعمر، وكل ذلك غيب، فكان ذلك. ولفظ مسلم " يأتي عليكم أويس بن عامر مع إمداد أهل اليمن من هراد ثم من قرن، وكان به بوص. فوأ منه إلا موضع الروهم. له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأؤدّه... "، وقال لعمر:

(1) الإصابة 4 / 40.

(2) الطوي 6 / 13.

(3) مسلم في فضل أويس (الصحيح 16 / 95).

(4) الحاكم (المستدرک 3 / 402).

" فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل " ⁽¹⁾.

وعندما التقى بعمر قال له عمر: لا تغلقني. فأملس منه⁽²⁾ ، وكان عمر قد سأله: أين تريد؟ قال: الكوفة. فقال عمر: ألا أكتب لك إلى عاملها فيستوصي بك. قال: لا. أكون في غواء الناس أحب إلي⁽³⁾ .
وعن الحسن البصري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يدخل الجنة بشفاعه رجل من أمتي وأكثر من ربيعة ومضر. قال الحسن: إنه أويس.

وقال أبو بكر بن عياش: قلت لرجل من قوم أويس بأي شيء بلغ هذا؟ قال:

فضل الله يؤتيه من يشاء⁽⁴⁾ ، وظل أويس في الكوفة زاهدا في عالم اكتنز الذهب والفضة، وجزت فيه الولاية، وفي عهد

علي خرج الزاهد ليقف تحت لواء سيد الزاهدين، عن الأصمغ بن نباته قال: شهدت عليا يوم صفين وهو يقول: من يبايعني

على الموت! فبايعه تسع وتسعون. فقال علي: أين التمام؟ أين الذي وعدت به؟ فجاء رجل عليه أظمار صوف. مخلوق الرأس فبايعه على الموت والقتل. فقال: هذا أويس القوني، فما زال يحلب بين يديه حتى قتل⁽⁵⁾.

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: نادي رجل من أهل الشام يوم صفين: أفيكم أويس القوني؟ قالوا: نعم، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن من خير التابعين أويس القوني⁽⁶⁾. وهكذا كان أويس حجة على نهاية جيل وبداية جيل آخر. وروى الإمام الحاكم: لما كان يوم صفين. نادي مناد من أصحاب معاوية: أفيكم أويس القوني؟ قالوا: نعم.

فضرب دابته حتى دخل معهم. ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) مسلم (الصحيح 95 / 16)، (كنز العمال 75 / 12).

(2) أي تخلص وأفلت (كنز العمال 4 / 14).

(3) رواه مسلم وابن سعد وأبو عوانة وأبو يعلى وأبو نعيم والبيهقي والروباني (كنز العمال 4 / 14).

(4) الحاكم (المستدرک 3 / 405).

(5) الحاكم (المستدرک 3 / 403).

(6) رواه أحمد وقال الهيثمي إسناده جيد (الفتح 22 / 445).

الصفحة 89

(1) وسلم يقول: خير التابعين أويس القوني.

إن كان ورقة تسقط علمها عند الله، وكل خطوة في حركة التلويح عليها حجة من الله، وما من بصمة إلا ولها جنور، وما خلق الله شيئاً إلا لهدف.

وعلى امتداد أيام صفين ضرب الزاهد بسيفه فماذا كان يريد هذا الزاهد؟ وما معنى أن الله سبحانه يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا الزاهد ومكانته؟

وما المقصود من وراء هذا؟ ولماذا قاتل مع علي بالذات؟ وما هي أهدافهما؟ إن هذه أسئلة وغوها يتوكلها الباحث دون إجابة لمن أراد أن يتفكر ويتدبر.

والآن كيف كانت نهاية هذا المقاتل الزاهد؟ يقول ابن حجر في حديث صحيح الإسناد، نادي منادي علي: يا خيل الله ركبي وابشوي، قصف الناس، فانتضى أويس سيفه حتى كسر جفنه فألقاه، ثم جعل يقول:

يا أيها الناس تموا تموا ليتمن وجوه، ثم ينصرف حتى روى الجنة.

فجعل يقول ذلك ويمشي. حتى إذا جاءت رمية فأصابت مؤاده فقتل⁽²⁾، وعن يحيى بن معين قال: قتل أويس القوني بين

يدي علي بن أبي طالب يوم صفين⁽³⁾.

ويبدو أن وجود أويس في معسكر علي بن أبي طالب لم يرق للبعض وفقاً لأمر سياسة غير خافية. وكان العلماء يخافون

من الحكام. يقول النووي في حديث " خير التابعين أويس " ، هذا صريح في أنه خير التابعين. وقد يقال: قد قال أحمد بن حنبل وغوه. أفضل التابعين سعيد بن المسيب. والجواب: إن موادهم أن سعيدا أفضل في العلوم الشوعية. كالتفسير والحديث والفقهاء. لا في الخير عند الله!!⁽⁴⁾ . وقال ابن الصلاح: حديث خير التابعين قاطع للزاع. ولكن في رأي السخوي. إن تفضيل أحمد لابن المسيب، لعله رآد الأفضلية في

(1) الحاكم (المستدرك 402 / 3) وابن سعد (الخصائص الكبرى 220 / 2).

(2) الإصابة 117 / 1.

(3) (الحاكم وأقوه الذهبي (المستدرك 402 / 3).

(4) (النووي شوح مسلم (الصحيح 95 / 16).

الصفحة 90

العلم لا الخيرية⁽¹⁾ . وهكذا اختلفوا مع وجود نص صريح، كما اختلفوا من قبل في مولى المؤمنين. وربما يعود ذلك إلى الخوف والله أعلم. أما اختيار سعيد بن المسيب. فإن لابن المسيب تزيخه الذي لا ينكوه عليه باحث. ولكن هذا الاختيار يقتضي أن ننظر في الأحداث بجمالها. وابن المسيب عندما سمع من عامر بن سعد حديث " أنت مني بموتلة هارون من موسى " لم يطمئن وذهب بنفسه إلى سعد وراجع فأقسم له سعد أنه سمعه من رسول الله⁽²⁾ ، وابن المسيب عندما يتأكد بنفسه من صحة حديث. فلا غبار على هذا، ولكن ابن أبي الحديد قال وهو يتحدث عن المنحرفين عن علي بن أبي طالب " وكان سعيد بن المسيب منحرفا عن علي " ⁽³⁾ . وقتل أويس بن عامر القوني بين يدي علي بن أبي طالب، وهو يأخذ. بأسباب الحياة الكريمة. وبعد قتل أويس لدادت المعركة ضلوة، واقتتلوا كأشد القتال، وكثرت القتلى بينهم. وتحاجزوا عند الليل.

● ومنهم (عمار بن ياسر):

ولقد ذكرنا ما ورد فيه على امتداد هذا البحث، فعمار كان المزان على امتداد معرك أمير المؤمنين. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي عندما ذكر عمار: أما أنه سيشهد معك مشاهد أحوها عظيم، وذكرها كثير، وثنؤها حسن " ⁽⁴⁾ ، وكان عمار حجة على الذين انحرفوا عن أمير المؤمنين أو اعتلوه في وقت لا يجب فيه الاعتوال. روي أن رجلا جاء إلى ابن مسعود فقال: إن الله قد أمننا أن يظلمنا ولم يؤمننا أن يفتننا. رأيت إذا تولت فتنة كيف أصنع. قال: عليك بكتاب الله. فقال: رأيت أن

(1) تبسيط علوم الحديث / المطيعي ص 203.

(2) (رواه مسلم (الصحيح 174 / 15).

(3) ابن أبي الحديد 809 / 1 .

(4) رواه أبو نعيم (كنز العمال 723 / 11).

الصفحة 91

جاء قوم كلهم يدعون إلى كتاب الله. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق (1) . ومن قبل رأينا كيف أوصى حذيفة بالتّوام عمار. والنبى صلى الله عليه وسلم وضع حول عمار مناقب لهدف حتى لا يكون للناس حجة في عدم التّوام علي والقتال تحت رايته.

وعمار، كما ورد في البخاري، أجله الله من الشيطان (2) ، وكما ورد عند الإمام أحمد: " ما عرض عليه أوران قط إلا اختار الأرشد منهما " (3) ، وأيضا: " من عادي عمار عاداه الله " (4) . وكما ورد عند الزوار والطواني: " أبو اليقظان على الفطوة لا يدعها حتى يموت " (5) ،

وكما ورد عن ابن عساكر: عمار خلط الله والإيمان ما بين قونه إلى قدمه وخط الإيمان بلحمه ودمه يزول مع الحق حيث زال. وليس ينبغي للنار أن تأكل منه شيئا " (6) .

وعمار عهد إليه النبي صلى الله عليه وسلم بعهد قال له: يا عمار إن رأيت عليا قد سلك واديا وسلك الناس واديا غره فاسلك مع علي ودع الناس.

(7) إنه لن يدلك على ردي ولن يخرجك من الهدى .

وعندما حدد النبي صلى الله عليه وسلم الواية والدليل قال: أبشر يا

(1) ابن كثير وقال رواه ديزيل (البداية 296 / 7)، والطبراني (كنز العمال 721 / 11).

(2) البخاري (الصحيح 305 / 2) في فصل عمار.

(3) أحمد والحاكم والتومذي وصححه (الفتح الروباني 330 / 22)، (الجامع 668 / 5).

(المستترك 388 / 3).

(4) أحمد والطواني ورجاله رجال الصحيح (الفتح 329 / 22)، (الزوائد 293 / 9) وابن عساكر والطواني وابن حبان

وابن أبي شيبه بلفظ آخر (كنز العمال 533 / 13، 722، 11 / 726) والحاكم (المستترك 389 / 3).

(5) الزوار والطواني ورجالهم ثقات (الزوائد 295 / 9).

(6) ابن عساكر (كنز العمال 72 / 11).

(7) الديلمي (كنز العمال 614 / 11).

الصفحة 92

(1) عمار تقتلك الفئة الباغية " .

والقتل لم يكن من أجل القتل، ولكن لكل قتل أسبابه، ويمكن ملاحظة هذه الأسباب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "

ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار " (2) ، ثم يتعدى التحذير أرض المعركة ويشمل مساحة أوسع وذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمار: " سنتقتلك الفئة الباغية وأنت مع الحق. فمن لم ينصرك يومئذ فليس مني " (3)

هذا هو عمار، جندي علي بن أبي طالب! فماذا قال عمار على أرض صفين؟

روي أن عمرا خرج إلى الناس فقال: اللهم إنك تعلم إنني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته - اللهم إنك تعلم أنني لو أعلم رضاك في أن أضع ظبة سفي في صوري، ثم انحنى عليها حتى تخوج من ظهري لفعلت، وإني لا أعلم اليوم عملا هو رضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ولو أعلم أن عملا من الأعمال هو رضى لك منه لفعلته.

وقال عمار: أيها الناس اقصوا بنا نحو هؤلاء الذين يبتغون دم ابن عفان ووعمون أنه قتل مظلوما. والله ما طلبتهم بدمه. ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحوها واستمروها، وعلما أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتوغلون فيه من دنياهم. ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم. فخدعوا أتباعهم أن قالوا: إمامنا قتل مظلوما. ليكونوا بذلك جباوة ملوكا. وتلك مكيدة بلغوا بها ما تزون. ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلا. اللهم إن تتصونا فطالما نصرت. وإن تجعل لهم الأمر. فادخر لهم بما

(1) الترمذي وصححه (الجامع 679 / 5).

(2) أحمد والبخري وابن عساكر والطواني (الفتح الروباني 331 / 22)، (كنز العمال 722، 724 / 11).

(3) ابن عساكر (كنز العمال 351 / 11).

الصفحة 93

أحدوا في عبادك العذاب الأليم (1) ، وروي أن عمرا شاهد عمرو بن العاص في أرض المعركة فقال: يا أهل العواق أوتيدون أن تنتظروا إلى من عادى الله ورسوله، وجاهدتهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين؟ فلما رأى الله عز وجل يعز دينه ويظهر رسوله أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم. وهو فيما زوى راهب غير راغب، ثم قبض الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فوالله إنه زال بعده معروفا بعدوة المسلم وهودة المجرم، فاثبتوا له وقائمه، فإنه يطفئ نور الله ويظاهر أعداء عز وجل (2) ... وعندما سمع ابن العاص هذا زال وذهب يبحث له عن خدعة يختفي وراءها من هذا العار.

وروي أن قيسا بن عبادة قال لعمار: رأيت قتالكم رأيا رأيتموه، فإن الرأي يخطئ ويصيب أو عهد عهده إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمار: " ما عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا لم يعهده إلى الناس كافة ". أي أن تعليمات النبي صلى الله عليه وسلم بخصوص قتال البغاة مع علي بن أبي طالب لم تكن لفئة دون فئة، ولكن لأمر شمل الناس كافة. ثم انتقل وهو يجيب قيس إلى أمر آخر فقال: " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن في أمتي اثني عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولا يجنون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط. ثمانية منهم تكفيكم الدبيلة (3) سواج من نار يظهر في أكتافهم حتى ينجم في صدورهم " (4)

ولا نوري ما هو الدافع الذي جعل عمار يذكر المنافقين في هذا الموضع؟

ومن المعروف أن عمرا وحذيفة كانا مع النبي صلى الله عليه وسلم عند عودته من تبوك. يوم أن رأدت تيرلات الهدم

والتخريب أن يغتالوا النبي صلى الله عليه وسلم

(1) الطبري 21 / 6 ذ، الكامل 157 / 3، البداية والنهاية 267، 292 / 7.

(2) الطوي 7 / 6، الكامل 150 / 3.

(3) الديبلة / نار تظهر في أكتافهم.

(4) مسلم كتاب صفات المنافقين (الصحيح 124 / 17) أحمد (الفتح الروباني 140 / 23) وابن عساكر (كنز العمال 351 /

.11).



فقيس حدث عمرا عن القتال. أهو من الرأي أم فيه عهد؟

فأجاب عمار على السؤال. ثم تحدث عن جماعة التخريب وهو لم يسأل عنها.

فهل يا ترى سقط السؤال من الناسخ؟ أم أن عمرا له مقصود خفي علينا وظهر لقيس. أم أن عمرا كان يقصد شيئا لا

يعلمه إلا الله عز وجل؟

وروي أن عمرا قال وهو يشير إلى رواية معاوية: لقد قاتلت صاحب هذه الرواية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث

مرات. وهذه الرابعة (1). ما هي بأبر ولا أتقي (2). وقال: فالذي نفسي بيده لو ضربونا حي يبلغوا بنا سعفات هجر، لعرفت أن

مصلحينا على الحق وأنهم على الضلالة - وفي رواية - لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل (3)، وروي أن رجلا جاء إلى

معسكر عمار فقال: أيكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار: أنا عمار، قال: أبو اليقظان؟

قال: نعم. قال: إن لي إليك حاجة. أفأنتق بها سوا أو علانية؟ قال: اختر لنفسك أيهما شئت. قال: لا بل علانية، قال:

فانطق (4) ... ثم بدأ الرجل يتحدث عن حاله في القتال، وأنه قد دخله الشك في صحة هذا القتال. لأن الأطراف يصلون صلاة

واحدة ويقروون كتابا واحدا، وأنه ذهب إلى علي بن أبي طالب فذكر له ذلك فقال له: لقد لقيت عمار بن ياسر؟ فقال الرجل: لا،

فقال له أمير المؤمنين: فألقه. فانظر ماذا يقول لك عمار فاتبعه. وأخبر الرجل عمرا بأنه جاءه لذلك.

" فقال عمار: أتعرف صاحب الرواية السوداء المقابلة لي؟ فإنها رواية عمرو بن العاص. قاتلتها مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم ثلاث مرات

(1) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الروائد 243 / 7) وابن سعد (الطبقات 253 / 3).

(2) الطوي 22 / 6.

(3) رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح الروابي 141 / 23) والحاكم وصححه (المستدرک 384 / 3) البداية والنهاية 267 /

7، الطوي 21 / 6، مروج الذهب 422 / 2، ابن أبي الحديد 260 / 2 الطبقات الكبرى 257 / 3.

(4) ابن أبي الحديد 260 / 2.

وهذه الرابعة. فما هي بخوهن ولا أوهن، بل هي شوهن وأفوهن. ثم قال عمار للرجل: أشهدت بوا واحدا ويوم حنين؟

أو شهدها أب لك فيخبرك عنها؟

قال: لا. قال: فإن موكرنا اليوم على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين. وإن

مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأخواب. فهل ترى هذا العسكر ومن فيه؟ والله لو ددت أن جميع من

فيه ممن أقبل مع معاوية يريد قتالنا. مفرقا للذي نحن عليه. كانوا خلقا واحدا فقطعته وذبحته. والله لدمؤهم جميعا أحل من دم

عصفور. أفترى دم عصفور حواما؟ قال: لا. بل حلال. قال: فإنهم حلال كذلك. أواني بينت لك؟ قال: قد بينت لي. قال فاختر

أي ذلك أحببت.

فانصرف الرجال. فدعاه عمار ثم قال: أما أنهم سيضربونكم بأسيا فيهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولوا: لو لم يكونوا على حق ما أظهروا علينا. والله ما هم من الحق على ما يقدي عين ذباب، والله لو ضربونا بأسيا فيهم حتى يبلغونا سعفات هجر. لعلمنا أنا على حق. وإنهم على باطل.

وروي: جاء رجل إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء القوم الذي نقاتلهم، الدعوة واحدة، والرسول واحد، والصلاة واحدة، والحج واحد فماذا نسميهم؟ قال: سمهم بما سماهم الله في كتابه. قال: ما كل ما في الكتاب أعلمه. قال: أما سمعت الله تعالى يقول: (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) - إلى قوله - (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات، ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) (1). فلما وقع الاختلاف. كنا نحن أولى بالله. وبالكتاب وبالنبي وبالحق. وهم الذين كفروا وشاء الله قتالهم. فقاتلهم بمشيئته وإرادته (2).

لقد كان عمار يقاتل وهو يعلم أن نتيجة القتال في نهاية المعركة ستكون لصالح معاوية، وكان يعلم أنه مقتول لا محالة بين صفين في هذه المعركة.

(1) سورة البقرة: الآية 253.

(2) ابن أبي الحديد 2 / 260.

الصفحة 96

وبالرغم من ذلك كان يأخذ بأسباب الحياة الكريمة. لينظر الله إلى عمله وماذا يفعل ابتغاء مرضاته تعالى. كان يقول: أخونني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أني أقتل بين صفين (1). وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: " آخر شوبة تشربها من الدنيا شوبة لبن " (2). وروي أن عمرا تقدم وقد جنحت الشمس للغروب، ومعه ضح من لبن ينتظر غروب الشمس أن يفطر، فقال غوبت الشمس وشوب الضح: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: آخر زادك من الدنيا ضح من اللبن (3)، وكان عمار يتذكر هذا على امتداد أيام صفين، وتقدم عمار فقاتل ثم رجع.

وفي اليوم رجع عمار إلى موضعه فاستسقي. فأنته امرأة من نساء بني شيبان من مصافهم بعس فيه لبن. فدفعته إليه. فقال: الله أكبر الله أكبر، اليوم ألقى الأحبة تحت الأسننة، صدق الصادق. وبذلك أخونني الناطق. وهو اليوم الذي وعدت فيه. ثم قال: أيها الناس. هل من رائح إلى الله تحت العوالي (أي تحت الرماح) والذي نفسي بيده لنقاتلنهم على تأويله كما قاتلناهم على

تأويله.

وتقدم وهو يقول:

نحن ضوبناكم على تأويله * فاليوم نضوبكم على تأويله

ضوبا يزيل الهام عن مقيله * ويذهل الخليل عن خليله (4)

أو يرجع الحق إلى سبيله (5).

وروي أن الذي سقاه هو أبو المخريق⁽⁶⁾، وأنه بعد أن شرب اللبن نادي:

(1) رواه البزار وإسناده حسن (الروائد 365 / 9) وابن عساكر عن مولاة عمار (كنز العمال 531 / 13).

(2) رواه أحمد (الزوائد 243 / 7) والحاكم (المستدرک 385 / 3) والطواني (الزوائد 296 / 9)، البداية والنهاية 268 /

7، ابن أبي الحديد 810 / 2.

(3) الحاكم (385 / 3 المستدرک).

(4) المقيل / الموضع ومكان القيلولة.

(5) مروج الذهب 422 / 2، ابن أبي الحديد 810 / 2.

(6) الطوي (الزوائد 243 / 7).

الصفحة 97

(1)

إني لقيت الخيار وتزوجت الحور العين. اليوم تلقى الأعبة محمدا وحزبه .

وروي عن سعيد بن عبد العزيز أن عمار بن ياسر أقسم يوم أحد فهزم المشركون، وأقسم يوم الجمل فغلوا أهل البصرة، وقيل له يوم صفين لو أقسمت. فقال: لو ضربونا بأسيا فهم حتى نبلغ سعفات هجر، لعلمنا أنا على الحق وهم على الباطل، فلم يقسم. وروي أنه قال يوم أحد.

أقسمت يا جويل ويا ميكائيل * لا يغلبنا معشر الضلال

أنا على الحق وهم جهال

(2)

ثم انطلق حتى خرق صف المشركين ، كان يعلم يوم صفين بأنهم سيواجهوا عن مواقعهم وعبر عن ذلك بقوله: " لو ضربونا حتى نبلغ سعفات هجر "، ولكن النصر عند عمار لم يكن بامتلاك الأرض، وإنما بالمبادئ التي يحاربون عليها ومن أجلها، النصر بالأخلاق وفي الأخلاق، والباطل لا يمكث في الأرض وإن طال الليالي. لأن الباطل طرئ لا أصالة فيه، والباطل مطرد من الله، ولا بقاء لشيء يطرده الله. كان عمار يعلم أنه في موقع المنتصر على الرغم من أن الموت قريب منه. فبالقرب من عمار وقف أبو الغادية قاتل عمار.. يقول أبو الغادية: كنا نعد عمرا من خيلنا، حتى سمعته يوما في مسجد قباء يقع في عثمان، فلو خلصت إليه لوطنته وجلي، فما صليت بعد ذلك صلاة إلا قلت: اللهم لقني عمرا⁽³⁾. كان أبو الغادية راقب عمرا، وكان عمار ينادي صاحبه هاشم بن عتبة: يا هاشم الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسل، وقد فتحت أبواب السماء، وتزينت الحور العين، اليوم ألقى الأعبة محمدا وحزبه⁽⁴⁾. وتقدم عمار وهاشم، يقول أبو الغادية: فلما كان يوم صفين.

جعل عمار يحمل على الناس. فقيل: هذا عمار، فأيت فوجة بين الوثنتين وبين

(1) رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات (الزوائد 296 / 9)، ابن أبي الحديد 810 / 2.

(2) رواه الطواني ورجاله رجال الصحيح (الزوائد 395 / 9).

(3) رواه أحمد والطواني (الزوائد 298 / 9).

(4) الطوي 23 / 6.

الصفحة 98

الساقين. فحملت عليه فطعنته في ركبته فوقع فقتلته (1)
، وفي رواية الإمام أحمد: فاختلفت أنا وهو ضربتين، فبدرته
فضوبته فكبا لوجهه ثم قتلته (2).

وهكذا قتل عمار بن ياسر رضي الله عنه، وكان يوم صفين شيخا كبيرا، يقول عبد الله بن سلمة: رأيت عمرا يوم صفين
شيخا كبيرا آدم طوالا. أخذ الحربة بيده ويده وعد ويقول: والذي نفسي بيده لقد قاتلت هذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم ثلاث موات، وهذه الرابعة (3).

وبعد قتل عمار ظهر على الساحة لأول مرة " فقه البغاة " والعمود الفقوي لهذا الفقه، إن الأمير إذا أمر بالسوقة أو بالقتل.
فعند ظهور الضحية فإن الفاعل لن يكون الأمير بأي حال ربما يكون أقل جندي في قواته، وربما يكون يواب رواقه. وعلى
سبيل المثال، لقد قتل النظام الحسين بن علي، ولكن النظام لم يظهر على امتداد التلخيخ، وإنما ظهر ذو الجوشن الذي نفذ الخطة.
ومن قبل الحسين لتكتب حرائم عديدة كقتل حجر بن عدي واجتياح المدينة، وكل هذا فعله جندي من الجنود، أما أمير القوم
فلم يكن يبري لأنه وقتئذ كان مشغولا بالصلاة.

روي أن عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان يقاتل يوم صفين ومعه سيفان (4)، روي أنه قال لأبيه: يا أبت قتلتم هذا
الرجل في يومكم، وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال. ألم تكن معنا يوم أن آتاه رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: " ويحك تقتلك الفئة الباغية "؟ فدفعت عمرو صدر فوسه. ثم جذب معاوية إليه.
وأخوه بما يقول عبد الله فقال معاوية: إنك شيخ أخوق. ولا زال تحدث بالحديث وأنت تدحض

(1) ابن سعد (الطبقات 261 / 3).

(2) رواه الطواني وأحمد وقال الهيثمي رجال أحمد والطواني رجال الصحيح (الزوائد 298 / 9).

(3) البداية والنهاية 292 / 7.

(4) أسد الغابة 351 / 3 وروي أنه ندم بعد ذلك وكان يقول: ما لي ولصفين.

الصفحة 99

في بولك. أو نحن قتلنا عمرا. من جاء به؟ (1)
، وفي رواية عند الإمام أحمد قال معاوية: أو نحن قتلناه. إنما قتله علي
وأصحابه. جئوا به حتى ألقوه بين رماحنا (2)، ثم خرج عمرو بن العاص ليؤصل هذا الفقه العميق فقال: (سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول: " إن قاتله وسالبه في النار ". فقيل لعمرو: فإنك هوذا تقاتله، فقال: إنما قال قاتله وسالبه (3).

فقه واسع عميق. وروي أن ذا الكلاع سمع عمرو وهو يحدث معاوية بحديث: تقاتله الفئة الباغية، فكان ذو الكلاع يقول:

ويلك! ما هذا يا عمرو.

وشاعت الأقدار أن يقتل ذو الكلاع في المعركة. فقال عمرو لمعاوية: ما أوري بقتل أيهما أنا أشد فوحا. بقتل عمار أو ذي الكلاع. والله لو بقي ذو الكلاع بعد قتل عمار لأفسد علينا جندنا⁽⁴⁾.

وروي أن عمرا لما قتل قال أمير المؤمنين علي لوبيعة وهمدان. أنتم روعي ورمحي، فانتدب له نحو من اثني عشر ألفا، وتقدمهم علي - فحمل وحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وقتلوا كل من انتهوا إليه. ثم نادي أمير المؤمنين وقال: يا معاوية علام تقتل الناس بيننا؟

هلم أحاكمك إلى الله. فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور. فقال عمرو لمعاوية: أنصفك الرجل. فقال معاوية: ما أنصفت. وإنك لتعلم أنه لم يبلزده رجل قط إلا قتله. قال له عمرو: وما يجمل بك إلا مبارزته، فقال معاوية: طمعت فيها بعدي⁽⁵⁾.

وعندما رفض معاوية مبارزة أمير المؤمنين، لأنه يعلم منه ما علم، ولأنه

(1) الطبري 6 / 23.

(2) رواه أحمد والحاكم وأقوه الذهبي (الفتح الروباني 23 / 143) وقال الهيثمي رواه الطواني وأحمد وأبي يعلى والنوار ورجال أحمد وأبي يعلى ثقات (الزوائد 241، 242 / 7).

(3) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الروباني 23 / 143)، (الزوائد 241 / 7)، وابن عساكر (كنز العمال 13 / 532).

(4) البداية والنهاية 7 / 293.

(5) الطوي 6 / 23، البداية 7 / 272، الكامل 3 / 158، مروج الذهب 2 / 428.

الصفحة 100

علم أنه لا يجلس على رضية الطمع وحده وإنما يشركه فيها ابن العاص. اشتد القتال. وقتل في ذلك اليوم صفوان وسعد ابنا حذيفة بن اليمان. وقد كان حذيفة قد قال لابنيه: كونا مع علي، فستكون له حروب كثيرة، فيهلك فيها خلق من الناس. فاجتهدا أن تستشهدا معه، فإنه والله على الحق، ومن خالفه على الباطل⁽¹⁾. وقتل في هذا اليوم هاشم بن عتبة الذي كان عمار يناديه: يا هاشم الجنة تحت ظلال السيوف⁽²⁾.

لقد قدمنا هنا بعض المشاهد على أرض صفين. يوم أن أخبر الإمام بأنه مقتول وأن معاوية سيملك ما تحت قدمه. ففي هذا اليوم أراد بعض الناس الدنيا فكاتبوا معاوية سوا. ورأد البعض الآخر الآخرة فقاتلوا وقتلوا رغم علمهم مقدما بما سيسفر عنه القتال في النهاية.

7 - عندما اتخنوا المصاحف جدرا!

بعد قتل عمار اشتعلت المعركة اشتعالا. وكان عمار لا يأخذ واديا من أو دية صفين إلا اتبعه من كان هناك من أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم⁽³⁾ . وروي عن محمد بن عملة بن خزيمة بن ثابت قال: مازال جدي - يعني خزيمة - كافا سلاحه يوم الجمل حتى قتل عمار بصفين، فسل سيفه فقاتل حتى قتل. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تقتل عمرا الفئة الباغية. فعندما قتل عمار بد أن ضربات الصحابة فيما سمي في التاريخ: "ليلة الهيرير" والهيريز: صوت القوس. وصوت الكلب نون نباح.

يقول المسعودي: اختلط الناس، وبطل النبل، واستعملت السيوف، وجنهم الليل، وتناوا بالشعار (أي الكلمة السرية المتفق عليها) وتقصفت الرماح. وتكادم القوم (أي آثروا العص) وكان يعتنق الفرس الفرس ويقعان إلى

(1) مروج الذهب 425 / 2.

(2) البداية والنهاية 270 / 7.

(3) رواه أحمد (الفتح الرباني 142 / 23).

الصفحة 101

الأرض عن فوسيهما. وكان جملة من قتل علي بن أبي طالب في يومه وليلته خمسمائة وثلاثة وعشرون رجلا، أكثهم في هذا اليوم، وكان علي إذا قتل رجل كبر إذا ضوب. ولم يكن يضوب إلا قتل⁽¹⁾ . وكان هذا اليوم للأشتر فيه نصيب كبير وروي أنه أنشد:

إن تقتلوا منا أبا * اليقظان شيخا مسلما

فقد قتلنا منكم * سبعين رأسا مجرما

أضحوا بصفين وقد * لاهوا نكالا مؤلما⁽²⁾

وكان الأشتر يحرض الناس على امتداد أيام صفين ويقول: إن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ليميتوا السنة: ويحوا البدعة، ويعيدوكم في ضلالة قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن البصيرة. فطيخوا عباد الله أنفسا بدمائكم نون دينكم، فإن ثوابكم على الله والله عنده جنات النعيم. وإن الفوار من الوحف فيه السلب للعز والغلبة على الفئ ذل المحيا والممات، وعار الدنيا والآخرة⁽³⁾ .

وفي ليلة الهيرير كان الأشتر يضوب ضوباته بكل قوة حتى اخترق صفوف أهل الشام. وأجري حولهم عمليات الالتفاف والتطويق. يقول ابن كثير: حمل الأشتر على أهل الشام وتبعه علي. فتنقضت غالب صفوفهم، وكانوا ينهزمون، فعند ذلك رفع أهل الشام المصاحف فوق الرماح⁽⁴⁾ .

وخذعة رفع المصاحف أرست فيما بعد قاعدة المتاحرة بالشعار والشواء به ثمنا قليلا، وإذا كان الخورج قد تاجروا بالدين بعد ذلك، فلا يمكن لباحث أن يهمل أول باب تم عنده المتاحرة بالكتاب على نطاق واسع. فالخورج دخلوا من باب صفين بصورة من الصور، وكان ابن العاص صاحب فكرة رفع الشعار. ولم تأت الفكرة عشوائيا نون تجهيز وإعداد. فالقوم كانوا

يعرفون من يواجهون -

والروايات الكثيرة تثبت أنهم كانوا يتجنبون ملاقاته أمير المؤمنين في المعركة.

لهذا جرى الإعداد على قدم وساق لضرب القاعدة بعد أن قتل العديد من الصحابة الأجلاء الذين كانوا يمثلون العمود الفقري لجيش الإمام. فشق الصف هو المنفذ الوحيد لخروجهم من المعركة والسعي بعد ذلك في طويق الفتنة للوصول إلى الكوسي. وكان المصحف وسيلتهم الوحيدة في ذلك. فرفع الكتاب وطلب التحكيم سيؤدي إلى وجود مؤيد ومعارض داخل معسكر الإمام. فالمؤيد سيكون من بين الذين يحكمون عواطفهم في الأمور ولا يفهمون من الدين إلا القليل، أو من الذين يكتبونهم سوا. وفي جميع الحالات فإن رفع المصاحف سيكون انتصار للإعلام الأموي أمام العامة الذين شربوا مقولة أن جيش الإمام لا يصلي فكيف بهم إذا أذيع عليهم أن الإمام رد المصحف.

لقد كان فقه الروم يعمل من أجل إيجاد قوة زمنية. إما أن يهلك جيش الإمام بعضه بعضا فيها. وإما أن يستخرج إلى فخ التحكيم. فإذا رفض الإمام قرارات هيئة التحكيم فهو أمام العامة والغواة خرج عن القانون. وإذا قبلها كان الكوسي لمعاوية ويسحب بساط العلم بالتأويل من تحت الإمام. وبسحب هذا البساط ضاع الدين. وابن العاص عندما عرض خطته على معاوية لم يجعل العمود الفقري فيها النجاة من حصار الأشرار لمعسكر أهل الشام، وإنما كان العمود يقوم على اجتماع تيلهم وتشتيت معسكر الإمام. وروي أنه قال لمعاوية:

هل لك في أمر أ عرضه عليك لا نريدنا إلا اجتماعا ولا نريدهم إلا فوقة. قال:

نعم، فقال: نرفع المصاحف. ثم نقول: ما فيها حكم بيننا وبينكم. فإن أبي بعضهم أن يقبلها. وجدت فيهم من يقول: بل ينبغي أن نقبل. فنكون فوقة تقع بينهم. وإن قالوا: بلى نقبل ما فيها. رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين " (1).

وأقر معاوية الخطه. وخوج ابن العاص ليعلن سياسة الروم، فقال: أيها الناس. من كان معه مصحفا فليرفعه على رمحه. وناخوا: كتاب الله بيننا وبينكم.

من لشغور الشام بعد أهل الشام؟ ومن لشغور العراق بعد أهل العراق. ومن لجهاد الروم؟ ومن للترك؟ ومن للكفار؟ (1)

يقول المسعودي: ورفع في عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف، فلما رأى كثير من أهل العراق ذلك، قالوا: نجيب

إلى كتاب الله. وقيل لعلي:

قد أعطاك معاوية الحق. ودعاك إلى كتاب الله فاقبل منه وكان أشدهم في طلب التحكيم الأشعث بن قيس⁽²⁾، وكان أمير المؤمنين يعلم أن القوم يسبرون في طويق أخوه به النبي صلى الله عليه وسلم. لقد تم ابتلاؤهم والنصر على الأعتاب. لقد خيروا بين الشعار والشعور بالشعار. فاختروا الشعار بلا شعور. اخترتوا الطويق الذي تسير فيه أكثر من سبعين فرقة وكل فرقة تدعي أنها على الشعار الحق. وهل الشعار إلا حقا محضا وأن الابتلاء لا يكون إلا في الشعور.

كان الإمام يعلم أن القوم قد اخترتوا طويق اللادعوة، واللا دعوة تعني اللاملرسة وهذا ينتهي إلى جحود الذين من قبلهم لؤاحموا أصحابها فيها، ويتبعونهم شوا بشير وفواعا بفواع، ثم ينتهي بهم المطاف فيكونوا غناء، رخيصا، تافها، لا قيمة له. في علم توقع فيه أنياب الحيتان. وفي هذا العالم ينوقوا الذل، أي ذل.

وأخذ الإمام بالأسباب كما علمه أستاذ البشرية محمد صلى الله عليه وسلم فقال لهم: عباد الله. امضوا على حاكم وصدقكم قتال عنوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي السوح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم. قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا، فكانوا شر أطفال وشر رجال. ويحكم أنهم مارفوها ثم لا يرفونها ولا يعلمون بما فيها. ومارفوها لكم إلا خدعة ومكيدة. قالوا: ما يسعنا أن ندعي إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله. فقال:

ويحكم. أنا أول من دعا إلى كتاب الله. وأول من أجاب إليه. وليس يحل لي، ولا يسعني في ديني أن أدعي إلى كتاب الله فلا أقبله. إني أقاتلهم ليدنوا

(1) مروج الذهب 432 / 2، الطبري 26 / 6، ابن أبي الحديد 423 / 1.

(2) مروج الذهب 432 / 2.

بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله عز وجل فيما أمرهم ونسوا عهده ونبؤوا كتابه⁽¹⁾. فقالوا: يا علي أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه. وهدوه بالقتل إذا رفض إجابة الدعوة⁽²⁾ فقال لهم: احفظوا عني نهي إياكم، واحفظوا مقالنتكم لي. أما أنا فإن تطيعوني تقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم⁽³⁾.

لقد كان أمير المؤمنين أول حاكم تظلمه رعيته. فالحكام على امتداد التاريخ ليس لهم إلا أن يأمرُوا وعلى الرعية أن تتفد. أما الإمام لأن له مهمة محددة لا يجوز له أن يجبر فودا على عمل ما، فهو فقيه وعلى علم بالطويق، وعلى امتداد هذا الطويق يسير بمصباحه. فمن أراد أن يتجنب الحفر على سنة الله ورسوله - فعليه بحامل المصباح. وعلى امتداد هذا الطويق عهد إليه بعهد. ومع كل عهد شروط تنفيذ. وأهم هذه الشروط أن يجتمع الناس حوله ليضرب بهم من صد عن طريقه... فإذا فقد هذا الشرط فعليه أن يقيم الحجة وفقا لحركة الدعوة وحركة الواقع.

وبعد رفع المصاحف ظلمت الرعية قائدها. وأصرت إليه الأوامر: قالوا له: ابعث إلى الأشتر ليأتينك. وكان الأشتر صبيحة ليلة الهزير أشرف على عسكر معاوية ليدخله (4). وتدخّل القوم في سير الأعمال العسكرية، يشير إلى أن عددهم وقوتهم ولم يكن من السهل تجاهلهم أو تجاهل خطوهم على باقي القوات فضلا على حركة الدعوة. ولقد روي أن الذين اعتزلوا بحروراء فقط كانوا اثنا عشر ألف مقاتل (5). وروي أن الإمام عندما بعث للأشتر أن يأتيه. قال الأشتر لمبعوث الإمام: ليس هذه الساعة، إني قد رجوت أن يفتح لي فلا

- (1) ابن أبي الحديد 426 / 1، الطبري 27 / 6، البداية والنهاية 298 / 7، مروج الذهب 433 / 2، الكامل 161 / 3.
- (2) الطوي 27 / 6، البداية والنهاية 298 / 7، مروج الذهب 433 / 2، ابن أبي الحديد 426 / 1.
- (3) الطوي 27 / 6، البداية والنهاية 299 / 7، ابن أبي الحديد 426 / 1.
- (4) ابن أبي الحديد 426 / 1، الطوي 27 / 6، البداية 299 / 7.
- (5) الطوي 35 / 6.

الصفحة 105

تعجلني. وعندما سمع القوم هذا ارتفع الهوج وعلت الأصوات، وقالوا للإمام: ابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك. فبعث الإمام: أقبل إلي فإن الفتنة قد وقعت. وجاء الأشتر فقال لهم: يا أهل العواق، يا أهل الذل والوهن، حين علوتم القوم ظهوا، وظنوا أنكم لهم قاهرون. رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وقد والله تركوا ما أمر الله عز وجل به فيها وسنة من أتت عليه صلى الله عليه وسلم، فلا تجيبوهم إمهلوني عدو الفوس، فإنني قد طمعت في النصر.

قالوا: إذا ندخل معك في خطيئتك، ثم قالوا: لقد قاتلناهم في الله عز وجل، وندع قتالهم الله سبحانه. إنا لسنا مطيعيك ولا صاحبك فاجتنبنا. فقال: خذتم والله فانخدعتم. ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتكم، يا أصحاب الجباه السود، كنا نظن صلواتكم زهادة في الدنيا وشوقا إلى لقاء الله عز وجل، فلا رأي قوركم إلا إلى الدنيا من الموت إلا قبحا، يا أشباه النبيب الجلالة. وما أنتم وائين بعدها عوا أبدا، فابعنوا كما بعد القوم الظالمين، فسووه وسبهم. وقال الناس: قد قبلنا أن نجعل الوآن بيننا وبينهم (1) حكما .

وروي أن الإمام كان ساكتا لا يتكلم، ثم قام فسكت الناس كلهم. فقال: لقد فعلتم فعلة ضععت قوة، وأسقطت منه، وأوهنت وأورثت وهنا وذلة، ولما كنتم الأعلىين وخاف عدوكم الاجتياح واستعربهم القتل ووجوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف، ودعوكم إلى ما فيها ليفتؤكم عنها ويقطعوا الحرب فيما بينكم وبينهم. ويتوبصون ريب المنون خديعة ومكيدة. فأعطيتوهم ما سأوا. وأبيتم إلا أن تدهنوا وتجوزوا. وأيم الله ما أظنكم بعدها توافقون رشا، ولا تصيبون باب خدم (2). وقال: أيها الناس. إن أمري لم يزل معكم على ما أحب. إلى أن أخذت منكم الحرب. وقد والله أخذت منكم وتركت. وأخذت من عدوكم فلم تترك. وإنها فيهم أنكى وأنهك. ألا إني كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم

مأمورا، وكنت ناهيا فأصبحت منهبيا. وقد أحببتكم البقاء. وليس

(1) الطبري 28 / 6، الكامل 161 / 3، ابن أبي الحديد 427 / 1، البداية 300 / 7.

(2) الطوي 31 / 6.

الصفحة 106

لي أن أحملك على ما تكوهون ثم قعد⁽¹⁾.

وعندئذ بدأ نجم الأشعث بن قيس في الظهور. قال ابن أبي الحديد: كل فساد كان في خلافة أمير المؤمنين علي، وكل اضطراب حدث فأصله الأشعث⁽²⁾. جاء الأشعث إلى أمير المؤمنين فقال: ما رى الناس إلا قدرضوا، وسوهم أن يجيوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القوان. فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد. قال: آته إن شئت. فاتاه. فسأله: يا معاوية لأي شئ رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لزوج نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فيها. فابعثوا رجلا منكم ترضونه، ونبعث منا رجلا، ونأخذ عليهما أن يعملما بما في كتاب اللهولا يعدوا، ثم نتبع ما اتفقنا عليه، فقال الأشعث: هذا هو الحق، وانصرف وأخبر أمير المؤمنين. واجتمع قواء الشام وقواء العواق. وقال أهل الشام: إنا قدرضينا واخترنا عمرو بن العاص. وقال الأشعث والقواء الذين صاروا خورج فيما بعد: قدرضينا نحن واخترنا أبا موسى الأشعوي. فقال الإمام: فإني لا رضى بأبي موسى ولا رى أن أوليه. فقال الأشعث ومن معه: إنا لا نوضى إلا به. قال الإمام: إنه ليس لي برضا. وقد فرقتي وخذل الناس عني وهوب مني حتى أمنتته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك. قالوا: والله ما نبالي. أكنت أنت أو ابن عباس. ولا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء، وليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر. فقال أمير المؤمنين: فإني أجعل الأشتر. فقال الأشعث:

وهل سعر الأرض علينا إلا الأشتر. وهل نحن إلا في حكم الأشتر. قال أمير المؤمنين: وما الحكمة؟ قال: حكمة أن يضوب بعضنا بعضا بالسيف حتى يكون ما أردت وما أراد⁽³⁾.
لقد كان الإمام يأخذ بأسباب الحياة الكريمة. فهو يعلم أن أبا موسى سيأتي لا محالة ليشارك في تحكيم الإمام يرفضه من البداية. وكان الإمام قد قال لأبي

(1) ابن أبي الحديد 428 / 1، مروج الذهب 432 / 2.

(2) ابن أبي الحديد 468 / 1.

(3) الطوي 28 / 6، ابن أبي الحديد 433 / 1، الكامل 162 / 3، مروج الذهب 434 / 2.

الصفحة 107

موسى قبل موقعة الجمل: اعتزل عملنا يا ابن الحائك مذموما مدحورا. فما هذا أول يومنا منك. وإن لك فينا لهنات وهنيات⁽¹⁾، وروي أن عمار بن ياسر قال لأبي موسى: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلعنك ليلة الجبل.
(2)

فقال أبو موسى: إنه قد استغفر لي. قال عمار: قد شهدت اللعن ولم أشهد الاستغفار ، وعندما هرب أبو موسى من علي بن أبي طالب قيل لعمار: قد هاجر أبو موسى، فقال عمار: والله ليخذلن جنده، وليفون جهده، ولينقضن عهده⁽³⁾ . ثم أخبر عمار عن معركة صفين قبل وقوعها. فقال بعد أن سلط الضوء على أبي موسى: "والله إني لأرى قوما ليضوبنكم ضوبا يرتاب له المبطلون، والله لو قاتلوا حتى بلغوا بنا سعفات هجر لعلمت أن صاحبنا على الحق وهم على الباطل⁽⁴⁾ . لقد قال لهم الإمام عندما قالوا: لا نوضى إلا بأبي موسى، قال، ويحكم هو ليس بثقة. قد فلزني⁽⁵⁾ ! وقال لهم: قد عصيتموني في أول هذا الأمر. فلا تعصوني الآن. إني لأرى أن أولي أبا موسى الأشعوي. فقال الأشعث ومن معه: لا نوضى إلا بأبي موسى الأشعوي⁽⁶⁾ .

وانتهت المواجهة العسكرية بصفين بعد رفع المصاحف، وكان جملة من قتل من الفويقين جميعا سبعين ألفا. من أهل الشام خمسة وأربعون ألفا، ومن أهل العواق خمسة وعشرون ألفا فيهم خمسة وعشرون بريا. وقيل غير ذلك نظرا لأن في قتلى الفويقين من غرق ومن قتل في البر فأكله السباع.

فروي أن عدد القتلى مائة ألف وعشوة آلاف من أهل الشام تسعون ألفا.

(1) مروج الذهب 396 / 2.

(2) رواه ابن عساكر (كنز العمال 608 / 13).

(3) رواه الطواني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 243 / 7).

(4) رواه الطواني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 243 / 7).

(5) مروج الذهب 434 / 2 ، الطوي 28 / 6، ابن أبي الحديد 433 / 1، الكامل 162 / 3.

(6) مروج الذهب 434 / 2 ، الطوي 28 / 6، ابن أبي الحديد 433 / 1، الكامل 162 / 3.

الصفحة 108

ومن أهل العواق عشرون ألفا⁽¹⁾ . وروي أن مدة المقام بصفين كانت مائة يوم وعشوة أيام. وقال آخرون: كان سبعة أشهر. وقيل: تسعة أشهر. وكان بينهم في هذه المدة تسعون زحفا⁽²⁾ .

وعندما جاء أبو موسى ودخل المعسكر، قال الأحنف للقوم: لقد أبيتم إلا أبا موسى فادفوا ظهوره بالرجال. وجاء عمرو بن العاص ومن معه. جلس الطرفان. فكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين. فقال عمرو: اكتب اسمه واسم أبيه. هو أميركم. فأما أميرنا فلا. قال أمير المؤمنين: الله أكبر سنة سنة ومثل بمثل. والله إني لكاذب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، إذ قالوا لست رسول الله ولا نشهد لك به. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فكتبه. فقال عمرو: سبحان الله. أتشبهنا بالكفار ونحن مسلمون؟ فقال علي: يا ابن النابغة. ومتى لم تكن للكافرين وليا وللمسلمين عنوا؟ فقام عمرو وقال: والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد اليوم، فقال علي: وإنني لأرجو أن يطهر الله عز وجل مجلسي منك ومن أشباهك. وكتب الكتاب⁽³⁾ .

ولقد تحدثنا فيما سبق أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد صلح الحديبية كان قد أُنذر قريش بأن لهم في المستقبل يوماً يقاثلهم فيه رجلاً امتحن الله قلبه بالإيمان، وهو خاصف النعل. وظل هذا الأمر في ذهن دائرة الاستكبار وتولوثه وكانت حركتهم مرتبطة بما في دائرة ذهنهم.

وروى ابن أبي الحديد عن أبي إسحاق الشيباني قال: قأت كتاب الصلح عند سعيد بن أبي بردة في صحيفة صواء. عليها خاتمان: خاتم من أسفلها.

وخاتم من أعلاها. على خاتم علي بن أبي طالب: "محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم" وعلى خاتم معاوية "محمد رسول الله" وقيل لعلي حين أراد أن

(1) مروج الذهب 2 / 436.

(2) البداية والنهاية 7 / 275.

(3) الطوي 6 / 29، أبي الحديد 1 / 436.

الصفحة 109

يكتب الكتاب بينه وبين معاوية وأهل الشام: أتقر أنهم مؤمنون مسلمون! فقال علي: ما أقر لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون. ولكن يكتب معاوية ما شاء بما شاء، ويقر بما شاء لنفسه ولأصحابه. ويسمي نفسه بما شاء وأصحابه

(1)

(2) وكان فيما كتب في الصحيفة. أن يحيى الحكمان ما أحياء القآن، ويميتا ما أمات القآن، ولا يتبعان الهوى ولا يداهنان في شئ من ذلك. فإن فعلا فلا حكم لهما، والمسلمون في حكمهما واء (3). وقال أمير المؤمنين للحكمين: على أن تحكما بما في كتاب الله. وكتاب الله كله لي. فإن لم تحكما بما في كتاب الله فلا حكومة لكما (4).

وانفقوا على موضع التحكيم بين الكوفة والشام. وخوج الأشعث ليقوا الصحيفة على الناس. وجرى بين الأشعث وبين أناس منهم خطب طويل، وعندئذ قام عروة بن أذينة، وهو أخو بلال الخرجي، فقال: أتحكمون في دين الله وأمره ونهيه الرجال؟ لا حكم إلا لله. فكان أول من قالها (5) وما أن قال عروة هذا حتى تباغض القوم جميعاً، وأقبل بعضهم يتوأم من بعض. توأم الأخ من أخيه والابن من أبيه، وأمر علي بن أبي طالب بالوحيل. لعلمه باختلاف الكلمة. وتفاوت الوأي. وعدم النظام لأمرهم، وما لحقه من الخلاف منهم.

وكثر التحكيم في جيش أهل العواق، وتضرب القوم بالمقلوع ونعال السيوف وتساووا. ولام كل فويق منهم الآخر في رأيه. وسار على نحو الكوفة. ولحق معاوية بدمشق (6).

(1) ابن أبي الحديد 1 / 437.

(2) المداهنة / الخداع.

(3) مروج الذهب 435 / 2، ابن أبي الحديد 437 / 1، الطوي 29 / 6.

(4) ابن عساكر وابن أبي شيبة (كنز العمال 319 / 11)، مروج الذهب 435 / 2.

(5) مروج الذهب 436 / 2، ابن أبي الحديد 438 / 1.

(6) مروج الذهب 437 / 2.

الصفحة 110

وروي عن علقمة والأسود أنهم قالوا: أتينا أبا أيوب الأنصاري عند منصوره من صفين. فقلنا له: يا أبا أيوب. إن الله أكرمك بنزول محمد صلى الله عليه وسلم وبمجيئ ناقته تفضلا من الله وإكراما لك. حين أناخت ببابك دون الناس. ثم جئت بسيفك على عاتقك تضوب به أهل لا إله إلا الله! فقال لهما: يا هذا إن الرائد لا يكذب أهله، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمونا بقتال ثلاثة مع علي: بقتال الناكثين والقاسطين والملقين. فأما الناكثون فقد قاتلت. وهم أهل الجمل وطلحة والزبير، وأما القاسطون. فهذا منصورنا من عندهم - يعني معاوية وعمرو - وأما الملقون فهم أهل الطرقات وأهل السعيفات وأهل التخيلات وأهل النهروان. والله ما أروي أين هم! ولكن لا بد من قتالهم إن شاء الله. ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار: يا عمار تقتلك الفئة الباغية. وأنت مذ ذاك مع الحق والحق معك. يا عمار بن ياسر، إذ رأيت عليا قد سلك واديا وسلك الناس غوه، فاسلك مع علي، فإنه لن يديك في ردى ولن يخرج من هدى. يا عمار، من تقلد سيفاً أعان به عليا على غوه.

قلده الله يوم القيامة وشاحين من در. ومن تقلد سيفاً أعان به عدو علي عليه، قلده الله يوم القيامة وشاحين من نار. فقال علقمة والأسود لأبي أيوب: يا هذا حسبك! حسبك رحمك الله! حسبك رحمك الله (1) وأنا أقول: حسبك رحمك الله.

(1) رواه ابن عساكر عن أبي صادق (كنز العمال 352 / 11) والخطيب البغدادي (البداية والنهاية 307 / 7)، وابن جرير عن مخنف باختصار (كنز العمال 352 / 11).

الصفحة 111

ثالثا - التخاذل وغياب القمر

قال الإمام عند انصافه من صفين:

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضيء اللامع، والأمر الصادع (1)، راحة للشبهات، واحتجاجا بالبينات، وتحذوا بالآيات وتخويفا بالمثلات، والناس في فتن انجذم (2) فيها حبل الدين، ووعوت سوري (3) الدفين: واختلفت الفجر (4)، وتشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمي المصدر، فالهذى حامل، والعمى شامل، عصى الرحمن، ونصر الشيطان، وخذل الإيمان، فانهلت (5) دعائمه، وتكرت معالمه، ودرست سبله، وعفت شركه (6). أطاعوا الشيطان فسلخوا سالكه، ووروا مناهله. بهم سرت أعلامه، وقام لؤؤه في

(1) الصادع / الظاهر الجلي.

(2) انجذم / انقطع.

(3) السلية / الدعامة.

(4) النحر / الأصل.

(5) انهزت / تساقطت.

(6) الشوك / الطوائق.

الصفحة 112

- (3) بأخفافها (1) ووطئتهم بأظلافها (2). وأقامت على سناكبها، فهم فيها تائهون حائرون، جاهلون مفتونون، في خير دار
 وشر جوان (4). نومهم سهود (5).
 وكحلهم دهوع (6). برؤض عالمها ملجم (7) وجاهلها مكرم (8) ... (9).

ودخل أمير المؤمنين إلى الكوفة ولم يدخل معه الذين اختلفوا معه، وتولوا بحرراء وكان عددهم يومئذ اثني عشر ألفاً،
 ونادى مناديهم أن أمير القتال شيبث بن ربعي وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء، والأمر شورى والبيعة لله والأمر بالمعروف
 والنهي عن المنكر (10).

لقدر فوعا صوتهم فوق صوت أمير المؤمنين. أمره بأن يقبل التحكيم، وأن يسحب قوات الأشرار إلى الخلف، وأن يقر أبا
 موسى. وبعد أن نالوا ما رأوا اختلفوا فيما بينهم. وهذا لا يستغرب منه لأنه من شيمة الذين يسلكون طريق الشيطان،
 فالاختلاف والبغي على هذا الطريق أمر طبيعي ولا ينبغي البحث عن أسبابه.

1 - خيمة التحكيم:

قبل التحكيم جاء المغوة بن شعبة إلى معاوية، فقال له معاوية: يا مغوة ما ترى؟ قال: يا معاوية لو وسعني أن أنصرك
 لنصرتك، ولكن على أن آتيك بأمر

(1) الخفاف / الإبل.

(2) الأظلاف / للبقير والمعاز.

(3) خير دار / قيل يقصد الكوفة وقيل الشام.

(4) شر جوان / أي أصحاب معاوية.

(5) نوفهم سهود / يعني أصحاب معاوية. لا ينامون الليل ويرتبون أمره.

(6) كحلهم دهوع / أي نفاقاً.

(7) أي المؤمن في تقية وخوف.

(8) أي المكذب في عز ومنعة.

(9) ابن أبي الحديد 123 / 1.

(10) الطوي 35 / 6.

الصفحة 113

الرجلين - أي عمرو وأبو موسى - فحل حتى دخل على أبي موسى كالزائر له.

فقال: يا أبا موسى. ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء - وكان المغيرة مقيما بالطائف ولم يشهد الحرب - قال: أولئك خير الناس، خفت ظهورهم من دمائهم وخمست بطونهم من أموالهم. ثم ذهب المغيرة إلى عمرو. فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء، قال: أولئك شرارة الناس لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا. فجع المغيرة إلى معاوية فقال له: قد ذقت الرجلين. أما أبو موسى فخالع صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر، وهواه في عبد الله بن عمر، وأما عمرو بن العاص، فهو صاحبك الذي تعرف.

وقد ظن الناس أنه يرومها لنفسه. وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه ⁽¹⁾.

لم يكن ابن العاص يمثل أي مشكلة لمعاوية، وإنما الذي كان يهم معاوية هو معرفة خامات أبي موسى الأشعوي. وبعد أن تنوق المغيرة الخامات وأخبر بها معاوية، بدأت السياسة الأموية تعمل من أجل الوصول إلى أهدافها. وروي: لما أراد أبو موسى المسير إلى نومة الجندل وهو المكان الذي اتفق ليكون مقوا للتحكيم. قال له ابن عباس: إن عليا لم يرض بك حكما لفضل عندك، والمتقدمون عليك كثير، وإن الناس أبا غيرك، وإنني لأظن ذلك لشر راد بهم. وقد ضم داهية العرب معك - يعني عمرو - إن نسيت فلا تنسى أن عليا بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان. وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة.

وليس في معاوية خصلة تقوبه من الخلافة ⁽²⁾. وقال له: واعلم يا أبا موسى أن معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه يدعي الخلافة من غير مشورة ولا بيعة، فإن زعم لك أن عمرو وعثمان استعملا فلقد صدق، استعمله عمرو وهو الوالي عليه. بمقالة الطبيب يحميه ما يشتهي ويوجه ما يكره. ثم استعمله عثمان وأي عمرو، وما أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة. واعلم أن لعمرو مع كل شيء يسرك خبيثا يسؤوك. ومهما نسيت فلا تنسى أن عليا بايعه.

(1) ابن أبي الحديد 449 / 2.

(2) موج الذهب 439 / 2.

الصفحة 114

القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان. وأنه لم يقا تل إلا العاصيين والناكثين ⁽¹⁾.

وانطلق أبو موسى إلى خيمة التحكيم. وروي أن معاوية وصى عمرا عندما فرقه وهو يريد الاجتماع بأبي موسى فقال له:

يا أبا عبد الله. إن أهل العواق قد أكرهوا عليا على أبي موسى. وأنا وأهل الشام راضون بك. وقد ضم إليك رجل - أي أبو موسى - طويل اللسان قصير الرأي، فأخر الخلا. وطبق المفصل. ولا تلقه وأيك كله (2).

وروي أن عمرا أعطى لأبي موسى صدر المجلس. وكان لا يتكلم قبله. وأعطاه التقدم في الصلاة وفي الطعام. لا يأكل حتى يأكل، وإذا خاطبه فإنما يخاطبه بأجمل الأسماء ويقول له: يا صاحب رسول الله، حتى أطمئن إليه، فظن أنه لا يغشه (3). ودعا عمرو بصحيفة وكاتب، ثم قال لكاتبه: اكتب فإنك شاهد علينا. ولا تكتب شيئا يأمر به أحدنا حتى تستأمر الآخر فيه، فإذا أمرت فاكذب، وإذا نهاك فانته، حتى يجتمع رأينا. ثم قال عمرو: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان، فكتب وبدأ بعمرو، فقال له عمرو: لا أم لك أتقدمني قبله كأنك جاهل بحقه؟ فكتب فبدأ باسم عبد الله بن قيس.

وكتب: تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، ثم قال عمرو: ونشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمل بكتاب الله وسنة رسوله حتى قبضه الله إليه، وقد أدى الحق الذي عليه، قال أبو موسى موافقا: اكتب. ثم قال في عمر بن الخطاب مثل ذلك. فقال أبو موسى اكتب. ثم قال عمرو: واكتب: وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم. ورضى منهم وأنه كان مؤمنا. فقال أبو موسى

(1) ابن أبي الحديد 2 / 445 / 2.

(2) مروج الذهب 2 / 439 / 2، ابن أبي الحديد 1 / 444 / 1.

(3) الكامل 3 / 168 / 3، وابن أبي الحديد 3 / 451 / 3، الطوي 39 / 6.

الصفحة 115

الأشعوي: ليس هذا مما قعدنا له. قال عمرو: والله لا بد من أن يكون مؤمنا أو كافرا. فقال أبو موسى: كان مؤمنا. قال عمرو: فبره يكتب، قال أبو موسى:

اكتب. قال عمرو: فظالما قتل عثمان أو مظلوما؟ قال أبو موسى: بل قتل مظلوما، قال عمرو: أفليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطانا يطب بدمه؟ قال أبو موسى: نعم، قال عمرو: فهل تعلم لعثمان ولينا أولى من معاوية؟ قال: أبو موسى: لا، قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟ قال أبو موسى: بلى، قال عمرو للكاتب: اكتب وأمره أبو موسى فكتب، قال عمرو: فإننا نقيم البيعة أن عليا قتل عثمان. فقال أبو موسى: هذا أمر قد حدث في الإسلام. وإنما اجتمعنا لغوه. فهلم إلى أمر يصلح الله به أمر أمة محمد، قال عمرو: وما هو؟ قال أبو موسى: قد علمنا أن أهل العواق لا يحبون معاوية أبدا، وأن أهل الشام لا يحبون عليا أبدا. فهلم نخلعهما جميعا ونستخلف عبد الله بن عمر. وكان عبد الله بن عمر على بنت أبي موسى (1).

وروي عن أبي جناب أن أبا موسى قال غير مرة: والله إن استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب. فقال له عمرو: إن كنت

إنما تريد أن تبايع ابن عمر لدينه. فما يمنعك من ابني عبد الله وأنت تعرف فضله وصلاحه؟ قال: إن ابنك رجل صدق. ولكنك قد غمسته في هذا الفتن (2).

وروى الطوي: رآه أبو موسى عبد الله بن عمر فأبى عليه عمرو، ورآه عمرو ابنه فأبى أبو موسى، فقال له عمرو: خوني ما رأيك؟ قال: رأيي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحوا، فقال له عمرو: فإن الوأي ما رأيك. فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال عمرو: يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق. فتكلم أبو موسى فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أن نجوا أن يصلح الله

(1) مروج الذهب 440 / 2.

(2) الطوي 38 / 6، ابن أبي الحديد 450 / 1، البداية والنهاية 283 / 7، مروج الذهب 441 / 2.



عز وجل به أمر هذه الأمة فقال عمرو: صدق وبر أبو موسى. تقدم فتكلم.

فتقدم أبو موسى ليتكلم فقال له ابن عباس: ويحك والله إني لأظنه قد خدعك. إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك. ثم تكلم أنت بعده فإن عمرا رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه. فإذا قمت في الناس خالفك. وكان أبو موسى مغفلا فقال: إنا قد اتفقنا.

فتقدم أبو موسى ثم قال: أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة. فلو نر أصلح لأمرها. ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو أن تخلع عليا ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحوا عليهم وإني قد خلعت عليا ومعاوية... وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية. فإنه ولي عثمان بن عفان، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه⁽¹⁾ - وفي رواية - وأن أبا موسى قد كتب في الصحيفة أن عثمان قتل مظلوما وأن لوليه سلطانا أن يطلب بدمه حيث كان. وقد صحب معاوية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه. وصحب أبوه النبي صلى الله عليه وسلم. وأن معاوية هو الخليفة علينا. وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان.

فقال أبو موسى: كذب عمرو. لم نستخلف معاوية. ولكننا خلعنا معاوية وعليها معا، وقال عمرو: بل كذب عبد الله بن قيس، قد خلع عليا ولم أخلع معاوية⁽²⁾. فقال أبو موسى: ما لك لا وفقك الله غرت وفجرت إنما مثلك (كمثل الحمار يحمل أسفرا)⁽³⁾، فقال له عمرو: بل إياك يلعن الله. كذبت وغرت. إنما مثلك مثل (الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث)⁽⁴⁾، ثم

(1) الطبري 40 / 6، مروج الذهب 442 / 2، الكامل 168 / 3، البداية 248 / 7، ابن أبي الحديد 451 / 1.

(2) مروج الذهب 442 / 2.

(3) سورة الجمعة: الآية 5.

(4) سورة الأعراف: الآية 176.

وكز أبا موسى فألقاه لجنبه⁽¹⁾ وانطلق عمرو إلى معاوية وسلم عليه بالخلافة⁽²⁾.

وهكذا انتهى التحكيم بين المسلمين. لقد اشترط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على الحكمين أن يحكما بكتاب الله ولا يتبعان الهوى ولا يداهنان.

فلم يأخذا من كتاب الله إلا مثلين ضوبهما الله. مثل الحمار ومثل الكلب، وضرب كل واحد منهما صاحبه بمثل. ومن أجمل ما قُأت في هذا المقام. قول الأستاذ العقاد وهو يعلق على التحكيم قال: كلب وحمار فيما حكم به على نفسيهما غاضبين. وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه. وانتهت المأساة بهذه المهزلة. أو انتهت المهزلة بهذه المأساة⁽³⁾.

ومن أطرف الآراء التي قُأتها عن التحكيم ورأي ابن كثير، فقد قال:

فقال عمرو: إن هذا قد قال ما سمعتم وأنه قد خلع صاحبه، وإني قد خلعت كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان وهو أحق الناس بمقامه. ثم يعلق ابن كثير على ما فعله ابن العاص فيقول: وكان عمرو رأى أن ترك الناس بلا إمام والحالة هذه يؤدي إلى مفسدة طويلة عريضة رُبى مما الناس فيه من الاختلاف.

فأقر معاوية لمارأى ذلك من المصلحة. والاجتهاد يخطئ ويصيب (4) ، فيا ترى هل في هذا إقرار لفقه الكيد والمكر تحت عنوان: إن ابن العاص خاف على الأمة أن تنام ليلة واحدة بدون إمام؟ لأن من مات في هذه الليلة فستكون ميتته ميتة جاهلية. فلماذا أسوع بتنصيب إمام الزمان معاوية. وهو من هو وأسوته لها فضل عظيم على الإسلام والمسلمين. وإذا كان ابن كثير يرى أن ابن العاص لو لم يفعل ذلك لوصل الأمر إلى مفسدة طويلة. فابن كثير كواحد من كتاب التلخيص يعلم قبل غره، أن الاختلاف والافتراق على امتداد التلخيص بعد صفين يعود أصله

(1) الطبري 40 / 6، مروج الذهب 443 / 2، الكامل 168 / 3، البداية 248 / 7، ابن أبي الحديد 451 / 1.

(2) الطوي 40 / 6.

(3) عبوية الإمام / العقاد ص 85.

(4) البداية 284 / 7.

إلى ما فعله عمرو بن العاص يوم التحكيم. ويعلم قبل غره أن هذا التحكيم الذي رضيه من عمرو بن العاص لم يقبله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

الذي يعده ابن كثير من الخلفاء الراشدين. ولا نوري كيف لا يقبل خليفة راشد التحكيم ثم تقبله أمه ملتزمة العذر لابن العاص، على اعتبار أنه متأول مجتهد له أجر على اجتهاده!! أي أجر والله ذم الاختلاف وابن العاص له عمود كبير في دائرة الاختلاف.

ومن أنصف ما قرأت في هذا المقام. ما ذكره الدموي في حياة الحيوان.

روي أن معاوية عندما صار خليفة قال لأبي الأسود الدؤلي: ما كنت تصنع لو جعلك أبو تَاب حكماً؟ فقال: كنت أجمع ألف رجل من المهاجرين وألأدهم، وألأفا من الأنصار وألأدهم. ثم أقول: يا معشر الحاضرين، أيما أحق بالخلافة رجل من المهاجرين أم رجل من الطلقاء؟ فلما سمع منه معاوية لعنه وطرده من مجلسه.

صحيح أن هذا الوأي أغضب الحاكم. لكنه فيه إنصاف، وإدخال المهاجرين والأنصار طوفا في القضية فيه روح الشورى وبعد النظر، أما أن تتروك الساحة للثعالب ويلتمس لهم الأعذار فيما بعد. فهذا - في رأينا - لا يجانبه الصواب.

وقبل أن ننقل الضوء على أحداث ما بعد التحكيم، علينا أن ننظر في الأحداث منذ أن رفعت المصاحف لنرى كيف كانت حركة أمير المؤمنين. ولقد ذكرنا أن الإمام كان يعلم أنه مقتول وأن معاوية سيمتلك ما تحت قدمه من تَاب. وعلى الرغم من هذا فإن الإمام ومن معه كانوا يأخذون بأسباب الحياة الكريمة، وكانوا يواجهون الانحراف الذي أخبر به النبي صلى الله عليه

وآله وسلم، من أجل أن يتنفس المستقبل الحرية الحقيقية وهو يخطو في اتجاه أهدافه. وحركة أمير المؤمنين في مواجهة هذه الأحداث. كانت حركة الحجة على جيل الصحابة الأوائل. لأن الشنوذ إذا تسرب من أرضية الصحابة إلى المستقبل فلن يكون في هذه الحالة شنوذاً، وإنما سيكتسب الشنوذ رداء القداسة وعلى هذا لا يمكن نقده. ثم تعبر الفتن على هذه القواعد في هدوء وسكينة

الصفحة 119

وعليها علامات التوبين والإغواء. لتدخل إلى عالم الاحتكاك والاستسلام. وحركة الإمام بعد عملية رفع المصاحف كانت تنور حول الوفض. ولكن القوم هددوه إذ لم يقبل التحكيم فسيؤتنب على ذلك أمور. ثم اختار القوم أبو موسى الأشعوي، ورفض الإمام هذا الاختيار. ولكنهم أجروا عليه. هذا كان الإمام حجة على معسكوه. وبدخول عمرو بن العاص وكتابة صحيفة الاتفاق بين أهل الشام وأهل العراق كان الإمام حجة على المعسكين. وبصور قرارات التحكيم كان الإمام حجة على الأمة. وحجج الإمام على الجميع تستند على حقيقة واحدة هي أصل الحقائق كلها " إحياء ما أحيا القآن وإماتة ما أمات القآن "، فعندما خرج للقتال بعد بيعته تحرك على محور هذه الحقيقة. وعندما رفع أهل الشام المصاحف رفض خدعتهم لأنها تستهدف هذه الحقيقة، ووصف رؤوسهم بأنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قآن، وعندما جاء عمرو وأبو موسى للاتفاق على التحكيم قال لهما: " فإن لم تحكما بما في كتاب الله فلا حكومة لكما ". لقد كان يأخذ الجميع إلى ساحة القآن ويضع في أعناقهم أعظم حجة منذ فرأ الله نرية آدم. وهذا في رأينا أعظم انتصار لإمام المتقين. قد يكون خصومه قد بسطوا أيديهم على التراب. ولكن وبالتأكيد لن يروا لهذا التراب أي فائدة. يوم يقف التابع والمتوع أمام عظمة الله جل وعلا.

وبعد التحكيم الذي كان الإمام يعلم نتيجته، وذلك وفقا لإخبار النبي صلى الله عليه وسلم. بدأ الإمام يحث الناس على القتال. لم يحثهم على قتال الحكمين، وإنما على قتال البغاة، فالحكمين سقط حكمهما عند الإمام بمجرد إعلانه لأنه اشتروط. إذا لم يحكما بكتاب الله فلا حكومة. لقد حث الجميع على قتال القاسطين بعد أن تمت مهمته في إقامة حجته على أواد بعينهم وأقوام بعينهم. كان له رغبة في أن يلتقي بهم أمام الله وحده. وعندما ساق الله إليه الأحداث والتقى بهم، وضعهم في دائرة القآن وحده هو الحكم فيها. ثم جلس بعد ذلك ينادي معسكوه كي يأخذ بالأسباب كما أخذ بها عمار وابن صوحان وابن بديل وابن عامر القوني وغوهم. وكان يحذر إلا أن أخوف الفتن عليكم فتنة بني أمية. كان يريد منهم أن يطفئوا بريقها، ولكن تقاعس منهم من

الصفحة 120

تقاعس، وفي جميع الحالات فالحجة على رأس هذا وذاك.

2 - قتال الملقين:

روي أنه لما بلغ عليا ما كان من أمر أبي موسى وعمرو قال: إني كنت تقدمت إليكم في هذا الحكومة ونهيتكم عنها، فأبيتم إلا عصياني، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم علي؟ والله إني لأعرف من حملكم على خلافي، والتوك لأهري، ولو أشاء أخذه لفعلت، ولكن الله من وراءه ⁽¹⁾، وكنت فيما أموت به كما قال أخو بني جشم ⁽²⁾.

(3)

أموتهم أمري بمتوج اللوى * فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

من دعا إلى هذه الحكومة فاقتلوه قتله الله، ولو كان تحت عمامتي هذه.

إلا أن هذين الرجلين الخاطئين اللذين اخترتوهما حكيمين قد تركا حكم الله، وحكما بهوى أنفسهما بغير حجة ولا حق

معروف، فأماتا ما أحيا القآن وأحيا ما أماته، واختلف في حكمهما كلامهما، ولم يرشدهما الله ولم يوفقهما، فوى الله منهما

ورسوله وصالح المؤمنين. فتأهبوا للجهاد، واستعنوا للمسير، وأصبحوا في عساكركم إن شاء الله تعالى (4).

ثم كتب أمير المؤمنين إلى الخوارج الذين اعتزلوه: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب

ومن معهما من الناس، أما بعد:

فإن هذين الرجلين اللذين ارتغبنا حكمهما قد خالفا كتاب الله واتبعوا أهواءهما بغير هدى من الله، فلم يعملوا بالسنة ولم ينفذا

للقآن حكما، فوى الله ورسوله منهما والمؤمنون، فإذا بلغكم كتابي هذا، فاقبلوا فإننا سائرون إلى عدونا

(1) قال المسعودي: يريد بذلك الأشعث بن قيس والله أعلم.

(2) عند أبي الحديد، "أخو هوزان" 1 / 411.

(3) اللوى / ما القوى من الرمل.

(4) مروج الذهب 2 / 446 ، ورواه باختصار: الكامل 3 / 171 ، البداية والنهاية 7 / 287 ، ابن أبي الحديد 1 / 454 ،

الطوي 6 / 43 ، الأغاني 5 / 9.

الصفحة 121

(1) وعدوكم، ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه والسلام .

فكتبوا إليه: أما بعد فإنك لم تغضب لوبك، إنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظونا فيما

بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء، إن الله لا يحب الخائنين (2)، وهكذا خاطب أتباع الشيطان أمير المؤمنين. لقدروا

إمام المتقين (3) بالكفر. وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أنهم لا يعلمون من الإسلام إلا اسمه، وتحت هذا الاسم ساروا

وراء أمير المؤمنين، ليأكلوا باسم الشعار، وعندما رفع أهل الشام المصاحف وجنوا أنفسهم في الشعار وليس في الشعور،

وطالبوا الإمام بوقف القتال. وعندما انتهى القتال بطلب التحكيم راح الذين يقرؤون القآن ولا يجاوز واقبيهم يزعون

الأخطاء. وها هم يرمون أمير المؤمنين بالكفر، وعندما نقول بأنهم أتباع الشيطان فإن هذا القول حق، لأن أمير عسوكم كان

عبد الله بن وهب الواسبي، وهو المعروف لهم اسما ونسبا، أما الأستاذ الذي يغذيه بالعلوم فهو شيطان الودهة.

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم في حياته بقتله عندما شاهده أبو بكر، وقد ذهب كل من أبي بكر وعمر ليقتلاه ولكن

خشوعه غوهما فلم يقتلاه، فأمر النبي صلى الله عليه وآله عليا أن يقتله وعندما ذهب علي لم يجد هذا الشيطان. وأخبر النبي

صلى الله عليه وآله عليا بأنه سيقتله عند قتال الملقين. ولقد تحدثنا عن نو الثدية وأمر النبي بقتله من قبل.

وأمير المؤمنين حاول بكل جهده أن يفصل الاتباع عن سيدهم، فكاتبتهم وبعث إليهم بعبد الله بن عباس ثم ذهب إليهم بنفسه

كي يعوروا إلى الحق، ولكنهم أوا إلا الركون لما تلقىه الشياطين. وبعد أن يأس منهم تركهم، وكتب إلى أمراء الأنصار بالاستعداد لقتال أهل الشام. ومما جاء في كتابه إليهم: أما بعد، فإن من ترك الجهاد في الله وأدهن في أمره، كان على شفا هلكة إلا أن

(1) الطبري 44 / 6، الكامل 171 / 3.

(2) الطوي 44 / 6، الكامل 171 / 3، البداية والنهاية 287 / 7.

(3) الطوي 48 / 6، الكامل 171 / 3.

الصفحة 122

يندركه الله بنعمة، فاتقوا الله وقاتلوا من حاد الله وحاول أن يطفئ نور الله.

قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المحرمين، الذين ليسوا بقواء للوآن، ولا فقهاء في الدين، ولا علماء في التأويل، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام، والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسوى وهوقل، تيسروا وتهيئوا للمسير إلى عدوكم (1)

وما أن بدأ الحشد لمواجهة أهل الشام، حتى بدأت قوات الخورج تتحرك في الداخل وتثير المتاعب في العديد من المناطق. وكان بينهم وبين أهل الشام عقد غير منظور يقضي بتشتيت قوات أمير المؤمنين. وهناك أدلة على ذلك تستشف من سير الحوادث، ونتيجة للعمليات التخريبية للخورج قال الناس في معسكر أمير المؤمنين: لو سار بنا أمير المؤمنين إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم ثم نسير بعد ذلك إلى الشام. وعندما علم أمير المؤمنين بما يقوله الناس خطب وحرضهم على الجهاد وقال: سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قدما، فإنهم سعوا في إطفاء نور الله، وحرضوا على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه. ألا إن رسول الله أموني بقتال القاسطين، وهم هؤلاء الذين سونا إليهم، والناكثين وهم هؤلاء الذين فوغنا منهم، والملقين ولم نلقهم بعد.

فسيروا إلى القاسطين، فهم أهم علينا من الخورج. سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبلين يتخذهم الناس ربابا، ويتخذون عباد الله حولا ومالهم حولا (2).

وفي الوقت الذي يحرض فيه أمير المؤمنين أتباعه على القتال، كان الخورج قد اجتمعوا في أربعة آلاف وبايعوا عبد الله بن وهب الواسبي، وتحركوا حتى تولوا المدائن، وجأؤوا بعبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وعامل علي عليها، وضربوا عنقه وبقروا بطن امرأته وكانت حاملا. وقتلوا

(1) الطبري 44 / 6.

(2) مروج الذهب 449 / 2، الكامل 174 / 3.

الصفحة 123

(1)

غورها من النساء ، وعندما علم أمير المؤمنين بأخبار هذه المجزرة، بعث إليهم بالحرث بن مرة العبدي ليتحقق من صحة هذه الأخبار. وما أن وصل الحرث إليهم حتى قتلوه، وأتى الخبر أمير المؤمنين والناس، فقام إليه الناس وقالوا: يا أمير المؤمنين. علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا.

سر بنا إلى القوم فإذا فوغنا مما بيننا وبينهم سونا إلى عدونا من أهل الشام ⁽²⁾ .

ونادى مناد أمير المؤمنين بالذهاب إلى قتال الخولج.

ويبدو أن هناك إذاعة أخذت على عاتقها زعوت النفوس من قتال الخولج، على اعتبار أنهم قواء ويصلون ويصومون.

وهذه الإذاعة وصلت حتى المدينة المنورة فعن أبي سعيد الواقشي قال: دخلت على عائشة فقالت: ما بال أبي الحسن يقتل

أصحابه القواء ⁽³⁾ ، وعن أبي كثير قال: كنت مع سيدي علي بن أبي طالب حتى قتل أهل النهروان. فكأن الناس وجوا في أنفسهم من قتلهم ⁽⁴⁾ .

فهذا وغيره يدل على أن هناك إذاعة كانت تخذل الناس عن قتال الخولج. وبعد القتال وعندما أعلنت إذاعة أمير المؤمنين

أن عليا قتل ذو النديّة أو شيطان الودهة. بدأت أم المؤمنين عائشة تحدث بأحاديث النبي صلى الله عليه وآله فيما يختص بفضل العصاة التي تقتل شيطان الودهة. كما بدأ الذين وجوا في أنفسهم من قتلهم يستبشروا ويذهب عنهم ما كانوا يجدون.

وروي أن أمير المؤمنين علي عندما تحرك بقواته في اتجاه الخولج كان يسير بجانبه جندب الأريدي فقال أمير المؤمنين:

يا جندب. أرى تلك الوابية؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أنهم يقتلون عندها ⁽⁵⁾ ، وكان طليق بن علي

اليمامي يقول: قال النبي

(1) الطبري 46 / 6، مروج الذهب 449 / 2، الكامل 174 / 3.

(2) الطوي 47 / 2، الكامل 174 / 3.

(3) رواه ابن أبي عاصم (كتاب السنة 599 / 2).

(4) رواه الإمام أحمد والحميدي والعدني (كنز العمال 229 / 11).

(5) رواه ابن عساکر (كنز العمال 302 / 11).

صلى الله عليه وسلم: يوشك أن يجيء قوم يقرؤون القرآن لا يجاوزوا قرايمهم، يبرقون من الدين كما يبرق السهم من الرمية،

طوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه، أما إنهم سيخرجون برؤس قومك يا يمامي يقاتلون بين الأنهار، قال قلت: بأبي أنت وأمي

ما بها أنهار قال: إنها ستكون ⁽¹⁾ .

وهكذا أخبر النبي صلى الله عليه وآله بهذه الأنماط البشوية. أخبر بمجيئهم وقتالهم بين الأنهار في وقت لم يكن هناك وجود

للأنهار، ثم دل علي بن أبي طالب على رابية في هذه الأرض وأخوه بأنهم عندها يقتلون. إنه الإخبار بالغيب عن الله، الإخبار

بخطوات الشيطان قبل أن تظهر آثرها على الأرض. إن الإخبار بالغيب حصار للشيطان وانتصار للإنسان، ولكن أكثر الناس لا يعقلون. وروي أن أمير المؤمنين عندما أتى أهل النهروان وقف عليهم فقال: أيتها العصابة التي أخرجها عدوة الرء واللاجاة، وصدها عن الحق والهوى، وطمح بها القرق، وأصبحت في اللبس والخطب العظيم. إنني نذير لكم أن تصبوا تلفيكم الأمة غدا صوعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط، بغير بنية من ربكم ولا وهان بين. ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم دهن ومكيدة لكم، ونبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قآن، وإني أعرف بهم منكم، عرفتهم أطفالا ورجالا، فهم أهل المكر والغدر، وإنكم إن فلرتم رأيي جانبتم الحرم فعصيتموني حتى إذا أقررت بأن حكمت، فلما فعلت شوطت واستوتقت فأخذت على الحكمين إن يحييا ما أحيا القآن وأن يميتا ما أمات القآن، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة. فنبنذنا أمرهما ونحن على أمرنا الأول. فما الذي بكم ومن أين أتيتم؟ قالوا: إننا حكمنا فلما حكمنا أئمنا وكنا بذلك كافرين، وقد تبنا فإن تبت كما تبنا فنحن معك. وإن أبيت فاعتزلنا فإننا منا بنوك على سواء إن الله لا يحب الخائنين.

فقال أمير المؤمنين: أصابكم حاصب ولا بقي منكم وابر. أبعء إيماني برسول الله صلى الله عليه وسلم وهجرتي معه وجهادي في سبيل الله. أشهد

(1) رواه الطبراني (كنز العمال 208 / 11).

الصفحة 125

على نفسي بالكفر. لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين. ثم انصرف عنهم (1).

واصطف الفريقان، ورفع أبو أيوب الأنصلي راية الأمان ونادى: من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن. ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن. وعندما سمعوا النداء انصرف بعضهم إلى الكوفة والبعض الآخر إلى الدسكرة وخرج منهم إلى علي نحو من مائة (2). وأمر علي بأن يكفوا عنهم حتى يبئوهم (3)، ورمى الخورج بالسهم الأول وناولوا الرواح الرواح إلى الجنة وشنوا على الناس والخيل (4).

وبدأ الخورج يتساقطون حول الراية التي أخبر النبي صلى الله عليه وآله بأنهم يقتلون عندها، وقتل قادتهم وعلى رأسهم عبد الله بن وهب الواسبي (5)، وفي نهاية المعركة خرج علي بن أبي طالب يطلب من أصحابه أن يبحثوا له عن ذي الندية بين القتلى ووصفه لهم. فقال بعضهم: ما نجده. فقال أمير المؤمنين:

والله ما كذبت ولا كذبت اذهوا فابحثوا عنه، فوجوه على الوصف الذي وصفه علي (6)، في حوة على شاطئ النهر في أربعين أو خمسين قتيلًا، فلما استخرج نظر إلى عضده فإذا لحم مجتمع على منكبه كئذي المرأة. له حلمة عليها شعرات سود، فإذا مدت امتدت حتى تحاذي طول يده الأخرى، ثم تتوك فتعود إلى منكبه كئذي المرأة. فلما استخرج قال علي: الله أكبر والله ما كذبت ولا كذبت، أما والله لولا أن تتكفوا عن العمل. لأخبرتكم بما قضى الله على لسان نبيه صلى الله عليه وآله لمن قاتلهم مستبصوا في قتالهم. عرلنا للحق الذي نحن

(2) الطوي 49 / 6.

(3) الطوي 49 / 6.

(4) الطوي 49 / 6.

(5) الطوي 49 / 6.

(6) روى مسلم عن أبي سعيد قال: أشهد أن عليا قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي نعت (صحيح مسلم 167 / 7).

الصفحة 126

عليه. ثم مر أمير المؤمنين على خروج وهم صوعى وقال: يؤس لكم، لقد ضوكم من غوكم!! فقال الناس: يا أمير

المؤمنين من غوهم؟ قال: الشيطان وأنفس بالسوء إمرة غوهم بالأمانى وزينت لهم المعاصي. ونبأتهم أنهم ظاهرون⁽¹⁾ ثم

وقف أمير المؤمنين على ذي الثدية وسأل الناس: من أوه؟

فجعل الناس يقولون بعد أن اختاروا في اسم أبيه ولم يعرفه أحد منهم: هذا ملك! هذا ملك، فقال علي: ابن من هو؟ فلم

يجيبوه، فقال: أما إن خليلي صلى الله عليه وآله أخونى بثلاثة إخوة من الجن هذا أكوهم، والثاني له جمع كثير، والثالث فيه

ضعف⁽²⁾. وفي رواية - قال علي: أيكم يعرف هذا، فقال رجل من القوم هذا حرقوص. أمه ههنا. فرسل إلى أمه وقال لها:

ممن هذا؟

قالت: ما أوري إني كنت في الجاهلية رعى غنما لي بالوبذة، فغشيني شئ كهبيئة الظلمة فحملت سنة فولدت هذا⁽³⁾.

وعندما طار الخبر إلى الآفاق، قال سعد بن أبي وقاص: قتل علي بن أبي طالب شيطان الوهة⁽⁴⁾. وعن أبي سعيد الرقاشي

قال: دخلت على عائشة فقالت: ما بال أبي الحسن يقتل أصحابه القواء. قال قلت: يا أم المؤمنين إنا وجدنا في القتل ذاك الثدية.

فشهقت أو تنفست ثم قالت: كاتم الشهادة مع شاهد الزور. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يقتل هذه العصابة خير

أمتي⁽⁵⁾ - وفي رواية - هم شرار أمتي يقتلهم خيار أمتي⁽⁶⁾ - وفي رواية - هم شر الخلق والخليفة يقتلهم خير الخلق

والخليفة⁽⁷⁾.

من هذا كله رأينا أن اتباع الشعار الذي لا شعور فيه، الذين يأكلون الدين

(2) رواه الإمام أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني 156 / 23).

(3) أخرجه أبو يعلى (الخصائص الكوى 250 / 2).

(4) البداية والنهاية 298 / 7.

(5) رواه ابن أبي عاصم (كتاب السنة 599 / 2).

(6) رواه الزار (فتح البلي 286 / 12).

(7) رواه الطواني (فتح البلي 286 / 12).

الصفحة 127

بالدين، ويقروون القآن وتقف تلاوتهم عند أنيابهم ولا تعلم قلوبهم عنها شيئا.

فهؤلاء اصطفوا وراء شيطان من شياطين الجن. وأنفس أملة بالسوء تمنطق أصحابها بجلود آدمية. ولقد روى الإمام

مسلم: إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفوقون، فيقول الرجل منهم:

سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أوري ما اسمه يحدث ⁽¹⁾. وروى ابن عساكر:

سيكون بعدي أئمة لا يهتتون بهديي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم رجال قلوبهم قلوب شياطين في جثمان إنس ⁽²⁾.

إن أتباع اللاشعور واللدعوة عبوا كل شئ حتى نواتهم. فاهتموا بصورهم واشتغلوا بها ولم يفقهوا قول النبي صلى الله

عليه وآله: " إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم " ⁽³⁾. ولقد استهدف الشيطان قلوبهم حتى

أنهم لم يجنوا حرجا في تكفير أمير المؤمنين الذي هو من النبي بمقتلة هارون من موسى إلى النوبة، ولم يتروك الشيطان لهم

إلا ما على جلودهم وهي المساحة التي لا ينظر الله إليها.

وهذا الصنف من الناس لم يستأصل في موقعة النهروان، وإنما توجد لهم بصمات على امتداد التاريخ روي أنه لما قتل

الخولج قيل لأمير المؤمنين: هلك القوم بأجمعهم، فقال: كلا والله إنهم نطف في أصلاب الرجال وقورات النساء، كلما نجم

منهم قون قطع، حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين. وروي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: " لا زالوا يخرجون حتى

يخرج آخرهم من الدجال " ⁽⁴⁾، وهكذا استقر بهم المطاف. لقد التقطهم الدجال أعظم الفتن منذ نرا الله نوية آدم، وهذا عدل

الله. إنهم رفضوا أمير المؤمنين عند المقدمة. فرفضهم الطهر عند الخاتمة. لأنهم رجز لا ينبغي أن يناموا إلا عند دجال

لئلا يدهم الله رجسا

(1) رواه مسلم (صحيح 9 / 1).

(2) رواه ابن عساكر (كنز العمال 223 / 11).

(3) رواه مسلم (كشف الخفاء 282 / 1).

(4) رواه أحمد ورجاله ثقات (الزوائد 299 / 6).

الصفحة 128

على رجسهم.

وبعد أن فوغ أمير المؤمنين من قتال الخولج، خطب في الناس وحثهم على العمل ليلتحم الشعار بالشعور. وروي أنه

صعد المنبر بعد فواغه من النهروان، فحمد الله، وخنقته العوة فبكى حتى اخضلت لحيته بدموعه وجرت، ثم نفض لحيته فوغ

رشاشها على ناس من أناس، فكانوا يقولون: إن من أصابه من دموعه فقد حرمه الله النار، ثم قال: يا أيها الناس. لا تكونوا

ممن يوحوا الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة بطول أمل، يقول في الدنيا قول الراهدين، ويعمل فيها عمل الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، ويأمر ولا يأتي، وينهى ولا ينتهي، ويحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم، ويبغض الظالمين وهو منهم.

تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن، إن استغنى فتن، وإن ماض حزن، وإن افتقر قنط ودهن، فهو بين الذنب والنعمة يرتع، يعافى فلا يشكر، ويبتلي فلا يصبر. كأن المحذر من الموت سواه، وكأن من وعد وزجر غوه يا أغواض المنايا، يار هائن الموت، يا وعاء الأسقام، يا نهية الأيام، يا ثقل الدهر، يا فاكهة الزمان، يا نور الحدثان، يا خرس عند الحجج، يا من غمرته الفتن وحيل بينه وبين معرفة العبر بحق، أقول: ما نجا من نجا إلا بمعرفة نفسه، وما هلك من هلك إلا من تحت يده. قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نورا) جعلنا الله وإياكم ممن سمع الوعظ فقبل، ودعى إلى العمل فعمل (1).

3 - التخاذل:

بعد فراغ أمير المؤمنين من أهل النهروان كانت قواته متماسكة، حيث إنه لم يقتل من أصحابه إلا سبعة، وكان النبي صلى الله عليه وآله قد أخوه بعدد القتلى من قواته وقوات أهل النهروان. وقد أخبر أمير المؤمنين قواته بهذا قبل

(1) ابن النجار (كنز العمال 206 / 16).

الصفحة 129

المعركة. وبعد المعركة، ونظرا لأن القوات متماسكة، تحدث أمير المؤمنين في معسكوه وقال: إن الله قد أحسن بكم وأعز نصوكم، فتوجهوا من فوركم هذا إلى عوكم. فقالوا: يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا، وكلت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا، وعاد أكثوها قصدا. فرجع إلى مصونا فلنستعد بأحسن عدتنا. ولعلك تريد في عدتنا عدة من هلك منا، فإنه أوفى لنا علي عدونا (1).

فسمع أمير المؤمنين منهم وأقبل حتى تول النخيلة، ثم أمر الناس أن يؤموا عسكوهم، ويوطئوا على الجهاد أنفسهم، وأن يقولوا زيلة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عوهم. فأقام الناس في معسكوهم أياما، وكان أمير المؤمنين يجهز للمعركة في هذه الأيام، ولكن الحال لم يدم على هذا طويلا، فالناس بنؤوا يتسللون من معسكوهم حتى خلا المعسكر. وعندما رأى أمير المؤمنين ذلك، دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه في المسير (2). وخطب في الناس تلك الخطبة التي بكر فيها وهو يحثهم على العمل ليلتقي الشعار بالشعور، ثم خطب فيهم مرة أخرى فقال: أيها الناس استعنوا للمسير إلى عدو في جهاده القوبة إلى الله ودرک الوسيلة عنده، حيلى في الحق جفاة عن الكتاب، نكب عن الدين يعمهون في الطغيان، ويعكسون في غوة الضلال، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيفا، وكفى بالله نصوا (3).

ولكن القوم لم ينفروا فتوكلهم أمير المؤمنين أياما، حتى إذا آيس من أن يفعلوا دعا رؤساءهم ليسألهم عن رأيهم. فقام فيهم خطيبا فقال: عباد الله ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثاقلتم إلى الأرض، رضىتم بالحياة الدنيا من الآخرة، وبالذل والهوان من

العز، أو كلما ندبتكم إلى الجهاد دلت أعينكم كأنكم من

الموت في سكرة، وكأن قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون، وكأن أبصركم كمة فأنتم لا تبصرون. الله أنتم، ما أنتم إلا أسود الشوى في الدعة، وثعالب رواغة حين تدعون إلى البأس. ما أنتم لي بثقة سجين الليلي، ما أنتم يركب يصل بكم ولأذى عز يعتصم إليه. لعمر الله بئس حشاش الحرب أنتم. أنكم تكادون ولا تكيون، وينتقص أطرافكم ولا تتحاشون، ولا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون. إن أخا الحرب اليقظان ذو عقل وبات لذل من وادع وغلب المتجادلون، والمغلوب مقهور ومسلوب. ثم قال أمير المؤمنين: أما بعد، فإن لي عليكم حقا، وإن لكم علي حقا، فأما حقم علي فالنصيحة لكم ما صحبتكم، وتوقير فيئكم عليكم وتعليمكم فيما لا تجهلون وتأديبكم كي تعلموا، وأما حقي عليكم، فالوفاء بالبيعة، والنصح لي في الغيب والمشهد، والإجابة حين أدعوكم، الطاعة حين آموكم. فإن يرد الله بكم خوا انتوعوا عما أكره، وتاجعوا إلى ما أحب، تناولوا ما تطلبون وتركوا ما تأملون (1).

إن الخذلان شذوذ قديم ضرب بجنوره في أعماق الأرض، والشيطان في حركته لا يحب شيئا متماسكا. فإذا كان لا بد من التماسك فيجب أن يكون وفقا لبرنامج. والشيطان عندما يقوم بتفكيك جسد ما فإن أوائه لا بد وأن تكون من صنع البيئة التي يريد أن يفكك جسدها. وأمير المؤمنين وجه إليهم الدعوة، كي يواجهوا حركات التفتيت والتفكيك التي يذيع دعائها أنهم على قلب رجل واحد ويتوجهون نحو هدف واحد، ولكن القوم تلقوا دعوة الإمام، وهم بين المعتل أو المكوه، وقيل منهم من نشط، وفيما بعد جاء التناقل إلى الأرض بجميع أراضه، لأن التناقل فاش ممدد تتحرك فيه أجهزة ومؤسسات الصد بكل سهولة ويسر، فالمتناقل لا يرد إلا الحياة الدنيا، والشيطان له أساليبه في مخاطبته في هذا الباب. وشاء الله تعالى أن من يتناقل عن نصوة الحق، خوفا من الموت أو غوه أو طمعا في مال أو غوه، أن يجعله ينفر ويهب عند سماعه بوقا للشيطان، فينتظم في جيشه، ويصطف في خيله ورجله، ويزين له الشيطان هناك أن قتاله

قتال حق، وأن المال الذي اكتسبه بمخالبه حلال، وأن حركته في الحياة هي الحركة الصحيحة. فجيش الشيطان لا ينتظم فيه مخلوقات من الكواكب الأخرى، وإنما ينتظم فيه الذين يحملون بين ضلوعهم قلوبا ليست قلوب إنس، ويسيروا نحو أهداف ترفضها الفطرة. ويوفعون أعلام يعتمد مضمونها على الزينة من أجل إغواء الناس ثم السير بهم في طريق التلجيم والاحتناك. لقد كان الإمام يحذر من التناقل إلى الأرض، ويدعو الناس كي يأخذوا بالأسباب نحو الحياة الكريمة، وهو خير دليل على

ذلك. فهو قد أخرجكم بأنه مقتول، والمقتول هو الذي يدعو للقتال. ولكن ذهب نداء الإمام في عالم.

وكأنه عالم السكون، حيث لا ومض ولا نبض ولا صوت إلا من رحم الله، ويقابل هذا العالم آخر يتحرك بالذهب

والفضة والتمر، إنه عالم معاوية.

ومعاوية لم يكن بعيدا عن الساحة بعد التحكيم، فلقد أصبح له حضور بعد أن سلم عليه ابن العاص بالخلافة. كانت له عيون

في كل مكان، وكان يتابع حركة جيش العواق قبل النهروان وبعدها، لأنه كان على يقين أن عليا لن يتوكله وسيأخذ بجميع

الأسباب لكي يدمر قشوته. وتدمير القشوة يعني أن الأيام به لن تطول، وهو يريد المزيد والمزيد، لهذا تحرك معاوية في جميع

الجبهات، وكانت مقدمته في كل جبهة الذهب والفضة.

وروي أن قوما من المدينة لحقوا بمعاوية. فكتب سهل بن حنيف الأنصاري (1) إلى أمير المؤمنين بذلك، فود عليه أمير

المؤمنين بخطاب جاء فيه: أما بعد. فقد بلغني أن رجالا ممن قبلك يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف (2) على ما يفوتك من

عدهم، ويذهب عنك من مددهم. فكفى لهم غيا (3) ولك منهم شافيا (4) فلهم من الهدى والحق،

(1) كان عاملا لعلي على المدينة.

(2) أي لا تخزن.

(3) الغي / الضلال.

(4) أي يكفيك في الانتقام منهم وشفاء النفس من عقوبتهم أنهم يتسللون إلى معاوية.

الصفحة 132

وإيضاعهم (1) إلى العمى والجهل. فإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون (2) إليها. قد عرفوا العدل ورأوه، وسمعوه

ووعوه. وعلمو أن الناس عندنا في الحق أسوة، فهربوا إلى الآثرة (3). فبعدا وسحقا (4). إنهم والله لم يفروا من جور، ولم

يلحقوا بعدل. وإننا لنطمع في هذا الأمر أن يذل الله لنا صعبه، ويسهل لنا حزنه، إن شاء الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (5)

وروي أنه لمارأت طائفة من أصحابه ما يفعله معاوية من بذل الأموال لأصحابه والمنقطعين إليه، وتفضيل بعضهم على

بعض في العطاء قالوا: يا أمير المؤمنين. إن عامة الناس أصحاب دنيا لها يسعون وفيها يكدحون، فلو أعطيت من هذا المال،

وفضلت الأشراف من العوب وقريشا على الموالي، ومن تخاف خلفه وفراقه، حتى إذا استتب لك ما تريد عدت إلى أحسن ما

كنت عليه من العدل في الرعية والقسم بالسوية. فقال الإمام: أأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ والله لا اطور

به (6) ما سمر سمير (7)، وما أم نجم في السماء نجما (8). ولو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما لمال مال الله؟ ثم. قال:

الأوإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف. وهو يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس، ويهينه

عند الله... " (9)

إن المقتول لا يجامل أحدا، المقتول حجة ومهمته هي مهمة الحجة، قال فيه النبي صلى الله عليه وآله: " من أحب عليا فقد

(1) الايضاع / الاسراع.

(2) مهطعون / مسوعون أيضا.

(3) الآثرة / الاستئثار.

(4) فبعدا وسحقا / دعاء عليهم بالبعد والهلاك.

(5) ابن أبي الحديد 234 / 5.

(6) ولا أطور به / لا أقربه.

(7) ما سمر سمير / أي ما أقام الدهر وما بقي.

(8) ما أم نجم في السما نجم / أي قصد وتقدم لأن النجوم تتبع بعضها بعضا.

(9) ابن أبي الحديد 3 / 3.

الصفحة 133

أحب الله. ومن أبغض عليا فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله " (1) ، وقال صلى الله عليه وآله: " يا علي من فرقني
فرق الله ومن فرقك يا علي فرقني " (2) . وقال النبي صلى الله عليه وآله: " إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك " (3) .
وقال صلى الله عليه وآله: " من آذى عليا فقد آذاني " (4) .

فهذه الأحاديث الصحيحة وغيرها، تبين أن الإمام له مهمة واحدة، هي سوق الناس إلى صراط الله وفقا لمنهج الفطرة الذي
جاء به النبي صلى الله عليه وسلم. وهذه المهمة لا يشوبها تخاذل الناس عنه، فمن أراد أن يصطف وراء يعسوب المؤمنين
فليصطف ومن أراد أن يبحث عن مكان له وراء يعسوب المال فليذهب. وكل طريق له أسبابه. والموعود الذي سيلتقي فيه
الجميع (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا * ذلك اليوم الحق، فمن شاء اتخذ إلى
ربه مآباً) (5) .

ولم يتروك الإمام بابا يبحث الناس فيه على القتال إلا طوقه وحدثهم منه، لقد خوفهم من فتنة بني أمية. فقال: ألا وإن أخوف
الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية، فإنها عمياء مظلمة، عمت خطتها، وخصت بليتها. وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ
البلاء من عمي عنها. وأيم الله لتجدن بني أمية لكم رباب سوء بعدي كالناب الضروس، تعدم بغيتها. وتخبط بيدها، وتزين
وجلها، وتمنع لوها، لا زالون بكم حتى لا يتروكوا منكم إلا نافعاً لهم، أو غير ضار بهم، ولا زال بلاؤهم عنكم حتى لا يكون
انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه،

(1) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد 132 / 9) وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وقال حديث صحيح (الصحيحة 298 / 5).

(2) رواه الزوار (كشف الأستار 201 / 3) وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 135 / 9) ورواه الحاكم وصححه

(3) رواه الطواني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد 203 / 9).

(4) رواه أحمد وقال الهيثمي رجال أحمد ثقات (الزوائد 129 / 9) ورواه الحاكم وصححه (المستترك 122 / 3) ورواه الزوار بسند صحيح (كشف الأستار 200 / 3).

(5) سورة النبأ: الآية 38 / 39.

الصفحة 134

والصاحب من مستصحبه. تود عليكم فتنتهم شوهاة فحشية، وقطعا جاهلية.

ليس فيها منار هدى، ولا علم وى، نحن أهل البيت منها بمنجاة، ولسنا فيها بدعاة. ثم يفوجها الله عنكم كنتويج الأديم، بمن يسومهم خسفاً، ويسوقهم عنفاً. ويسقيهم بكأس مصوة لا يعطيهم إلا السيف. ولا يحلسهم إلا الخوف⁽¹⁾.
لقد خوفهم من مساحة مظلمة وبين لهم أن على رأس هذه المساحة رجل واسع البلعوم. فقال: أما إنه سيظهر عليكم بعدي⁽²⁾ رجل رحب البلعوم⁽³⁾، مندحق البطن⁽⁴⁾، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه. ولن تقتلوه⁽⁵⁾، إلا وإنه سيأمركم بسبي والراءة مني، فأما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما الراءة فلا تتروأ مني، فإني ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة.

لقد أخبرتكم بصاحب البطن التي لا تشبع، وأنه سيظهر عليكم لأن أتباعه يسرون نحو غاية واحدة هي المال وهم لا يختلفون عليها. وأمرهم أن يقتلوه ولن يقتلوه. قال ابن أبي الحديد: إنه لا ينافي بين الأمر بالشئ والإخبار عن أنه لا يقع. كما أخبر الحكيم سبحانه عن أن أبا لهب لا يؤمن وأمره بالإيمان. وكما قال تعالى: (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين)⁽⁶⁾، ثم قال: (لا يتمنونه أبداً)⁽⁷⁾. وأكثر التكاليفات على هذا المنهج⁽⁸⁾. ولقد تحدثنا على امتداد هذا البحث أن الله سبحانه يهدي إلى صراط مستقيم. ويبين العقبات التي عليها

(1) ابن أبي الحديد 605 / 2.

(2) سيظهر / سيغلب.

(3) رحب البلعوم / واسعه.

(4) مندحق البطن / بارزها.

(5) ابن أبي الحديد 776 / 1.

(6) سورة البقرة: الآية 94.

(7) سورة الجمعة: الآية 7.

(8) ابن أبي الحديد 777 / 1.

بصمات شيطانية كي يحذر الناس منها، وفي علمه تعالى أن من عباده من سيقف أمام هذه العقبات باختيل، وقد بهوته زينتها.

وأخوهم أنه واسع البلعوم سيدعو إلى سبه والوادة منه، فأباح أمير المؤمنين لهم سبه، لأن الله تعالى قد أباح عند الاكواه التلطف بكلمة الكفر. أما الوادة فأخوهم بأنه لا يجوز التوي منه، لأنه منذ ولد لم يواقع قبيحا، ولا كان كافرا طرفة عين قط. ولا مخطئا ولا غالطا في شئ من الأشياء المتعلقة بالدين.

ولقد ثبت أن الذي وجد الدعوة لسب أمير المؤمنين والوادة منه هو معاوية ابن أبي سفيان، وثبت أيضا أنه المقصود بوسع البلعوم. وذلك لما رواه الإمام مسلم عن ابن عباس. قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب فادع معاوية. فلما ذهبت فدعوت له فقيل: إنه يأكل، فأخبرته، فقال في الثالثة: " لا أشبع الله بطنه " قال: فما شبع بعدها ⁽¹⁾. وروى ابن أبي الحديد عن جلام قال:

كنت أحب أن أرى أبا ذر، لأنه رجل من قومي. فالتفت إليه فإذا رجل أسمر ضوب ⁽²⁾ من الرجال، خفيف العارضين في ظهوه خبا ⁽³⁾. فأقبل على معاوية وقال: ما أنا بعدو الله ولا لرسوله ⁽⁴⁾، بل أنت وأبوك عنوان الله ورسوله، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر، ولقد لعنك رسول الله صلى الله عليه وآله، ودعا عليك مرات ألا تشبع. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: " إذا ولي الأمة الواسع البلعوم، الذي يأكل ولا يشبع فلتأخذ الأمة حنوها منه "، فقال معاوية: ما أنا ذاك الرجل. قال أبو ذر: بل أنت ذلك الرجل. بل أنت ذلك الرجل، أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله، وسمعت يقول وقد مررت به: " اللهم العنه ولا تشبعه إلا بالتواب " فكتب معاوية إلى عثمان فيه ⁽⁵⁾.

(1) رواه مسلم وذكره ابن كثير في البداية 119 / 8.

(2) الضوب / الخفيف اللحم.

(3) خبا / أي أشرف كاهله على ظهوه حديبا.

(4) في سياق الأحداث كان معاوية قد اتهمه بذلك (5) ابن أبي الحديد 94 / 3.

الصفحة 136

وروى البخاري " إن المؤمن يأكل في معي واحد، وإن الكافر أو المنافق يأكل في سبعة أمعاء " ⁽¹⁾، وروى الإمام قال النبي صلى الله عليه وآله: " إن للمنافقين علامات يعرفون بها، تحببهم لعنة، وطعامهم نهية ⁽²⁾، وغنيمتهم غول... ⁽³⁾ (4) . ومن أطوف ما قرأت في تفسير، " لا أشبع الله بطنه " ما قاله ابن كثير. قال:

وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة في دنياه وأخواه، أما في دنياه فإنه لما صار إلى الشام أموا، كان يأكل في اليوم سبع مرات، يجاء بقصعة فيها لحم كثير وبصل فيأكل فيها، ومن الحلوى والفاكهة شيئا كثيرا. ويقول: الله ما أشبع. وهذه نعمة ومعدة رغب فيها كل الملوك!! أما في الآخرة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم إنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلا فاجعل ذلك كفلة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة ⁽⁵⁾، ولست أروي إذا كان ابن كثير قد اعتبر أن هذا

الدعاء: " لا أشبع الله له بطننا "، اعتوره من النعم في الدنيا. فلماذا جعله في الآخرة من السب الذي طلب النبي من ربه أن يجعله كفرة وقوبة؟!.

ثم نعود إلى ما كنا نحدث فيه، لقد أخوهم أمير المؤمنين بمساحة فيها فتن مظلمة، وعلى رأس هذه المساحة رجل واسع البلعوم. وهم كانوا يعرفون وقتئذ من هو، نظرا لأن أبي ذر كان قد كشف غطاءه. فضلا على أن أمير المؤمنين قد أخوهم في أكثر من موطن بأن معاوية وأهل الشام سيظهرون عليهم، وأن عليهم أن يأخنوا بالأسباب لينظر الله كيف يعملون، ولا يشغلوا أنفسهم بالنتائج لأن الله في خلقه شؤون. وعندما لم يجد الإمام منهم الاستجابة

(1) البخاري (الصحيح 293 / 3).

(2) أي اغتصاب.

(3) أي سرقه.

(4) رواه أحمد (الفتح الوباني 232 / 19).

(5) البداية والنهاية 120 / 8.

الصفحة 137

المناسبة قال لهم: أحمد الله على ما قضى من أمر، وقدر من فعل. وعلى ابتلائي بكم أيتها الفوقة التي إذا أموت لم تطع، وإذا دعوت لم تجب. إن أهملتكم (1) خضتم، وإن حوربتكم خرتم (2)، وإن اجتمع أناس على إمام طعنتم، وإن اجئتم إلى شاقة نكصتم (3). لا أبا لغورك، ما تنتظرون بنصوكم، والجهد على حقكم، الموت أو الذل لكم (4). فوالله لئن جاء يومي - وليأتيني - ليفوقن بيني وبينكم، وأنا لصحبتم قال: وبكم غير كثير.

الله أنتم، أما دين يجمعكم، ولا حمية (5) تشحذكم، أوليس عجا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء (6). وأنا أدعوكم - وأنتم تويكة الإسلام وبقية الناس - إلى المعونة أو طائفة من العطاء (7)، فنتوقون عني، وتختلفون علي. إنه لا يخرج إليكم من أموي رضا فترضون، ولا سخط فتجتمعون عليه (8). وإن أحب ما أنا لاق إلى الموت. قد درستكم الكتاب (9)، وفاتحتكم الحاجاج (10)، وعرفتكم ما أنكوتم (11)، وسوغتكم ما حججتكم (12)، لو كان الأعمى يلحظ، أو النائم

(1) أهملتكم / خليتكم وتركم.

(2) خرتم / ضعفتم.

(3) نكصتم / أحجمتم.

(4) الموت أو الذل لكم / دعاء عليهم بأن يصيبهم أحد الأمرين.

(5) الحمية / الأنفة.

(6) معاوية لم يكن يعطي جنده على وجه المعونة والعطاء وإنما كان يعطي رؤساء الناس ليستعبدهم بها، ويدعو أولئك

السادة أتباعهم فيطيعونهم. فمنهم من يطيعونهم حمية.

ولم يكن يصل إلى هؤلاء الأتباع من أموال معاوية قليل أو كثير.

(7) أمير المؤمنين كان يقسم بين الرؤساء والأتباع على وجه العطاء والرزق.

(8) والمعنى: أنكم لا تقبلون مما أقول لكم شيئاً. سواء كان مما يرضيكم أو مما يسخطكم. بل لا بد لكم من المخالفة

والافتراق عنه.

(9) وراستكم الكتاب / أي ترسته عليكم.

(10) وفتحتم الحجاج / أي حاكمتم بالمحاجة والمجادلة.

(11) وعوفتم ما أنكرتم / بصونكم ما عمى عنكم.

(12) وسوغتم ما حججتم / أوضحت لكم الأمور الدينية.



(1) يستيقظ ، وأقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية ومؤدبهم ابن النابغة (2) .
لقد أخوهم بأنهم يتناقلون إلى الأرض وهم تريكة الإسلام وبقية الناس.

وبين لهم ما هم فيه حيث العدل في العطاء، وتلقي العلم النافع من مصاوه النقية، وكان من نتيجة ذلك ظهور ما كانت عقولهم وأذهانهم تنفر عنه من الأمور الدينية، وبعد معرفتهم هذا اعتقوه، وأخوهم أنه فعل معهم ما يقتضي حصول الاعتقادات الحقيقية. ولكن أفعالهم تدل على أن الهوى والعصبية والإصوار على اللجاج صفحات عليا في ساحتهم.

ومما لا شك فيه أن بؤة التخازل وضعت عند رفع المصاحف. فبعد قتل عمار بن ياسر تلقى أهل الشام ضربات قوية ليلة الهيرير. وكان الأشتر وقواته على أعتاب خيمة معاوية وفي هذا الوقت رفعت المصاحف ودخل التخازل عن هذا الباب، وبعد ذلك رأينا الذين أضروا على التحكيم هم أنفسهم الذين قاتلوا عليا لسوءه في طريق التحكيم، والعجيب إنهم خرجوا بمقولة طالما روج لها معاوية، لقد أجزوا الخلافة لكل العرب ولكل مسلم ولو كان عبدا حبشيا، ما دامت شروط الإمامة متوفرة فيه. باختصار: بعد رفع المصاحف وضع البيض كله في سلة معاوية. فالخروج وإن كانت جرائمهم الظاهرة هي القتل والتخريب، إلا أن عقيدتهم قبل رفع المصاحف لم تكن بحال هي نفس العقيدة بعد ذلك. وأغلب الظن أنهم عندما خالفوا الإمام وهددوه بالقتل إذا لم يقبل التحكيم وأن ذي النثية بدأ يعمل في هذا الوقت بالذات. ثم وضع لمساته على اعتقاداتهم بعد ذلك. لتلتقي هذه اللمسات مع لمسات الذين سيتخذون دين الله دغلا تحت إذاعة واحدة وإعلام واحد، مما ساعد إلى حد كبير في التخازل عن أمير المؤمنين.

إن علماء الأمة أقرروا أحاديث تقول بأن ذي النثية كان شيطان الودهة، وأقروا أحاديث تدم بني أمية وأنهم ملوك من شر الملوك. وعقيدة الخروج في

(1) أي أني قد فعلت معكم ما يقتضي حصول الاعتقادات الحقيقية في أذهانكم.

(2) ابن أبي الحديد 417 / 3.

الخلافة معروفة، وهي تنسجم إلى حد كبير مع الذين فوقوا دينهم شيعا. لهذا قلنا إن التخازل وضعت بذوته عند رفع المصاحف، وإن الإمام علم هذا منذ البداية ولهذا أمرهم بالقتال. فلما أبوا عليه بدأ يضع حجته على كل رأس وفي كل خيمة، وعندما تبين الجميع نتيجة الخدعة، دعاهم الإمام إلى أمة الله، ولكن دعوته واجهت ساحة أوسع من التخازل، نتيجة لإعلام لم يعد يتحدث عن رفع المصاحف، وإنما يتحدث عن تحكيم أعطى الخلافة لمعاوية، يقابله إعلام الخروج الذي دق وتدا فيه أن الخلافة لكل العرب.

وبؤة التخازل عندما وضعت وجدت من رعاها. وهناك دائرتان خرج منهما الماء لهذه البؤة:

الأولى: أن الله تعالى جعل للشهادة في سبيله مقاييس ومعايير، وجعل الجنة للمؤمنين من عباده، والطريق إلى الجنة يمر

وكلما كانت الأجيال قريبة من عهد النبوة كانت الابتلاءات أقوى وأشد. وفي عهد الإمام علي كان الإمام يحدث أتباعه بأن معاوية سيظهر عليهم وأن هذا أمر لا مرد له. ثم يأمرهم الإمام بعد ذلك بأن يأخذوا بالأسباب لوقف هذه الفتنة التي هي نتيجة لمقدمة وجدتتها. فموقف كهذا لا يحتاج إلا إلى قلب مؤمن يعلم أن الغيب لله وأن الأخذ بالأسباب تكليف إلهي للإنسان. لهذا فلا بد أن يأخذ به، وأن معركته لن تكون بحال معركة خاسرة رغم ظهور عهوه في نهايتها، وأنه قد لا يشهد انتصره، ولكن بالتأكيد ستأتي أجيال تذكر أعلامه وخطاه. وعلى ذلك قاتل العديد حول الإمام، كانوا يقاتلون بأمر الله عوا مازال في علم الله بهدف حماية الفطرة، للوصول إلى غاياتهم العليا بعد الموت، فهنا يكمن الإيمان الحق، إيمان الأحرار لا إيمان التجار.

وفي عهد الإمام علي، كان الاختيار عظيما. فعلى مدى سنتين تقريبا خاض الإمام ثلاث معارك، كان لكل معركة منهم حصيلتها من أحاديث الإخبار بالغيب. وعندما قتل أكثر الصحابة في هذه المعارك أخذ أماكنهم رؤساء القبائل.

ومنهم من أبلى وقاتل ابتغاء مرضاة الله، ومنهم من كتب إلى معاوية بعد أن علم أنه سيظهر والتمس عنده الأيادي. وأغلب الظن أن الخولج خرجوا من بطن

الصفحة 140

واحد من هؤلاء. وباختصار: اتباع هذه الدائرة هم ضعاف الإيمان، الإيمان عندهم صورة وليس عمل. وجنوا أن المعركة لها تكاليف وهم ليسوا على استعداد لدفع هذه التكاليف. ثم أعد لهم منها للحكم زاحموا به معاوية عندما يظهر، فهم بإيمانهم يكونوا في دائرة الحكم أفضل من وجودهم خلجها.

أما الدائرة الثانية التي ساعدت على التخاذل، فهي دائرة الذهب والفضة والرييب. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: " علي يعسوب المؤمنين والمال يعسوب المنافقين " (1) ، وكان علي يقول: " أنا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الفجرة " ، وفي رواية: " والمال يعسوب الظلمة " (2) ، ولقد ذكرنا فيما سبق كيف فر أهوام من المدينة في اتجاه معاوية، وهناك العديد من الأمثلة في تفضيل أكثر الناس للمال في فورة التخاذل. وروي أن عليا قال لرجل: أأثرتم معاوية. فقال: ما آثرناه، ولكننا آثرنا القسب (3) الأصفر والبر الأحمر والزيت الأخضر.

4 - غلات معاوية:

بعد التحكيم بدأ معاوية في ترتيب أوراقه، فوضع عينه على مصر، وكان عليها يومئذ محمد بن أبي بكر عاملا لعل، وكان معاوية يريد مصر ليجرد أمير المؤمنين من خواجه ويستعين به. وعندما علم معاوية أن عليا قد ولي الأشر على مصر بدلا من محمد بن أبي بكر عظم ذلك عليه، لمعرفته أن الأشر إن قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر، ومن هنا بدأ عمل معاوية للالتفاف حول أمير المؤمنين، فبعث إلى رجل من أهل الخواج، وقال له: إن الأشر قد ولي مصر، فإن أنت كفيئته لم آخذ منك خاجا ما بقيت فاحتل له بما قدرت عليه. وخوج الرجل حتى أتى القوم وأقام به، وعندما انتهى الأشر إلى القوم

(2) رواه أبو نعيم (كنز العمال 119 / 13).

(3) القسب / التمر اليابس.

الصفحة 141

استقبله الجايستار، وهو المكلف من قبل معاوية بقتله، وقال للأشتر: هذا متول وهذا طعام وعلف وأنارجل من أهل الخراج، فقول به الأشتر فجاء الرجل إليه بطعام حتى إذا طعم آتاه بشوية من عسل قد جعل فيها سما. فسقاه إياها فلما شربها مات⁽¹⁾.

ولم يخطط معاوية للجريمة فقط بل استنورها، فقال لأهل الشام: إن عليا وجه الأشتر إلى مصر، فادعوا الله أن يكفيكموه، فكاثوا كل يوم يدعون الله على الأشتر. وعندما جاء الذي سقاه إلى معاوية وأخوه بمهلك الأشتر خطب معاوية وقال: أما بعد فإنه كانت لعلي بن أبي طالب يدان يمينان، قطعت إحداهما يوم صفين - يعني عمار بن ياسر - وقطعت الأخرى اليوم - يعني الأشتر⁽²⁾. وبعد ذلك بعث معاوية عمرو بن العاص، وكان قد صالحه على أن تكون مصر طعمة له ما بقي، بعثه إلى مصر للاستيلاء عليها. وعندما تول مصر اجتمعت إليه العثمانية من أهلها، وقولمهم محمد بن أبي بكر بمن معه، ولكن أهل الشام حاصروا قوات محمد بن أبي بكر، وخرج محمد يمشي في الطويق حتى انتهى إلى مكان في ناحية الطويق. وظل معاوية بن خديج يبحث عن ابن أبي بكر حتى وجده، فقال له: لأقتلنك يا ابن أبي بكر، فقال: يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك إليك إنما ذلك إلى الله عز وجل، أما والله لو كان سيفي في يدي ما بلغت مني هذا. فقال له معاوية بن خديج: أتتري ما أصنع بك. أدخلك في جوف حمار ثم أحرقه بالنار. فقال محمد: إن فعلتم بي ذلك فطال ما فعل ذلك بأولياء الله... فقتله ثم ألقاه في جيفة حمار ثم أحرقه بالنار⁽³⁾. وقال المسعودي: فأخذ معاوية بن خديج وعمرو بن العاص وغورهما فجعلوه في جلد حمار،

وأضرموه بالنار، وذلك بموضع في مصر يقال له: كوم شريك. وقيل:

إنه فعل به ذلك، وبه شئ من الحياة⁽⁴⁾. وبلغ معاوية قتل محمد وأصحابه،

(1) الطبري 54 / 6، مروج الذهب 455 / 2، الكامل 178 / 3، ابن أبي الحديد 312 / 2.

(2) الطوي 55 / 6، الكامل 178 / 3، ابن أبي الحديد 312 / 2.

(3) الطوي 60 / 6.

(4) مروج الذهب 454 / 2.

الصفحة 142

فأظهر الفوح والسرور، وبلغ عليا قتل محمد وسرور معاوية، فقال: جوعنا عليه على قدر سرورهم، فما جوعت على هالك منذ دخلت هذه الحروب جوعي عليه كان لي ربيبا، وكنت أعده ولدا، وكان بي وا، وكان ابن أخي. فعلى مثل هذا نحزن⁽¹⁾ وعند الله نحتسبه.

ومع بداية عام تسع وثلاثين هجرية، بدأ معاوية يبعث سرايا لتغيير على أطراف المؤمنين، وكذلك كان علي يبعث من

يمنع سوايا معاوية من أذية الناس، ومن السوايا التي بعثها معاوية، سوية النعمان بن بشير التي أغرت على عين التمر، وسوية سفيان بن عوف أغرت على هيت والأنبار والمدائن، وحملوا ما كان في الأنبار من الأموال وأموال أهلها ورجعوا إلى معاوية. وسوية عبد الله بن مسعدة أغرت على تيماء، فنهب الأموال وتصدى له أهل تيماء فخرج في أصحابه ليلاً إلى الشام، وسوية الضحاك بن قيس أمه معاوية أن يمر بأسفل واقصة وأن يغير على كل من مر به ممن هو في طاعة علي. فسار فأخذ أموال الناس وقتل من لقي من الأعراب (2).

كانت هذه السوايا مقدمات لسوية بسر بن رطاة، وبسر كان من الذين بعثهم عمر بن الخطاب مددا لعمر بن العاص في فتح مصر (3). قال الدلقطني:

بسر له صحبة ولم تكن له استقامة بعد النبي صلى الله عليه وآله، هو الذي قتل طفلين لعبيد الله بن عباس (4)، وقال يحيى بن معين: بسر رجل سوء. وقال أبو عمر: ذلك لأمر عظام ركبتها في الإسلام (5)، وروي أن معاوية عندما وجه بسر لقتل شيعة علي، قام إليه نفر منهم زياد بن الأشهب الجعدي وقال لمعاوية: يا أمير المؤمنين. نسألك بالله وبالرحم أن لا تجعل لبسر على قيس سلطاناً. حتى لا

(1) مروج الذهب 454 / 2.

(2) الطوي 78 / 6.

(3) الإستيعاب 155 / 1.

(4) الإستيعاب 156 / 1.

(5) الإستيعاب 155 / 1.

الصفحة 143

يقتل قيساً بما قتلت به بنو سليم من بني فهر وكنانة يوم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة (1)، وروي أن أبا ذر كان يقول: يوم العراء، وما يوم العراء. فقيل له: ما يوم العراء؟ قال: إن نساء من المسلمات يسيبن فيكشف عن سوقهن، فأيتهن كانت أعظم ساقاً اشتريت على عظم ساقها، وإني دعوت الله أن لا يركني هذا الزمان ولعلكما تتركانه. قال روي الحديث:

فُرسل معاوية بسر بن رطاة إلى اليمن فسبى نساء مسلمات فأقمن في السوق (2)، وقال في الإستيعاب: أغار بسر على همدان وسبى نساءهم فكن أول نساء مسلمات سبين في الإسلام، وقتل أحياء من بني سعد (3).

وروي أن معاوية بعد تحكيم الحكمين أرسل بسر في جيش، فساروا من الشام حتى قدموا المدينة، ففر منهم أبو أيوب الأنصلي، وصعد بسر منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنادى على المنبر: يا دينار ويا نجار شيخي شيخي عهدي به بالأمس فأين هو - يعني عثمان - ثم قال: يا أهل المدينة والله لولا ما عهد إلى معاوية، ما تركت بها محتلماً إلا قتلتها. ثم بايع أهل المدينة، وأرسل إلى بني مسلمة فقال: والله ما لكم عندي من أمان ولا مبايعة حتى تأتوني بجابر بن عبد الله، فانطلق جابر

إلى أم المؤمنين أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: ماذا تريد؟ إنني خشيت أن أقتل وهذه بيعة ضلالة. قالت: رأي أن تبايع. فأثاه جابر فبايعه (4).

وهدم بسر نور بالمدينة، ثم مضى حتى أتى مكة، فخافه أبو موسى الأشعري أن يقتله، فقال له بسر: ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك. ثم مضى بسر إلى اليمن وقتل عبد الله بن عبد المطلب والحارثي وقتل ابنه. ووجد ابن عبيد الله بن عباس عند رجل من بني كنانة من أهل

(1) الإستيعاب 157 / 1.

(2) الإستيعاب 157 / 1.

(3) الإستيعاب 157 / 1.

(4) الطوي 80 / 6، الكامل 193 / 3، البداية والنهاية 322 / 7.

الصفحة 144

البادية. فلما أراد قتلها قال الكناني: على ما تقتل هذين ولا ذنب لهما، فإن كنت قاتلها فاقتلني. قال بسر افعل. فبدأ بالكناني فقتله ثم قتلها، وقتل بسر في مسوه هذا جماعة كثرة من شيعة علي باليمن، وبلغ عليا خبر بسر فوجه جارية بن قدامة في ألفين ووهب بن مسعود في ألفين، وهوب بسر وأصحابه (1).

كان هذا هو منهج معاوية في القتال. تجنب ملاقاته على في الميدان، والإغرة وسلب ما يمكن سلبه ثم الارتداد للخلف نحو الشام، وقتل كل من في الطويق، طفلاً أو شيخاً، وعرض النساء المسلمات في الأسواق، ومن قبل وضع من فيه شيء من حياة في جلد حمار، ثم إشعال النار فيه. كانت هذه سيرته في بداية الطويق، وسوى فيما بعد كيف كانت سيرته على امتداد الطويق. وينبغي في هذا المقام أن نذكر تقديم ابن كثير لغرات معاوية، وهو تقديم يجعل الباحث في حيرة. فهو عندما تحدث عن التحكيم قدم الروايات التي أجمعت عليها الأمة وتفيد بأن أبي موسى وعمرو اتفقا على خلع علي ومعاوية.

وعندما خلع أبو موسى صاحبه، وجاء النور على ابن العاص فعل ما فعل، وبرر ابن كثير ما فعله عمرو بأنه رأى أن ترك الناس بلا إمام يؤدي إلى مفسدة طويلة!! (2)، هذا ما قاله هناك، ثم زاه يقول هنا، وهو يتحدث عن غلات معاوية، إن أبا موسى وعمرو كانا قد اتفقا على خلع علي - ولم يشر إلى معاوية - وأن معاوية تحرك على هذه الخلفية حيث إنه كان يعتقد أنه الإمام الذي يجب طاعته. وإليك ما قاله ابن كثير بنصه: جهز معاوية جيوشاً كثرة فوقها في أطراف معاملات علي. وذلك أن معاوية رأى بعد أن ولاه عمرو بن العاص بعد اتفاقه مع أبي موسى على عزل علي. إن ولايته وقعت الموقع فهو الذي يجب طاعته فيما يعتقد. ولأن جيوش علي من أهل الواق لا تطيعه في كثير من الأمور ولا يأتهمون بأمره، فلا يحصل بمباشرة المقصود من الإمرة والحالة هذه، فهو

(1) الطبري 81 / 6، الكامل 193 / 3، البداية والنهاية 323 / 7، ابن أبي الحديد 273 / 1.

زعم أنه أولى منه إذا كان الأمر كذلك " (1).

إن هذا التحليل يلتبس بعضه على بعض، ولا يقود أي باحث إلى حقيقة.

فلا يوجد نصا واحدا يقول أن عمروا خاف على الأمة ففعل ما فعل، ولا يوجد نصا يقول أنه اتفق على الأشوي على عزل علي وحده. والإسلام لا يقر أن عدم طاعة مصر من الأمصار لأمر المؤمنين ويعطي الحق لمن يطيعه رجاله في مصر آخر بأن تغير على الأطراف ليقتل ويسرق، تحت لافتة أن هذا هو المقصود من الإمارة والحالة هذه. والإسلام لا يقر أيضا أن يقوم الأولى بقتل الأطفال وعرض النساء المسلمات في الأسواق. علما بأن الأمة لم تعط لمعاوية لقب " الأولى " في حياة علي، والخلاصة: أننا نفهم أن بتر النصوص عند الحديث عن أهم الأحداث التاريخية دون توضيح لا يكون مفيدا للباحث في جميع الأحوال.

5 - ليلة بكى فيها القمر:

روي أن عليا خطب الناس بعد أن تخاذلوا عنه فقال: " أيها الناس إنكم قد أبيتم إلا أن أقولها، ورب السموات والأرض. أن من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلي: " إن الأمة ستغدر بك بعدي " (2). لقد أعلنها الإمام واضحة جلية على أسماعهم. إن أفعالهم التي بها يستحقون الثواب والعقاب. الله تعالى أعلم بها من أنفسهم، وأنهم اختبروا لينظر الله كيف يعملون. وأن نتيجة أعمالهم عهد بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى علي. وعلى هذا فإن الإمام كان يعلم أن الضربة التي ستأتيه، ستأتيه من طريق غدر طويل. وعلى الرغم من هذا فإنه على امتداد هذا الطويق لم يكن يعبأ بما سيفعله أهل الغدر. وإنما كان يدعو ويصحح الأخطاء فكان بذلك شاهد على جيل الصحابة، وكان السلف بذلك شاهد على الخلف. فالإمام هو الإنسان الوحيد الذي قاتل داخل سور الأمة على تأويل

(1) البداية والنهاية 320 / 7.

(2) ابن أبي الحديد 813 / 1 والحديث رواه الحاكم والبيهقي بسند صحيح (البداية والنهاية 218 / 6، كنز العمال 297 /

11).

الوآن. وبما أن حجية الوآن قائمة على امتداد التاريخ، فإن حجية الأحداث التي تعلق بالوآن قائمة أيضا. وعندما أعلن الإمام أمامهم أن طريق الغدر الذي يقفون عليه، أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عليا. قال: أما والذي نفسي بيده، ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسواعهم إلى باطلهم. وإبطائكم عن حقي. ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي. استنفوتكم للجهاد فلم تنفروا.

(1)

وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهوا فلم تستجبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا، شهود كغياب، وعبيد كآباب . انلوا عليكم الحكم فنتفرون منها، وأوعظكم بالموعظة البالغة فنتفرون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر قولي حتى رأكم متفوقين أيادي سباً⁽²⁾ ، ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم⁽³⁾ .

أقومكم غوة، وترجعون إلى عشية كظهر الخية⁽⁴⁾ . عجز المقوم وأعضل المقوم⁽⁵⁾ . أيها القوم الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهولهم، المبتلي بهم أهولهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه، لوددت والله أن معاوية صلفني بكم صرف الدينار بالروهم، فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلا منهم.

يا أهل الكوفة.. منيت منكم بثلاث واثنين: صم ذو أسماع، وبكم ذو كلام، وعمي ذو أبصار، لا أوار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء، توبت أيديكم⁽⁶⁾ يا أشباه الإبل غاب عنهار عاتها. كلما جمعت من جانب توقفت من آخر، والله لكأني بكم فيما

(1) عبيد كآباب / يصفهم بالكبر.

(2) أيادي سباً / مثل يضوب للمتوقفين.

(3) تتخادعون عن مواعظكم / أي تمسكون من الاعتاظ والاتجار.

(4) كظهر الخية / الخية القوس. يريد اعوجاجهم كما أن ظهر القوس موج.

(5) اعضل المقوم / أي أعضل دؤه.

(6) توبت أيديكم / أي لا أصبتم خوا.

الصفحة 147

أحاكم⁽¹⁾ ألو حمى الوغي⁽²⁾ ، وحمى الضواب، قد انفوجتم عن علي بن أبي طالب انفاج المرأة عن قبلها⁽³⁾ . وإني لعلى بيينة من ربي، ومنهاج من نبي، وإني لعلى الطريق الواضح القطة لقطا⁽⁴⁾ ...⁽⁵⁾ .

يقول ابن أبي صالح الحنفي: رأيت علي بن أبي طالب أخذ المصحف، فوضعه على رأسه، حتى إني لأرى ورقة يتقعق ثم قال: اللهم إنهم منعوني أن أقوم في الأمة بما فيه، فاعطني ثواب ما فيه، اللهم إني قد مللتهم وملوني، وأبغضتهم وأبغضوني، اللهم فابدلني بهم خوا منهم، وأبدلهم بي شوا مني.

اللهم أمت قلوبهم موت الملح في الماء⁽⁶⁾ .

وعندما بلغ أمير المؤمنين غرة معاوية على هيت والأنبار، قال بعد أن تتاقل أهل الكوفة: لا يبرك الحق إلا بالجد والصدق، فأني دار بعد دلركم تمنعون، ومع أي إمام بعدي تقاثلون. المغرور من غرتموه، ومن فلركم فاز بالسهم الأصيب. أصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع في نصوكم، فرق الله بيني وبينكم، وأعقبني بكم من هو خوا لي منكم، وأعقبكم من هو شر لكم مني. أما إنكم ستلقون بعدي ثلاثا: ذلا شاملا، وسيفا قاطعا، وآؤه قبيحة يتخذها فيكم الظالمون سنة. فتبكي لذلك أعينكم، ويدخل الفقر بيوتكم، وستذكرون عند ذلك المواطن، فتودون أنكم رأيتوني وهوقتم دماءكم نوني، فلا يبعد الله إلا من

(1) فما أخالكم / أي فما أظنكم.

(2) (حمى الوغي / اشتد وعظهم. والوغي / الأصوات والجلبة.

(3) (انفواج المرأة عن قبلها / أي وقت الولادة.

(4) (القطه لقطا / أي أنا النقط طريق الهدى من بين طريق الضلال لفظ من هاهنا وهاهنا.

كما يسلك الإنسان طريقا دقيقة اكتنفها الشوك.

(5) ابن أبي الحديد 2 / 624.

(6) رواه ابن عساكر (كنز العمال 195 / 13) ابن كثير (البداية 12 / 8) المسعودي (مروج الذهب 139 / 3).

(7) ابن عساكر (كنز العمال 356 / 11).

الصفحة 148

وعندما بلغه أن سوايا معاوية تقتل شيعته ويعرضون النساء المسلمات في الأسواق. خطب الناس فقال: أيها الناس. إني قد
بنثت لكم المواعظ (1) التي وعظ بها الأنبياء أممهم، وأديت إليكم ما أدت الأوصياء (2) إلى من بعدهم، وأدبتكم بسوطي فلم
تستقيموا. وحدوتكم (3) بالزواج فلم تستوسقوا (4) ، الله أنتم. أنتوقعون إماما غوي يظأ بكم الطريق (5) ، وورشدكم السبيل؟ ألا
إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا، وأقبل منها ما كان مدوا. ورمع الترحال عباد الله الأخيار، وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى
بكثير من الآخرة لا يفنى.

ما ضر إخواننا الذين سفكت دملؤهم بصفين ألا يكونوا اليوم أحياء، يسيغون الغصص، ويشوبون الرنق. قد والله لقوا الله
فوفاهم أجرهم، وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم، أين إخواني الذين ركوا الطريق، ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن
التيهان؟ وأين ذو الشهاداتتين؟ وأين نظروهم من إخوانهم (6) الذين تعاقوا على المنية (7) وأورد برؤوسهم إلى الفجرة؟ (8)
قال روي الحديث: ثم ضرب عليه السلام بيده على لحيته الشريفة الكريمة. فأطال البكاء، ثم قال: لوه على إخواني الذين
قوا الوآن فأحكموه، وتدبروا الفوض فأقاموه! أحيوا السنة وأماتوا البدعة. دعوا إلى الجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه
(9) . ثم نادى بأعلى صوته: الجهاد الجهاد عباد الله. ألا

(1) بنثت لكم المواعظ / فرقتها ونشرتها.

(2) (الأوصياء / الذين يأتهمهم الأنبياء على الأسوار الإلهية أو الذين لهم الإهرة والولاية.

(3) حوتكم / سقتكم كما تحدى الإبل.

(4) (فلم تستوسقوا / أي لم تجتمعوا.

(5) (يظأ بكم الطريق / أي يحملك على المنهاج الشرعي.

(6) أين نظرؤهم / يعني الذين قتلوا بصفين من الصحابة.

(7) وتعاقبوا على المنية / جعلوا بينهم عقدا.

(8) (وورد برؤوسهم / أي حملت رؤوسهم مع البريد إلى الفسقة للبشارة بها. والفجوة هنا هم أمراء الشام.

(9) وثقوا بالقائد / يعني نفسه فاتبعوه في حرب من حرب وسلم من سالم.

الصفحة 149

وإني معسكر في يومي هذا، فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج ⁽¹⁾. وروي أنه ضوب ورجله على المنبر حتى سمع قدمه في آخر المسجد، وقال: والله لتطؤون هكذا هكذا. ثم لتستعملن عليكم اليهود والنصرى حتى تنفوا، ثم لا وغم الله إلا بآنافكم ⁽²⁾.
لقد أخروهم ولا بظهور أهل الشام عليهم، ثم أخروهم ثانيا بأن اليهود والنصرى سيقونهم إلى عالم النفي أي عالم التردية، حيث تكون مهمتهم تقليد اليهود والنصرى في كل شئ، ثم أخروهم ثالثا بأنهم سيؤكبون العرجلة الأخيرة معهم، وهي التي لا وغم الله إلا بآنافهم، وهذه الأرضية هي أرضية الخوارية حيث يطبخون في المادة حتى يأتيهم الدجال.
وروي أن الإمام بعد أن خطبهم خرج بنفسه ماشيا إلى المعسكر. فألركه بعض الناس، وكان يريد أن يتوجه لقتال أهل الشام. ومن العجيب أنه بعد أن عزم على ضوب أهل الشام جاءت الضوبة القاتلة من أشقى الناس عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله، وعندما جاءت الضوبة زاجع العساكر فكاثروا كأغنام فقدت راعيها، تخطفها الذئاب من كل مكان ⁽³⁾.

6 - وغاب القمر:

روي أن النبي صلى الله عليه وآله قال لعلي: ألا أحدثك بأشقى الناس.

رجلين: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضوبك يا علي على هذه (يعني رأسه) حتى تبذل منه هذه (يعني لحيته) ⁽⁴⁾،
وقال له: " إن الأمة ستعذر بك

(1) ابن أبي الحديد 436 / 3.

(2) (الولابي في الكنى والأسماء، ابن أبي شيبه (كنز العمال 780 / 5).

(3) ابن أبي الحديد 437 / 3.

(4) (رواه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والزار ورجاله ثقاة (الزوائد 136 / 9)، والحاكم والبيهقي بسند صحيح

(المستترك 141 / 3)، (كنز 136 / 13) (البداية والنهاية 218 / 6).

الصفحة 150

بعدي، وأنت تعيش على ملتي وتقتل على سنتي. من أحبك أحبني، ومن أبغضك أبغضني، وإن هذه ستخضب من هذا (يعني لحيته من رأسه) ⁽¹⁾. وروي أن أنسا قال: دخلت مع النبي صلى الله عليه وسلم على علي وهو مريض.

وعنده أبو بكر وعمر. فقال أحدهما لصاحبه: ما رأيك إلا هالكا. فقال النبي: إنه لن يموت إلا مقولا. ولن يموت حتى يملأ

(2)

وروي أن أبا فضالة الأنصاري خرج ليعود علي في مرض أصابه، وأثناء حديثه مع علي قال علي: عهد إلي النبي صلى الله عليه وسلم أن لا أموت حتى تخضب هذه من هذه (يعني لحيته من هامته) ⁽³⁾ . وعن أبي سنان أنه عاد عليا في شكوى اشتكاها، فقال لعلي: لقد تخوفنا عليك في شكواك هذه. فقال: ما تخوفت على نفسي، عهد إلي أن لا أموت حتى تخضب هذه ⁽⁴⁾ من هذه . وروي أن رجلا من الخوارج يقال له الجعد بن بعجة قال لعلي: اتق الله يا علي فإنك ميت، فقال: بل مقتول، ضربة على هذا تخضب هذه. عهد معهود وقضاء مقضي، وقد خاب من أفزى ⁽⁵⁾ ، وروي أن عليا كان يعرف قاتله وذلك لأن النبي وصفه له وسماه واسم أبيه، وعندما جاء ابن ملجم مع الناس ليبيع عليا قال علي: ⁽⁶⁾ ⁽⁷⁾ أريد حياته ويريد قتلي * عذرك من خليلك من موادي

(1) رواه أحمد وصححه (المستدرک 3 / 142) والدارقطني والخطيب (كنز العمال 617 / 11).

(2) قال السيوطي في الخصائص الكبرى رواه الحاكم (الخصائص 210 / 2).

(3) قال ابن كثير رواه الطواني (البداية والنهاية 218 / 6).

(4) رواه الطواني وقال الهيتمي إسناده حسن (الزوائد 9 / 137) والحاكم وصححه (3 / 113).

(5) رواه أحمد (الفتح الروباني 23 / 163) والطواني والبغوي والضياء بسند صحيح (كنز العمال 297 / 11) والحاكم

(المستدرک 3 / 143)، وقال ابن كثير رواه الطيالسي (البداية 218 / 6).

(6) أي هات من يعتذر منك.

(7) رواه ابن سعد ووكيع (كنز العمال 191 / 13).

الصفحة 151

وكان يقول هذا كلما رآه، وروي أنه لما دخل شهر رمضان، كان يفطر عند الحسن ليلة وعند الحسين ليلة، وليلة عند عبد الله بن جعفر، ولا يزيد على اللقمتين أو ثلاث. فقليل له في ذلك فقال: إنما هي ليال قلائل، يأتي أمر الله وأنا خميص ⁽¹⁾ . وفي اليوم الذي قتل فيه جاءه ابن النباح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة، فقام يمشي وهو يقول:

أشدد حيلُيَمِك للموت * فإن الموت لا فيكا

ولا تخزع من الموت * إذا حل بوادিকা ⁽²⁾

وقال: والله ما كذبت وكذبت، وإنما الليلة التي وعدت فيها ⁽³⁾ . وعندما خرج، أقبل الوز والبطن يصحن في وجهه، فطروهن

عنه فقال: نروهن فإنهن نوائح ⁽⁴⁾ ، وكان ابن ملجم قد أتى الأشعث بن قيس في هذه الليلة، فخلا به في بعض نواحي المسجد،

ومر بهما حجر بن عدي، فسمع الأشعث يقول لابن ملجم: النجاء النجاء بحاجتك فقد فضحك الصبح. فقال حجر: قتلته يا

أعور، وخرج مباوا إلى علي ليخوه ⁽⁵⁾ ، وقال أبو الفوج: ولأشعث بن قيس في انوافه عن أمير المؤمنين أخبار يطول

شوحها ⁽⁶⁾ . ولم يلتق حجر بن عدي بعلي، وسبقه ابن ملجم فضربه، فأقبل حجر والناس يقولون: قتل أمير المؤمنين ⁽⁷⁾ . وعن

أبي عبد الله بن محمد الأردني قال: إني لأصلي تلك الليلة في المسجد الأعظم مع رجال من أهل مصر، كانوا يصلون في ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره. إذ نظرت إلى رجال يصلون قريباً من السدة. قياماً وعوداً وركوعاً وسجوداً ما يسأمون إذ يخرج عليهم علي بن أبي طالب الفجر. فأقبل

(1) رواه ابن عساكر والعسكري (كنز 190 / 395 / 13).

(2) رواه ابن عساكر (كنز العمال 196 / 13) وابن أبي الحديد 339 / 2.

(3) مروج الذهب 459 / 2.

(4) ابن كثير (البداية 14 / 8)، (مروج الذهب 459 / 2)، ابن عساكر 195 / 13.

(5) ابن أبي الحديد 340 / 2، مقاتل الطالبين.

(6) مقاتل الطالبين، ابن أبي الحديد 340 / 2.

(7) مقاتل الطالبين، ابن أبي الحديد 340 / 2.

الصفحة 152

ينادي: الصلاة الصلاة، وأيت بريق السيف وسمعت قائلاً يقول: الحكم لله يا علي لا لك. ثم أيت بريف سيف آخر وسمعت علي عليه السلام يقول: لا يفوتكم الرجل (1).

قال أبو الفوج: فأما بريق السيف الأول، فإنه كان شبيب بن بحير ضربه فأخطأه، ووقعت ضوبته في الطاق، وأما بريق السيف الثاني، فإنه ابن ملجم ضربه فأثبت الضوبة في وسط الرأس، وشد الناس عليهما من كل ناحية حتى أخنوهما (2)، وانصرف الناس من صلاة الصبح، فأحدقوا بابن ملجم ينهشون لحمه بأسنانهم ويقولون: يا عدو الله ماذا صنعت؟ أهلكت أمة محمد وقتلت خير الناس. وأنه لصامت لا ينطق (3).

وأمر أمير المؤمنين علي إذا مات من الضوبة أن يفعلوا بقاتله كما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل بوجله إذا قتله. وهو أن يقتل ويحرق بالنار (4). وطريقة القصاص من قاتله تدل أيضاً على متولة أمير المؤمنين من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وروي أن الناس أخنوا ابن ملجم وأرجوه في بوري ثم طوها بالنفط وأشعلوا فيها النيران فاحترق (5). ورحل الإمام علي عليه السلام من الدنيا. وروي أنه قال: إن خليلي صلى الله عليه وآله وسلم حدثني أن أضوب لسبع عشر قضى من رمضان، وهي الليلة التي مات فيها موسى عليه السلام، وأموت لاثنتين وعشرين من رمضان، وهي الليلة التي رفع فيها عيسى عليه السلام (6). وبعد أن صعدت روح الإمام

(1) رواه الطبراني (الروايد 141 / 9)، الطبري 84 / 6، ابن أبي الحديد 340 / 2.

(2) مقاتل الطالبين، ابن أبي الحديد 340 / 2.

(3) مقاتل الطالبين، ابن أبي الحديد 341 / 2.

(4) رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح الروباني 23 / 163)، (الزوائد 9 / 142) والحاكم (المستترك 3 / 144).

(5) مروج الذهب 2 / 461 .

(6) كنز العمال 13 / 697 . وهذا الحديث اعترض عليه ابن الجوزي . وكرمرد ابن الجوزي أحاديث صحيحة . ولقد تصدى

له السيوطي وبين أنه لم يصب الحق في الكثير من =

الصفحة 153

إلى بلئها وقف الحسن بن علي في الناس خطيبا ثم قال: " أيها الناس . لقد فلركم رجل بالأمس لم يسبقه الأولون بعلم ولا

يدركه الآخرون ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبعثه بالواية جويل عن يمينه وميكائيل عن شماله ، لا ينصرف

حتى يفتح الله له ، وزاد في رواية - وما ترك من صواء ولا بيضاء إلا سبعمائة وهم من عطاء ، كان يرصدها لخدم لأهله ،

ثم خنفته العورة فبكى وبكى الناس معه (1) .

وروى الطوي: لما إنتهى إلى عائشة قتل علي بن أبي طالب قالت:

فألقت عصاها واستنوت بها النوى * كما قر عينا بالإياب المسافر

ثم قالت: من قتله؟ فقيل: رجل من مراد . قالت:

فإن يك بك نائيا فلقد نعاه * غلام ليس في فيه الزاب

فقالت لها زينب ابنة أبي سلمة: العلي تقولين هذا؟ فقالت: إني أنسى فإذا نسيت فذكروني (2) ، وكانوا قد قالوا لعائشة أيام

صفين: ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينزع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلافة؟ فقالت: وما تعجب من ذلك؟ هو

سلطان الله يؤتية البر والفاجر (3) .

وبعد مقتل الإمام أنشد الخرجي عمران بن حطان (4) شوا يمدح فيه قاتل عليا فقال:

يا ضوبة من تقي ما أراد بها * ألا ليلبغ من ذي العوش رضوانا

إني لأذكوه يوما فأحسبه * أوفى الوية عند الله مزانا (5)

= اعتراضاته . والحديث رواه أبو يعلى وابن جرير وابن عساکر (كنز 13 / 693) .

(1) رواه أحمد بسند صحيح (الفتح الروباني 23 / 164) وابن أبي شيبه وأبو نعيم وابن عساکر وابن جرير (كنز العمال

193 / 13) ، مروج الذهب 2 / 461 .

(2) الطوي 6 / 67 .

(3) البداية والنهاية 8 / 131 .

(4) قال في الإصابة: كان من رؤوس الخورج .

(5) مروج الذهب 2 / 462 ، البداية والنهاية 7 / 329 .

الصفحة 154

وعمران بن حطان هذا له رواية في صحيح البخاري، الذي قيل فيه أنه أصح كتاب بعد كتاب الله، وممن عاب على

البخاري إخراجه حديث عمران بن حطان الدلقطني فقال: عمران متروك لسوء اعتقاده وسوء مذهبه (1). وأخرج أبو دلوود

أيضا حديث عمران عن عائشة. وقال: إن الخروج أصح أهل الأهواء حديثا (2). والخروج هم الذين وصفهم النبي صلى الله

عليه وسلم بأنهم:

" يهفون من الدين " (3) ، أي أن أهواءهم خرج نطاق الدين. وأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضا بأنهم " لن

يعودوا إلى الدين " (4) . وبين أنهم " لا زالون يخرجون حتى يخرج أخوهم مع الدجال " (5) . فالطريق واضح فكيف يكونوا

أصح أهل الأهواء حديثا وهم الذين رأوا هدم الدين من رأس؟ يقول شاعوهم ابن مياس العرادي في قتل علي:

ونحن خلعنا ملكه من نظامه * بضوبة سيف إذ علا وتجوا

ونحن كوام في الصباح أغوّة * إذا الموت بالموت لتدي وتأفوا

وقال أيضا:

(6) فلا مهر أغلى من علي وإن غلا * ولا قتل إلا دون قتل ابن ملجم

ولقد رد القاضي أبو الطيب على شعر عمران بن حطان فقال:

إني لأوأ مما أنت قائله * عن ابن ملجم الملعون بهتانا

يا ضوبة من شقي ما أراد بها * ألا ليهدم للإسلام أركاننا

إني لأذكوه يوما فألعنه * دنيا وألعن عمران ابن حطانا

(1) الإصابة / ابن حجر 180 / 3.

(2) الإصابة 119 / 3.

(3) رواه أحمد (البداية والنهاية 292 / 3).

(4) رواه أحمد (البداية والنهاية 297 / 7).

(5) رواه أحمد ورجاله ثقات (الزوائد 229 / 6).

(6) الطوي 87 / 6 ، البداية والنهاية 329 / 7.

وقال:

(1) أنتما من كلاب النار جاء به * نص الشيعة وهانا وتيبانا

7 - لهيب الليل:

لم ير الناس إلا ابن ملجم وأصحابه عندما قتل أمير المؤمنين، وفي الحقيقة كان هناك طابور طويل يقف وراء ابن ملجم ولا

راهم إلا الله وحده.

لقد شرك الكثير من الناس في قتل علي بن أبي طالب، وفي كتاب الله الكريم.

عقر ناقة صالح عليه السلام فودا واحدا قال تعالى: (إذ انبعث أشقاها)، وبعد إتمام عملية القتل قال تعالى: (فكذوه فعقروها) (2) ، وفي هذا يقول الإمام علي: أيها الناس، إنما يجمع الناس الوضا والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالوضا، فقال سبحانه: (فعقروها فأصبحوا نادمين) (3) . فما كان ألا خلت لرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخورة. أيها الناس: من سلك الطريق ورد الماء، ومن خالف وقع في التيه (4) . ولا يخفى أن حديث قتل علي بن أبي طالب فيه أحيمر ثمود قاتل الناقة، والذي يضوب عليا على رأسه فتخضب لحيته من رأسه. فأشقى الناس هنا يقابله أشقى الناس هناك، وقتل علي هنا يقابله قتل الناقة هناك. والعذاب الذي وقع هناك لا بد وأن يقابله عذاب هنا. ولذلك كان علي بن أبي طالب يخوهم بالذل الشامل الذي سيحل بهم بعد مقتله كما أخوه النبي صلى الله عليه وآله وسلم. والعذاب الذي يشق طريقه الظالمون من الأمة الخاتمة، يستقيم مع رسالة الأمة ودوامها حتى قيام الساعة. بمعنى أن ثمود ضربهم عذاب الاستئصال. أما الأمة الخاتمة فلها عذاب يستقيم مع الاستئصال بصورة من الصور حتى يأتي أمر الله.

(1) مروج الذهب 462 / 2.

(2) سورة الشمس: الآية 14.

(3) سورة الشعراء: الآية 157.

(4) ابن أبي الحديد 549 / 3.

الصفحة 156

ولما كان الدجال خراج لا محالة في آخر الزمان. كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله لم يبعث نبيا إلا حذر أمته الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خراج فيكم لا محالة " (1) . ولما كانت جميع الفتن منذ كانت الدنيا تصب شذوذها في سلة لها موضع عند الدجال، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: " وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة أو كبيرة إلا لفتنة الدجال " (2) ، فإن ملامح العذاب الذي يصيب الظالمين من الأمة ترى صورته على طريق الدجال. وطريق الدجال داخل مربع الأمة يبدأ كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم من عند دائرتين: " ثلاثة من نجا منها فقد نجا، من نجا عند موتي، ومن نجا عند قتل خليفة يقتل مظلوما وهو مصطبر يعطي الحق من نفسه فقد نجا، ومن نجا من فتنة الدجال فقد نجا " (3) . فالدائرة الأولى حادث أو موقف ينشأ عند موت النبي صلى الله عليه وسلم، والدائرة الثانية قتل خليفة يعمل بالحق ويسير بالحق وهدفه الحق. فالذي ينجو من الدائرة الأولى، ويدخل في أمان الدائرة الثانية تسوقه أقدامه إلى أمان الدائرة الثالثة والتي يكون مركزها الدجال. فالأمان يدفع إلى أمان. ومن وقع في فتنة الدجال، فإن لوقوعه أسباب سلك طريقها يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " لأنا لفتنة بعضكم أخوف عندي من الدجال، ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها " (4) .

فهذا باختصار طريق العذاب وبعض ملامحه. والله تعالى لا يظلم الناس.

والعذاب الذي يروونه ما هو إلا نتيجة طبيعية لأعمالهم. والله تعالى أخذ على نفسه الرحمة، وأنه لا يضل قوما بعد إذ هداهم

حتى يبين لهم ما يتقون. ولقد ساق النبي صلى الله عليه وسلم الأمة إلى طريق الهداية. وحوهم من كل سبيل

(1) رواه مسلم (الصحيح 55 / 18) الترمذي (الجامع 232 / 4) وأحمد (الفتح الرباني 76 / 24) الحاكم (المستدرک 536 / 1).

(2) رواه الزوار ورجاله رجال الصحيح (الزوائد 335 / 7).

(3) رواه أحمد والطواني والضياء بسند صحيح (كنز العمال 180 / 11) والحاكم وصححه (المستدرک 101 / 3).

(4) رواه أحمد والزوار وقال الهيثمي رجال أحمد رجال الصحيح (الزوائد 335 / 7).

الصفحة 157

ليس لله فيه راية. وبالغ في التحذير فقال: " من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله " (1) ، وقال: " أول فرقة تسير إلى السلطان في الأرض لتذله يذله الله تعالى يوم القيامة " (2) ، قال في تحفة الأحرادي: أي من أهان من أعز الله أهانه الله. وفي الأرض متعلق بسلطان الله. قال تعالى لدوود عليه السلام: " إنا جعلناك في الأرض خليفة " وإضافة السلطان إلى الله إضافة تشريف كبيت الله وناقاة الله " (3) .

فالنبي حذر من إهانة سلطان الله، وحذر أيضا من إهانة وليه الذي هو ولي الله فقال: " من أهان لي وليا فقد بارزني بالعدوة " (4) ، وقال: " من أخاف لي وليا فقد بارزني بالمحربة " (5) ، وقال: " من عادى لي وليا فقد ناصبني بالمحربة " (6) ، وقال: " من آذى لي وليا فقد استحل محلومي " (7) ، وقال لعلي وفاطمة والحسن والحسين: " أنا حرب لمن حربتم وسلم لمن سالمتم " (8) ، وقال: " من آذى عليا فقد آذاني " (9) ، وقال: من كنت هولاه فعلي هولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. وانصر من نصوه واخذل من خذله " (10) ، وقال:

(1) رواه ابن أبي عاصم وصححه الألباني (كتاب السنة 489 / 2) والترمذي (كنز العمال 184 / 1).

(2) رواه الديلمي عن حذيفة (كنز 215 / 1).

(3) تحفة الأحرادي (6 / 476).

(4) رواه الطواني وأبو نعيم عن أبي إمامة (كنز 229 / 1).

(5) رواه ابن عساكر عن أنس (كنز 229 / 11).

(6) رواه الطواني عن ابن عباس (كنز 231 / 1).

(7) رواه أحمد وأبي يعلى والطواني وابن عساكر عن عائشة (كنز 230 / 1).

(8) رواه الحاكم وصححه (المستدرک 149 / 3) والضياء بسند (13 / 640) والترمذي (الجامع 699 / 5).

(9) رواه أحمد وقال الهيثمي رجال أحمد ثقات، ورواه الطواني والزوار وابن حبان في صحيحه (الزوائد 129 / 9)

والحاكم صححه (المستدرک 122 / 3) وأبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد 129 / 9) ، وابن سعد وابن أبي شيبة (كنز 142 /

13).

(10) رواه الزوار وابن جرير وقال الهيثمي رجاله ثقات (كنز العمال 158 / 13) والألباني وصححه (الصحيحة 343 / 5).

الصفحة 158

" سبعة لعنتهم ولعنهم الله " منهم " المتسلط على أمتي بالجبروت ليزل من أعز الله ويعز من أذل الله. والمستحل من عترتي ما حرم الله " (1).

والنبي وهو يحذر كان يعلم أن الأمة ستقع في الفتن، ولكن ما على الرسول إلا البلاغ، ولقد ساق الناس إلى الهدى أخذًا بجميع الأسباب للوصول بهم إلى هذا الهدف. كان يعلم بأنهم سيكذبوه وأنه سيهاجر ويتوك لهم الديار في سبيل الله وأنهم سيقاتلونهم وأن بني أمية سيصعدون منوه في نهاية المطاف، فلم يحول هذا العلم بينه وبين الدعوة، وإنما جاهد ونصح حتى لا يكون للناس على الله حجة يوم القيامة. ومما روي عن النبي وهو يخبر بالغيب عن ربه " والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتجتللوا بأسيافكم ويورث دنياكم شولكم " (2). ففي الحديث بداية تسفر عن قتل إمام، ثم اجتلاء بالسيوف، ثم يجلس الروبيضة والغلمان السفهاء على المقاعد الأولى وبين أيديهم دنيا فعلوا من أجلها الأفاعيل.

وهكذا يستقيم البدء مع الختام. فالناس لم يروا سوى ابن ملجم وأصحابه عند قتل الإمام علي، كما أن ثمود لم تر سوى عاقر الناقة وأصحابه. وروي أن الناقة عندما قتلت رفعت ببصوها إلى السماء. وروي أن جماعة تبعوا فصيلها لما هرب منهم فرماه أحدهم فأصاب قلبه، وأن فصيلها رغا ثلاث مرات إلى السماء (3)، وروي أن الإمام علي قال: " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سرح لي الليلة في منامي. فقلت: يا رسول الله. ما لقيت من أمتك من الأود واللدود. فقال: ادع عليهم. فقلت: اللهم ابدلني بهم من هو خير لي منهم. وأبدلهم بي من هو شر مني " (4)، وهذا الدعاء جهر به الإمام أمام القوم عندما خذلوه. ثم

(1) رواه ابن أبي عاصم وحسنه الألباني (كتاب السنة 24 / 1).

(2) رواه الترمذي (الجامع 468 / 4) وقال في تحفة الأحوازي، رواه ابن ماجه (التحفة 391 / 6).

(3) ابن كثير في التفسير (229 / 2) والميزان (315 / 10).

(4) البداية والنهاية 12 / 8، الطبقات الكبرى 36 / 3، العقد الفريد 289 / 2، مقاتل الطالبين ص 16.

الصفحة 159

رحل الإمام وأمامه البشوى. قال له النبي صلى الله عليه وسلم: " أبشر يا علي حياتك معي وموتك معي " (1)، وقال: " إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان " (2)، وقال لفاطمة: " إني وإياك وهذا النائم (3) وهما (4) لفي مكان واحد يوم القيامة " (5).

وإذا كانت البشوي داوة عاش فيها الإمام علي في الدنيا، فإن البشوي يوم القيامة ستكون حقيقة يعيشها الإمام علي بجانب الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وبما أن ساحة الأمة يوجد عليها إمام مقتول، فإننا نلقي الضوء هنا على الدماء يوم

القيامة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " أول ما يقضي بين الناس في الدماء " (6) ، وفيما يتعلق بالأمة في هذا الشأن يقول الإمام علي: " أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة " (7) ، وروي أنه قال: " أنا حجيج الملقين وخصيم الناكثين المرتابين " أي: يوم القيامة (8) .

وروي أنه عندما قل قوله تعالى: " ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون " (9) قال الزبير يارسول الله. أتكرر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: نعم فقال الزبير: إن الأمر إذا لشديد (10) .
وروي أن الإمام علي قال: يؤتى بي وبمعاوية يوم القيامة فنختصم عند ذي

(1) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد 112 / 9).

(2) رواه الترمذي وصححه (الجامع 667 / 5) والحاكم وأوه الذهبي (المستدرک 137 / 3).

(3) أي عليا.

(4) أي الحسن والحسين.

(5) رواه الحاكم وأوه الذهبي (المستدرک 137 / 3).

(6) رواه البخاري ومسلم والترمذي (كشف الخفاء 826 / 1)، (الجامع 10 / 4)، (كنز العمال 20 / 15).

(7) رواه البخاري (الصحيح 5 / 3).

(8) ابن أبي الحديد 378 / 2.

(9) سورة الزمر: الآية 31.

(10) رواه الترمذي وصححه (الجامع 371 / 5).



العرش. فأينا فلج فلج أصحابه " (1) ، وقال: " حربنا حزب الله، والفئة الباغية حزب الشيطان، ومن سوى بيننا وبين عدونا فليس منا " (2) ، أما قول الإمام بأن حربه هو حزب الله فإن هذا يستشف وروى بوضوح في آيات القرآن الكريم وفي الأحاديث الصحيحة وفي حركة التريخ، وإما أن الفئة الباغية هي حزب الشيطان، فيكفي الفئة الباغية قتل عمار الذي يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في عمار: " عمار خلط الله الإيمان ما بين قونه إلى قدمه. وخلط الإيمان بلحمه ودمه " (3) ، وقال: روي عمار إيمانا إلى مشاشته (4) ، فعمار الذي في داوة الإيمان قتل بيد الفئة الباغية، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " أبى الله أن يجعل لقاتل مؤمن توبة " (5) ، وقال: " لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار " (6) ، فالذي يقتل مؤمنا لأنه مؤمن، فهذا بلا جدال من حزب الشيطان. ولأن المؤمن كثير ما يقتل على طريق البغي، فلقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الطريق فقال: " يا معشر المسلمين احذروا البغي، فإنه ليس من عقوبة هي أخطر من عقوبة البغي " (7) ، وقال: " لو بغي جبل على جبل لدك الباغي منهما " (8) ، وقال:

لا يبغي على الناس إلا ولد بغي أو فيه شئ منه " (9) ، وقال: " لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غوره، ألا ولا غادر أعظم غورا من أمير عامة " (10) ،

- (1) رواه ابن عساکر والحرث (كنز العمال 350 / 11).
- (2) رواه ابن عساکر (كنز العمال 356 / 11).
- (3) رواه ابن عساکر (كنز العمال 720 / 11).
- (4) رواه الحاكم وأقوه الذهبي (المستترك 392 / 3).
- (5) رواه الطواني والضياء بسند صحيح (كنز العمال 19 / 15).
- (6) رواه الترمذي (الجامع 4 / 11).
- (7) رواه ابن أبي الدنيا وابن النجار (كنز العمال 308 / 3) وابن عدي (كنز 446 / 3).
- (8) (كنز العمال 446 / 3).
- (9) رواه ابن عساکر (كنز العمال 19 / 11) والطواني (كنز 446 / 3).
- (10) رواه مسلم (كنز العمال 518 / 3) وأحاديث لواء الغدر رواه البخاري (الصحيح 4 / 78) والترمذي (الجامع 144 / 4).

فالأمر الذي يسلك طريق المكر والخديعة على امتداد طريق البغي هو أعظم الناس غورا، وله لواء يوم القيامة يحمل اسمه.

فإذا كان حزب الله وحزب الشيطان لهما معالمهما في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم. فلا تسوية بين هذا وذاك لقول

النبي صلى الله عليه وسلم أيضا: " علي بن أبي طالب باب حطة، من دخل فيه كان مؤمنا ومن خرج منه كان كافرا " (1) ، قال في فيض القدير: والمعنى أن عليا طويق حط الخطايا (2) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " فلو أن رجلا صنف (3) بين الركن والمقام وصلى وصام ثم مات وهو مبغض لآل محمد صلى الله عليه وسلم دخل النار " (4) ، وقال: "والذي نفسي بيده لا يبعثنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار " (5) ، وقال: " النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف. فإذا خالفتها قبيلة من العرب، اختلفوا فصاروا حزب إبليس " (6) ، والتسوية لا تستقيم أيضا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأن طويق البغاة سيكون فيه مال الله لولا، ودين الله دخلا وعباد الله خولا. وعلى امتداد هذا الطويق تثبت الأشجار التي حذر منها النبي، أشجار الفتن التي يجلس في ظلها الدجال وأتباعه آخر الزمان. ودائرة الدجال التي عليها رجس لا تستقيم مع دائرة المهدي الذي فيها من الله طهر. وكما حذر النبي من الدجال في أحاديث، بشر أيضا بالمهدي في أحاديث. ومن عدل الله أنه قابل الشر المخوء بعدل مخوء، وكما أن للشر أعلام كذلك للعدل أعلام.

(1) رواه الدارقطني في الأفراد (كنز 100 / 5).

(2) فيض القدير 4 / 356.

(3) أي وقف.

- (4) رواه الطواني. وقال الهيثمي روى هذا الحديث عن سفيان الثوري وبقية رجاله رجال الصحيح (الزوائد 171 / 9)، ورواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وواقعة الذهبية (المستترك 149 / 3).
- (5) رواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (المستترك 150 / 3).
- (6) رواه الحاكم وقال هذا حديث صحيح الإسناد (المستترك 149 / 3).

الصفحة 162

وفي الختام نقول: لقد عمل التيار التخريبي على امتداد التاريخ لوقف حركة الأنبياء والوسل، ولكن كيدهم رد إلى نحرهم وخاب سعيهم وأصبحوا أحاديث. وعند الرسالة الخاتمة اجتمعت رايات الشنوذ التي تحمل بصمات الذين أصبحوا أحاديث، ورأوا الكيد للدعوة، ولكن الله كشف خباياهم، وهناك سؤهم وأخبر النبي بوقع أقدامهم في المستقبل كي يحذر أمته. فكان النبي يتكلم مع الرجل منهم في الوقت الذي روى حقيقته في الآخرة، بمعنى: يقول له أحدهم يا رسول الله أين مدخلي؟ فيقول له النبي: النار فالنبي هنا رآه على صورتين، والصورة الآخرة هي الحقيقة، وعلى هذا المثال، كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتحدث مع فطاحل بني أمية، وهو رآهم في صورة أخرى على منوه بعد وفاته، ثم روى حقيقتهم في الآخرة. وفقا لهذا حذر النبي أشد التحذير من اليهود ومن النصلى، ومن المنافقين ومن الذين في قلوبهم مرض، ولقد بينا هذا في موضعه. وبعد النبي صلى الله عليه وسلم اجتهد بني أمية، فكان العقد فيما بينهم، حتى أن أبي بن كعب كان يقول في عهد عمر: " هلك أهل العقد ورب الكعبة، هلك أهل العقد ورب الكعبة، والله ما آسى عليهم إنما آسى على من أهلكوا من المسلمين " (1). ولقد ذكرنا فيما سبق أن أبي بن كعب عندما وعد الناس بأنه سيتكلم يوم الجمعة. ما جاء يوم الجمعة إلا وأبي بن كعب في عالم ما

بعد الحياة الدنيا. ولا نوري أهي مصادفة أن يموت أبو بكر مسموما، وعمر مقولا، ثم يأتي عثمان يضعه بني أمية على طريق القتل، ثم يأتي أمير المؤمنين علي فيقاتله معاوية، ثم يقتل أمير المؤمنين. ولقد اتهم أبو الأسود الدؤلي معاوية بهذا القتل عندما قال:

ألا أبلغ معاوية بن حرب * فلا قوت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتونا * بخير الناس طر أجمعينا

(1) رواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرک 527 / 4).

الصفحة 163

(1) قتلتهم خير من ركب المطايا * وذلها ومن ركب السفينا

وكان الإمام علي يضع قريش في دائرة الساعين لقتله وكان كثرا ما يقول:

تلكم قريش تمناني لتقتلني * فلا وربك ما يروا وما ظفروا

(2) فإن هلكت فهن ذمتي لهم * بذات ودقين ولا يعفو لها أثر

فبني أمية لم تكن بعيدة عن دم الإمام، ثم جاء نور الحسن بن علي وروي أن معاوية أوصى بنت الأشعث لتسمه، وقتل الحسن مسموما. ثم جاء الدور على الحسين قتيل النولة الأموية. فهل جاء كل هذا مصادفة ليجلس بني أمية على رؤوس الأمة؟ إن الذي قطف الثمرة لا بد أنه راقب الشجرة زما طويلا، وهذه العواقبة لا بد وأن تستقيم مع أحاديث اللعن التي لعن فيها النبي تيلات الهدم. بمعنى أنهم وهم راقبون الأحداث كانوا على نواية بأن هذه الأحداث ستصب في وعائهم في نهاية المطاف، لأن وفودهم هو الذي يدفعها ويسوها.

إن قيادة بني أمية للبعض لم تأت بعد عهد الإمام علي، وإنما بدأت بعد نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا زاه في حديث: "أبغض الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: بنو أمية وثقيف وبنو حنيفة" (3)، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم" (4)، إن البغض لطريق الهداية كان منذ زمن الرسول، وهذا البغض لرتدى رداء الفتن الواقعة بعد عهد علي بن أبي طالب. ولقد كان في بني أمية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهؤلاء كان يعرفهم الإمام علي، وكان فيهم أ يضار رجال يتسلقون ويشترون الذمم للصد عن سبيل الله وهؤلاء أيضا كان يعرفهم الإمام علي، وروى بصماتهم من اشتغل برصد التريخ وأحداثه. فهم هناك عند دائرة الكبر، التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: "الكبر بطر الحق

(1) مروج الذهب 463 / 2.

(2) مروج الذهب 464 / 2.

(3) رواه البيهقي ورجاله ثقات (البداية والنهاية 268 / 6).

(4) رواه نعيم بن حماد والحاكم (كنز العمال 169 / 11).

الصفحة 164

وغمط الناس " (1) ، وبطر الحق: دفعه وإنكلره ترفعا وتجورا (2) ، وقيل: هو أن يجعل ما جعله الله حقا باطلا، وقيل: هو أن يتكبر على الحق فلا يقبله، وغمط الناس: أي احتقلهم (3) .

إن الإمام علي قتله الذين يبغضونه، قتله تيار المسجد الضوار، وتيار العقبة الذين رأوا يوما أن يغتالوا النبي عند عودته من تبوك. والتزيخ لا يحاكم الناس، وإنما الذي يحاكمهم الله وحده. وروي أن الإمام علي قال: لا تأمنن على خير هذه الأمة عذاب الله لقوله تعالى: " فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرين " (4) .

ولا تياس لشر هذه الأمة من روح الله لقوله تعالى: (إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون) (5) .

إن التزيخ لا يحاكم أحدا، إنما الذي يحاكم الناس هو الله وحده. ولقد رحل الإمام، وفي الحديث الصحيح يقول النبي لعلي: أنت أخي، وأبو ولدي، تقاتل على سنتي وتوئى ذمتي، من مات في عهدي فهو كنز الله، ومن مات في عهدك فقد قضى نحبه. ومن مات بحبك بعد موتك ختم الله له بالأمن، والإيمان ما طلعت الشمس أو غربت، ومن مات يبغضك مات ميتة جاهلية وحوسب بما عمل في الإسلام " (6) .

(1) رواه مسلم (الصحيح 89 / 2).

(2) (النووي شوح مسلم (الصحيح 89 / 2).

(3) تحفة الأرواذي 138 / 6.

(4) (سورة الأعواف: الآية 99.

(5) (سورة يوسف: الآية 87.

(6) (رواه أبو يعلى وقال البوصوي رواه ثقات (كنز العمال 159 / 13).

الصفحة 165

جداول الدماء

الصفحة 166

الصفحة 167

أولا - عاصفة الأمطار الحمضية

1 - بيعة الحسن بن علي:

كان الحسن بن علي علامة بارزة في طويق الدعوة إلى الله. فإذا كان علي بن أبي طالب حجة على عصر فيه أكابر

الصحابية، فإن الحسن حجة على جيله أو إن شئت فقل حجة على مقدمة جيل التابعين، أو قل حجة على الساحة الإسلامية من بعد والده عليه السلام. ويكفي لكي ندلل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن والحسين " من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني " (1) ، وقوله: " هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما " (2) ، يكفي أنهما من أصحاب الكساء، ولقد قال النبي لأصحاب الكساء " أنا حرب لمن حربكم وسلم لمن سالمكم " (3) ، وعلاوة على هذا وذاك

(1) رواه أبو يعلى وقال البوصيري رواه ثقات (كنز العمال 159 / 13).

(2) رواه ابن ماجة وقال البوصوي صحيح ورجاله ثقات. ورواه الإمام أحمد والزار (الفتح الرباني 1406 / 3)، (الزوائد 179 / 9)، (سنن ابن ماجة 1 / 51) ورواه الحاكم وصححه (المستدرک 166 / 3).
(3) رواه الترمذي وحسنه (الجامع 656 / 5).

الصفحة 168

فلقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " جاءني جبريل أن الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة " (1) .
فهذه المناقب لم توضع إلا لحكمة ومن وراء هذه الحكمة هدف. والحسن خاض المعرك مع والده، وكان يعلم جيدا ما الذي عليه أهل الشام، وكان يعلم أن معاوية سيملك ما تحت قدمه. هكذا سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ومن علي بن أبي طالب عليه السلام. وعلى الرغم من أنه كان يعلم أن نهايته في مربع الشهادة، وأنه سيقتل ويكون سيذا في الجنة بهذه الشهادة. إلا أنه أخذ بالأسباب لإقامة الحجة حتى لا يكون للناس على الله حجة.
والبداية كانت بعد وفاة أمير المؤمنين. روى الطواني أن الحسن بن علي خطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر أمير المؤمنين عليا خاتم الأوصياء، ووصى النبي وأمين الصديقين والشهداء... ثم قال: أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني، فأنا الحسن بن محمد صلى الله عليه وسلم. أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله عز وجل بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهروهم تطهيرا.
والذين افتروض الله مودتهم في كتابه إذ يقول: " ومن يقترف حسنة ترد له فيها حسنا " (2) ، فاقترف الحسن مودتنا أهل البيت " (3) .

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة، قام عبد الله بن عباس بين يديه، فدعا الناس إلى بيعته (4) ، وقام رجل فقال: أشهد

لقد رأيت رسول الله صلى الله

(1) رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد والطبراني والحاكم - وتم تخريجه من قبل.

(2) هذا الحديث عده السيوطي من المتواترات (تحفة الأرواحي 272 / 3) ورواه البخاري والضياء (كنز العمال 120 /

12) والترمذي وأحمد والحاكم وابن حبان وأبو يعلى وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد 201 / 9)، (الجامع الترمذي 656 / 5)، (كنز العمال 112 / 12).

(3) سورة الشورى: الآية 23.

(4) قال الهيثمي رواه الطواني في الأوسط وفي الكبير باختصار وأبو يعلى والزار وأحمد وإسناد أحمد وبعض طرق الزار والطواني في الكبير حسان (الزوائد 146 / 9) ورواه =

الصفحة 169

عليه وآله وسلم واضعه في حيوته ويقول: " من أحبني فليحبه، فليبلغ الشاهد الغائب " (1) ، ولولا كرامة رسول الله ما حدثت به أبدا (2) . وعندما قام الناس ليبياعوه، قال: أبياعكم على أن تسمعوا وتطيعوا وتسالمون من سالمته وتحاربون من حربته " (3) ، فاستجابوا وقالوا: ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة (4) .

وروي أن الحسن رضي الله عنه كتب إلى معاوية يدعو إلى الطاعة والجماعة وقال له: "... ولقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا وسلطان نبينا، وإن كانوا نوي فضيلة وسابقة في الإسلام، وأمسكنا عن منوالهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأخواب (5) ، في ذلك مغزوا يتلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما رأوا من إفساده. فاليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله ولا بفضل في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود. وأنت ابن حزب من الأخواب، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكتاب الله والله حسيبك، فسترد فتعلم لمن عقبى الدار. وبالله لتلقين عن قليل ربك، ثم ليجزينك بما قدمت يدك، وما الله بظلام للعبيد. إن عليا لما مضى لسبيله -رحمة الله عليه يوم قبض، ويوم من الله عليه بالإسلام، ويوم يبعث حيا -ولاني المسلمون الأمر بعده فأسأل الله أن يؤتينا في الدنيا الرائلة شيئا ينقصنا به في الآخرة مما عنده من كرامة، ولك في ذلك إن فعلته الحظ الجسيم، والصلاح للمسلمين، فدع التماذي في الباطل، وأدخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنك تعلم أنني أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل

= الحاكم (المستدرک 143 / 3 / 172 / 4)، ورواه الطبري في تاريخ الأمم 6 / 95 ، وابن أبي الحديد 4 / 696 .

(1) رواه أحمد وابن أبي شيبة وابن مندة والحاكم (كنز العمال 651 / 13)، (المستدرک 174 / 3).

(2) رواية أخرى للحاكم بها هذه الزيادة (المستدرک 174 / 3).

(3) الحاكم (المستدرک 173 / 3) الطوري 93 / 6.

(4) ابن أبي الحديد 697 / 4.

(5) (الأخواب هم الذين تخربوا وتظاهروا على قتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قريش وغطفان وبني مرة وبني أشجع وبني سليم وبني أسد في غزوة الخندق.

الصفحة 170

لأب حفيظ، ومن له قلب منيب. واتفق الله ودع البغي، واحقن دماء المسلمين، فوالله ما لك خرا في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقية فيه. وادخل في السلم والطاعة، ولا تتلوع الأمر أهله ومن هو أحق به منك ليطفئ الله النار (1) ، بذلك، ويجمع الكلمة، ويصلح ذات البين. وإن أنت أبيت إلا التماذي في غيئك سوت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو

خير الحاكمين". وأرسل الحسن هذه الرسالة مع حرب بن عبد الله الأردني (2).

فكتب معاوية إليه ومما جاء في رسالته... ذكرت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتتلوع الأمر بعده، وتغلبهم على أبيك، فصحت بتهمة أبي بكر وعمر الفاروق، وأبي عبيدة الأمين حوري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلحاء المهاجرين والأنصار. فكهت ذلك لك. إنك امرؤ عندنا وعند الناس غير الظنين، ولا المسئ، ولا اللئيم وأنا أحب لك القول السديد، والذكر الجميل. إن هذه الأمة لما اختلفت بعد نبيها لم تجهل فضلكم ولا سابقتكم ولا قابتكم من نبيكم، ولا مكانكم في الإسلام وأهله. فأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيها، ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار وغوهم من سائر الناس وعوامهم أن يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلاما، وأعلمها بالله وأحبها له وأقواها على أمر الله، فاختروا أبا بكر، وكان ذلك رأي نوي الدين والفضل والناظرين للأمة. فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة، ولم يكونوا متهمين، ولا فيما أتوا بالمخطئين ولورأى المسلمون أن فيكم من يغني غناه ويقوم مقامه، ويذب عن حريم الإسلام ذبه، ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبة عنه، ولكنهم عملوا في ذلك بمارأه صلاحا للإسلام وأهله، والله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيرا. وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصلح، والحال فيما بيني وبينك اليوم، مثل الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي

(1) للنائرة / العداوة والشحناء.

(2) ابن أبي الحديد 698 / 4.

الصفحة 171

صلى الله عليه وسلم فلو علمت أنك أضبط مني للوعية، وأحوط على هذه الأمة. وأحسن سياسة، وأقوى على جمع الأموال، وأكد للعدو لأجبتك إلى ما دعوتني إليه، ورأيتك لذلك أهلا، ولكن قد علمت أنني أطول منك ولاية، وأقدم منك بهذه الأمة تجربة، وأكبر منك سنا، فأنت أحق أن تجيبني إلى هذه المتولة التي سألتني، فادخل في طاعتي، ولك الأمر من بعدي...". قال جندب: فلما أتيت الحسن بكتاب معاوية قلت له: إن الرجل سائر إليك، فابدأه بالمسير حتى تقايله في أرضه وبلاده وعماله. فإما أن تقدر أنه ينقاد لك، فلا والله حتى رى منا أعظم من يوم صفين (1).

وفي رسالة معاوية رى أن القوم بعد الرسول صلى الله عليه وسلم عملوا في الخلافة بمارأه صلاحا للإسلام وأهله، ورى أن معاوية في زمن الحسن يحسبها بالأقدمية، فهو الأطول ولاية والأقوى على جميع الأموال. ولا نوي لماذا لم يضع عنوان الأطول إسلاما أمام عينيه وهو يقاتل عليا؟ ولماذا رفع عنوان الأقدمية هنا بينما كان هناك يرفع قميص عثمان؟ إن معاوية وإعلامه يبدلون أعلامهم وفقا لمتطلبات كل ساحة. ويدخرون لكل زمان خدعة.

2 - القتال بالذهب والفضة:

عندما بعث معاوية إلى الحسن أن الخلافة له من بعده، كان الحسن ينظر إلى هذا الوعد من نافذة أحاديث الإخبار بالغيب التي وضعها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في داوة ذهن أهل البيت. ولم يكن الحسن يعبأ كثيرا بما يقوله معاوية، نظرا لوزنه بمعيار هذه الأحاديث التي تخبر عن المستقبل.

وروي أن الحسن كتب إلى معاوية: أما بعد فقد وصل إلى كتابك، تذكر فيه ما ذكرت، فتركت جوابك خشية البغي مني

عليك، وبالله أعوذ من ذلك فاتبع الحق تعلم أني من أهله، وعلي إثم أن أقول

(1) ابن أبي الحديد 699 / 4.

الصفحة 172

فأكذب... " (1)

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية كتب إلى عماله "... إن الله بلطفه وحسن صنعه، أتاح لعلي بن أبي طالب رجلا من عباده، فاغتاله فقتله، فترك أصحابه متوقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب أشواقهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم.

فأقبلوا إلى حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم. فقد أصبتم بحمد الله الثأر، وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي والعدوان... " (2)

فلما اجتمعت العساكر إلى معاوية سار بها قاصدا العواق. وبلغ الحسن خوه ومسوه نحوه. وأنه قد بلغ

جسر منبج، فتحرك عند ذلك، وبعث حجر بن عدي، فأمر العمال والناس بالتهيؤ للمسير. ونادي المنادي: الصلاة جامعة.

فخرج الحسن رضي الله عنه، وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن الله كتب الجهاد على خلقه. وسماه

كوهها، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: اصبروا إن الله مع الصابرين. فليستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما

تكوهون، بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا لزمنا على المسير إليه فتحرك لذلك، أخرجوا رحمكم الله إلى معسركم بالنخيلة حتى

ننظر وتظروا.

ووزى وتروا (3)

وكان في كلامه يتخوف خذلان الناس له. وبعد أن تكلم لم يتكلم أحد من الناس ولا أجابه بحرف. فلما رأى ذلك عدي بن

حاتم قام فقال: أنا ابن حاتم، سبحان الله، ما أقبح هذا المقام! ألا تحييون إمامكم وابن بنت نبيكم؟ أين خطباء مضر؟ أين

المسلمون؟ أين الخواصون من أهل المصر الذين ألسنتهم كالمخزق (4) في الدعة، فإذا جد الجد فرواغون كالثعالب؟ أما

تخافون مقت الله

(1) ابن أبي الحديد 701 / 4.

(2) ابن أبي الحديد 701 / 4.

(3) المصدر السابق 701 / 4.

(4) المصدر السابق 702 / 4.

الصفحة 173

ولا عيبها وعلوها؟ ثم استقبل الحسن بوجهه فقال: أصاب الله بك الراشد، وجنبتك المكروه، ووفقك لما تحمد ورده وصوره،

قد سمعنا مقاتلك، وانتهينا إلى أمرك، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت ومارأيت. وهذا وجهي إلى معسوكي، فمن أحب أن

(1)

وكان عدي بن حاتم أول الناس عسكر، وقام قيس بن سعد بن عبادة، وزباد بن صعصعة وغيرهما فأنبوا الناس ولاموهم وحرضوهم. وخوج الناس فعسكروا، ونشطوا للخروج، وسار الحسن في عسكوه ⁽²⁾ ، وفي الوقت الذي كان الحسن يخاف فيه من خذلان الناس له، كان معاوية يتحرك ببيت ماله المملوء بالذهب والفضة. ولقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي في المال " ⁽³⁾ ، وقال: " إن هذا الدينار والروهم أهلكا من قبلكم وهما مهلكاكم " ⁽⁴⁾ . وكان معاوية يريد أن يشق صف الحسن قبل القتال بسكين الدينار والروهم. وروى الحاكم أن عبد الله بن جعفر كان على مقدمة الحسن في عشوة آلاف، فأسله معاوية وضمن له ألف ألف روهم. إذا سار إلى الحجاز وخوج من الساحة، فأجابه إلى ذلك. وتوق الجند الذين كانوا مع عبد الله بن جعفر، وانضم البعض منهم إلى قوات قيس بن سعد ⁽⁵⁾ الذي كان يعتبر القوة الضاربة في جيش الحسن.

وبعد أن فتت معاوية جانب من جوانب الحسن، بدأ يتوغل لقوات قيس بن سعد. روى الطوي: حين تول الحسن عليه السلام المدائن بعث قيس بن سعد على مقدمته في اثني عشر ألفاً، وأقبل معاوية في أهل الشام حتى تول مسكن. فبينما الحسن في المدائن إذا نادى مناد في العسكر: ألا إن قيس بن سعد قد

(1) المصدر السابق 702 / 4 .

(2) رواه الترمذي وصححه (الجامع 569 / 4).

(3) رواه أبو دلوود (كنز العمال 191 / 4).

(4) الحاكم (المستدرک 674 / 3).

(5) الطوي 92 / 6، ابن أبي الحديد 702 / 4.

الصفحة 174

قتل، فانفروا فنفروا ونهوا سوادق الحسن عليه السلام، حتى نزعوه بساطا كان تحته ⁽¹⁾ . وتوق الناس من حول الحسن بعد إذاعة بيان يقول أن قيسا قد قتل، وهذا باطل، ولم يقف الأمر بعد إذاعة البيان عند سرقه متاع الحسن. وإنما حدث ما لم يكن في الحساب، فهناك من أشار بأسر الحسن وتقديمه إلى معاوية ليأخذوا من معاوية الأمان ⁽²⁾ . وهناك من تقدم من الحسن وطعنه بالمعول فشق فخذة ⁽³⁾ .

فهذا الهياج داخل المعسكر كان هدفه إحداث أكبر الخسائر في القيادة بواسطة الغوغاء، فالحسن كان الهدف. وأهل الشام لهم خوات في دس العيون.

ولقد روي أن معاوية دس رجلا من حمير إلى الكوفة، ورجلا من بني القين إلى البصرة. وأموهما أن يكتبا إليه أخبار الحسن ⁽⁴⁾ وليس ببعيد أن تكون هذه الإذاعة التي أدت إلى خروج الحسن جريحا من أرض المعركة من صنع هؤلاء. وروى ابن أبي الحديد: أن الحسن عليه السلام حمل على سيرير ودخل إلى المدائن، وبها سعيد بن مسعود واليا عليها من

قبله، فأقام عنده يعالج جرحه ⁽⁵⁾ ، وعندما جن الليل أرسل معاوية إلى القادة والجنود يخوهم بأن الحسن راسله في الصلح وهو مسلم الأمر إليه. وأغواهم بالمال، فانسل بعضهم ليلاً ودخلوا معسكر معاوية ⁽⁶⁾ ، ولم يتبق داخل معسكر الحسن سوى قوات قيس بن سعد وبعض الصحابة والتابعين الذين انفض عنهم الناس، بينما على الجانب الآخر تقف قوات الشام التي كسبت معركة ليس بما يملكون من رجال وإنما بما يملكون من ذهب وفضة. ولم يظهر يريق الذهب فجأة، وإنما كانت له أرضية قديمة دق فيها أوتاده، وحول هذه الأوتاد لا تسمع صوتاً توتعش خوفاً ويقول:

(1) الطبري 92 / 6.

(2) الطواني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 172 / 9).

(3) ابن أبي الحديد 697 / 4.

(4) المصدر السابق 703 / 4.

(5) المصدر السابق 704 / 4.

(6) تم تخويجه من قبل.

الصفحة 175

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي في المال "، فما بالك إذا كانت الأيدي التي تدفع المال هي نفسها فتنة حذر الرسول منها! لم يتبين الناس الفتنة التي تعطي فتنة، ولم يضعوا في اعتبلهم ماذا سيترتب على ذلك. والأهم من ذلك أنهم أحبوا ما نهوا عنه، وبغضوا وانفضوا عن ما أمروا به. ألم يقل النبي في الحسن والحسين " من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني " ⁽¹⁾ .!

وروي أن الحسن عندما تماثل للشفاء كان يحث الناس كي يتصلوا لمعاوية، ومن خطب الحسن رضي الله عنه في بعض مقاماته أنه قال: " نحن حزب الله المفلحون وعروة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقبون، وأهل بيته الطاهرون الطيبون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم والثاني كتاب الله فيه تفصيل كل شيء، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعول عليه في كل شيء، لا يخطئنا تأويله، بل ننتيقن حقائقه، فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولي الأمر مقرونة... " فإن تنزل عثم في شيء فدوه إلى الله والرسول "، " ولوروه إلى الرسول وإلى أولي الأمر لعلمه الذين يستنبطونه منهم " ⁽²⁾ ، وأحزركم الاصغاء لهتاف الشيطان، إنه لكم عدو مبين، فتكونون كأولياؤه قال لهم، " لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني وئ منكم إني رأى ما لا ترون " ⁽³⁾ ،
(4) وظل صوت الحسن يبوي في أعماق السكون، في عالم لا نبض فيه ولا ومض ولا صوت.

وبدأ معاوية يتحسس الساحة من قريب ومن بعيد. وروي أنه بعث إلى الحسن بصحيفة بيضاء مختوم على أسفلها، وكتب

إليه أن اشوط في هذه

(1) تم تخريجه من قبل.

(2) سورة النساء: الآية 59 - 83.

(3) سورة الأنفال: الآية 48.

(4) مروج الذهب 480 / 2.

الصفحة 176

الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت⁽¹⁾ وعلى أن تكون الخلافة للحسن من بعده. وعندما وصلت الرسالة، قام الحسن خطيباً وقال: إن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة. فإن أردتم الموت رددناه عليه، وحاكمناه إلى الله عز وجل بظبا السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا، فناده الناس من كل جانب: البقية البقية وإمضاء الصلح⁽²⁾.

وهنا قال الحسن رضي الله عنه كلمته المشهورة: يا أهل العواق إنه سخي بنفسي عنكم ثلاث قتلتم أبي، وطعنكم إياي وانتهابكم متاعي⁽³⁾. فالذين تخاذلوا عن الإمام علي وقتلوه، لا بد لهم من عقاب في بطن الغيب. فلما جاء الحسن آخذاً بأسباب النجاة، لم يتوكله وإنما طعنوه وسرقوا متاعه، فأبي جنود هؤلاء الذين احترفوا ظلم أئمتهم؟ ثم إذا كانوا قد سرقوا متاعاً بواهم معدودة، فكيف يكون الحال إذا وضع الذهب في طريقهم وأذن لهم أن يأخونه نظير خدمة ما يقدمونها إلى جهاز ما.

وبدأ الحسن يتوكلهم وما يريدون، فلقد اشتد عليهم عند البيعة أن يسموا، وأن يطيعوا وأن يحلوا من حرب ويسالموا من سالم. ولكنهم لم يسموا ولم يطيعوا وسالموا من حرب من قبل أن تبدأ الحرب، وروي أن الحسن رضي الله عنه كتب شروطاً كثيرة على الصحيفة البيضاء المختوم على أسفلها، وهذه الشروط حجة بذاتها على أصحاب المقاعد الأولى، حتى لا يكون لهم على الله حجة. وبعث الحسن إلى معاوية يطلب الصلح، وكتب إلى قيس بن سعد وكان على مقدمته في اثني عشر ألفاً، يأمره بالدخول في طاعة معاوية، فقام قيس في الناس فقال: يا أيها الناس اختلوا الدخول في طاعة إمام ضلالة أو القتال مع غير إمام. قالوا: لا بل نختار أن ندخل في طاعة إمام ضلالة، فبايعوا معاوية، وانصرف عنهم قيس بن

(1) الطبري 93 / 6.

(2) الانحافات الكوي / للمؤلف ص 478.

(3) الطوي 92 / 6.

الصفحة 177

سعد⁽¹⁾ وروي: لما تم الصلح بين الحسن ومعاوية أرسل إلى قيس بن سعد يدعو إلى البيعة، فقال: إني حلفت ألا ألقاه إلا وبينه وبينه الومح أو السيف، فأمر معاوية بومح وسيف فوضعا بينه وبينه ليبر يمينه، وقال له: أتبايع يا قيس؟ قال: نعم. ووضع يده على فخذه ولم يمدها إلى معاوية، فجاء معاوية من سروره، وأكب على قيس حتى مسح يده على يده ومارفَع إليه قيس يده⁽²⁾، ثم أمر معاوية الحسن أن يخطب. فقام فخطب فقال في خطبته: إنما الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه، وليس الخليفة من سار بالجور، ذلك رجل ملك ملكاً تمتع به قليلاً ثم تتخمه، تتقطع لذته، وتبقى تبعته وإن أوري لعله فتنة

(3) (4)

3 - الغدر:

قبل دخول معاوية الكوفة ظهر الغدر... روي أنه تزل النخيلة، وجمع الناس بها فخطبهم وقال: ألا إن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به. قال أبو إسحاق: وكان والله غاورا⁽⁵⁾ فمعاوية لم يدخل الكوفة عفوة، ولم يملك ما حولها قسوة، ولكن دخل بعهود ومواثيق. وما كان لمعاوية أن يلغي ما عاهد عليه إلا بعد أن تأكد أن المبايعة أصبحت في عنق كثير من العامة. وبعد أن تأكد أن الموقف العسكري في صالحه. وفوق كل هذا فهو ألغى شروط الحسن لا شروط العامة، وكان يعلم أن الحسن لو وقف أمام الناس يدعوهم للقتال من أجل أن يوفي معاوية بالشروط، فإن العامة ستفوق عن الحسن مع أول كيس من الذهب يلقيه معاوية على رؤوسهم. وروي أن الحسن عندما التقى بمعاوية وسأله أن يعطيه الشروط التي شرط في السجل الذي ختم

(1) الطبري 92 / 6.

(2) ابن أبي الحديد 707 / 4.

(3) سورة الأنبياء: الآية 111.

(4) ابن أبي الحديد 707 / 4.

(5) المصدر السابق 706 / 4.

معاوية أسفله، لم يعط معاوية أي اهتمام لما تعاهد عليه وأبى أن ينفذ للحسن من الشروط شيئاً⁽¹⁾.

ولم تكن هذه المفاجأة الوحيدة قبل دخول الكوفة، فلقد روي عن سعيد بن سويد. قال: صلى بنا معاوية بالنخيلة الجمعة ثم خطبنا فقال: والله إنني ما قاتلتكم لتصلوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجوا، ولا لتكفوا، إنكم لتفعلون ذلك. وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم. وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كلوهن⁽²⁾.

وكان عبد الرحمن بن شريك إذا حدث بذلك يقول: هذا والله هو التهتك⁽³⁾. ثم سار موكب معاوية ولم يعترض معترض على أي بيان أذاعه، وتوجه نحو الكوفة. وعن حبيب بن أبي ثابت قال: خطب معاوية بالكوفة حين دخلها، فذكر عليا عليه السلام فنال منه ومن الحسن. فقام الحسن وقال: أيها الذاكر عليا، أنا الحسن وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمي فاطمة وأمك هند، وجددي رسول الله وجدك عتبة بن ربيعة، وجدتي خديجة، وجدتك قتيلة، فلعن الله أحمنا ذكوا، والأمننا حسبا، وشرنا قديما وحديثا، وأقدمنا كفا ونفاقا.

فقالت طوائف من أهل المسجد: آمين⁽⁴⁾. قال الفضل: قال يحيى بن معين: وأنا أقول: آمين. وقال أبو الفوج: قال أبو

عبيد: قال الفضل: وأنا أقول: " آمين " ويقول علي بن الحسين الأصفهاني: آمين. وقال عبد الحميد بن أبي الحديد: آمين. قلت: ويقول سعيد أيوب مصنف هذا الكتاب: آمين.

وقال ابن عبدربه: قعد معاوية بالكوفة يبايع الناس على الواءة من علي بن أبي طالب (5) . فأين الشروط؟ أين الوفاء بالوعد؟ أين الأمانة؟ وهل كل من

(1) الطبري 95 / 6 .

(2) ابن أبي الحديد 706 / 4 ، البداية والنهاية 90 / 5 .

(3) ابن أبي الحديد 706 / 4 .

(4) ابن أبي الحديد 706 / 4 .

(5) العقد الفريد 70 / 1 .

الصفحة 179

خاصم فجر؟ وتوجد رواية في البخري يستشف منها أصحاب العقول والأفهام أقول معاوية في الكوفة، فعن مسروق قال: دخلنا على عبد الله بن عمرو حين قدم معاوية إلى الكوفة، فذكر عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لم يكن فاحشا ولا متفحشا. وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " إن من أخيركم أحسنكم خلقا "، ترى، ما الذي دعى عبد الله أن يقول ذلك؟ وهل لهذا القول علاقة بالإعلام الأموي وقتئذ؟

وروي أن الحسن رضي الله عنه خرج إلى مسجد الكوفة فقال: يا أهل الكوفة اتقوا الله في جوانكم وضيقاتكم، وفي أهل البيت نبيكم صلى الله عليه وسلم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهرا (1) .

وروى المدائني أن أصحاب الحسن اجتمعوا عنده، فقال المسيب بن نجبة للحسن رضي الله عنه: ما ينقضي عجبني منك أعطاك معاوية أمرا فيما بينك وبينه، ثم قال: ما قد سمعت، والله ما أراد بها غيرك. قال الحسن: فما ترى؟ قال: رى أن ترجع إلى ما كنت عليه، فقد نقض ما كان بينه وبينك. فقال: يا مسيب. إني لو أردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء، ولا أثبت عند الحرب مني، ولكني أردت صلاحكم... فلضوا بقدر الله وقضائه، حتى يستريح بر، أو يستراح من فاجر (2) .

وروي أن حجر بن عدي قال للحسن: لوددت أنك كنت من قبل هذا اليوم، ولم يكن ما كان. إنارجعنا راغمين بما كرهنا، ورجعوا مسرورين بما أحوا. فقال الحسن: يا حجر، ليس كل الناس يحب ما تحب ولا رأيه كأيك وما فعلت ما فعلت إلا إبقاء عليك، والله كل يوم في شأن (3) ، وروي أن سفيان بن أبي ليلى النهدي دخل عليه فقال: السلام عليك يا مذل المؤمنين. قال الحسن: اجلس ووحمك الله. إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رفع له ملك

(1) الطبري 95 / 6 .

(2) ابن أبي الحديد 686 / 4 .

(3) (الحديث روي بسند صحيح، رواه الحاكم والترمذي والبيهقي وقد خرجناه فيما سبق .

بني أمية، فنظر إليه يعلون منوره واحدا فواحدا فشق ذلك عليه ⁽¹⁾ . فأقول الله في ذلك وأنا قال له: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن) ⁽²⁾ ، وسمعت عليا أبي رحمه الله يقول سيلبي أمر هذه الأمة رجل واسع البلعوم كبير البطن ⁽³⁾ . فسألته: من هو؟ فقال: معاوية، وقال لي:

إن القرآن قد نطق بملك بني أمية ومدتهم. قال تعالى: (ليلة القدر خير من ألف شهر) ⁽⁴⁾ . قال أبي: هذه ملك بني أمية ⁽⁵⁾ . لقد أخذ الحسن رضي الله عنه بالأسباب، وليس معنى أن القرآن قد أخبر بأن أبا لهب لن يؤمن أن الدعوة لا تشمل أبا لهب، فكل حرف يسمعه وكل آية في نفسه وفي الكون حجة عليه. وكذلك أهل الشام ليس معنى أنهم سيجلسون على المقاعد الأولى في الدنيا، أن الدعوة لا تتوجه إليهم لتخوهم بأحوال الدنيا وأخبار الآخرة. والله في عبادته شؤون. وخوج الحسن رضي الله عنه من الكوفة فلما صار بدير هند نظر إلى الكوفة وقال:

ولا عن قلبي فرقت دار معاشري * هم المانعون خوزتي وذملي

ثم سار إلى المدينة ⁽⁶⁾ بعد أن أنقذ الكوفة من مجزرة كانت ستؤكل فيها كثير من الأكباد، وروي أنه قال في أهل العراق: "إنهم قوم لا يرجعون إلى الحق، ولا يقصرون عن باطل، أما إنني لست أخشاهم على نفسي، ولكن أخشاهم على ذاك - وأشار إلى الحسين ⁽⁷⁾ ."

(1) ابن أبي الحديد 686 / 4.

(2) (سورة الإساءة: الآية 60.

(3) (الحديث رواه غير واحد منهم نعيم بن حماد عن الحسن (كنز العمال 349 / 11).

والديلمي (الخصائص الكوى 199 / 2).

(4) (الحديث روي بسند صحيح كل من الحاكم والتومذي والبيهقي وابن جرير وغوهم. وقد خرجناه فيما مضى.

(5) ابن أبي الحديد 686 / 4.

(6) ابن أبي الحديد 687 / 4.

(7) (رواه الطواني ورجاله ثقات (الزوائد 244 / 6).

4 - وفاء وحقائق على الطريق:

كان معاوية في الكوفة، وعلى امتداد الطريق من الكوفة إلى المدينة يبعث إلى كل من يعرفه ويسألهم عن علي بن أبي طالب. وكان يريد من وراء ذلك الوقوف على أسباب حب الناس لعلي ليقوم بعد ذلك بوضع منهج ثقافي يتصدى لعلي بعد وفاته. ومن الذين التقى بهم معاوية خالد بن المعمر. قال معاوية له:

كيف حبك لعلي؟ قال: أحبه لثلاث خصال: على حلمه إذا غضب، وعلى صدقه إذا قال، وعلى وفائه إذا وعد ⁽¹⁾ . وروي

أنه بعث إلى امرأة يقال لها درمية الحجونية وقال لها: أتري لم بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله، قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت عليا وأبغضتني وواليتي وعاديتني؟ قالت: أو تعفيني، قال: لا أعفيك. قالت: أما إذا أبيت، فإني أحببت عليا على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتالك من هو أولى منك بالأمر، وطلبتك ما ليس لك بحق. وواليت عليا على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم تشير إلى قوله: من كنت مولاه... - وحببه المساكين وحكمك بالهوى. فقال لها: يا هذه، هل رأيت عليا؟ قالت: أي والله. فقال: فكيف رأيتته قالت: رأيتته والله لم يفتته الملك الذي فتتك. ولم تشغله النعمة التي شغلتك، فقال: فهل سمعت كلامه؟ قالت: نعم والله، فكان يجلو القلب من العمى كما يجلو الزيت (2) صدأ الطست .

وروي أنه بعث إلى امرأة تدعى الزرقاء بنت عدي. فعندما دخلت عليه قال: مرحبا وأهلا. كيف كنت في مسوك؟ أتترين فيم بعثت إليك؟ قالت: إني لي بعلم ما لم أعلم! قال: ألست الراكبة الجمل والواقفة بين الصفين يوم صفين تحضين على القتال، وتوقدين الحرب، فما حملك على ذلك؟ فقالت: يا معاوية مات الرأس، وبتر الذنب، ولم يعد ما ذهب، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث

(1) العقد الفريد 282 / 2.

(2) العقد الفريد 115 / 2.

الصفحة 182

بعده الأمر. قال: صدقت. أتحفظين كلامك يوم صفين؟ فقالت: لا. قال: لكني أحفظه. الله أبوك حين تقولين: أيها الناس، إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلايب الظلم، وجلت بكم عن قصد المحجة، فيا لها من فتنة عمياء صماء بكماء، لا تسمع لناعها ولا تتساق لقائدها. إن المصباح لا يضيء في الشمس، ولا تنير الكواكب مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد، فصوا يا معشر المهاجرين والأنصار على الغضض. فكأن قد اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة العدل، دفع الحق باطله، فلا تجهلن أحد فيقول: كيف العدل وأنى ليقضي الله أمرا كان مفعولا. ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، ولهذا اليوم ما بعده، والصبر خير في الأمور عاقبا...

ثم قال معاوية: والله يا زرقاء لقد شوكت عليا في كل دم سفكه. فقالت: أحسن الله بشلتك، وأدام سلامتك، فمثلك بشر بخير وسر جليسه. قال أو يسوك ذلك؟ فقالت: نعم والله. لقد سررت بالخبر فأنى لي بتصديق الفعل.

(1)

قال معاوية: والله لوفؤك له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته .
وروي أنه أمر بأن تحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سواقة. وعندما حضرت قال معاوية: أيكم يحفظ كلامها؟ فقال رجل: أنا أحفظ بعض كلامها.

كانت تقول: أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم. إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل، وبين السبيل،

ورفع العلم، ولم يدعكم في عمياء مبهمة، ولا سوداء - مدلهمة. فأين تريدون رحمكم الله. أفرأ عن أمير المؤمنين. أم فرأ من الزحف. أم رغبة عن الإسلام. أم لتدادا عن الحق. أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول: (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم). ثم رفعت رأسها إلى السماء يومئذ وقالت: اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وببيدك يارب رمة القلوب، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، ورُدِّد الحق إلى أهله. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والوطني التقي، والصديق الأكبر،

(1) العقد الفريد 108 / 2.

الصفحة 183

إنها إحن بديرة، وأحقاد جاهلية، وضغائن أودية. وثب بها واثب حين الغفلة، ليبرك ثرات بني عبد شمس. ثم قالت يومئذ قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون. صوا يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصوة من ربكم وثبات من دينكم. فكأنني بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفة فوت من قسورة، لا تنوي أين يسلك بها من فجاج الأرض. باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصوة بالعمى، وعماء قليل ليصبحن نادمين حين تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة ولات حين مناص. إنه من ضل والله عن الحق وقع في الباطل. ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها، واستطابوا الآخرة فسعوا لها، فالله الله أيها الناس، قبل أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان. فإلى أين تريدون رحمكم الله؟

عن ابن عم رسول الله صلى عليه وسلم، وصورة وأبي سبطيه، خلق من طينته وتوع من نبعته (1)، وخصه بسوه (2)، وجعله باب مدينته (3)، وأبان ببغضه المنافقين (4). وها هو ذا مغلق السهام، ومكسر الأصنام (5)، صلى والناس مشركون (6) - وأطاع والناس كلهم،، وقتل مبارزي بدر، وأفنى أهل أحد، وهزم الأخواب، وقتل الله به أهل خيبر (7)، مفوق به جمع هوزان، فيا لها

(1) تقصد قول النبي: "إن الله تعالى جعل ذريتي في صلب علي"، رواه الطبراني عن جابر وابن عباس (كنز 600 / 11).

(2) تقصد حديث النهوي وغره في حديث النهوي صحيح رواه الترمذي (الجامع 639 / 5).

(3) تقصد حديث "أنا مدينة العلم وعلي بابها" وهو حديث صحيح وله طوق ضعيفة. وركز القوم على طوقه الضعيفة.

(4) تقصد حديث "لا يبغضه إلا منافق" ورواه مسلم وغره.

(5) تقصد حديث تكسره الأصنام مع رسول الله. ورواه البخاري.

(6) تقصد حديث "أنا أول من أسلم" رواه الترمذي وصححه (الجامع 642 / 5) وحديث "أنا أول من صلى" رواه الإمام

أحمد ورجاله ثقات (الزوائد 103 / 9).

(7) تقصد حديث "لأدفعن الراية غدا إلى رجل يحبه الله ورسوله" والحديث رواه البخاري وأحمد (البخاري 166 / 2)



من وقائع زرعت في قلوب نفاقا وردة وشفاقا - وزادت المؤمنين إيماناً.

فقال معاوية: يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي، ولو قتلتك ما خرجت في ذلك. قالت: والله ما يسوعني في أن يجري قتلي على يدي من يسعدني الله بشقائقه⁽¹⁾.

وروي أن عكرشة بنت الأطرش بن رواحة دخلت على معاوية متوكئة على عكرها، فسلمت عليه بالخلافة ثم جلست. فقال لها معاوية: الآن يا عكرشة صوت عندك أمير المؤمنين. قالت: نعم إذ لا علي حي، فقال: ألسنت المنقلدة حمائل السيف بصفين، وأنت واقفة بين الصفين تقولين: أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم. إن الجنة لا يرحل عنها من قطنها، ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلها، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تتصوم همومها، وكونوا قوما مستبصرين في دينهم، مستظهري بالصبر على طلب حقهم. إن معاوية دلف إليكم العرب غلف القلوب. لا يفقهون الإيمان ولا يرون ما الحكمة. دعاهم بالدنيا فأجابوه واستدعاهم إلى الباطل فليوه. ثم قال:

فكأنني رَأَاك على عصاك هذه، وقد انكفأ عليك العسكوان يقولون: هذه عكرشة بنت الأطرش، فإن كدت لتقتلين أهل الشام لولا قدر الله، وكان أمر الله قروا مقنورا، فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكن تسؤكن"، وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يحب إعادته. قال: صدقت فأذكوي حاجتك. قالت: إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فتود على قوائنا، وإنا فقدنا ذلك، فقال معاوية: هيهات يا أهل العواق نبهكم علي بن أبي طالب فلن تطاقوا⁽²⁾.

لم يكن سهلاً على معاوية أن يتلقى صفعات الحقائق من النساء المسلمات، ولكن معاوية عندما يستمع فإنما يستمع لهدف. ولقد اختار من النساء التي تشتهر بين قومها بالبلاغة، واختار أن يسمع من النساء، لأن الكلمات

(1) العقد الفريد 119 / 2.

(2) العقد الفريد 112 / 2.

ستخرج بلا خوف من سيوف وقيود. وبعد أن استمع، تحرك ركبته إلى المدينة.

وروي أنه لما قدم المدينة، تلقته رجال من وجه قريش فقالوا: الحمد لله الذي أعز نصوك، وأعلا أمرك، فمارد عليهم جواباً حتى دخل المدينة. فقصد المسجد ثم قال: أما بعد فإنني والله ما وليت أمركم حين وليته وأنا أعلم أنكم لا تسرون ولايتي ولا تحبونها، وإنني لعالم بما في نفوسكم من ذلك، ولكني خالستكم بسيفي هذا مخالسة، ولقد رمت نفسي على عمل ابن أبي قحافة، فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه. وأردتها على عمل ابن الخطاب، فكانت أشد نفراً وأعظم هرباً من ذلك. وحاولتها على مثل سنيات عثمان فأبى علي. وأين مثل هؤلاء؟ ومن يقدر على أعمالهم؟ هيهات أن يبرك فضلهم أحد ممن بعدهم. غير أنني سلكت بها طريقاً لي فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكن فيه مواكبة حسنة، ما استقامت السورة وحسنت الطاعة. فإن لم

تجدوني خيركم فأنا خير لكم. والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فلضوا مني ببعضه... وإياكم والفتنة فلا تهوا بها... (1)

وأهم معالم الخطاب أن لكل خليفة طريقة، وبما أن معاوية لا يدرك فضل الذين سبقوه رضوان الله عليهم، فإنه ستكون له سنة خاصة به فيها منفعة له ولهم. وفي جميع الأحوال فهو قد وضع نفسه في دائرة الخير " فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم "، وفي جميع الأحوال فهو في دائرة الحق " وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فلضوا مني ببعضه "، وفي جميع الأحوال فإن هذا هو الدين الذين قول به جبريل الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم.

وروي أن معاوية لقي أبا قتادة الأنصلي في المدينة فقال له: تلقاني الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار. فقال: لم يكن لنا جواب. قال: فأين النواضح؟

فقال: عقروناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر. ثم قال: إن النبي صلى الله عليه

(1) البداية والنهاية 132 / 8.

الصفحة 186

وآله وسلم قال لنا: إنكم سترون بعدي آفة. فقال معاوية: فما أمركم؟ قال:

أمرنا أن نصبر. فقال معاوية: فاصبروا وعندما بلغ عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ذلك قال:

ألا أبلغ معاوية بن حرب * أمير المؤمنين نبأ كلامي

(1) فإننا صابرون ومنظروكم * إلى يوم التغابن والخصام

وروي أنا أبا أيوب الأنصلي قال لمعاوية: أنبأني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سنوى بعده آفة. فقال معاوية: فيم

أمركم. قال: أمرنا أن نصبر.

فقال: اصبروا إذا (2) ، وروي أن مروان أقبل فوجد أبا أيوب الأنصلي عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم واضعاً وجهه

على القبر ويبكي، فقال له مروان:

أتوري ما تصنع، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على

(3) الدين إذا وليه غير أهله .

وروي أن أروى بنت الحرث بن عبد المطلب دخلت على معاوية، وهي عجوز كبيرة، فقالت: يا ابن أخي، لقد كفوت يد

النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة، وتسميت بغير اسمك، وأخذت غير حقاك من غير بلاء كان منك، ولا من آباتك ولا سابقة في الإسلام، بعد أن كفوتم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأتعس الله منكم الجود، وأضوع منكم الخود، ورد الحق إلى أهله

ولو كره المشركون. وكانت كلمتها هي العليا ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور، فوليتم علينا بعده تحتجون بؤابتكم من

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ونحن أقرب إليه منكم، وأولى بهذا الأمر، فكنا فيكم بمقولة بني إسرائيل في آل فوعون.

وكان علي بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا صلى الله عليه

- (2) رواه الطواني وقال الهيثمي رواه الطواني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح (الزوائد 323 / 9).
- (3) رواه الطواني وقال الهيثمي فيه كثير بن زيد وثقه أحمد وغوه (الزوائد 245 / 5) ورواه الحاكم وأوه الذهبي (المستترك 515 / 4) ورواه أحمد (الفتح الرباني 32 / 23).

الصفحة 187

وسلم بمتولة هارون من موسى، فغايبتنا الجنة، وغايبتكم النار، فقال لها عمرو بن العاص: كفى أيتها العجوز الضالة، واقصوي من قولك مع ذهاب عقلك. إذ لا تجوز شهادتك وحدك. فقالت له: وأنت يا ابن النابغة تتكلم، وأمك كانت أشهر امراة تغني بمكة وآخذهن الأجرة. ادعاك خمسة نفس من قريش، فسألت أمك عنهم فقالت: كلهم أتى فانظروا أشبههم به فالحقوه به، فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به. فقال مروان: كفى أيتها العجوز واقصدي لما جئت له. فقالت: وأنت أيضا يا ابن الزرقاء تتكلم. ثم التفتت إلى معاوية فقالت: والله ما جرأ علي هؤلاء غيرك. فإن أمك القائلة في قتل حنزة:

نحن جزيناكم بيوم بدر * والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان لي عن عتبة من صبر * وشكر وحشي علي دهوي
حتى ترم أعظمي في قروي

فأجابتها بنت عمي وهي تقول:

خزيت في بدر وبعد بدر * يا بنة جبار عظيم الكفر
فقال معاوية: عفا الله عما سلف، هات حاجتك. قالت: ما لي إليك حاجة وخوجت عنه (1)، وروي أن سحنة بن عريص قال لمعاوية: أنشدتك الله يا معاوية أما تذكر يا معاوية لما كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء علي بن أبي طالب، فاستقبله النبي صلى الله عليه وسلم وقال: قاتل الله من يقاوتك وعادي من يعاديك، فقطع عليه معاوية حديثه وأخذ معه في حديث آخر (2).

مازلنا نرى الأحداث ومعاوية في المدينة، ولم يبق أمامنا إلا أن نوصده عند بيت عثمان الذي كان قميصه لافتة كوى عند بداية الأحداث. روي أن وائلة صحابي رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على معاوية. فقال له معاوية:

(2) قال في الإصابة رواه ابن شيبه (الإصابة 94 / 3).

الصفحة 188

ألست من قتلة عثمان؟ قال: لا ولكني ممن حضوه فلم ينصوه. فقال: وما منعك من نصوه؟ قال: لم تنصوه المهاجرون والأنصار. فقال معاوية: أما لقد كان حقه واجب عليهم أن ينصروه. قال: فما منعك يا أمير المؤمنين من نصوه ومعك أهل

الشام؟ فقال: أما طلبي بدمه نعوة له؟ فضحك أبو الطفيل ثم قال: أنت وعثمان كما قال الشاعر:

لا ألفينك بعد الموت تندبني * وفي حياتي ما زودتني زادا⁽¹⁾

وروي أن معاوية عندما دنا إلى باب دار عثمان بن عفان صاحت عائشة بنت عثمان وندبت أباهما. فقال لها معاوية: يا بنت أخي، إن الناس أعطونا سلطاننا، فأظهرنا لهم حلما تحته غضب. وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، فبعناهم هذا بهذا، وباعونا هذا بهذا، فإن أعطيناهم غير ما اشتروا منا، شحوا علينا بحقنا وغمطناهم بحقهم. ومع كل إنسان منهم شيعة، وهو يرى مكان شيعته. فإن نكثناهم نكثوا بنا، ثم لا نوري أتكون لنا الدائرة أم علينا. وأن تكوني ابنة عثمان أمير المؤمنين. أحب إلي أن تكوني أمة من إماء المسلمين. ونعم الخلف أنا لك بعد أبيك⁽²⁾.

وهكذا اندثرت لافتة " قميص عثمان " بعد أن حققت أهدافها، وأصبح معاوية نعم الخلف لأبناء عثمان بعد أبيهم. وعلى امتداد الطويق من الكوفة إلى المدينة، وضع معاوية يده على حقائق منها أن حب علي بن أبي طالب في القلوب، وأن تعاليمه راسخة رسوخ الجبال، ولن يكون من السهل انفراد الحكام ببيوت المال، وأن حقه واضح ومترلته من الواسول لا تحتاج إلى بيان طويل.

وفوق كل هذا علم معاوية أن تزيخه الأموي تزيخ مكشوف أمام المهاجرين والأنصار، وأن كل ما ادعاه في حربه مع علي أصبح مفضوحا على ساحة المدينة وما حولها. وأما هذا وغوه، أقدم معاوية على سياسة يتم من خلالها التعنيم على دائرة الطهر، وفي الوقت نفسه تصنع له تزيخ.

(1) تاريخ الخلفاء 187 / 1.

(2) البداية والنهاية 133 / 8.

5 - نظرات في مقعد جديد:

من الشام بدأ معاوية في إبرة شؤون الخلافة وروي أنه قال على منبر دمشق: " أيها الناس اعقلوا قولي. فلن تجبوا أعلم بأمر الدنيا والآخرة مني... " ⁽¹⁾ . وكان قد أعلن في المدينة من قبل: " فإن لم تجبوني خيركم فأنا خير لكم ". فمعاوية وضع نفسه في دائرة العلم ودائرة الخير، ولكن الباحث يجد أن الحقيقة تخالف ذلك. ولألا: لأن الأمة على أعتاب توجيه ضربة إلهية بما قدمت يداها وهذا ثابت في أحاديث صحيحة، كما أن فتح أبواب كل شيء على الذين نسوا ما ذكروا به سنة كونية وحقيقة قونية. وقد تكون نواتر العلم والخير الخاصة بمعاوية في ظاهرها علم وخير، ولكن الحقيقة التي لا جدال فيها أن في باطنها فتنة ليس فيها علم وى. وثانيا: أن بني أمية بالذات على أيديهم يأتي ما ذكروا به في ولا. فمعاوية وإن كان يعمل لصالح نفسه أو أسوته هو في الحقيقة صورة من صور العذاب، كما أن الحجاج بن يوسف صورة من صور. وقتال الإمام علي لمعاوية كان في الحقيقة أخذًا بالأسباب لصد هذه الصورة التي تحمل معالم العذاب، والتي هي نتيجة طبيعية لأعمال الناس. وصد الإمام لهذه الصورة لا يكون إلا بدفع الناس إلى الصواب المستقيم، لأن أعمالهم على الصواب المستقيم ستفتح عليهم بركات من

السماء، بينما أعمالهم على أي خط آخر ستأتي بصور العذاب حيث تفتح عليهم أبواب كل شيء عدا البركة. فالدعوة تعمل من أجل فتح أبواب وغلق أبواب، كي تصل القافلة البشرية سالمة غانمة إلى كمالها وأهدافها العليا. فإذا وجدنا معاوية يخطب على المنابر، فيجب أن نضع نصب أعيننا أن النبي صلى الله عليه وسلم ساءه ذلك عندما رآه الله بني أمية ينزرون على منوره نزو القودة. وإذا قال معاوية على منبر دمشق: " لن تجلوا أعلم مني بأمور الدنيا والآخرة " فيجب أن نعلم أن معاوية باغي، وأن الناس تخاذلوا ولم يبروه عن

(1) البداية والنهاية 132 / 8.

الصفحة 190

بغية، لهذا عبر إلى المنبر، وأن للباغي عقوبة عند الله، ومن ركب قطره أصابته العقوبة. أخرج ابن مردويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثلاث قد فرغ الله من القضاء فيهن. لا يبيغن أحدكم. فإن الله تعالى يقول: (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم)، ولا يمكن أحد، فإن الله تعالى يقول: (لا يحق المكر السيئ إلا بأهله"، ولا ينكت أحد. فإن الله تعالى يقول: (من نكت فإنما ينكت على نفسه) (1).

إنها محطات ثلاث، من ركب في قطار واحدة منهن فلا يلومن إلا نفسه قال النبي صلى الله عليه وسلم: " تعوض الفتن على القلوب، فأى قلب أنكوها نكتت في قلبه نكتة بيضاء، وأي قلب لم ينكوها نكتت في قلبه نكتة سوداء. حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضوه فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربدا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه " (2)، أو قال: " إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكوها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فوضيها كان كمن شهدها " (3).

إنها محطات ثلاث، ولا تخفى واحدة على أحد، أخرج ابن جرير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما هلك قوم حتى يعنروا من أنفسهم.

قيل: كيف؟ فقولاً قوله تعالى: (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) (4)، يعني أنهم لا يهلكون حتى تكثر ذنوبهم فيستوجبون العقوبة، ويكون لمن يعذبهم عذر (5).

إن معاوية قول بالخلافة إلى أرض الشام، بل وحاول أن ينقل منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هناك. وإذا كان قد أعلن من هناك، أنه

(1) الدر المنثور 303 / 3.

(2) رواه أحمد والحاكم وصححه (كنز العمال 119 / 11)، (المستترك 468 / 4).

(3) رواه أبو دلوود حديث 4345.

(4) عون المعبود 502 / 11.

أعلم الناس بأمور الدنيا والآخرة، فإن الباحث يرد عليه قوله، ويقول: إن هذا القول يعرض الحقيقة التي أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال لابن حولة: يا ابن حولة إذ رأيت الخلافة قد تزلت الأرض المقدسة فقد دنت للزلزل والبلايا والأمور العظام... " (1).

وقال الأمين الصادق صلى الله عليه وسلم: " لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتكم قليلا. يظهر النفاق، وترفع الأمانة وتقضب الرحمة، ويتهم الأمين، ويؤتمن الخائن " (2).

6 - إتهام الأمين:

كان التعظيم على مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب شيئا طبيعيا على امتداد القرون الأولى بصفة خاصة. فعمر بن الخطاب عندما خاف على الإسلام أمر بعدم الرواية، وهدد العديد من الصحابة الذين كانوا يروون الحديث. ولقد سجل البخاري منع عمر للرواية وعدم الأخذ بها من حديث أبي موسى عندما استأذن (3). ولقد تحدثنا عن ذلك في موضعه، وذكرنا أنه قد توتب على ذلك خفوت أصوات وظهور أصوات أخرى. وعندما جاء عهد علي بن أبي طالب، كان القص قد غذى الساحة بعد أن خلت من الرواية. لهذا واجه الإمام صعوبات كثيرة ليبين للناس من هو، وشقت الرواية طريقها في الصخور، وعلم الناس بعض مناقب الإمام. ولم يكن كل من علم راسخ العقيدة، وذلك لأن الإمام لم يسهر على تربيته، فالغالب الأعم منهم كان قريبا من ثقافة الوليد بن عقبة وأبو

(1) رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي " الفتح الرباني 29 / 24 " .

(2) عند البخاري ضياع الأمانة. إذا أسند الأمر إلى غير أهله (الصحيح 128 / 4) ك الدعوات، برفع الأمانة.

(3) رواه الحاكم (كنز العمال 127 / 11) وروى صدر الحديث أحمد والترمذي وابن ماجه وغوهم.

زبيد الشاعر. وعندما رأى معالم العدل تحت راية الإمام ابتعد عن ثقافة الوليد وغوه، واقترب من ثقافة الإمام. وهؤلاء منهم من نصر الإمام، ومنهم من خذله. وكانت حركة الإمام تعتمد على الصحابة الأجلاء، وعلى الصادقين من التابعين. وعندما قتل هؤلاء لم تكن الخطورة قط على الجانب العسكري، وإنما كانت أيضا على نوام الرواية. وإذا كان بين أيدينا حديث صحيح يقول: إذا تزلت الخلافة الأرض المقدسة فقد دنت البلايا، وإذا كان بين أيدينا أحاديث تحذر من البغي ومن بني أمية، فلا عجب إذ رأينا بني أمية يعملون من أجل تشويه الخط الواسلي، فإذا لم يشوهوا هذا الخط فأى خط يشوهون؟ وإذا كان تشويههم لغير الخط الواسلي فلماذا كان حزن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما رأى الله بني أمية على منوه؟ إن معنى وجودهم على المنبر إشارة إلى اغتصابه، وإشارة إلى أنهم نزعوا الأمر أهله. ومعنى تشويه الخط

الرسالي، أي العمل من أجل تبيين خط آخر يكون مشابه للخط الرسالي في الصورة، بهدف أن يروع أصحاب الأهواء إلى

الخط المزخرف نظراً لوجود مطالب كل صاحب هوى على هذا الطريق. ونظراً لأن هذه المطالب تحميها فتوى علماء

الضلال الذين حذر النبي صلى الله عليه وسلم حذيفة منهم. قال حذيفة: "... قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟

قال: نعم. دعاء إلى أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.

قلت: فما تأموني إن أدرت ذلك؟ قال: تؤم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتول تلك
الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يبركك الموت وأنت على ذلك " (1).

فهؤلاء لا بد من وجود من يمهدهم إليهم، لا بد من وجود من يمهدهم لأكثر من سبعين فرقة وتتجرا واحدة. وإذا كان الحديث قد

صوح بأنه سيكون زمان لا

(1) رواه البخاري ك بدء الخلق (الصحيح 280 / 2) ورواه غيره ولقد تكلمنا عن الحديث فيما سبق.

الصفحة 193

جماعة فيه ولا إمام، فإن هناك حديث آخر صوح بأنه من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية (1). لهذا لم يهمل الحديث الذي

رواه حذيفة موضع الإمام في الزمان الذي لا يكون فيه جماعة ولا إمام، وهو قوله: " فاعتول تلك الفرق كلها ولو أن تعض

بأصل شجرة ". لم يقل اعتول وكفى ولا تحققت الموتة الجاهلية، وإنما قال: " ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يبركك الموت

وأنت على ذلك "، وفي رواية: " قال حذيفة: ثم ماذا؟ قال: ثم يخرج الدجال " (2)، فإذا كان الدجال شجرة رجس، فأى شجرة

التي تقابل الرجس؟ فإذا قلنا إنها شجرة المهديين؟ فما هو الدليل على أنهم مهديين؟

ونحن لا نريد أن نطيل في هذا البحث. وبالجملة فلن يكون معاوية صاحب هذه الشجرة، أعني شجرة المهديين، وذلك

لوجود أحاديث تقول خلاف هذا. وإذا أردنا أن نضع أيدينا على أصل الشجرة فإنني أسوق الحديث الصحيح الذي أورده السيوطي

في تزيخ الخلفاء، فقال: أخرج الطواني في الأوسط بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: الناس من شجر شتى، وأنا وعلي من شجرة واحدة (3)، وروى الديلمي: " أنا وعلي من شجرة واحدة والناس من أشجار

شتى " (4) وروى الحاكم: " يا علي الناس من شجر شتى " وأنا وأنت من شجرة واحدة " (5).

فالظالمين من بني أمية هدفهم تشويه الخط الرسالي، وذلك بإنشاء خط جديد مشابه له. والنبي صلى الله عليه وسلم حذر من

هذا، وأغلق الأبواب أمام هذه الأعمال، فقال:

"... فإن للوآن منار كمنار الطريق فما عرفتم فخنوه وما أنكرتم فونوه إلى

(1) رواه ابن أبي عاصم وحسنه الألباني (كتاب السنة 503 / 4) ورواه غير واحد ولقد بينا ذلك فيما سبق.

(2) رواه أبو داود حديث 4244.

(3) تزيخ الخلفاء 1 / 160.

(4) الديلمي (كنز العمال 168 / 11).

(5) الحاكم (كنز العمال 168 / 11).

الصفحة 194

عالمه " (1) . ولقد قتلوا عالمه، ونتيجة لذلك يمكن أن نفهم قوله النبي صلى الله عليه وسلم: " كتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قوائهم وأمرائهم " (2) ، فهم ضلوا لأن هناك أشياء لا يعلمونها في كتاب الله. وبما أنهم قتلوا عالمه واعتلوا أهل بيته لا يستبعد أن يتحقق الضلال، ويوقع النفاق، ليتحقق قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " أكثر منافقي أمتي قواؤها " (3) . من هنا يمكن أن نعلم حقيقة الخط المشابه للخط الوسالي. الذي أخذ على عاتقه تعزيز الأمة ولكن تحت الواجهة المخرفة التي تقول بالجماعة. لا يهم أن تنمق الأمة ولكن المهم أن تكون الجماعة على رأس الحكم. وتيلات التشويه دائما ما تلجأ إلى التشويه الغير مباشر، فكتاب الله لا يمكن أن تمتد إليه يد أو عقل لإحداث تشويه فيه، فهذا من المحال. وإنما تمتد عقولهم إلى تفسره وتأويله، فتوغه من المحتوى السياسي الذي يتعرض مع أهداف جماعة الحكم. والقرئ للوأن يعلم أنه يتعرض للأحداث الكوى ويقدم لها الحلول، ولقد سلب الأضواء على الانحرافات الكوى على امتداد التاريخ البشوي وبينها للأمة الخاتمة - وحذر من الوقوع على طريقها، وهذا كله عند تيلات التشويه لا يلتفت إليه إلا في حدود. وفي الغالب الأعم يقرؤون القرآن قاءة لا تجوز واقفهم في المآتم وحول الأضوحة، وفي أندية النفاق حيث المباخر والشعوذة والدجل.

وكما أن كتاب الله لا يمكن أن تمتد إليه يد أو عقل للتشويه فيه، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم. فتتار التشويه داخل الأمة لا يقترب من مكانة النبوة، وإلا سيفقد وجوده على الكرسي. ولكي يتجنب ذلك يفعل ما فعله مع القرآن، بمعنى أن يكذب على النبي فيحدث التباسا بين ما قيل وبين ما لم يقال.

وهذا الطريق ينتج الإنسان المشوه. أو يقوم بضوب الخط الذي ينتسب إلى النبي

(1) رواه الطبراني (الزوائد 187 / 1).

(2) رواه ابن أبي عاصم وفيه من ضعف (كتاب السنة 132 / 1).

(3) رواه أحمد والطواني وقال الهيثمي أحد أسانيد أحمد ثقات أثبات (الزوائد 229 / 6).

الصفحة 195

، أقصد الخط الوسالي، أو ينسب إلى كل ما هو وى منه.

فإذا حدث هذا فهو أمام العامة لم يقترب من ساحة النبوة، بمعنى روي في حديث صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من آذى عليا فقد آذاني " (1) . فخط التشويه يوجه الأذى إلى علي، ويمكن للعامة أن تتقبل ذلك.

ولكن الحقيقة أن عليا لم يكن هو الهدف، وهذا لا يفهمه إلا عاقل منصف.

ولقد كان النبي يغضب عندما يؤذي أحد عليا. فعن سعد بن أبي وقاص قال:

كنت جالسا في المسجد أنا ورجلين معي، فنلنا من علي، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبان يعرف في وجهه الغضب، فتعذت بالله من غضبه فقال: ما لكم وما لي!! من أذى عليا فقد آذاني⁽²⁾، لم يقل: ما لكم وعلي، وإنما قال: ما لكم وما لي. وعلي هذا المقياس نفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: " من سب عليا فقد سبني "⁽³⁾ .

وروي أن رجلا من أهل الشام جاء فسب عليا عند ابن عباس، فحصبه ابن عباس وقال: يا عدو الله أذيت رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الذين يؤنون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا "⁽⁴⁾ .

وروي أن معاوية أصدر العديد من القورات بعد عودته من المدينة إلى الشام. روى المدائني: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة:

وأت الذمة ممن روى شيئا في فضل أبي تَاب وأهل بيته، فقام الخطباء من كل كورة، وعلى كل منبر، يلعنون عليا ويؤون منه ويوقعون فيه وفي أهل بيته "⁽⁵⁾ ، ثم كتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: " لا تجيزوا لأحد من شيعة علي

(1) رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد 129 / 9).

(2) رواه أبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد 129 / 9).

(3) رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح 130 / 9) والحاكم وصححه (المستترك 121 / 3).

(4) رواه الحكم وأوه الذهبي (المستترك 152 / 3).

(5) ابن أبي الحديد 3 / 595.

الصفحة 196

وأهل بيته شهادة "⁽¹⁾ ، ثم كتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته، والذين يرون فضائله ومناقبه فأدوا مجالسهم وقربوهم وأكرمهم، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته "⁽²⁾ . وبعد أن كثر الحديث في فضائل عثمان ومناقبه كتب إليهم: إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر. فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خرا يرويه أحد من المسلمين في أبي تَاب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة. فإن هذا أحب إلي وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تَاب وشيعته "⁽³⁾ ، ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة: انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته.

فامروه من الديوان. وأسقطوا عطاءه ورزقه "⁽⁴⁾ ، وشفع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكلوا به واهدوا دله "⁽⁵⁾ .

وترتب على هذه القورات أن الكذابين والجاحدين وجنوا لكذبهم وجحودهم موضعا يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء في كل بلد، فحدثهم بالأحاديث الموضوعة المكنوبة، ورووا ما لم يقله الخط الوسالي وما لم يفعلوه لبيغضوهم إلى الناس، وقأت الكتب على الناس، ورويت أخبار كثرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها. وترتب على ذلك اشتداد البلاء ولا سيما بالكوفة، حتى أن الرجل من شيعة علي كان يخاف من خادمه ومملوكه. كان هذا في زمن معاوية وتفاقم الأمر

بعد قتل الحسين عليه السلام، وبعد أن ولي عبد الملك بن مروان وأتى بالحجاج بن يوسف. فلم يبق أحد إلا وهو خائف على دمه أو طريد في الأرض.

(1) المصدر السابق 595 / 3.

(2) المصدر السابق 595 / 3.

(3) المصدر السابق 596 / 3.

(4) المصدر السابق 596 / 3.

(5) المصدر السابق 596 / 3.

الصفحة 197

إن للصحابة فضائل ومناقب ولم يكونوا في حاجة إلى إضافات جديدة.

ولكن هذه الإضافات لم يقصد بها الصحابة، لأن العديد منهم كانوا في رحمة الله ولا تفيدهم زيادات، وإنما كان المقصود أن وّاحم مناقب الصحابة مناقب أهل البيت ليحدث الالتباس. ولكن أهل الحديث الراسخين في علم الحديث. ذكروا كثوا من الأحاديث الموضوععة، وبيّنها وضعها وأن روايتها غير موثوق بهم. إلا أن المحدثين إنما يطعنون فيما دون طبقة الصحابة، ولا يتجاسرون على أحد من الصحابة لأن عليه لفظ (الصحبة) على أنهم قد طعنوا في قوم لهم صحبة كبسر بن رطأة وغوره. ونحن لا نجد فضل أحد من الصحابة، ولكننا نعلم أن بعض الأخبار الواردة فيهم موضوع.

وقار سب علي بن أبي طالب على المنابر وقف منه الصحابة في دائرة الخوف. فمعاوية اهتم اهتماما ملحوظا بالأمن الداخلي، فبث العيون وسلح الحاميات العسكرية، وأعطى للأهواء في الأمصار حق التصرف في هذه القضايا. وأمام الأسوار حول المدن التي تمثل أي خطر عليه حتى مكة، يقول ابن كثير. " كانت أبواب مكة لا أغلق لها وأول من اتخذ لها الأبواب معاوية " (1). وليس معنى أن الصحابة كانوا في دائرة الخوف أنهم قبلوا ثقافة السب.

فمنهم من رفضها وقتل في ذلك كحجر بن عدي وغوره، ومنهم من رفضها بحذر، ومنهم من رفض ووعظ، ومنهم الجهاز الذي أشرف على إتمام ثقافة السب، كعمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، والمغوة بن شعبة، وبسر بن رطأة، ومعاوية بن خديج وغورهم.

ولقد سجل مسلم عملية السب في صحيحه، وبهذا التسجيل لا يمكن أن يدعي مدعي أن السب كان خرافة أو لا أساس له من الصحة، وسجله غير مسلم في روايات صحيحة. وبداية عملية السب روي أن معاوية استعمل المغوة بن شعبة على الكوفة فلما أمره عليها دعاه وقال له: لست تترك إيصاءك بخصلة. لا

(1) البداية والنهاية 139 / 8.

ترك شتم علي وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له. والعيب لأصحاب علي والإقصاء لهم. والإطواء بشيعة عثمان والإدناء لهم" (1). فهذه الوصية التي رواها صاحب الكامل هي إجمالي ما رواه ابن أبي الحديد من قبل. وبدأت عملية السب، روى الطواني بسند صحيح أن عمرو بن العاص صعد المنبر، فذكر عليا ووقع فيه، ثم صعد المغوة بن شعبة، ووقع في علي، وكان الحسن بن علي بالمسجد. فقيل له اصعد. فقال: لا أصعد ولا أتكلم حتى تعطوني إن قلت حقا أن تصدقوني، وإن قلت باطلا أن تكذبوني، فأعطوه، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أنشدك بالله يا عمرو ويا مغوة. ألا تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لعن الله السابق والواكب أحدهما فلان، قالا اللهم بلى. قال: أنشدك الله يا معاوية ويا مغوة، ألا تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن عمرو بن العاص بكل قافية قالها لعنة، قالا: اللهم بلى. قال: أنشدك يا عمرو ويا معاوية، ألا تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن قوم هذا قالا: بلى، فقال الحسن: فإني أحمد الله الذي وقعتم فيه تروا من هذا (2).

وهذا الحديث يحتاج إلى تفسير. فأما قوله: "لعن الله السابق والواكب.

أحدهما فلان" فيقصد بذلك معاوية كما روى البغوي (3) وقوله: "أن رسول الله لعن عمرو بن العاص بكل قافية قالها لعنة". فلقد روي أن الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مشركي مكة: أبو سفيان بن الحرث، وعبد الله بن الزبيعي، وعمر بن العاص، وضوار بن الخطاب (4)، وكان أشدهم عمرو بن العاص وروي أن رسول الله قال: "اللهم إن عمرو بن العاص هجاني وهو يعلم أنني لست بشاعر، فاهجه والعنه عدد ما

(1) الكامل 3 / 234، الطبري 108 / 6.

(2) رواه الطواني وقال الهيثمي رواه عن شيخه زكريا بن يحيى وقال الذهبي: أحد الأثبات ما علمت فيه جرحا أصلا (الزوائد 7 / 247).

(3) رواه الطواني والبغوي (الإصابة 4 / 5).

(4) أسد الغابة 2 / 5.

هجاني" (1) وإن كان في إسناد هذا الحديث مقال. فإن حديث الحسن يشهد بصحته. أما قوله: "إن رسول الله لعن قوم هذا" فإنه يقصد المغوة بن شعبة، والمغوة بن ثقيف (2)، وفي الحديث الصحيح. إن بني أمية وثقيف وبني حنيفة من أبغض الناس إلى رسول الله (3).

وهكذا رفع عنهم الحسن رضي الله عنه الغطاء الذي وضعه على جلودهم عالم اللارواية. لقد وقفوا ليلعنوا وهم في الحقيقة عليهم من الله لعنة. قال تعالى: (إن الذين يؤنون الله ورسوله. لعنهم الله في الدنيا والآخرة). ومن الذين سهرروا من أجل انتشار ثقافة السب مروان بن الحكم الذي كان سببارئيسيا في محاصرة الثوار لعثمان، ومروان هو قاتل طلحة يوم الجمل، ومروان

وأبيه عليهما لعنة من الله على لسان رسوله. و صوح بذلك روايات صحيحة.

وأخرج ابن سعد أن مروان بن الحكم كان يسب عليا كل جمعة على المنبر ⁽⁴⁾ ، وروى أنه قال للحسن: أهل بيت ملعونون. فقال الحسن: أقلت أهل بيت ملعونون. فوالله لقد لعنك الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وأنت في صلب أبيك ⁽⁵⁾ . وروى عن أبي كثير قال: كنت جالسا عند الحسن بن علي فجاهه رجل فقال: لقد سب عند معاوية عليا سبا قبيحاً رجل يقال له معاوية بن خديج. فلم يعرفه الحسن، فقال: إذارأيتته فأنتي به، فآه الرجل عند دار عمرو بن حريث، فؤاه إياه، فقال الحسن: أنت معاوية بن خديج؟ فسكت فلم يجبه - ثلاثا - ثم قال: أنت الساب عليا عند ابن أكلة الأكباد؟ أما لئن وردت عليه الحوض، وما رأك تود، لتجدنه مشوا حاسوا عن نواحيه ينود الكفار والمنافقين عن حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم. قول الصادق

(1) رواه ابن عساکر (كنز العمال 548 / 13).

(2) الإصابة 131 / 6.

(3) البيهقي (البداية والنهاية 268 / 6).

(4) البداية والنهاية 280 / 8 ، تزيخ الخلفاء 177 / 1.

(5) رواه أبو يعلى (الزوائد 240 / 5) وابن سعد وابن عساکر (كنز العمال 357 / 11) وذكره ابن كثير (البداية 8 /

280).

الصفحة 200

المصدق محمد صلى الله عليه وسلم ⁽¹⁾ . ومعاوية بن خديج ذكره ابن سعد فيمن ولي مصر من الصحابة. أمره معاوية على الجيش الذي جهزه إلى مصر وبها محمد بن أبي بكر عاملاً لعلي، فأخذوا ابن أبي بكر ووضعوه في بطن حمار وأشعلوا فيه النار.

أما الصحابة الذين لم يقبلوا ثقافة السب، ما رواه مسلم عن سهل، قال:

استعمل على المدينة رجل من آل مروان، فدعا سهل بن سعد فأمره أن يشتم عليا، فأبى سهل. فقال له: أما إذا أبيت فقل لعن الله أبا تواب. فقال: ما كان لعلي اسم أحب إليه من أبي تواب، وإن كان ليؤح إذا دعي بها ⁽²⁾ ، وروى مسلم أيضا أن معاوية أمر سعد بن أبي وقاص فقال: ما منعك أن تسب أبا تواب ⁽³⁾ ؟ فعد عليه سعد بعض مناقب علي وقال: لو أن تكون لي واحدة منهن خوا من أن تكون لي حمر النعم.

وعن عبد الرحمن بن البليمان قال: كنا عند معاوية. فقام رجل فسب عليا بن أبي طالب فقام سعيد بن زيد بن عمر بن نفييل فقال: يا معاوية إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هو مني بمقتلة هارون من موسى ⁽⁴⁾ . وعن أبي عمار قال: إني لجالس عند وائلة بن الأسقع، إذ ذكروا عليا فشتموه فلما قاموا. قال: اجلس أخوك عن الذي شتموا. إني عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين فألقى عليهم كساء ثم قال: " اللهم هؤلاء أهل بيتي

فأذهب عنهم الرجس

(1) رواه الطبراني بإسنادين (الزوائد 131 / 9)، والحاكم (المستدرک 138 / 3)، وابن أبي عاصم (كتاب السنة 360 / 2).

(2) رواه مسلم (الصحيح 182 / 15) في فضل علي.

(3) رواه مسلم في فضل علي (الصحيح 175 / 15) والحاكم وأقوه الذهبي (المستدرک 109 / 3).

(4) رواه ابن أبي عاصم (كتاب السنة 602 / 2).

الصفحة 201

وطيهم تطهروا" (1).

وعن خالد بن عرفطة قال: أتيت سعد بن مالك فقلت: بلغني أنكم تعرضون على سب علي بالكوفة فهل سببته؟ قال: " معاذ الله والذي نفس سعد بيده، لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في علي شيئاً لو وضع المنشار على مفوقي ما سببته أبداً " (2) ، ويقصد سعد يوم أن عاد من اليمن ودخل ليشكوا علياً وكان معه أبو بكر. فبينما هو في وسط كلامه قال له النبي: " سعد بن مالك بن الشهيد. مه بعض قولك لأخيك علي. فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله "، فقال سعد: فقلت في نفسي تكلتك أمك سعد بن مالك.

ألا رأني كنت فيما يكره منذ اليوم وما أروي. لا جرم والله لا أذكره بسوء أبداً سوا ولا علانية (3).

وروي أن أبا الأسود الدؤلي وكان من شيعة علي يتول بالبصرة في بني قشير، وكان جوانه وجموه بالليل لمحبه علي وأهل بيته. فإذا ذكر رجمهم له قالوا: إن الله وجمك فيقول لهم: تكذبون لورجمني الله لأصابني، ثم باع الدار، فقيل له: بعث ذلك! فقال: بل بعث جري (4). وروى المؤرخون في ربيع الأوار: سأل زياد بن أبيه أبا الأسود عن حب علي فقال: إن حب علي يزداد في قلبي كما يزداد حب معاوية في قلبك، وإني أريد الله والدار الآخرة بحبي علياً، وأنت تريد الدنيا وزينتها بحبك معاوية. ويقصد بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: " علي يعسوب المؤمنين والمال يعسوب المنافقين " (5). وروي أن معاوية قال لصعصعة بن صوحان. اصعد المنبر فالعن عتياً.

(1) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 161 / 9) (2) رواه أبو يعلى وإسناده حسن (الزوائد 130 / 9) ابن أبي عاصم (كتاب السنة 604 / 2).

(3) رواه البيهقي (البداية والنهاية 346 / 7) ولقد قدمنا الحديث بطوله في موضعه.

(4) حياة الحيوان / الدموي في آخر باب الدال.

(5) رواه ابن عدي وغوه (كنز العمال 4 - 6 / 11).

الصفحة 202

فامتنع من ذلك وقال: أو تعفيني؟ قال: لا. فصعد صعصعة المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: معاشر الناس إن معاوية (1) أموني أن ألعن علياً. فالعنوه لعنه الله .

وهكذا موت ثقافة السب. ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الثقافة وبين أهدافها الحقيقية. روى عن عبد الله

الجدلي أنه قال: دخلت على أم سلمة رضي الله عنها فقالت لي: أيسب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قلت: معاذ الله أو سبحان الله. قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من سب عليا فقد سبني ⁽²⁾.

أنظر إلى قول أم المؤمنين: أيسب رسول الله فيكم؟ إنها لم تقل: أيسب علي فيكم: لأن عليا درجة على طريق ظاهر طويل. وفي مواجهة أخرى قالت أم المؤمنين أم سلمة: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سب عليا فقد سبني، ومن سبني فقد سب الله تعالى ⁽³⁾. ولقد أخبر الإمام علي عن هذه الثقافة فقال: "إنكم ستعوضون على سبي فسيوني، فإن عرضت عليكم الواءة فلا تتولوا مني فإني علي الإسلام"، وفي رواية - فإني على الفطوة ⁽⁴⁾.

وفي رواية: فإني ولدت على الفطوة وسبقت إلى الإيمان والهجرة ⁽⁵⁾.

وروي أن ابن عباس قال لمعاوية: ألا تكف عن شتم هذا الرجل؟ قال: ما كنت لأفعل حتى يروا عليه الصغير ويهرم فيه الكبير ⁽⁶⁾. وهذه الاستعورية التي

(1) العقد الفريد 2 / 466، والحاكم (المستدرك 1 / 358).

- (2) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 9 / 130) (الفتح الوباني 23 / 121)، ورواه الحاكم وأوه الذهبي (المستدرك 3 / 121) وأورده السيوطي في تاريخ الخلفاء 1 / 162.
- (3) رواه أحمد والحاكم (كنز العمال 11 / 602)، (المستدرك 3 / 121).
- (4) رواه الحاكم وصححه (المستدرك 1 / 358) والمحامي وابن عساكر (كنز العمال 11 / 302) ورواه البلاذري (أنساب الأشراف ص 1 / 119) وابن أبي الحديد 1 / 776.
- (5) ابن أبي الحديد 1 / 776.
- (6) ابن أبي الحديد 4 / 222.

الصفحة 203

يصر عليها معاوية. أخبر عنها وعن غوها النبي فقال: كيف أنتم إذا لبستم فتن يهرم فيها الكبير ويروبو فيها الصغير ويتخذها الناس سنة. فإذا غيرت قالوا: غيرت السنة ⁽¹⁾. إنها الفتن التي تنتسف العبادة نسفاً، وتترك الناس لا يعقلون فتن اللسان فيها أوقع من السيف. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الفتنة تجيء فتنسف العبادة نسفاً، وينجو العالم منها بعلمه" ⁽²⁾، وهل ثقافة السب تحافظ على عبادة أو تنفع معها عبادة، لقد ألقوا في الساحة بأحاديث زاحم بعضها بعضاً. وتمهد لخروج أكثر من سبعين فرقة كل فرقة معها أحاديثها. وكل فرقة لها لسان يضرب كضرب السيف، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

"ستكون فتنة صماء بكماء عمياء، من أشرف لها استشرفت له، وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف" ⁽³⁾. قال في عون المعبود: وصفت الفتنة بهذه الأوصاف بأوصاف أصحابها. أي لا يسمع فيها الحق، ولا ينطق به، ولا يتضح الباطل عن الحق، وقيل المعنى: لا يميزون فيها بين الحق والباطل، ولا يسمعون النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل من تكلم بحق أو ذي ووقع في المحن، ومن أشرف لها: أي من اطلع عليها وقرب منها. استشرفت له. أي: اطلعت تلك الفتنة عليه

وجذبته إليها. وإشواف اللسان. أي: إطلاقه وإطالته كقوع السيف أي: في التأثير (4).

وإذا كان إشواف اللسان في هذه الفتنة كقوع السيف، بمعنى إذا كانت الكلمة في هذه الفتنة تعمل عمل السيف. فإن الذين سوا عليا يكونوا في متولة الذين قتلوه. لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " من لعن مؤمنا فهو كقتله، ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله " (5). وبهذا تكون بني أمية بثقافة السب قافلة من القتل ولا يعرف حقيقتهم إلا العالم. وشاء الله أن يكون على امتداد

تاريخ

(1) رواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرک 515 / 4).

(2) رواه أبو نعيم وأبو دلوود والرافعي (كنز العمال 150، 178 / 10).

(3) رواه أبو دلوود حديث 4244.

(4) عون المعبود 11 / 346 (5) رواه البخاري (الصحيح 57 / 4).

الصفحة 204

بني أمية العديد من العلماء الأفاضل، فكانوا يحذرون من الحوة قبل الوقوع فيها. حدث هذا في جميع الأحداث الكوى بل والصوى التي جرت تحت أعلام بني أمية. ولقد رأينا كيف كانوا ينهون عن السب في كل زمان ومكان.

لقد أنتجت ثقافة السب جيلا مشوها، كان من السهل عليه أن يقتل الحسين، ويجتاح المدينة، ويضوب الكعبة. ولقد ظلوا يسبون الإمام حتى ضاع ذكوه عند الذين يقفون تحت رايات بني أمية. يقول المسعودي: قيل لرجل من أهل الشام من زعمائهم

وأهل الرأي والعقل منهم: من أبو زاب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: رآه لصا من لصوص الفتن (1). وروي أن

فقيها آخر ذهب ليشتكى جره إلى الوالي فقال: إن جره مرجئ قوري ناصبي رافضي، يبغض معاوية بن الخطاب الذي قتل

علي بن العاص. فقال له الوالي: ما أوري على أي شيء أحسدك. على علمك بالمقالات أو على بصرك بالأنساب (2).

وروي في سنن أبي دلوود أن في عصر بني مروان لم يكن فطاحل العلم وجهابذته يعنون عليا من الخلفاء، وعندما بلغ

سفينة ذلك قال: كذبت استاه بني الزرقاء (3).

وظل الحال هكذا حتى جاء عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وسنتحدث عن ذلك في حينه.

7 - انتمان الخائن:

من قبل أن يحدث الاختلاف والافتراق أعلن النبي صلى الله عليه وسلم على الأمة أن " الإسلام والسلطان أخوان توأمان، لا

يصلح واحد منهما إلا بصاحبه. فالإسلام أس (4)، والسلطان حرث. وما لا أس له يهدم، وما لا

(1) مروج الذهب 42 / 3.

(2) مروج الذهب 42 / 3.

(3) ذكوه الألباني في تحقيقه كتاب السنة 564 / 2.

حُرث له ضائع" (1) . ثم بين فضل أهل بيته ووجوب مودتهم في أحاديث كثيرة منها " النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي " (2) ، وقوله صلى الله عليه وسلم: " مثل أهل بيتي مثل سفينة فوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق " (3) ، وقوله: " إنني ترك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض، وعتوتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض " (4) ، وغير ذلك من الأحاديث التي أوردناها في موضعها.

فمن هذا نفهم أن معنى الإسلام والسلطان يكون أقرب للفهم إذا وضعنا أمامنا في دائرة السلطان أهل البيت. بمعنى أن نقول: أن الإسلام وأهل البيت توأمان، وذلك لأن الروايات حددت معنى السلطان الذي يستقيم مع الكتاب.

والنبي صلى الله عليه وسلم عندما وضع الأمة على الصراط المستقيم وعلم من ربه جل وعلا أن الأمة ستختلف من بعده، فأقام الحجة على الناس، وهم في طريق الاختلاف، كما أقامها من قبل أن يتشعروا في دروب الاختلاف فقال:

"..... إن رحي الإسلام دائرة. وإن الكتاب والسلطان سيفترقان فنوروا مع الكتاب حيث دار " (5) . فإذا كان الكتاب كما في الحديث الصحيح لن يفتوق عن أهل البيت. فإننا يمكن أن نفهم أن النوران مع الكتاب يعني في مقدمته النوران مع أهل البيت.

(1) رواه الديلمي (كنز العمال 6 / 10).

(2) رواه الطواني وأبو يعلى وابن عساكر وابن أبي شيبة عن سلمة ابن الأكوخ (كنز العمال 96، 102، 12) ورواه أبو يعلى والنزار والحاكم عن أبي زر (الخصائص الكوى 466 / 2).

(3) رواه النزار عن ابن عباس وعن الزبير (كنز العمال 955 / 12) ورواه الحاكم وابن جرير والطواني عن أبي زر (كنز العمال 95، 98 / 12) وطريق أبو زر طريق ضعيف. وجميع من ساق هذا الحديث ساقه من طريقه الضعيف ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(4) رواه أحمد والترمذي وحسنه والطواني وقال المنوي رجاله موثقون (الفتح الرباني 186 / 1).

(5) رواه الطواني عن معاذ وابن عساكر عن ابن مسعود (كنز العمال 216 / 1).



والنبي صلى الله عليه وسلم وهو يخبر عن الافتراق، أمر الجيل الأول بأن يأخذ بالأسباب لدفع الافتراق والاختلاف لأن من حكمة الوجود أن الله ينظر لعباده، لوى كيف يعملون وفقا لمساحة الاختيار التي وهبها إياهم.

فمن أنس أن معاذًا قال: يا رسول الله. رأيت إن كان علينا أمراء لا يستنون بسنتك، ولا يأخذون بأمرك، فما تأموني في أمرهم؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا طاعة لمن لم يطع الله عز وجل ⁽¹⁾، وعن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. " لا طاعة في معصية الله تترك وتعالى " ⁽²⁾، وعلى هذا يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد ساق الناس إلى الصراط المستقيم أولاً، ثم أخوهم بالافتراق وماذا يفعلون ثانياً، ثم أمرهم بالأخذ بالأسباب ثالثاً، ولا حجة لهم بعد ذلك كله.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضوب الله قلوب بعضهم ببعض. ثم تلى قوله تعالى: (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم...)، ثم قال:

كلا والله لتأمنن بالمعروف، ولتتهونن عن المنكر، لتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطوا ⁽³⁾، ولتقصونه على الحق قصوا، أو ليضوبن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم ⁽⁴⁾، ولا حجة لهم بعد هذا. وجاء معاوية بن أبي سفيان، وجعل سب الإمام علي سنة، جاء معاوية على طريق الاختلاف. ولو لم يكن الاختلاف قد وقع، ما جاء معاوية. ولكن الله

(1) رواه عبد الله بن أحمد وقال في الفتح الرباني الحديث جيد الإسناد (الفتح 44 / 23).

(2) رواه الطواني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (269 / 7 الزوائد).

(3) رواه أحمد وقال في الفتح الرباني: الحديث صحيح رواه مسلم بلفظه والبخري بلفظ:

لا طاعة في معصية " الفتح 42 / 23 ."

(4) أي / لئودنه إلى الحق.

بعلمه المطلق علم أن عباده سيختلفون فعاقبهم ببني أمية وكان قد حوهم منهم.

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ما اختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها " ⁽¹⁾. إن الله تعالى ذم الاختلاف في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، فإذا وقع الاختلاف فلا بد من عقوبة يتنوقها الغالب الأعم. وأهل الحق لا يظنهم من نواهم أو من خذلهم أو من عاداهم، فهذا قانون الوجود. ومن يقف تحت مظلة الاختلاف فعليه أن يستقبل أبواب كل شيء، وهذا أيضا من قانون الوجود. يقول الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم: " إن الله تبارك وتعالى إذا أراد

بقوم بقاء أو نماء، رزقهم القصد والعفاف.

وإذا أراد بقوم اقتطاعا، فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة " حتى إذا فوجوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين " (2).

لقد جاء معاوية بعد أن اختلف الناس، وليس صحيحا أن معاوية جاء نتيجة لاجتماع الناس، فهو نفسه القائل لابنة عثمان: " يا بنت أخي إن الناس أعطونا سلطاننا فأظهرونا لهم حلما تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة. تحتها حقد، فبعناهم هذا بهذا، وباعونا هذا بهذا... ومع كل إنسان منهم شيعة، وهو وى مكان شيعته. فإن نكثناهم نكثوا بنا، ثم لا نوري أن تكون لنا الدائرة أم علينا " (3)، ثم إن أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا، وأيضا حركة التلويح. كل ذلك يثبت أن معاوية جاء على رقعة خلاف وليس على عصابة اجتماع. فمعاوية دخل من طريق كان الرجل فيه يلقي أخاه فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. في الوقت الذي يحذر فيه النبي صلى الله عليه وسلم ويقول:

" يهلك أمتي هذا الحي من قريش ". قالوا: فما تأمونا يا رسول الله، قال: لو أن

(1) رواه الطبراني (كنز العمال 183 / 1).

(2) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه (الدر المنثور 12 / 3).

(3) البداية والنهاية 133 / 8.

الصفحة 208

الناس اعتزلوهم (1). فأهل هذا الحي لا يجهلهم أحد من الصحابة، ولقد حددتهم روايات صحيحة وشهدت حركة التلويح على خطاهم. فالنبي حذر من طويق النقص الذي أصاب بني إسرائيل في الوقت الذي أشار فيه بأحوال بني أمية ومن على شاكلتهم، وقوله: لو أن الناس اعتزلوهم وفيه إشارة بأنهم لن يأخذوا بالأسباب.

وعندما جاء معاوية ووضع ثقافة السب، تراجع الدين عند الذين أكوا من زاد هذه الثقافة. وهذا أمر طبيعي لساحة لم يدر أصحابها مع القآن، واختاروا حلسا غير الذي حدده النبي صلى الله عليه وسلم لحفظ الإسلام، لأن من سنن الوجود أن ما لا أس له يهدم وما لا حرت له ضائع. ونحن هنا سنلقي ضوءا على معالم الضياع. وفي البداية نقول إن حذيفة سجل لنا معالم الخفوت قبل وفاته (2) فقال: إنما كان النفاق على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان (3).

وقال: إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون (4)، وقال:

".... ابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سوا " (5)، وفي لفظ البخاري:

" فابتلينا حتى أن الرجل ليصلي وحده وهو خائف " (6)، فإذا كان هذا قد حدث في ساحة لم يكن معاوية على الكرسي الأول

فيها، فما بالك إذا جلس معاوية ووصف نفسه بأنه أعلم الناس بشؤون الدنيا والآخرة.

كانت الساحة بها خفوت، ثم جاء الضياع بعد ذلك. فعن زياد بن جارية أنه دخل مسجد دمشق وقد تأخرت صلاة الجمعة

- (1) رواه أحمد وإسناده صحيح (الفتح الرباني 23 / 39) والبخاري الصحيح (ك الفتن 2 / 280) ومسلم (الصحيح 41 / 18).
- (2) من الثابت أن حذيفة مات بعد قتل عثمان بأيام معدودات.
- (3) البخاري ك الفتن (الصحيح 230 / 4).
- (4) البخاري ك الفتن (الصحيح 230 / 4).
- (5) رواه أحمد (الفتح الرباني 23 / 40) ومسلم (الصحيح 179 / 2).
- (6) البخاري (الصحيح 180 / 2) ك الجهاد.

الصفحة 209

بعث الله نبيا بعد محمد صلى الله عليه وسلم أمركم بهذه الصلاة⁽¹⁾، وعن أبي العالية قال: أخر ابن زياد الصلاة، فأتاني عبد الله بن الصامت فذكرت له صنيع ابن زياد، فعرض على شفثيه وضوب فخذني وقال: إني سألت أبا ذر كما سألتني فضوب فخذني كما ضربت على فخذك وقال: إني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتني، فضوب فخذني كما ضربت وقال: صل الصلاة لوقتها، فإن أتركتك معهم فصل ولا تقل إني قد صليت ولا أصلي⁽²⁾. وكان سفيان الثوري يقول: يا؟ أظن الصلاة تقبل إلا أن الصلاة خير من تركها⁽³⁾، كان هذا في مرحلة تأخير الصلاة. وهذه المرحلة تبعتها أخرى في ساحة ترفع ثقافة السب وتحرض عليها. فعن أم الرداء قالت: دخلت على أبي الرداء وهو مغضب. فقلت: من أغضبك، قال: والله لا أعرف فيهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم شيئا إلا أنهم يصلون جميعا - يعني صلاة الجماعة⁽⁴⁾. وروى البخاري: دخل الزهري على أنس فوجده يبكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئا مما أتركت إلا هذه الصلاة. وهذه الصلاة قد ضيعت⁽⁵⁾. أما أبو الرداء الذي شهد بأنه لا يعرف فيهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم شيئا إلا صلاة الجماعة، فلقد مات قبل وفاة عثمان بن عفان بسنتين⁽⁶⁾. بمعنى: أنه شهد ماراه في خلافة عثمان على أقل تقدير. أما أنس فلقد عاش إلى ما بعد زمن الحجاج بن يوسف، وروي أنه مات سنة إحدى وتسعين وكان عمره مائة سنة إلا سنة⁽⁷⁾، فأبى الرداء شهد الصورة فقط. أما أنس فلقد شهد الضياع في عهد بني أمية. وإذا سألنا: كيف ضاعت الصلاة بعد وفاة النبي بمدة قليلة؟ نقول: ضاعت عندما

(1) ابن عساکر (کنز العمال 371 / 8).

(2) رواه أحمد ومسلم (الفتح الرباني 183 / 23).

(3) مقاتل الطالبين 1 / 329.

(4) رواه أحمد وإسناده جيد ورواه الترمذي بطريق آخر (الفتح الرباني 99، 200 / 1).

(5) رواه البخاري (الصحيح 13 / 1).

(6) الإصابة 46 / 5.

انفصل الإسلام عن السلطان. فإن قيل: وما الدليل؟ نقول: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم " لينتقضن الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة، تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضا الحكم وآخهن الصلاة " ⁽¹⁾، وعلى هذا يكون ضياع الصلاة كنتيجة سببه ضياع الحكم عند المقدمة.

إن النبي صلى الله عليه وسلم ذم بني أمية، فهل ينتظر أن يحافظ بنو أمية على الصلاة وغيرها، والنبي صلى الله عليه وسلم لعن الحكم وما ولد فماذا ينتظر من مروان عندما يتقلد أمور المسلمين؟ ولقد اتفق العلماء على أنه أول من شق عصا المسلمين بلا شبهة ⁽²⁾، إن الصورة بهتت في عهد عثمان، وعندما جاء علي بن أبي طالب قاتلوه، ثم جاء معاوية فكان أول من نقص التكبير في الصلاة ⁽³⁾، في الوقت الذي كان فيه أول من اتخذ الحرس لحمايته، وأول من اتخذ الخصيان لخاص خدمته ⁽⁴⁾. وفي عام ستين دخل بالدولة نحو أعتاب المبايعة لولده يزيد. وفي الحديث الصحيح قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

" تعونوا بالله من رأس الستين ومن إمرة الصبيان " ⁽⁵⁾، وعندما وضع معاوية ابنه على رقبة الأمة سار على منهاج أبيه ورفع أعلام السب، فكان من نتيجة هذه الثقافة ظهور الإنسان المشوه الذي لا يمكن أن يحمل منهاج سملويا، ففي الحديث الصحيح يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " يكون خلف بعد الستين سنة أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو زأقيهم. ويقوؤا القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر " ⁽⁶⁾، المنافق

(1) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم (كنز 238 / 1) وقال السيوطي. رواه أحمد والطبراني والحاكم وصححه (الخصائص الكبرى 1 / 265).

(2) شذوات الذهب / ابن العماد الحنبلي 69 / 1.

(3) تزيخ الخلفاء 187 / 1.

(4) تزيخ الخلفاء 187 / 1.

(5) رواه أحمد بسند صحيح وأبو يعلى (كنز العمال 119 / 11).

(6) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 231 / 6) وقال ابن كثير تفرد به أحمد وإسناده على شرط السنن (البداية

228 / 6) ورواه ابن جرير (كنز 314 / 11) والحاكم وأوه الذهبي (المستدرک 507 / 4)، والبيهقي (الخصائص الكبرى

236 / 2)، وابن حبان =

كافر به، والفاجر يتأكل منه، والمؤمن يؤمن به ⁽¹⁾. والمال هو الباب الوحيد الذي تخرج منه هذه الأجيال المناقفة الفاجرة،

يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

" مما أتخوف على أمتي أن يكثر فيهم المال حتى يتنافسوا، فيقتتلوا عليه. وإن مما أتخوف على أمتي أن يفتح لهم القرآن

حتى يؤاه المؤمن والكافر والمنافق، فيحل حلاله المؤمن ابتغاء تأويله " . ومما هو محفوظ أن القآن قد فتح للمصالح والطالح منذ زمن بعيد، يوم أن قال الناس حسبنا كتاب الله، ولم يكن في الساحة وقتئذ العالم بتأويله، الأمر الذي أدى إلى تشعبات كانت الأمة في غنى عنها. وبعد عهد يزيد سرت أعلام بني أمية على الطويق الذي يضيعون فيه الصلاة، حتى جلس الوليد بن عبد الملك على رقبة الأمة. وروي أنه جلس يوم الجمعة على المنبر حتى اصفوت الشمس، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين إن الوقت لا ينتظرك، وإن الرب لا يعنك. قال: صدقت. ومن قال مثل مقاتك فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامك، ثم نادى: من هاهنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضوب عنقه ⁽³⁾ .

إنه طويق إضاعة الصلاة، حتى أن سفيان الثوري كان يقول في الذين على طويق السلطان: لولا أن تكون سبة ما صليت على من يأتي السلطان حتى يكونوا عوة ⁽⁴⁾ ، وقال وهيب: هؤلاء الذين يدخلون على الملوك. إنهم لأضر على الأمة من المقامرين ⁽⁵⁾ ، وقال سفيان: القبول مما في أيديهم من استحلال المحرم، والتبسم في وجوههم، علامة الرضا بفعالهم، وإدمان النظر إليهم يميت القلب ⁽⁶⁾ . وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إذا قال الرجل

= في صحيحه (كنز العمال 195 / 11).

(1) رواه الحاكم (المستدرک 4 / 507).

(2) رواه الحاكم (كنز العمال 200 / 10).

(3) العقد الفريد 62 / 1.

(4) رواه أحمد في الروع 193 / 1.

(5) أحمد في الروع 82 / 1.

(6) أحمد في الروع 97 / 1.

الصفحة 212

للمنافق يا سيدنا فقد أغضب ربه ⁽¹⁾ . وقال: " لا تقولوا للمنافق سيدنا، فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم " ⁽²⁾ . وفي هذا دليل أن المنهج يظهر المنافق وإلا فكيف سيعرفونه؟.

لقد ضاعت الصلاة عندما تم التعتيم على العلم وتشويه حملته، إن الله تعالى يقول: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) ⁽³⁾ ، قال المفسرون: تدل الآية على انقسام المؤمنين إلى طائفتين: مؤمن ومؤمن عالم ومن المحفوظ أن المؤمن العالم أفضل بقوله تعالى: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ⁽⁴⁾ ، وقالوا: وبما أن المؤمن العالم أفضل، فإن ما ذكر من رفع الدرجات في الآية مخصوص بالذين أوتوا العلم. ويبقى لسائر المؤمنين من الرفع، الرفع درجة واحدة، ويكون التقدير أن الله يرفع الذين آمنوا درجة. ويرفع الذين أوتوا العلم درجات.

فإذا كان طويق بني أمية قد أضاع الصلاة فهل تكون أعلامهم في داوة الذين أوتوا العلم؟ وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال: " لكل قوم سادة، حتى أن للنحل سادة " ⁽⁵⁾ ، فهل بني أمية سادة المؤمنين أو سادة الذين أوتوا العلم؟ وإذا كان النبي

صلى الله عليه وسلم قد قال: " إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يتوك عالمًا، اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسألوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا " ⁽⁶⁾ . فهل علماء بني أمية قبضوا؟ كيف وهم على سدة الحكم وأبواب المساجد مفتوحة لهم، ولهم المدرس والمعاهد والناووين؟ فإذا كان ذلك كذلك، فلماذا ضيعوا الصلاة واعتموا عقائد الموجهة، وسلت السياسة المالية تحت أعلامهم بالوقود البيزنطي؟

(1) رواه الحاكم والبيهقي (كنز العمال 170 / 1).

(2) رواه أحمد وأبو داود والنسائي (كنز العمال 170 / 1).

(3) سورة المجادلة: الآية 11.

(4) سورة الزمر: الآية 9.

(5) أبو يعلى (كنز العمال 88 / 6).

(6) رواه مسلم (الصحيح 224 / 16) وأحمد (الفتح الرباني 181 / 1).

الصفحة 213

إن العلم قبض تحت هذه الأعلام عندما استبعوا حملته. وعن زياد بن لبيد قال: قلنا يارسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نؤأ القآن، ويقوئه أبنائنا، ونقوئه أبنائنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال النبي: ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفتقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصرى يؤأون التوراة والإنجيل لا ينتفعون بما فيها بشئ ⁽¹⁾ . إنه عالم معاوية ويؤيد الذين سهروا على ثقافة تأتي بخلف يؤأون القآن لا يعنوا واقبيهم وتحت أعلامهم يؤأ القآن منافق كافر به وفاجر يتأكل منه. إنه العالم الذي قام بالتعتيم على الخط الرسالي. حتى جاء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا. ولقد ركبوها بذلك سنن الذين من قبلهم. يقول تعالى بعد أن ذكر أنبياءه ورسله: (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من نوية آدم * وممن حملنا مع فوح ومن نوية إراهيم وإسوائيل وممن هدينا واجتبيينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا * فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا * إلا من تاب وآمن وعمل صالحا، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا) ⁽²⁾ ، قال المفسرون: وقوله تعالى: (وممن هدينا واجتبيينا) معطوف على قوله: " من النبيين "، وهؤلاء غير النبيين من الذين أنعم الله عليهم، فإن هذه النعمة غير خاصة بالنبيين ولا منحوسة فيهم، بدليل قوله تعالى: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) ⁽³⁾ . ومن الدليل أيضا أن الله تعالى قال: (واذكر في الكتاب مريم) ومريم ليست من النبيين. وكانت من الصديقين لقوله تعالى: (وأمه صديقة) ⁽⁴⁾ ، فالمراد بقوله تعالى: (وممن هدينا واجتبيينا) غير النبيين من الصديقين والشهداء والصالحين لا محالة. فهل

(1) رواه أحمد (الفتح الرباني 182 / 1)، والحاكم وأقره الذهبي وقال الهيثمي رواه الطبراني والبراز (الزوائد 200 / 1).

(2) سورة مريم: الآية 58، 60.

بني أمية يقفون تحت رايات الذين هداهم الله واجتباهم؟ أم أنهم عتوا على الخط الرسالي وشقوا طويقهم نحو سنن الأولين، حيث الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يقفون غيا؟

ويقول البعض: إن النبي قال: "أيا عبد دعوت عليه فاجعل اللهم ذلك له أو عليه رحمة" ونحن نشك في هذا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، ولكن هب أن النبي قال ذلك. مع تحفظنا الشديد، فهل يسر بنو أمية أن رسول الله لعنهم فكان ذلك لهم رحمة؟ وقال البعض: يكفي بني أمية أنهم فتحوا الفوح ومصروا الأمصار. ونحن نقول إن الفتوحات عمل عظيم، ولكن أي فتوحات؟ إن الإسلام جاء ليقول كلمة لا يرفع سيفاً. فإذا رفع السيف فإن هذا السيف لا يرفع إلا بإذن الله ووفقاً لمنهج الله. والنبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه" (1). ولقد ثبت أن بني أمية لا يحيطون به. وثبت أنهم ليسوا أولى الناس بالأنبياء، وليسوا من الذين أوتوا العلم، لقد فتحوا الفوح ومصروا الأمصار، ولكن لحساب من؟ إننا مازلنا نعاني من مقولة إن الإسلام انتشر بالسيف، والإسلام وي من هذه المقولة التي ألصقت به في عالم الفتن.

إن فتوحات بني أمية وغورهم أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال لابن حولة: ليفتحن لكم الشام والروم وفلس، حتى يكون لأحدكم من الإبل كذا وكذا، ومن البقر كذا وكذا، ومن الغنم، وحتى يعطي أحدهم مائة دينار فيسخطها. ثم وضع رسول الله يده على رأس بن حولة وقال: يا ابن حولة، إذا رأيت الخلافة قد تولت الأرض المقدسة فقد دنت لزلزل والبلايا والأمر العظام (2). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قوم أنتم. قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله. فقال النبي: أو غير ذلك تتنافسون ثم تتحاسنون ثم تتدابرون ثم

(1) رواه أبو نعيم (كنز العمال 84 / 3).

(2) رواه أحمد وأبو دلوود والحاكم وصححه (الفتح الروباني 29 / 24).

تتباغضون... " (1).

إن أصحاب المقاعد الأولى أساعوا أبلغ إساءة إلى الفتوحات. ومن لطف الله تعالى أن عامة المسلمين من التجار وغورهم، والعديد من العلماء الأفاضل، كانوا الصورة النقية التي عوت عن الإسلام في البلاد المفتوحة. أما أصحاب المقاعد الأولى الذين لا فقه لهم فيقول عنهم النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه سيفتح لكم مشرق الأرض ومغربها، وإن عمالها في النار، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة" (2). وللأمانة تعريف طويلة وعريضة، وأما علماء السوء الذين اتخذوا الفتوحات وغورها تجرة يقول فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: "ويل لأمتي من علماء السوء، يتخذون هذا العلم تجرة، يبيعونها من أرواء زمانهم ربحاً

لأنفسهم، لا أربح الله تجلرتهم " (3) .

إن الذين وضعوا بني أمية في دائرة مناقب الفتوحات، لم يصيبوا الحق في رأينا، لأن بني أمية دخلوا هذه الأبواب من طريق أضعوا فيه الصلاة، واتبعوا الشهوات، فجاءت الفتن المقروءة والمسموعة وغير ذلك. ثم كيف يوضعوا في دائرة المناقب هذه في الوقت الذي ضاعت فيه الأمانة؟ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة. وقيل: يارسول الله: كيف أضععتها؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة (4) . ولما كان إسناد الأمر إلى غير أهله بهذه الأهمية، فكان لا بد أن يبين لهم من هم أهله هؤلاء، ولقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قد بين ذلك في أكثر من موضع (5) . ومن

(1) رواه مسلم (الصحيح 97 / 18).

(2) رواه أحمد وقال في الفتح إسناده حسن (الفتح الوباني 25 / 23).

(3) رواه الحاكم في تزيخه (كنز 205 / 10) (4) رواه البخاري (الصحيح 128 / 4).

(5) كان علي في دائرة أهل بمكة عندما تول قوله تعالى: (وأندر عشيرتك الأوبين) وكان في دائرة أهله عندما تول قوله تعالى: (... وأنفسنا وأنفسكم)، وكان في دائرة أهل يوم تبوك عندما قال له: " أنت مني بمقولة هارون من موسى.... "، وفي العام التاسع عندما بعثه بسورة واءة، ويوم الكساء (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل =

الصفحة 216

العجيب أنه كان يبايعهم على ذلك، فعن عبادة قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكوهنا، وعسونا ويسونا، وأؤه علينا وأن لا ننزع الأمر أهله... (1) . ومن الأعجب أن أبا أيوب الأنصاري كان يبكي ويقول: " لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله (2) . وهكذا نعود إلى حيث بدأنا، ولقد بدأنا هذا الضوء بقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الإسلام والسلطان أخوان توأمان، لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه. فالإسلام أس والسلطان حرس، وما لا أس له يهدم، وما لا حرس له ضائع " (3) . ثم إخبؤه: " إن رحى الإسلام دائرة وإن الكتاب والسلطان سيفوقان فدوروا مع الكتاب حيث دار " (4) . ولقد بينا كيف تم الافتراق، وكيف رفعت أعلام الذين أضعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.

= البيت...، ويوم غدیر خم: (من كنت مولاه فعلي مولاه).

(1) رواه البخاري (الصحيح 222 / 4)، ورواه ابن أبي عاصم وقال الألباني رجاله ثقات (كتاب السنة 493 / 2).

(2) رواه أحمد والحاكم وأؤه الذهبي الطواني (الفتح الوباني 32 / 23)، (المستترك 415 / 2)، (الزوائد 245 / 5).

(3) رواه الديلمي (كنز العمال 10 / 6).

(4) رواه الطواني عن معاذ. وابن عساكر عن ابن مسعود (كنز 216 / 1).

ثانيا - دماء حول كهف النفاق

احذروا إن القانون هنا يقوم على أعمدة، قال معاوية: " إياك والسلطان، فإنه يغضب غضب الصبيان، ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليلة يغلب كثير الناس " (1) . وقال: " إني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا " (2) . وكتب إلى نائبه زياد: " إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة باللين فيموجرا، ولا بالشدة فنحمل الناس على المهالك، ولكن كنت أنت للشدة والفظاظة والغلظة. وأنا للين والألفة والرحمة... " (3) .

لقد وضع بني أمية بنوة الاضطهاد في الإسلام، ومن هذه بنوة خرجت شجرة تحت ظلالها وضعت الأرائك للملك العضوض، ونصبت الخيام للجبرية والطواغيت. وعلى طرقها توجه التهم للشرفاء فيتهموا بالعمالة ترة، وبالتحريض ترة، وبالسعي للاستيلاء على السلطة ترة أخرى، وبالتهمة تقطع الرؤوس، ويطاف بها هنا وهناك، على هدير هتاف يدعو للسلطان بؤام البغاء. والقانون لا يجوز الطعن فيه، لأن الذي أملاه صحابي شاهد النبي وسمع منه. وموحا للطلاق وأبناء الطلقاء، موحا لاثني عشر رجلا كانوا يريدون أن يقتلوا النبي صلى الله عليه

(1) البداية والنهاية 135 / 8.

(2) الطواني 187 / 6.

(3) البداية والنهاية 136 / 8.

وسلم عند عودته من تبوك، وموحا لأصحاب المسجد الضوار.

ونحن هنا سنلقي الضوء على كيفية تعامل القانون مع المسلمين تحت ثقافة السب. بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بما يقرب من ثلاثين عاما.

1 - قلوب من نحاس:

يوم غدير خم قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من كنت هولاه فعلي هولاه.... " الحديث، وفي نفس الخطبة أوصى الأمة بوصايا وحرفهم من أمور منها قوله: " لعن الله من ادعى إلى غير أبيه ولعن الله من تولى غير مواليه الولد للفواش وللعاهر الحجر " (1) . ولقد اخترت هذه الرواية، لأنها لزيد بن رُقم وفيها: " كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بغدير خم، ونحن نرفع غصن شجرة عن رأسه فقال.... "، ثم ساق الحديث. وهذا الحديث رواه أحمد عن أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الولد للفواش وللعاهر الحجر وحسابهم على الله، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله إلى يوم القيامة " (2) . ورواه أحمد والشيخان عن أبي عثمان أنه لقي أبا بكوة فقال له: ما هذا الذي صنعتم؟ إني سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: سمع أذني من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: من ادعى أبا في الإسلام غير أبيه وهو

يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام. فقال أبو بكوة: وأنا سمعت من رسول الله (3).

وإذا كان معاوية قد حارب الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم يوم الغدير: " من كنت مولاه فعلي مولاه "، فإن معاوية تتبع الخطبة إلى نهايتها، وألحق زياد بن أبيه بالخيمة الأموية، ضلربا بالتحذير عرض الحائط. وزياد هو

(1) رواه الطبري (الزوائد 15 / 4).

(2) رواه أحمد (الفتح الرباني 218 / 21) والتومذي وقال في تحفة الأرواحي أوجه الجماعة إلا أبو داود (التحفة 321 /

(4).

(3) رواه أحمد والشيخان (الفتح الرباني 41 / 17).

الصفحة 219

المعروف بزياد بن أبي سفيان، ويقال فيه زياد بن أبيه، ويقال زياد بن أمه.

وادعاه معاوية وألحقه بأبيه أبي سفيان وصار من جملة أصحابه. وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد حذر زياد من معاوية فقال له: " إن معاوية يأتي العراء من بين يديه ومن خلفه فاحذره " (1).

وكان معاوية يريد أن يخترق جبهة علي، فبعث إلى زياد يغيره بهذا الاستلحاق، وكان زياد وقتئذ عاملا لعلي. وبعد وفاة

أمير المؤمنين راسل معاوية زياد رغبة منه في أن يستعين به في تأسيس ملكه والقضاء على المعرضة.

وبدخول زياد خيمة معاوية جرت الدماء أنهلا، ولم تقف حتى بعد وفاة زياد الذي خلفه ابنه فكان شر خلف لشر سلف.

وروى الطوي: كان زياد أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وأزم الناس الطاعة، وتقدم في العقوبة، وجرر

السيف، وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس في سلطانه خوفا شديدا (2).

وكان زياد أول من سير بين يديه بالحواب، ومشى بين يديه بالعمد (3). وضم معاوية إلى زياد الكوفة، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة (4). وقام زياد

بتعيين سمرة بن جندب عاملا له على البصرة، وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة وستة أشهر بالبصرة (5).

وسمرة بن جندب شوب من إناء زياد كل معالم القسوة، يقول الطوي:

سئل أنس بن سيوین، هل كان سمرة قتل أحدا؟ قال: وهل يحصى من قتل سمرة بن جندب؟، استخلفه زياد على البصرة،

فقتل ثمانية آلاف من الناس، وعندما قيل له: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحدا بريئا قال: لو قتلت إليهم ا

(1) أسد الغابة 272 / 2.

(2) الطوي 126 / 6.

(3) الطوي 127 / 6.

(4) الطوي 128 / 6.

(5) الطوي 131 / 6.

(1) مثلهم ما خشيت . وعن أبي سوار العلوي قال: قتل سوسة من قومي في غداة سبعة وأربعين رجلا قد جمع القآن (2) ، وروي أن سوسة دخل إلى المدينة، وعند مرور الخيل ظهر رجل فضويه بالحربة، وقال سوسة: إذا سمعتم بنا قدركبنا فاتقوا أسنتنا (3) .

فهذه القوة الحديدية التي يتحرك بهارجال لهم قلوب من نحاس، حذر النبي صلى الله عليه وسلم من مقدماتها يوم غدير خم. وذلك لأن أصحاب العقول البروتوية، التي توقع أنيابهم كقوقعة أنياب الحيتان، لن يجنوا فويصة يغوسون فيها أنيابهم سوى الذين يحبون علي بن أبي طالب، فيوم الغدير دثر النبي علي بن أبي طالب بدثار " من كنت هولاه... " في الوقت الذي كان النبي يقول فيه: " لعن الله من ادعى إلى غير أبيه.... " .

2 - مقتل حجر بن عدي:

قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا: " سيقتل بعواء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء " (4) . وروي عن الإمام علي أنه قال: " يا أهل العواق سيقتل منكم سبعة نفر بعواء، مثلهم كمثل أصحاب الأخدود " (5) . وحجر بن عدي هو الذي قام بفتح عواء، قال: إني لأول فرس من المسلمين هلل في واديهما، وأول رجل من المسلمين نبخته كلابها (6) . فمن الذي قتل في عواء؟ الإجابة: إنه حجر بن عدي. فماذا قتل؟

(1) الطبري 132 / 6.

(2) الطوي 132 / 6.

(3) الطوي 132 / 6.

(4) ابن عساكر ويعقوب بن سفيان (كنز العمال 126 / 1) ابن كثير (البداية 55 / 8).

(5) البداية والنهاية 8 / 55.

(6) الكامل 241 / 3، أسد الغابة 412 / 1، الطوي 154 / 6.

(1) الإجابة: قتل في هولاه علي بن أبي طالب! . يقول ابن كثير: كان المغوة بن شعبة على الكوفة إذا ذكر عليا في خطبته يتنقصه بعد مدح عثمان، فيغضب حجر... فلما توفي المغوة وجمع معلوية لزياد الكوفة مع البصرة، فعل ما كان يفعله المغوة، فكان حجر يغضب كغضبه أيام المغوة (2) . وروي أن زياد خطب يوما في الجمعة، فأطال الخطبة وأخر الصلاة، فقال له حجر: الصلاة، فمضى زياد في خطبته، وكما نكوننا من قبل أن بني أمية كانوا يتعاملون مع الصلاة بطريقة خاصة بهم. وعند ما مضى زياد في الخطبة، خشى حجر فوات الصلاة فضوب بيده إلى الحصار. وثار إلى الصلاة وثار الناس معه (3) . فلما رأى زياد. قول وصلى بالناس. ثم كتب إلى

معاوية في أمر حجر . فكتب إليه معاوية: أن شده في الحديد واحمله إلي⁽⁴⁾ . وتم القبض على حجر، وأحضر الشهود الذين يشهدون عليه أنه سب الخليفة، وحلب الأمير، وأنه قال: إن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل علي بن أبي طالب⁽⁵⁾ .
وروي أنه لما أخذ في قيوده ساوًا إلى الشام، تلقته بناته في الطريق وهن يبكين، فمال نوهن وقال: اسكتن، فسكتن، فقال: اتقين الله عز وجل واصبرن، فإني رُجو من ربي في وجهي هذا إحدى الحسينين، إما الشهادة وهي السعادة، وإما الانصاف إليكن في عاقبة. وإن الذي كان يرزقكن ويكفيني مؤونتكن هو الله تعالى، وهو حي لا يموت، رُجو أن لا يضيعكن. وأن يحفظني فيكن⁽⁶⁾ .

وروي أنه ذهب إلى معاوية وألا في دمشق، ثم أمر معاوية بقتله في

(1) الحاكم (المستدرک 470 / 3).

(2) البداية والنهاية 51 / 8 ، الطوي 143 / 6.

(3) الطوي 143 / 6، الكامل 243 / 3.

(4) البداية 51 / 8 ، الطوي 143 / 6، الكامل 243 / 3، كتاب المحن 120 / 1.

(5) البداية 51 / 8.

(6) الطوي 152 / 6.

الصفحة 222

عزاء. وقيل: إن معاوية تحرك في موكبه من دمشق وضرب خيمته في عزاء، وجاء حجر إليه. ولا نوري لماذا اختار معاوية عزاء بالذات! وكما ذكرنا أن حورا هو أول فارس قال لا إله إلا الله فيها.
وروي أن معاوية عندما أمر بقتل حجر وأصحابه، جاء رسول معاوية فقال لهم: إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم الراء من علي بن أبي طالب واللعن له، فإن فعلتم تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم. وإن أمير المؤمنين معاوية زعم أن دماءكم قد حلت له بشهادة أهل مصركم عليكم. غير أنه قد عفى عن ذلك، فابروا من هذا الرجل نخلي سييلكم. فقالوا: إنا لسنا فاعلي ذلك. فأمر بقبورهم فحفوت، وأدنيبت أكفانهم، فقاموا الليل كله يصلون. فلما أصبحوا قال أصحاب معاوية:
يا هؤلاء لقد رأيناكم البلحة قد أطلتم الصلاة، وأحسنتم الدعاء، فاخبرونا ما قولكم في عثمان. قالوا: هو أول من جار في الحكم وعمل بغير الحق. فقال أصحاب معاوية: أمير المؤمنين معاوية أعلم منكم. ثم قالوا: تبرؤون من هذا الرجل؟ قالوا: بل نقولاه ونتوأ ممن توأ منه. فأخذ كل رجل من أصحاب معاوية رجلا منهم ليقنتله. فقال لهم حجر: دعوني أتوضأ. قالوا: توضأ. فلما توضأ قال لهم: دعوني أصلي ركعتين، فأيمن الله ما توضأت قط إلا صليت ركعتين. فتروه يصلي. فلما صلى قال: والله ما صليت صلاة قط أخف منها.

(1) ولولا أن تظنوا في جزعا من الموت لاستكثرت فيها .

وروي أن بعض أصحاب حجر قالوا: ابعثوا بنا إلى معاوية، فلما دخلوا عليه دخل الخثمي قال: الله الله يا معاوية! فإنك

منقول من هذه الدار الوائلة إلى الدار الآخرة الدائمة، ثم مسؤول عما أردت بسفك دمائنا. فقال له معاوية: ما تقول في علي؟ قال: أقول فيه قولك. أتوأ من دين علي الذي يدين الله به.

فسكت معاوية ثم قال لعبد الرحمن العوي: ما تقول في علي: فقال لمعاوية: دعني ولا تسألني فهو خير لك. قال: والله لا أدعك حتى تخبرني عنه، فقال: أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيرا، ومن الأمرين بالحق، والقائمين بالقسط،

(1) الطبري 154 / 6، الكامل 241 / 3، أسد الغابة 462 / 1.

الصفحة 223

والعافين عن الناس، فقال معاوية: فما قولك في عثمان؟ قال: هو أول من فتح باب الظلم، ورُج أبواب الحق، فقال معاوية: قتلت نفسك، قال: بل إياك قتلت (1).

لم يأمر معاوية بقتل العوي في موج عناء، بل اختاره من بين أصحاب حجر لوى أهل العواق قتله. روى أن معاوية بعث به إلى زياد وكتب إليه: إن هذا العوي شر من بعثت، فعاقبه عقوبته التي هو أهلها، واقتله شر قتلة (2).

وروي أن العوي قبل أن يغادر عناء قال لحجر: نعم أخو الإسلام كنت. ثم حمل إلى العواق فلما قدم به على زياد، أمر بدفنه حيا (3).

وروي أن حوا لما مشى إليه فياض الأعور بالسيف، ارتعدت فرائصه، فقيل له: يا حجر أليس زعمت أنك لا تخزع من الموت؟ فقال: وما لي لا أخزع، وأنا لرى قوا محفرا وكفنا منشورا وسيفا مشهرا (4). وروي أنه قال:

اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل الكوفة شهوا علينا، وإن أهل الشام يقتلوننا، أما والله لئن قتلتموني بها، إني لأول فرس من المسلمين هلل في واديهما، وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها. فمشى إليه الأعور، هدية بن فياض بالسيف، فرُعدت خصائله، فقال لحجر: أنا أدعك فإوأ من صاحبك.

فقال حجر: لا أقول ما يسخط الرب. فقتله، وأقبلوا يقتلونهم واحدا واحدا حتى قتلوا ستة (5). روى الطوي: قال الحسن: جوههم ورب الكعبة (6)، وفي قتل حجر قالت هند ابنة زيدان الأنصارية:

ألا يا حجر بني عدي * تلقتك السلامة والسرور

(1) الطبري 155 / 6، الكامل 242 / 3.

(2) الطوي 155 / 6، الكامل 242 / 3.

(3) الطوي 155 / 6، الكامل 242 / 3.

(4) الطوي 154 / 6، الكامل 241 / 1، الحاكم (المستترك) 469 / 3 كتاب المحن 188 / 1.

(5) الطوي 155 / 6، الكامل 241 / 3، كتاب المحن 188 / 1.

أخاف عليك ما أروي عديا * وشيخا في دمشق له زئير

وى قتل الخيار عليه حقا * له من شر أمته وزير (1)

وروي أن حورا أوصى قبل قتله فقال: لا تغسلوا عني دما، ولا تطلقوا عني قيذا، وادفنوني في ثيابي، فأنا سألقى معاوية غدا (2). وفي رواية: فإني لاق معاوية بالحادة، وإني مخاصم (3).

وقتل أصحاب عواء الذين وصفهم الحديث بأن مثلهم كمثل أصحاب الأخدود. لقد لفت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأنظار إليهم، ليعلم الذين عاصروا الحدث حقيقة الأحداث. فحجر لم يكن مجرد قتيل، ولكنه شاهد على تزليخ مضي، وشاهد على إمرة تقلدها رجل وقع في دائرة اللعن يوم غدِير خم، يوم أن قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " لعن الله من ادعى إلى غير أبيه... ". وكان حجر شاهدا أيضا على كوسي كبير يجلس عليه شيخ في دمشق له زئير، وهذا أيضا مخالف لما قيل يوم الغدير. ترى هل فهم أحد يومئذ الحكمة التي رواء قتل حجر. إنني أميل إلى القول بأن الكثرة لم تفهم المعنى بدليل أن حورا دعاربه وقال: اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل الكوفة شهوا علينا وإن أهل الشام يقتلوننا. وأغلب الظن أن أهل الشام ما كانوا في حاجة إلى شهود، فالذي يضيع الصلاة على أقل تقدير ليس بعيدا عليه أن يضيع الشهود - وها هو سوءة بن جنذب الذي قتل الآلاف وما خاف أن يكون فيهم بريئا واحدا.

وبعد أن فرغ معاوية من قتل حجر ورفاقه ذهب إلى المدينة، وروي أنه دخل على عائشة ولم يشهد كلامهما أحد إلا ذكوان مولى عائشة (4)، فقالت: ما حملك على قتل أهل عواء حجر وأصحابه؟ قال: يا أم المؤمنين، إنني رأيت

(1) الطبري 157 / 6.

(2) الحاكم (المستترك 469 / 3).

(3) الحاكم (المستترك 470 / 3) ابن عساكر (كنز العمال 353 / 11) أسد الغابة 462 / 1.

(4) البداية 143 / 8.

قتلهم صلاحا للأمة، وبقاءهم فسادا للأمة فقالت: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " سيقتل بعواء ناس يغضب الله لهم وأهل السماء " (1)، وبعد أن عاتبته عائشة قال: أنت والله العالمة العاملة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، الناصحة

المشفقة البليغة الموعظة، حضضت على الخير وأموت به، ولم تأمرينا إلا بالذي هو لنا مصلحة وأنت أهل أن تطاعي (2).

وروي أنها عاتبته أيضا في قتل أخيها فقالت: أما خفت أن أقعد لك رجلا فيقتلك؟ فقال: ما كنت لتفعليه، وأنا في بيت أمان، وقد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

" الإيمان قيد الفتك ". ثم قال: كيف أنا في الذي بيني وبينك وفي حوائجك؟

قالت: صالح، فقال: فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا⁽³⁾. وفي رواية قال: كيف وي بك يا أمة، قالت: إنك محب لنا، فقال: يكفيني هذا عند الله⁽⁴⁾.

ولقد كان معاوية وا بأم المؤمنين، فعن سعيد بن عبد العزيز قال: قضى معاوية عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار، وما كان عليها من الدين الذي كانت تعطيه الناس⁽⁵⁾. وعن عطاء قال: بعث معاوية إلى عائشة وهي بمكة بطوق قيمته مائة ألف فقبلته⁽⁶⁾. وروي أن زيد بن منبه، أخو يعلى بن منبه صاحب حجل عائشة، ومتولي تلك الحرب دخل على معاوية وشكا إليه ديناً لزمه فأمر معاوية له بثلاثين ألف، وعندما هم زيد بالانصراف قال معاوية: وليوم الجمل ثلاثين ألف أخرى⁽⁷⁾. وليس معنى هذا أن أم المؤمنين تبحث عن الثروة، معاذ الله. فلقد كانت تأخذ المال من معاوية لتعطي المحتاجين. ولقد روي عن عائشة قالت: جلست

(1) ابن عساکر ويعقوب بن سفيان (كنز العمال 588 / 13) كتاب المحن 119 / 1.

(2) البداية والنهاية 143 / 8.

(3) رواه أحمد (الفتح الوباني 234 / 19) كتاب المحن 120 / 1.

(4) البداية والنهاية 57 / 8.

(5) البداية والنهاية 136 / 8.

(6) البداية والنهاية 137 / 8.

(7) العقد الفريد 68 / 2.

الصفحة 226

أبكي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: ما يبكيك. إن كنت تريد اللحق بي، فيكفيك من الدنيا مثل زاد الراكب، ولا تحالطين الأغنياء⁽¹⁾.

3 - هل رأيت آية النار؟

كان عمر بن الحمق من أتباع حجر بن عدي، وكان يعترض على ما يعترض عليه حجر، وكما كان حجر حجة على جموع أحاط بها العذاب من كل مكان، ودعوة لهم كي يأخذوا بالأسباب لدفع هذا العذاب، كذلك كان عمرو بن الحمق أيضاً. روي عن عمرو أنه قال: هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فبينما أنا عنده ذات يوم قال لي: يا عمرو هل لك أن أريك آية الجنة تأكل وتشرب الثواب، وتمشي في الأسواق؟ قلت: بلى بأبي أنت. قال: هذا وأشار بيده إلى علي بن أبي طالب. ثم قال لي: يا عمرو هل لك أن أريك آية النار، تأكل الطعام وتشرب الثواب وتمشي في الأسواق؟ قلت: بلى بأبي أنت. قال: هذا وقومه آية النار، وأشار إلى رجل! فلما وقعت الفتنة ذكوت قول النبي صلى الله عليه وسلم فوت من آية النار إلى آية الجنة. ثم قال عمرو: ووي بنو أمية قتلي بعد هذا. والله إن كنت في حجر في جوف حجر، لاستخرجني بنو أمية حتى يقتلوني، حدثني به حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لي: إن رأسي أول رأس تحتز في الإسلام وينقل من بلد إلى

وروي أن عمرو بن الحمق كان من جملة من أعان حجر بن عدي، فطلبه زياد فهرب وكان مريضاً، وخرجت الخيل في طلبه. وفي الطويق سأله رجل: من

(1) أبو سعيد الأعرابي في الزهد (كنز العمال 731 / 3).

(2) رواه الطواني في الأوسط وقال الهيثمي فيه عبد الله بن عبد الملك وهو ضعيف (الزوائد 406 / 9) وله شاهد قوي عند الطواني في الكبير. (كنز العمال 627 / 11) ورواه ابن عساكر بلفظ آخر بسند صحيح (كنز العمال 496 / 13).

الصفحة 227

أنت؟ فقال: من إن توكتموه كان أسلم لكم، وإن قتلتموه كان أضر بكم. وهوب عمرو إلى الموصل⁽¹⁾، وروي أن عامل الموصل لمارأى عموا عرفه، فكتب إلى معاوية فأمر معاوية بقتله، فهرب نحو الجزيرة ومعه رجل يقال له زاهر، وبينما هما مختبان إدرأيا نواصي الخيل في طلبه، فأمر زاهر أن يتغيب، وقال له: فإذا قتلت فإنهم يأخذون رأسي، فرجع إلى جسدي فادفنه، فقال له زاهر:

بل انثر نبلي ثم رُميهم حتى إذا فنيت معك. قال عمرو: لا ولكني سأزودك مني ما ينفعك الله به. فاسمع مني: آية الجنة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلامتهم علي بن أبي طالب! وتولى زاهر، فأقبل القوم، وقتل عمرو، وتول إليه رجل منهم فقطع رأسه. فكان أول رأس في الإسلام نصب في الناس. وخرج زاهر إليه فدفنه⁽²⁾. وفي رواية: أن حية نهشته فمات فقطعوا رأسه⁽³⁾.

وبعد أن رفعت رأس عمرو بن الحمق لواها أهل العواق، كان لا بد أن واهها أهل الشام. يقول البخاري: أول رأس بعث في الإسلام رأس عمرو بن الحمق. بعثه زياد إلى معاوية⁽⁴⁾ لكي تشهد الأمة الرأس المقطوع. يقول ابن كثير: وبعث وأسه إلى معاوية فطيف به في الشام وغوها، فكان أول رأس طيف به⁽⁵⁾.

وكان معاوية قد ألقى القبض على زوجه عمرو بعد أن فشل في القبض على عمرو، وألقى بها في سجنه. ورأى معاوية بعد أن أطمئن إلى أن الأمة قد شاهدت الرأس، أن يبعث رأس عمرو إلى زوجته في السجن. يقول ابن كثير: ثم بعث معاوية رأسه إلى زوجته آمنة بنت الشويد، وكانت في سجنه فألقى في حوها، فوضعت كفها على جبينه، ولثمت فمه وقالت: عيبتموه عني طويلاً،

(1) الطبري 148 / 6، البداية 48 / 8.

(2) رواه ابن عساكر وقال ابن حجر في الإصابة سنده جيد (الإصابة 533 / 2) (كنز العمال 498 / 13).

(3) البداية 48 / 8، ابن عساكر (كنز العمال 498 / 13).

(4) التلخيص الصغير للبخاري 105 / 1.



ثم أهديتموه إلى قتيلا، فأهلا بها من هدية، غير قالية ولا مقلية (1).

إن بني أمية سجلوا السطور الأولى في قانون الاضطهاد الذي يحمل غلاف الدين، فمن هنا كانت خطورتهم. ولأجل ذلك حذرت الدعوة منهم، ولقد مزهم الله بعلامات على امتداد تزيخهم في الجاهلية حتى لا تجهلهم قريش.

فبينما كان لبني عبد شمس أنهار كان لبني هاشم أنهار أخرى، وجاءت الدعوة الخاتمة على هذا الأساس من المعرفة، جاءت الدعوة لتنتهي الأحقاد وتعلن: لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وتحذر من أصحاب مستنقعات الحقد لأنهم لو بلغوا لربعون رجلا على رآئك السلطة سيكون قانونهم: السواد بستان لقريش، وأن أبا سفيان لو ولد الناس فلن يلد إلا حلما.

إن الدعوة لشدت الجيل الأول إلى الطويق الذي إذا أخنوا به فلن يضلوا أبدا. وقتل حجر، وقطع رأس عمرو بن الحمق، ومن قبلهما عمار بن ياسر، وزيد بن صوحان، وغوهم ما وقع إلا على طويق ينتهي بتزيق الأمة.

ومن فضل الله تعالى ورحمته، أنه غوس على امتداد طويق الأمة الخاتمة مبشوات وعلامات، تنير الطويق قبل وقوع الحدث كي يحذر الناس. فعمار كان علامة لأحداث محددة، وأبو نر كان علامة لوقت محدد، وحجر بن عدي وأصحابه علامات لرشادية لها مهمة ما، وعند ثقافة ما، في زمن ما. ومعنى أن جبريل عليه السلام يخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن عمرا تقتله الفئة الباغية، وأن الله يغضب لقتل أهل عناء، معنى هذا أن من أراد طويق العصمة من الفتن فلا يقف ضد المبشوات والعلامات، بل يجب عليه أن يبور معهم ويسلك طريقهم. وهذه العلامات باختصار شديد. دعوة للدخول في رحاب الرحمة، والخروج من باب الضنك والعذاب الذي نشأ من اختلافهم وارتفاع أصواتهم وخذلانهم للحق، فإله سبحانه يبين للناس ما يتقون ويكشف لهم طريق المحن. فإذا أمن أهل القوى فتح عليهم سبحانه أبواب البركات، وإذا اختلفوا

(1) البداية والنهاية 48 / 8.

أنار الطويق بالمبشوات والعلامات ليرفع عنهم ما جليوه لأنفسهم، وهذا من رحمته الواسعة. يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " ذهب النوات وبقيت المبشوات " (1). فأغلاق الطويق أمام المبشوات وعلاماتها يعني أن الذي أغلق الطويق يسير في عالم الفتن، وعالم الفتن لا يبوي القاتل فيه في أي شئ قتل، ولا يبوي المقتول في أي شئ قتل. وفي عالم الفتن الراضي بفعل قوم كالدخل فيه معهم. وعلى كل داخل في الباطل إثمان: إثم العمل به وإثم الرضا به.

وليس معنى أن الفتن في الخراج أن يغلق رجال الجيل الأول على أنفسهم الأبواب، لأن الفتن على أيامهم كان عليها علامات وعلامات، وكان إمام الهدى لا يجهله أحد. إن إغلاق الباب عند المقدمة سيكون إغلاقا للحقيقة عند النتيجة. والله تعالى يعري الأحداث لينظر كيف يعمل عباده. كما أن لكل فتنة فقه. فهناك فتنة يبور فقها على رحي " لو أن الناس اعتزلواهم " فالاعتزال هنا المقصود منه تجريد جهات الاستعلاء على عباد الله من المال، والجنود والفقهاء، فالاعتزال سيجعلهم بلا سيف وبلا سجن. وهناك فتن يجب أن يبحث المسلم فيها عن سيف من خشب، وذلك عندما يجد أن الذين من حوله يقتتلون

على المال، أو على شبر من الأرض. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذ رأيت رجلين من أمتي يقتتلان على المال، فاعدد عند ذلك سيفاً من خشب" (2).

وقال: "إذ رأيت الأخوين المسلمين يختصمان في شبر من الأرض فاخرج من تلك الأرض" (3).

وفي الجيل الأول لم يكن الإمام علي، ومن بعده الإمام الحسن، يقاتلان من أجل المال. ولم يخرج أبو ذر، أو عمار، وأويس، أو حجر من أجل المال. فاعتزال هذا الخط يكون اعتزال في غير محله. ولقد رأينا في حركة التزيخ أن الغالب الأعم لم يعتزل الذين أمروا باعتزالهم واعتزلوا الذين نهوا عن

(1) رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه (الإصابة 272 / 8).

(2) رواه الطواني (كنز العمال 148 / 11).

(3) رواه الطواني (كنز العمال 149 / 11).

الصفحة 230

اعتزالهم. ونتيجة لذلك، ركعوا الطريق الذي يؤدي إلى عتواء فقتل حجر.

وغضب الله وأهل السماء. وفي الفتن يقول الإمام علي: "لا يقولن أحدكم:

اللهم إني أعوذ بك من الفتن، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة. ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن، فإن الله سبحانه يقول: "واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة"، ومعنى ذلك أنه سبحانه يختبر عباده بالأموال والأولاد، ليتبين الساخط لوزقه والراضي بقسمه. وإن كان الله سبحانه أعلم بهم من أنفسهم. ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب، لأن بعضهم يحب الذكور ويكوه الإناث. وبعضهم يحب تثمير المال. ويكوه انثلام الحال" (1).

فمن هذا نعلم أن الأحداث عندما تحوي لا بد للأفعال أن تظهر. فإذا أغلقت الأبواب في موضع، فليس معنى هذا أنها تغلق في كل موضع بالنسبة للجيل الأول. وإلا لو كان الاغلاق قاعدة، ما كنا قد علمنا حركة الأحداث.

ولكننا علمنا عندما شاهدنا حركة أبو ذر وعمار وحجر وغوهم. ومن الدليل أيضاً على عدم جدية إغلاق الأبواب في وجه الإمام علي والإمام الحسن، أن من الصحابة من واجه حركة الاستكبار الأموي وهي في عنفوانها، أخذاً بالأسباب في اتجاه رحمة الله الواسعة. ولتكون بصماته شاهدة على الأحداث. روي أن قيس بن خرشه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أبايعك على ما جاءك من الله، وعلى أن أقول بالحق. فقال له النبي: عسى أن يكون عليك من لا تقدر على أن تقوم معه بالحق - (وفي رواية: يا قيس عسى إن مد بك الدهر أن يليك بعدي ولاة لا تستطيع أن تقول بحق معهم) (2)، فقال قيس: والله لا أبايعك على شيء إلا وفيت لك به. فقال له النبي: إذا لا يضوك شيء. فكان قيس يعيب زياد بن أبيه، وابنه عبيد الله، وكان يقول قال لي النبي:

لا يضوك شيء. فُرسل إليه عبيد الله بن زياد وقال له: أنت الذي رَعِم أنه لن

يضرك شيء. فقال: نعم، قال: كذبت أنت تقوي على الله ورسوله. فقال: لا والله. ولكن إن شئت أخبرتك بمن يقوي. قال ابن زياد: وما هو؟ فقال: من ترك العمل بكتاب الله وسنة رسوله. قال: ومن ذلك، فقال: أنت وأبوك ومن أمركم. قال ابن زياد: لتعلمن اليوم أنك قد كذبت. وصاح قائلاً: اتوني بصاحب العذاب. فما لقيس عند ذلك فمات⁽¹⁾.

لقد خذل كثير من الناس علامات البشوى. إن نزول جبريل عليه السلام، وإخبره بأن الله يغضب لمن يقتل في عواء، كان دعوة ليقف الجيل الأول بعد قتل حجر وقفة رجل واحد حول الإمام الحسن. بعد أن خذوه وكشفوا خنادقه أمام خيل معاوية. كان دعوة ليأخذوا بالأسباب التي ترضي الله بعد غضبه، والله واسع المغفرة. ولكن حركة التزيخ سرت على خلاف ذلك. وإذا كان الستار قد تول هنا على قطع رأس عمرو بن الحمق، والطواف بها في الأمصار، ثم لرسالها إلى زوجته في السجن، فإن الستار سيفتح هناك على رأس أبي عبد الله الحسين بن علي عليهما السلام ليطوف بها جند الباطل. في عالم دق فيه الخذلان أوتاده، ونصب خيامه، وفتح فيه بنو أمية أبواب الفتن التي ليس فيها على روى على مصلعها.

4 - مقتل أبي عبد الله الحسين:

أولا - وجاء وفد أغيلمة قريش:

عندما قتلت النولة حجر ورفاقه في عام 51 هـ تحت شعار حفظ الأمن الداخلي، كان الجهاز السوري لنظام حكم بني أمية يدبر الخطط لاغتيال بعض الشخصيات الذين لا يمكن قتلهم على طريقة حجر وغره، وذلك لإفساح المجال أمام النظام الوراثي الذي عزم عليه معاوية. ولقد ظهرت رغبة معاوية في تنصيب ابنه يزيد خليفة على المسلمين عندما قدم له المغيرة بن شعبة مفتاح هذا الأمر. روي أن المغيرة خشي أن يستغني عنه معاوية بعد أن كبر سنه ورق

(1) قال السيوطي أخرجه الطبراني والبيهقي (الخصائص الكبرى 254 / 2) وأخرجه الحسن بن سفيان في مسنده وقال ابن حجر رجاله ثقات (الإصابة 250 / 5).

عظمه. فأتى معاوية وقال له: يا أمير المؤمنين إن الأنفس ليغدى عليها وواح، ولست في زمن أبي بكر ولا عمر، فلو نصبت لنا علما بعدك نصير إليه، فإني قد كنت دعوت أهل العواق إلى بيعة يزيد. فقال له معاوية: يا أبا محمد انصرف إلى عملك ورم هذا الأمر لابن أخيك⁽¹⁾.

وهكذا من أجل أن يضمن المغيرة إبقاء عمره في ولاية الكوفة، فتح على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بابا يأتي بخير، حتى أن المغيرة نفسه قال لاتباعه عقب خروجه من عند معاوية: والله لقد وضعت رجله في ركاب طويل ألقى عليه أمة محمد

وروي أن معاوية بعد لقائه مع المغيرة خطب أهل الشام فقال: يا أهل الشام. كبرت سني، وقرب أجلي، وقد أردت أن أعقد لرجل يكون نظاما لكم، وإنما أنارجل منكم⁽³⁾. لقد أراد معاوية من هذا البيان أن يدخل إليهم بلافتة الشورى، ويترك الأمر إليهم في اختيارهم، ثم يتصرف مع هذا الاختيار حسب ما يحب. وروي أن أهل الشام أجمعوا واتفقوا على عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فشق ذلك على معاوية وأسوها في نفسه⁽⁴⁾، وروى أن عبد الرحمن بن خالد كان مريضاً، فدخل عليه ابن أثال النصواني فسقاه سما⁽⁵⁾، وروى الطوي وغوه: أمر معاوية ابن أثال أن يحتال في قتله، وضمن له أن هو فعل ذلك أن يضع عنه خواجه ما عاش، وأن يوليه جباية خراج حمص، فلما قدم عبد الرحمن بن خالد حمص، دس إليه ابن أثال شربة مسمومة، فشربها فمات، وولاه معاوية خراج حمص، ووضع عنه خواجه⁽⁶⁾. وكان ذلك عام 46 هـ أي بعد صلحه مع الحسن بخمس سنين تقريبا.

(1) العقد الفريد 98 / 1، الطبري 169 / 6، البداية والنهاية 79 / 8.

(2) العقد الفريد 98 / 1.

(3) أسد الغابة 440 / 3.

(4) أسد الغابة 440 / 3.

(5) أسد الغابة 440 / 3.

(6) الطوي 128 / 6.

الصفحة 233

ومعاوية كان قد تصالح مع الحسن رضي الله عنه بشروط، ولكنه مزق صحيفة الشروط بعد أن علم أن الموقف العسكري في صالحه، ونظراً لأن توكييته النفسية لا تقوى على الوفاء بالشروط. وكان من ضمن هذه الشروط رأي يكون للحسن الأمر من بعده، وكان الحسن يريد من وراء هذا أن تنتوق الأمة نظام معاوية الذي لن يكون بحال نظاماً يحمل روح الإسلام وأسمى معانيه. فيكون هذا دعوة للفظه جماهرياً، أو دعوة للالتفات حول الحسن فيما بعد. وهذا كله من باب الأخذ بالأسباب، وفقاً لحركة الدعوة وحركة الناس.

ولم يكن معاوية يفكر بعيداً عن هذا التصور الذي يسير عليه الحسن، لذا بادر من أجل تصفية الحسن عليه السلام. روي أن جعدة بنت الأشعث بن قيس امرأة الحسن سقته السم، وقد كان معاوية دس إليها: إنك إن احتلت في قتل الحسن، وجهت إليك بمائة ألف درهم، وزوجتك من يزيد، فكان ذلك الذي بعثها على سمه. فلما مات، وفي لها معاوية بالمال، وأرسل إليها: إنا نحب حباة⁽¹⁾ يزيد، ولولا ذلك لوفينا لك بترويجه⁽²⁾.

وروي أن الحسن رضي الله عنه قام فدخل المخوج ثم خرج فقال: لقد لفظت طائفة من كبدي، أقلبها بهذا العود، ولقد سقيت

السم مرراً، وما سقيت مرة هي أشد من هذه. ثم قال لرجل دخل عليه: سلني قبل أن لا تسألني فقال:

ما أسألك شيئاً يعافيك الله⁽³⁾. وروي أن الطبيب قال عندما جاؤوا به: هذا رجل قطع السم أمعاه⁽⁴⁾.

وروى أبو الفوج الأصفهاني: أن الحسن أرسل إلى عائشة أن تأذن له أن يدفن مع النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: نعم.

فلما سمعت بنو أمية بذلك استلاموا في السلاح. وتناولوا هم وبنو هاشم في القتال. فبلغ ذلك

(1) حبة / من حبابي بمعنى نصر ومال واختفى.

(2) مروج الذهب 476 / 2 ، الحاكم (المستترك 176 / 3) ، ابن أبي الحديد 708 / 4 .

(3) البداية والنهاية 42 / 8 ، الحاكم (المستترك 176 / 3) ، ابن أبي الحديد 708 / 4 .

(4) البداية 43 / 8 .

الصفحة 234

الحسن. فرسل إلى بني هاشم، أما إذا كان هذا فلا حاجة لي فيه، ادفنوني إلى جنب أمي. ودفن إلى جنب فاطمة عليها

(1) السلام .

لقد كان الجهاز السوي يعمل بكل قواه من أجل إفساح الطويق لعهود تتوبع فيه الأغيلمة السفهاء الذين حذر منهم النبي

صلى الله عليه وسلم. حتى سعد بن أبي وقاص لم ينج من ضربات هذا الجهاز، فروي أن معاوية حين أراد أن يعهد إلى يزيد

دس لسعد السم فمات (2) . وبعد أن فرغت الساحة من الذين يخشى معاوية أن يقتلهم على مسمع وموأي من قريش، ولم يتبق

إلا نفر يمكن أن يقوم العسكر بتصفيتهم، بدأ معاوية يبايع لابنه يزيد. وروي أن سعيد بن عثمان بن عفان عندما سمع بمبايعة

معاوية لابنه قال لمعاوية: لقد اصطنعك أبي ورفاك حتى بلغت باصطناعه المدى الذي لا يجري إليه ولا يسامي، فما شكرت

بلاءه، ولا جزيته بالائه، وقدمت علي هذا - يعني يزيد - وبايعت له، ووالله لأنا خير منه أبا وأما. فقال معاوية: أما بلاء أبيك

فقد يحق علي الخراء به، وقد كان من شكوي لذلك أني طلبت بدمه، حتى تكشفت الأمور، ولست بلائم نفسي في التشمير. وأما

فضل أبيك على أبيه، فأبوك والله خير مني، وأقرب برسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما فضل أمك على أمه، فما ينكر امرأة

من قريش خير من امرأة من كلب. وأما فضلك عليه فوالله ما أحب أن الغوطة دحست لزيد رجلا مثلك. فقال له يزيد وكان

حاضر المجلس: يا أمير المؤمنين ابن عمك!

وأنت أحق من نظر في أمره، وقد عتب عليك لي فأعتبه، فعندئذ ولاه معاوية حرب خوسان (3) . وروي أن عمرو بن حزم

وفد على معاوية وقال له: أذكرك الله في أمة محمد بمن تستخلف عليها. فقال: نصحت وقلت وأيك، وإنه لم يبق إلا ابني

(4) وأبنؤهم، وابني أحق .

(1) ابن أبي الحديد 708 / 4 .

(2) مقاتل الطالبين 60 / 1 .

(3) الطوي 171 / 6 ، البداية والنهاية 80 / 8 .

(4) تزيخ الخلفاء 192 / 1 .

ومن الطريف أن يقول ابن كثير في هذه الكلثة: لما مات الحسن، هوي أمر يزيد عن معاوية، ورأى أنه لذلك أهلا، وذلك من شدة محبة الوالد لولده.

ولما كان يتوسم فيه من النجاسة الدنيوية، وسيمًا ولأد الملوك ومعرفة بالحروب، وترتيب الملك، والقيام بأبيهته (1) .. وروى ابن كثير أن معاوية قال:

إني خفت أن أذر الرعية من بعدي كالغنم المطورة ليس لها راع. ونحن نعجب:

أخاف معاوية على الرعية من بعده فنصب لهم يزيد، ولم يخف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته فلم ينصب لهم أحدا؟! أكان معاوية حريصا على الإسلام فأتى بولاد الملوك للقيام بأبهة الحكم، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم حريصا عليه ولذلك لم يأت بأصحاب الطهر والعفاف؟! لا والله. لقد كان النبي يخاف على أمته، وكان حريصا على استتار الدعوة.

وروي أن معاوية وهو يعد المسوح لابنه أمر بإحضار رؤوس القبائل، وعندما حضروا قام رجل من الأرد فأشار إلى معاوية وقال: أنت أمير المؤمنين، فإذا مت فأمر المؤمنين يزيد، فمن أبي هذا فهذا. وأخذ بقائم سيفه فسله. فقال له معاوية: أقعد فأنت من أخطب الناس (2). وفي سنة ست وخمسين هجرية دعا معاوية الناس إلى بيعة ابنه يزيد من بعده وجعله ولي

العهد (3). وروى ابن كثير أن معاوية قال ليزيد: كيف ترك فاعلا إن وليت. قال: كنت والله يا أبا عملا فيهم عمل عمر بن الخطاب. فقال معاوية: سبحان الله يا بني، والله لقد جهدت على سوة عثمان، فما أطقها فكيف بك وسوة عمر (4). وقال ابن كثير وهو يصف يزيد: كان فيه خصال محمودة في الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الوأي في الملك، وكان فيه أيضا إقبال على الشهوات، وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات، وإماتتها في غالب

(1) البداية والنهاية 80 / 8.

(2) البداية والنهاية 80 / 8.

(3) مروج الذهب 37 / 3.

(4) الطوي 168 / 6.

(1) الأوقات . ولقد وصفه غير واحد وسيأتي في موضعه:

ثانيا: أبنائنا خير من أبنائهم:

بينما كان الإعلام الأموي يشيد بأبناء بني أمية وورد قول معاوية: " إنه لم يبق إلا ابني وأبنؤهم وابني أحق " كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أقام.

(2) الحجة على هذا القول ومثله، وأودع هذه الحجة في ذاكرة الجيل الأول، وقوله تعالى: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم)

وقوله النبي صلى الله عليه وسلم للحسن والحسين: " هذان ابناي وابن ابنتي اللهم إني أحبهما... " (3).

وقوله: " إن الله تعالى جعل نزية كل نبي في صلبه. وإن الله تعالى جعل نزيتي في صلب علي بن أبي طالب ⁽⁴⁾ ، وقوله: " إن لكل نبي أب عصبية ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم.. " ⁽⁵⁾ وقوله: " نحن خير من أبنائنا، وبنونا خير من أبنائهم، وأبناء بنينا خير من أبناء أبنائهم " ⁽⁶⁾ . إلى آخر الأحاديث التي ذكرت علاقتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم. فجميع هذا يطيح بادعاءات معلوية وغره. لأن محبة الوالد لوالده، وتوسم الوالد في ولده النجاسة الدنيوية، والقيام بأبهة الملك شئ، ومحبة النبي لأبنائه وتعليمهم للقيام بأمر الله شئ آخر، وهذا لا يلتقي مع هذا من أول الخط وحتى حوض النبي صلى الله عليه وسلم، لأن لكل مقدمة نتیجتها وفقا لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم. فهذا كله كان في دائرة الذهن لدى الجيل الأول، ولأن النبي صلى الله عليه.

(1) البداية والنهاية 230 / 8.

(2) (سورة آل عمران: الآية 61.

(3) (رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم وابن حبان (تحفة الأهرلي 274 / 10)، (الجامع 656 / 5).

(4) (رواه الطواني عن جابر والخطيب عن ابن عباس (كنز العمال 600 / 11).

(5) (رواه الحاكم وابن عساكر عن جابر (كنز العمال 98 / 12).

(6) (رواه الطواني عن معاذ (كنز العمال 104 / 12).

الصفحة 237

وسلم يحبهم، فلقد حصنهم وحذر من اقتحامهم بسوء، لأن حربهم حربه ⁽¹⁾ ، ومن آذى أهله فقد آذى الله ⁽²⁾ . ومن أبغض الحسن والحسين فقد أبغض رسول الله ⁽³⁾ . ومعنى تحصين النبي لهم أن النبي رفعهم إلى مكانه لا يظوهم فيها من خذلهم. وهذه المكانة هي نفسها مكانة الدعوة والدعوة هي الحق. والحق حق ولو قل اتباعه، والباطل باطل ولو كثر اتباعه. وبهذا التحصين يكون الاعتداء عليهم هو اعتداء على الدعوة، ومن اعتدى على الدعوة فقد اعتدى على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهذا ما صرحت به الأحاديث وزى أنه لا داعي لتكرارها هنا.

إن السيدة فاطمة كانت لها مهمة في حدث محدد، قد زاه صغوا، ولكنه تحت المجهر يكون كبا، والإمام علي كانت له مهمة محددة، وكذلك الإمام الحسن، والإمام الحسين جاء دوره في الوقت المناسب. فهو حجة على عصر يتم فيه توجيه الأبناء، فابن عثمان، وابن خالد، وابن سعد، وابن معلوية، وابن الزبير، وابن أبي بكر كل منهم يريد الملك. فشاء الله أن تبدأ حركة الحسين في هذا الوقت، علما بأن في ذاكرة الجيل الأول الأحاديث التي تضع أبناء أمية وأبناء الحكم في دائرة التحذير منهم. فهم الذين رأهم النبي على منوه ينزون نزو القردة، وهم الذين سيتخنون مال الله هولا، ودين الله دخلا، وعباد الله هولا. وفي نفس الوقت تحوي الذاكرة على أبناء دائرة الطهر، أبناء الكساء والمباهلة.

ولقد علم الجميع أنهم أهل البيت ولا أحد غوهم. فالنبي كان يمر ببيت فاطمة لمدة سبعة أشهر ويقول في وقت الصلاة

والناس في المسجد: " الصلاة يا أهل

(1) رواه أحمد والترمذي والحاكم والطبراني وابن ماجة وابن أبي شيبة وابن حبان في صحيحه والضايا (جامع الترمذي 699 / 5)، (الفتح الرباني 106 / 22)، (المستدرک 149 / 3)، (كنز العمال 96 / 97 / 12 / 149، 13 / 640)، (البداية والنهاية 38 / 5).

(2) أبو نعيم عن علي (كنز العمال 103 / 12).

(3) أحمد (الفتح الرباني 7 / 23) والحاكم وصححه (المستدرک 166 / 3)، وابن ماجة وصححه البوصوي (كنز العمال 116 / 12).

الصفحة 238

البيت... " (1) . وعلى هذا فداوة الاختيار لا إجبار فيها، والله تعالى ينظر إلى عباده كيف يعملون. فإن ركوا طريق الدعوة أقر عليهم بركات، وإن لم يركوا، فإن الدعوة سائرة في عالميتها، ولن توقف حركتها قبيلة من القبائل، حتى ولو قامت بتجنيد عصر بالكامل للنيل من هذه الدعوة، ولمن صد عقوبة عند الله والله يطرده ولا بقاء لشيء يطرده الله. إن الحسين بن علي جاء في الوقت المناسب كي يسوق الناس إلى الطريق المستقيم، فهو في هذا الوقت عنوان لداوة المبشرات، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ذهب النوات وبقيت المبشرات " (2) . فالحسين يقف عند مرحلة من مراحل الإخبار بالغيب، يقف كعلامة بارزة، فإذا بعث إليه الناس أو جئوه، فليس عليه إلا أن يلبي.

وكذلك كان الإمام علي. لقد عهد إليه النبي أن لا ينزع، فإذا بايعه الناس فعليه أن يلبي. فإن تركه فعليه أن يأخذ بالأسباب ويدعوهم وفقا لحركة الدعوة، ووفقا لحركة الناس بحيث أن لا يكون هناك إكراه بأي صورة من الصور.

فالإسلام لا يكره أحدا، والإسلام لا يقيم وزنا إلا للذين يفكرون بمفهوم الحلال والحرام، ويؤمنون بأن غدا حساب وما الدنيا إلا قنطرة للآخرة. فالإمام علي شق الطريق معهم، وقايل على التأويل آخذا بكل سبب من الأسباب. وعند ما وقفوا بالغ في نصحهم، وهو يعلم أنه على طريق هو مقتول فيه لا محالة.

وسنة الأخذ بالأسباب سنة إلهية، فإله سبحانه يقول: " ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * أنهم لهم المنصورون " (3) أي: أنا قضينا قضاء محتوما فيهم أنهم لهم المنصورون. فالوئل عليهم السلام منصورون في الحجة لأنهم على الحق، والحق غير مغلوب، وهم منصورون على أعدائهم، إما بإظهارهم عليهم، وإما بالانتقام منهم. وهم منصورون في الآخرة، وقال تعالى: " كتب الله لأغلبن أنا ورسلي " (4) فالنصر هنا واقع لا محالة ولكن طريقه هو

(1) رواه الترمذي (البداية والنهاية 205 / 8).

(2) ابن ماجة وابن حبان في صحيحه (الإصابة 272 / 8).

(3) سورة الصافات: الآية 171 - 172.

(4) سورة المجادلة: الآية 21.

الصفحة 239

طريق الأخذ بالأسباب، يقول تعالى: " أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولم يأتيكم مثل الذين خلو من قبلكم مستهم البأساء والضواء " (1)

وزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) ، فهذه الآية تدل على نوام أمر الابتلاء والامتحان وجريانه على امتداد التاريخ الإنساني. والابتلاء والامتحان لا بد أن يكون له حركة، لينظر الله ماذا يفعل عباده وهو أعلم بحركاتهم وسكناتهم من أنفسهم. وأيضاً في قوله تعالى: (وإن جندنا لهم الغالبين) ⁽²⁾ ، فالمؤمنين الذين يعملون بأمر الله ويجاهدون في سبيله، ما داموا على هذا الطريق وهذه الصفة، فهم متصورون غالبون. ولكن لا بد لهم من الأخذ بالأسباب التي تحكمها الدعوة، وفي عالم الأسباب يكون الابتلاء والامتحان. يقول تعالى وهو يخاطب المؤمنين: (لا تهواوا ولا تحزوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) ⁽³⁾ ، إنه ضوء على الحركة لتستقيم المقدمات مع النتائج.

والإمام الحسين ادخه الله سبحانه لوقت سلت فيه الأمة في أعماق الفتن والابتلاء، وكان عليه السلام يعلم بأنه مقتول في نهاية الطريق، والذين من حوله يعرفون هذا جيداً. ولكنه لم يجئ ليقتل، وإنما جاء ليخرج أهل عسوه من كهف مظلم، وأهل عسوه أحوار في الاختيار، فمن أجابه ونصوه يكون قد عبر قنطرة الدنيا بأمان - وركب معهم الذين جاؤوا من بعدهم، وفي الحديث: " المرء مع من أحب " ⁽⁴⁾ ، ومن قاتله وسفك دمه فله عند الله عقوبة، وركب معه من أحبه، حتى يصير الناس إلى فسطاطين، إيمان لا نفاق فيه، ونفاق لا إيمان فيه.

حتى يأتي الله بأمره. فركب المهدي فسطاط الأيمان. ويركب الدجال فسطاط النفاق. " وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبرة إلا لفتنة

(1) سورة البقرة: الآية 214.

(2) سورة الصافات: الآية 173.

(3) سورة آل عمران: الآية 139.

(4) البخاري (الصحيح 77 / 4).

(1) الدجال " .

ولدقة مهمة الحسين عليه السلام أحيط بدائرة تحذيرية من أخطر ما يكون فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط " ⁽²⁾ . قال في تحفة الأرواح: علم الرسول ما سيحدث له، فخصه بالذكر، وبين أنهما كالشئ الواحد في وجوب المحبة، وحرمة التعرض والمحرمة. وأكد ذلك بقوله: " أحب الله من أحب حسينا " ، فإن محبته محبة الرسول، ومحبة الرسول محبة الله، وقوله: " حسين سبط من الأسباط " أي: أمة من الأمم في الخير، والأسباط في أولاد إسحاق بن إبراهيم الخليل بمقولة القبائل في ولد إسماعيل. وأحدهم سبط، فهو واقع على الأمة والأمة واقعة عليه ⁽³⁾ . وقال في لسان العرب: إن الأسباط في ولد إسحاق من إبراهيم بمقولة القبائل في ولد إسماعيل عليهم السلام، فولد كل ولد من ولد إسماعيل قبيلة، وولد كل ولد من ولد إسحاق سبط. وإنما سمي هؤلاء بالأسباط وهؤلاء بالقبائل، ليفصل بين ولد إسماعيل وولد إسحاق. وسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم معناه أي: طائفة وقطعة منه. ومن هذا الحديث يمكن القول. بأن

الذي يقاقل الحسين فإنه سيدخل في دائرة الذي يريد أن يقضي على نسل الرسول حتى قيام الساعة، أي سيكون بمثابة الذي يريد أن يقضي على نسل الرسول حتى قيام الساعة، أي سيكون بمثابة الذي يريد أن يخلع الشجرة بجنورها، وهذا قمة الفساد في الأرض.

فأي مكان لأولادهم هنا؟ وكيف يتم وضعهم على رقبة الأمة؟ أن لفظ سبط جاء ليكون ممزا عن لفظ القبيلة، فهم قبائل. وحتى لا تختلط عليهم الأمور، ويدخلون دهاليز الوأي والتأويل، جاءت الكلمة التي يعرفون أنهم ليسوا

(1) رواه أحمد والبخاري وقال الهيثمي رجاله صحيح (الزوائد 335 / 7).

(2) رواه الترمذي وحسنه وقال رواه غير واحد (الجامع 658 / 5) وقال في تحفة الأحول رواه البخاري في الأدب المفود وابن ماجه والحاكم (تحفة الأحول 280 / 11)، ورواه أحمد (الفتح الوباني 179 / 23).

(3) تحفة الأحوازي 280 / 10.

الصفحة 241

من نسيجها. وبنفس الكلمة أقام النبي صلى الله عليه وسلم عليهم الحجة فقال: إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلف نبي، وإنه لا نبي بعدي. إنه سيكون خلفاء فنكثر، قالوا: فما تأمونا؟ قال: فوا بببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم، فإن الله سائلهم عما استوعاهم " (1).

إنه طريق الحسن والحسين، ومن معالمه: "وأعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم" ومن معالمه أن الله هو الذي استوعاهم. بمعنى أن معلوية، والمغفرة، وزيادة، ومروان، وغوهم ليس لهم يد في عملية التصيب وهذا باب كبير لا مجال لبحثه هنا. وكان الحسين يعلم أنه سبط من الأسباط، وأنه سيعتدى عليه كما اعتدت اليهود على أعلامها. فكان يقول: "والله لتعدن كما اعتدت بنو إسرائيل في السبت" (2). والذي يتدبر أحاديث الإخبار بالغيب، يجد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحذر من اتباع طريق الذين ضلوا وانحرفوا من بني إسرائيل. وفي هذا إشارة إلى أن بعد الحسين الذي وصفه الحديث بسبط من الأسباط سيكون اختلاف وفرقة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لتهوكن كما تهوكت اليهود والنصرى" (3)، فالنبي حذر، وعلم من ربه أن هناك من لن يأخذ بالتحذير - فأخبر بما سيكونوا عليه في بطن الغيب.

إن الحسين لم يأت ليقتل، وإنما جاء لينظر الله عمل الأمة فيه، وهو سبحانه العليم المطلق، والأمة ستقتل الحسين، وهي في هذا العمل مختلة، ولو شاء الله ما فعلوه. فهو سبحانه العزيز وغوه ذليل، فقول معلوية: "إنه لم يبق إلا ابني وأبناءهم وابن أحق" قول يصلح للتجربة، وزينة يتوهم بها الذين لا يشبعون حتى ولو جلسوا على رآئك الملك. إن أبناء النبي في دائرة الطهر وعلى قمة الحجة. أما غوهم فهم مبتلون بهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن

(1) رواه عبد الله بن أحمد وقال في الفتح إسناد صحيح (الفتح 52 / 23).

(2) البداية والنهاية 169 / 8، الطوي 217 / 6.

أهل بيتي سيلقون بعدي من أمتي قتلا وتشويدا، وإن أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم" (1). فإذا رفع واحد من أولادهم سيفاً على أبي عبد الله الحسين فيكون بمثابة الذي رفع سيفه على طائفة هي من الرسول والرسول منها. عن ابن عباس قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فوج ما بين فخذي الحسين وقبل زيبته" (2).

ثالثاً - النبي صلى الله عليه وسلم يبكي:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يرى الرؤيا في منامه، فإذا استيقظ حدث الناس بحقيقة جاءت في صورة رؤيا. وكان الله تعالى في أحيان أخرى يريه بعينه رؤية فواها رأيت العين، أي يقع بصره عليها من دون خلق الله، فيحدث بها على أنها حقيقة. فكان عليه الصلاة والسلام يجلس في المسجد وأمامه الناس.

فيقول: "من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه، فوالله لا تسألون عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا، والذي نفسي بيده لقد عرضت علي الجنة والنار آنفاً في عرض هذا الحائط وأنا أصلي..." (3)، وروي أن أحد أصحابه قال له: "أين مدخلي يا رسول الله. قال: النار" (4). وروي أنه خطب فقال: أيها الناس إن فيكم منافقين، فمن سميت فليقم، قم يا فلان، قم يا فلان، حتى عد، ستا وثلاثين" (5).

فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يرى فوداً ما أمامه، ثم يرى حركة هذا الفود في التلويح، ثم يرى مدخل هذا الفود هل في الجنة أم في النار. ووفقاً لهذا كان يخبر عن بني أمية ويقول: "رأيت في منامي بني الحكم" (6)، "رأيت

(1) رواه نعيم ابن حماد والحاكم (كنز العمال 169 / 11).

(2) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد 186 / 9).

(3) رواه أحمد والشيخان (كنز العمال 421 / 11).

(4) البخاري ك الاعتصام (الصحيح 259 / 4).

(5) رواه البيهقي بسند صحيح (الخصائص الكوى 174 / 2).

(6) رواه الحاكم والبيهقي وابن عساكر وأبو يعلى ويعقوب بن سفيان (كنز العمال 117).

بني أمية.. " (1)، ويخبر عن أحداث أخرى فيقول: "إني رأيت مواقع الفتن خلال بيوتكم" (2)، "رأيت الدجال أعور العين اليمنى..." (3). ويخبر عن أحداث أخرى فيقول: "ليدخلن عليكم رجل لعين" (4). إلى غير ذلك من أحاديث الإخبار بالغيب. وكلما تكررت الحوادث أكثر من مرة، كان أمره عظيماً.

كحديث الكساء تولت آيته في بيت أم سلمة، ثم تكرر دعاء الرسول لأهل الكساء في أكثر من موضع فسمعت به عائشة،

ووائلته، وعمر بن أبي سلمة، وشداد بن أبي عمار، وزينب بنت أبي سلمة، وإسماعيل بن عبد الله. وكذلك مروره صلى الله عليه وسلم على بيت فاطمة ستة أشهر، وفي رواية سبعة أشهر، وندوة الصلاة يا أهل البيت، وأيضا حديث من كنت مولاه فعلي مولاه، سمعته جوع غفوة ورواه غير واحد. وأيضا حديث الارتداد. وذلك عندما يقول النبي:

" يارب أصحابي فيقال إنك لا تنوي ما أحدثوا بعدك "، فلقد تكرر في أكثر من موضع، ورواه أكثر من واحد. وهكذا فالأمور العظيمة والأحداث المصيرية تتكرر مشاهدتها أكثر من مرة ويخبر عنها الرسول في أكثر من موضع ويرويها أكثر من واحد.

وأحداث أبو عبد الله الحسين عليه السلام من هذا النوع، فلقد قل بها جبريل عليه السلام، وتول بها ملك لم يكن يتول على النبي صلى الله عليه وسلم من قبل، وتول بها ملك المطر. وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأحداثها: علي وعائشة وأبو بكر وعمر وأم سلمة وابن عباس وغوهم، ووصف المكان الذي سيور فيه القتال وسماه، بل وأحضر له جبريل من تربتها... حتى

= (358 / 11)، (الزوائد 244 / 5).

(1) رواه الحاكم وأقوه الذهبي (المستدرک 3 / 171) والتومذني وابن جرير والبيهقي (البداية والنهاية 6 / 243).

(2) مسلم (الصحيح 18 / 7) ك الفتن.

(3) مسلم (الصحيح 18 / 60) ك الفتن.

(4) رواه أحمد والزار إلا أنه قال دخل الحكم بن أبي العاص والطواني في الأوسط (الزوائد 5 / 241).

الصفحة 244

أن الطوي وغوه رروا: إن أهل ذلك الزمان يقولون ذلك الأمر وينتظرونه في كل يوم وليلة⁽¹⁾. وروى الحاكم عن ابن عباس قال: ما كنا نشك، وأهل البيت متوافرون، أن الحسين يقتل بالطف⁽²⁾، وذكر ابن كثير عن عمرة بنت عبد الرحمن أنها قالت: أشهد لقد سمعت عائشة تقول: إنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يقتل الحسين برض بابل⁽³⁾.

وروي عن علي أنه قال: ليقتلن الحسين قتلا، وإني لأعرف تربة الأرض التي بها يقتل. قريبا من النهرين⁽⁴⁾. وروي أنه

مر أيام صفيين بكر بلاء فنادى:

اصبر أبا عبد الله، اصبر أبا عبد الله بشط الوات...⁽⁵⁾، ثم أخبر بقتل الحسين. وروي أنه جاء على الموضع الذي

سيقتل فيه الحسين وقال: ههنا مناخركابهم، وموضع رحالهم، ومهراق دمائهم، فتية من آل محمد يقتلون بهذه العوصة، تبكي

عليهم السماء والأرض⁽⁶⁾، وفي رواية قال: ها هنا، ها هنا، ثقل لآل محمد يقول ها هنا فويل لهم منكم، وويل لكم منهم، فقال

له رجل: ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: ويل لهم منكم تقتلونهم، وويل لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم النار⁽⁷⁾،

والحسين كان يعرف كل ما يتعلق بتحركاته، كان يعرف أن جند الباطل سيقطع رأسه، وأنهم سيسرقون متاعه بعد ذلك، بل

والأكثر من ذلك أن أمير القتل عمر بن سعد بن أبي وقاص، كان يعرف موقفه من الحسين قبل أن يتحرك الحسين، روي أن

علي بن أبي طالب عليه السلام قال لعمر بن سعد: كيف أنت إذا قمت مقاما خير فيه بين الجنة والنار فتختار

(2) (رواه الحاكم وقال السيوطي سنده صحيح (الخصائص الكرى 213 / 2).

(3) البداية والنهاية 177 / 8.

(4) رواه ابن أبي شيبة (كنز العمال 673 / 13).

(5) (رواه أحمد وأبو يعلى والزار ورجاله ثقات (الزوائد 187 / 9)، (الفتح الرباني 175 / 23).

(6) (رواه أبو نعيم (الخصائص الكرى 214 / 2) ابن أبي الحديد 620 / 1.

(7) ابن أبي الحديد 620 / 1.

الصفحة 245

النار (1) ؟ تماما كما أخبر القآن بأن أبا لهب لن يؤمن، في الوقت الذي يدعو فيه القآن الجميع إلى الإيمان، إن هناك أنماطا بشرية علم الله أن الرسول لو جاءهم بكل آية فسيكون لهم تفسيرهم الخاص. بل إن هناك أنماطا سيظلمون العودة إلى الدنيا يوم القيامة ليعملوا صالحا، والله يعلم أنهم لو عادوا فلن يفعلوا إلا ما كانوا يفعلون على الرغم من أنهم شاهدوا النار بأعينهم. يقول تعالى: "ولو ترى إذ وقفوا على النار، فقالوا: يا ليتنا نودولنا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) (2).

فؤلاء منهم من عاصر الأنبياء ومنهم من أخذ بذبول الآباء، وعلى رؤوسهم جميعا حجة من الله، لأن الله تعالى لا يكذب أحدا، إلا بعد أن يقيم عليه الحجة، فإن أعرض عنها ولم يحدث نفسه بتوبة، كانت له عند ربه الأعلى عقوبة.

وبعد أن بينا أن الناس كانوا يعرفون حقيقة الأحداث قبل وقوعها، كي يأخذوا بالأسباب التي تجعلهم يحققون سعادة الدنيا والآخرة، ولا يدفعون الأحداث دفعا حتى يسفك الدم الحرام. نقدم الآن بعض الأحاديث التي رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم عن متولة الحسن والحسين، ولقد قدمنا بعضا على امتداد هذا البحث. ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة". وهذا الحديث محفوظ ورواه ستة عشر صحابيا (3). وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "هما ريحانتي من الدنيا" (4)، وقوله: "من أحبهما فقد

(1) رواه ابن عساکر (كنز العمال 674 / 13).

(2) سورة الأنعام: الآية 27 - 28.

(3) قال في نظم المتناثر في الحديث المتواتر نقل عن السيوطي أنه متواتر رواه ستة عشر صحابيا (نظم المتناثر 196 /

(1).

(4) رواه البخاري (الصحيح 306 / 2) وأحمد والتزمذي وابن عدي وابن عساکر والنسائي والزار (كنز العمال 113،

(114 / 12)، (الزوائد 181 / 9)، (البداية والنهاية 205 / 8).

(1) "أحبنى" . فموتتهما في الجنة لا خلاف عليها، وموقعهما في الدنيا واضح، وروي أن ابن عباس كان يأخذ الوكاب للحسن والحسين إذركبا ووى هذا من النعم عليه (2) .

وما ورد في أبي عبد الله كثير، ومنه عن أبي هريرة قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو حامل الحسين وهو يقول: "اللهم إني أحبه فأحبه" (3) . وعن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

من سوه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى الحسين بن علي (4) والأحداث الكوى على امتداد الجيل الأول كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدد فيها المثل الأعلى المتوقع، والمثل الأعلى المنخفض، ويبين أن طريق المثل الأعلى المتوقع غايته الله ومكانه في الجنة. أما المثل الأعلى المنخفض، فإن على طريقه تكون الفتن التي يغيب فيها العقل، وتوقع فيه الحقائق، وتلتبس فيه الأمور، ولا ينجو إلا العالم بما يجري. وبداية طريق المثل الأعلى والمرتدع أن يتذكر الإنسان أنه سيموت وسيبعث وسيعرض على الله الملك الحق، وأن هذه الدنيا صغيرة، وهي دار للامتحان عند داوة فيها نقص في الأنفس، ونقص في الثوات، وشئ من الخوف، وشئ من العوج. ودار للامتحان عند داوة زينها الشيطان وزخرفها رغبة منه في الاغواء والاحتناك. وعلى امتداد طريق المثل الأعلى المتوقع، يواجه الإنسان المحن زاد الصبر. أما طريق المثل الأعلى المنخفض، فدائما ما يشق خطاه في ساحات الأمانة والافتخار بالأموال والأولاد.

وأصحابه يعز عليهم أن يغادروا الدنيا وليس لهم أعلام تأكل وتحلد وتسجن باسمهم. فطريق المثل الأعلى المنخفض هو نفسه الطريق الذي يتكالب فيه

(1) رواه أحمد (البداية والنهاية 205 / 8).

(2) ابن كثير (البداية والنهاية 40 / 8).

(3) رواه الحاكم وقال الذهبي صحيح (المستترك 177 / 3).

(4) رواه أبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد 187 / 9)، ورواه ابن كثير في البداية بلفظ: من أحب أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى هذا، وقال تعوده به أحمد (البداية والنهاية 206 / 8).

أصحاب الأنبياء على المستضعفين من أبناء هذه الأمة الجريحة ولقد كان أبو عبد الله الحسين علما من أعلام طريق المثل الأعلى المتوقع الذي غايته الله وحده. كان أبو عبد الله دعوة لوفض الظلم والاستكبار على عباد الله المساكين. فالسلطة الأموية تسير بالقافلة نحو طريق لا يورث الأمة إلا الذل والعار. ألم يقتل حجر بن عدي ويدعي معلوية زياد وتسير الصلاة في طريق الضياع؟ ألم تنفق أموال المسلمين على تدبير المؤامرات وقتل من وى الدولة أنهم معرضين لسياساتها؟ ألم تتخذ الدولة بطانة لها من النصارى وعلى رأسهم سرجون الرومي موضع سر معلوية؟ ثم ألم يكن هذا كله مقدمة أو خطوة داخل موبع اتخاذ مال الله ولا ودين الله دخلا وعباد الله خولا؟ وعلاوة على هذا، ألم تكن الساحة قد طفحت تحت ثقافة السب بأجيال سيكون لهم

الأثر البالغ على مسودة الأمة بعد عام ستين، ذلك العام الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيكون مقدمة للفجار والمنافقين الذين يتاجرون بالقآن. وفوق هذا الطوفان يبحث المحترفين من أبناء الصحابة عن طويق لكي يصلوا به إلى سدة الحكم.

إن هذا الطفح كان لا بد له من مثل أعلى مرتفع، فمن تذكر الموت وعلم أن لكل نوة في هذا الكون رسالة، وأن رسالته هي الوقوف في خنادق الدعوة والسير على طويقها وفي اتجاه أهدافها. فمن علم ذلك فلن يجد مشقة في الوقوف تحت مظلة المثل الأعلى المرتفع. ويكفيه عنوان " من أحب أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى هذا - يعني الحسين ⁽¹⁾ ، ويكفيه أيضا العنوان التحذوي القاطع الباتر: " إن ابني هذا يقتل برؤس من أرض العراق يقال لها:

كربلاء، فمن شهد ذلك فلينبوه " - وفي رواية: " فمن شاهده فلينبوه " - وفي رواية: " فمن شهد منكم ذلك فلينبوه " ⁽²⁾

(1) رواه الإمام أحمد (البداية والنهاية 8 / 206).

(2) رواه البغوي وابن السكن والبرودي وابن مندة وابن عساكر وأبو نعيم (البداية والنهاية 8 / 199)، (كنز العمال 126 / 12)، (الخصائص الكوى 2 / 213)، (أسد الغابة 1 / 349)، (الإصابة 1 / 68).

الصفحة 248

ولأن النبي صلى الله عليه وسلم علم من ربه ماذا ستكون عليه الأمور، كان يبكي بكاء شديدا، كلما جاء إليه نعى أبي عبد الله الحسين. وكما ذكرنا فلقد جاء إليه النعي في أكثر من موضع، وحمله أكثر من واحد. عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ذات يوم في بيتي.

فقال: لا يدخل علي أحد، فانتظرت، فدخل الحسين، فسمعت نشيح (أي:

صوت معه توجع وبكاء) رسول الله يبكي، فاطلعت فإذا حسين في حوّه، والنبي صلى الله عليه وسلم يمسح جبينه وهو يبكي. فقلت: والله ما علمت حين دخلت. فقال: إن جبريل كان معنا في البيت. قال: أفتحبه؟ قلت: أما من الدنيا فنعم. فقال: إن أمّتك ستقتل هذا برؤس يقال لها: كربلاء. فتناول جبريل من توبتها وأراها النبي... ⁽¹⁾ ، وفي رواية: فقلت لجبريل: رأيتي توبة الأرض التي يقتل فيها - فجاءني فهذه توبتها ⁽²⁾ ..

وروى الإمام أحمد عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

لقد دخل على البيت ملك لم يدخل على قبلها. فقال لي: إن ابنك هذا حسين مقتول. وإن شئت لرئيتك من توبة الأرض التي يقتل بها، قال: فأخرج توبة حواء ⁽³⁾ .

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: استأذن ملك القطر أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم، فأذن له. فقال لأم سلمة: احفظي علينا الباب لا يدخل علينا أحد، فجاء الحسين بن علي، فوثب حتى دخل، فجعل يصعد على منكب النبي صلى الله عليه وسلم.

فقال الملك: أتحبه؟ قال: نعم، فقال:

(1) قال الهيثمي رواه الطبراني بأسانيد رجال أحدهما ثقات (الزوائد 189 / 9).

(2) ابن سعد عن أم سلمة (كنز العمال 126 / 12).

(3) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل (176 / 27 الفتح الوباني) وقال في الفتح: قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (187 / 9)، وأورده ابن كثير في البداية (199 / 8)، وقال:

روى هذا الحديث من غير وجه عن أم سلمة ورواه الطواني عن أبي إمامة وفيه قصة أم سلمة. ورواه ابن سعد عن عائشة بنحو رواية أم سلمة وروى ذلك من حديث زينب بنت جحش ولبابة وأم الفضل امرأة العباس. وأرسله غير واحد من المتابعين.

الصفحة 249

إن أمتك تقتله، وإن شئت لربتك المكان الذي يقتل فيه. قال: فضوب بيده فراه زابا أحمر. فأخذت أم سلمة ذلك التراب فصوته في طرف ثوبها، قال أنس:
(1)
فكنا نسمع أنه يقتل بكربلاء .

فماذا كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم عقب كل إخبار من ملك من الملائكة؟ لقد كان النبي يبلغ ويحذر، روى الطواني: فلما ذهب جويل من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوج والحسين في يده يبكي، فقال: يا عائشة إن جويل أخونني أن ابني حسين مقتول في أرض الطف، وإن أمتي ستقتن من بعدي، ثم خوج النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه منهم: علي، وأبو بكر، وعمر، وحذيفة، وعمار، وأبو ذر رضي الله عنهم وهو يبكي، فقالوا:
ما يبكيك يا رسول الله. فقال: أخونني جويل أن ابني الحسين يقتل بعدي برض الطف، وجاءني بهذه التربة، وأخونني أن فيها مضجعه (2).

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن عائشة قالت: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم راقدا. إذ جاء الحسين يحوا إليه، فنحيته عنه، ثم قمت لبعض أمري، فدنا منه فاستيقظ يبكي، فقلت: ما يبكيك قال: إن جويل رأني التربة التي يقتل عليها الحسين، فاشتد غضب الله على من يسفك دمه. وبسط يده فإذا فيها قبضة من بطحاء، فقال: يا عائشة والذي نفسي بيده إنه ليخونني، فمن هذا من أمتي يقتل حسينا بعدي؟ (3).

أما عندما قول الملك على النبي وأخوه بمقتل الحسين. فلقد روى الطواني عن عائشة: أن الحسين بن علي دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا عائشة ألا أعجبك؟! لقد دخل.

(1) أورده ابن كثير في البداية 199 / 8 ، وأخرجه أبو يعلى في مسنده وأبو نعيم في الدلائل (202 / 3)، ورجاله ثقات. وأخرجه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

(2) أخرجه الطواني في الكبير والأوسط باختصار (الزوائد 188 / 9)، وأخرجه الموردي في أعلام النبوة ص 83، ورجاله ثقات.

(3) رواه ابن سعد في الطبقات وابن عساكر عن أم سلمة باختصار (كنز العمال 127 / 12).



(1) علي ملك أنفا ما دخل علي قط. فقال: إن ابني هذا مقتول. وقال: إن شئت لرئتك توبة يقتل فيها. فتنول الملك بيده. فلراني توبة حواء . وروى عبد بن حميد في مسنده بسند صحيح أن النبي كان يبكي ويقول: " يا ليت شعوي من يقتلك بعدي "، وروى الطواني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " نعي إلي الحسين وأتيت بتوبته وأخبرت بقائله، والذي نفسي بيده، لا يقتلوه بين ظهواني قوم لا يمعنونه، إلا خالف الله بين صدورهم وقلوبهم وسلط عليهم ثورهم وأبسهم شيعة (2) . وروى ابن عساكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

" حسين أتيت بتوبته، ورأيت قائله أما أنه لا يقتل بين ظهواني قوم فلا ينصرونه.

ألا عمهم الله بعقاب " (3) .

مما سبق علمنا أن العصر الأول كان على علم بأحداث أبي عبد الله الحسين في خطوطها العريضة، وأنهم كانوا يعلمون أيضا بما سيقرب على قتل الحسين. فالطريق بعد القتل فيه عذاب من الله، وأمروا أن ينصروا الحسين. ومن الثابت والمحفوظ أن معاوية كان يسب أهل البيت على منابر دمشق وغوها. ولم تقف الأثرية ضد هذه الثقافة التي ليس فيها نصر للحسين. لم يعملوا بسياسة:

" لو أن الناس اعتزلوهم " (4) ، ولم يأخذوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع " أيها الناس خنوا العطاء ما كان عطاء، فإذا تجاحفت قريش على الملك، وكان عن دين أحدكم فدعوه " (5) وقال: " خنوا العطاء ما دام عطاء، فإذا كان إنما هورشا فاتركوه، ولا راكم تفعلون، يحملكم على ذلك الفقر

(1) (رواه الطبراني في الكبير (كنز 128 / 12) ورجاله ثقات وهم: محمد بن عبد الله الحضرمي قال الدارقطني: ثقة والحسين بن حريث بن الحسن من رجال الصحاح غير ابن ماجه، وثقه النسائي وابن حبان، والفضل بن موسى من رجال الصحاح الست وثقه ابن معين وابن سعد، وابن وكيع وغيرهم.

(2) (الطواني (الزوائد 190 / 0، وإسناده جيد (كنز العمال 167 / 11).

(3) ابن عساكر (كنز العمال 128 / 12).

(4) (رواه البخاري (الصحيح 280 / 2) ك. بدء الخلق.

(5) (رواه أبو دلوود حديث 2958.

والحاجة. ألا وإن رحي بني هرج قد دلرت، وإن رحي الإسلام داوة، وإن الكتاب والسلطان سيفتوقان. فنوروا مع الكتاب حيث دار.. " (1) .

إن الأغلبية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بأقل من خمسين سنة لم يعترفوا بني أمية، على الأقل عندما تبينوا أن معاوية يتجاحف على الملك وهو من الطلقاء، ويبذر المال بزوا لوقف تقدم الذين يدورون مع الكتاب حيث دار . ولا يعني هذا أن بني أمية شقوا طويقهم بسهولة ويسر، لأن خير أمية أخرجت للناس ما نامت، إن كان أكثرهم قد قتل. ولو

لم يكن هناك غير هذه الفئة القليلة لكان ذلك كفاية، لأن التزيخ قد سجل وعلم الشاهد والغائب أن خير أمة أخرجت للناس وقفت بالموصاد للظلم والاستكبار وبطر الحق، الذي اتخذ من الدين رداء له. ولم يحدث على امتداد التزيخ الإنساني أن خرجت أمة على أمة، أمة ترفع راية الإسلام وهي تويد بطر الحق، وأخرى على بينة وترفع راية القوان والسنة، وتتادي بإقامة العدل. ولم يحدث في أمة من الأمم أن خرج منهم رجال يحملون القوان في صدورهم، ليأمروا بالمعروف في عالم مدجج بالسلاح، وأهله لا تجاوز القوان واقبهم. لم يحدث هذا من قبل، ولكنه حدث في الأمة الخاتمة التي حمل أمانتها خير أمة أخرجت للناس.

رابعا - على مفترق الطرق:

قبل اشتعال الأحداث التي تنتهي بمقتل الحسين كان هناك تغوات، ذهب معها قديم وجاء عليها جديد منها: موت المغوة بن شعبة أحد دهاة العرب، والذي يعود الفضل إليه في وضع بذوة الحكم الوراثي في ساحة الملك، في أمة رفضت الحكم الوراثي في دائرة الطهر. وضع بذوة لا تتبث إلا بالسيف والدهاء والمكر. في حين أن هذه البذوة كان يقابلها بذوة أخرى شجرتها التقوى وفروعها اليقين وتسقى من حوض فيه ماء لذة للشربين. مات المغوة سنة خمسين بعد أن ضوبه الطاعون (2). وفي سنة اثنين وخمسين مات زياد ابن أبيه، فراع معاوية،

(1) رواه الطبراني عن معاذ، وابن عساكر عن ابن مسعود (كنز 216 / 1).

(2) الطوي 131 / 6.

الصفحة 252

مات بالطاعون بعد أن فعل الأفاعيل بأمة النبي الأمي صلى الله عليه وسلم:

ومات سعوة بن جندب الذي قتل من المسلمين ثمانية آلاف، وعند ما قيل له: هل تخاف أن تكون قد قتلت بويئا قال: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت (1). وروي أنه قال في آخر أيام حياته وبعد أن فقد منصبه: لعن الله معاوية، والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذبتني أبدا (2). ومات عمرو بن العاص الذي نظر إليه عمر بن الخطاب يوما وقال: " ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أموا. (3)

وروي أن ابن العاص عندما احتضر حول وجهه إلى الجدار وقال: اللهم أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فما انتهينا ولا يسعنا إلا عفوك. وفي رواية أنه خوع خوعا شديدا، فلما رأى ذلك ابنه عبد الله قال: يا أبا عبد الله ما هذا الخوع، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدينك ويستعملك؟ قال: أي بني: وسأخبرك عن ذلك، أما والله ما أروي أحبا كان ذلك أم تألفا يتألفني (4). ومات أيضا معاوية بن أبي سفيان بن حرب، كان عمر بن الخطاب يقول للناس: " أتذكرون كسوى وعندكم معاوية " (5)، ويقول لهم: " دعوا فتى قريش وابن سيدها، إنه لمن يضحك في الغضب، ولا ينال منه إلا على الرضا " (6)، وإذا قال له معاوية: موني يا أمير المؤمنين بما شئت. يقول له عمر: لا آموك ولا أنهاك (7). وعندما استعمله عمر كتبت هند بنت عتبة

إلى معاوية: إن هذا الرجل قد استتهضك في هذا الأمر، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكوهت. وكتب إليه

أوه: يا بني إن هؤلاء الوهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فوقعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا، فصاروا قادة وسادة
وصونا أتباعا، قد ولوك جسيما من أمورهم، فلا تخالفهم، فإنك تحري إلى أمد، فنافس فإن بلغته أورثته عقبك⁽¹⁾ .

لقد ذهب جيل عاصر حذيفة الذي كان يصلي سوا، وجاء جيل آخر على أكتافه تضيع الصلاة ويشق شعر الأدوة وشعر
المجون طويقه على أيدي الأقيشر، وحنين الحوى، والثرفواني، وبكر بن خرقة، وغوهم من الذين سلموا أعلامهم إلى خليفة
ماجن متهتك خليع، نسي أنه خليفة للمسلمين، واندفع في حياة لاهية مستهترة، وهذا الخليفة هو الوليد بن يزيد، وهو فرع أخير
من فروع شجرة بني أمية⁽²⁾ .

والجيل الذي ذهب وضع على رقبة الأمة من هو أشد. وروي أن يزيد بن معاوية عندما جلس على ربيعة الملك وقام
بأبهته، استشار مستشهده النصواني سوجون. ذكر ابن كثير: أن سوجون الرومي كان كاتباً لمعاوية وصاحباً لأمره⁽³⁾ . وقال:
عندما تولى يزيد أقر نواب أبيه ولم يغزل أحدا منهم وهذا من نكاه يزيد⁽⁴⁾ . وقال ابن حجر في الإصابة: سوجون مستشار
يزيد هو الذي أشار عليه بتولية عبيد الله بن زياد الكوفة ليتصدى لأتباع الحسين⁽⁵⁾ . وذكر الطوي: لما اجتمعت الكتب عند
يزيد، دعا يزيد سوجون وقال له: مارأيك فإن حسينا قد توجه نحو الكوفة. فقال سوجون:

رأيت معاوية لو بعث لك كنت آخذا وأيه؟ قال يزيد: نعم. فأخرج سوجون عهد عبيد الله على الكوفة، وقال: هذارأي

معاوية وقد أمر بهذا

الكتاب ، فمعلوية وسرجون كتبا الكتب وأودعوها القرائن، فكل حدث يحدث له في الخزينة كتاب، وسوى فيما بعد عهد معلوية ليزيد في أحداث الحرة، حيث أوصى معلوية لمسلم بن عقبة لينزل به الأنصار.

وبينما كان سرجون يخطط في دار الخلافة، كان مروان بن الحكم يخدمه في مكان آخر سواء أكان في الحكم أو في خروجه. فهو في هذه الآونة كبير بني أمية، وبكر أبناء الحكم بن العاص الذي لعنه النبي صلى الله عليه وسلم ومروان في صلبه. وبين هؤلاء وقف عبد الله بن الزبير، وكان قد تناقل عن مبايعة يزيد، وذهب إلى مكة ودعا الناس إليه، وعبد الله كان علما من أعلام يوم الجمل، وهو الذي أفسد أبيه، وكان الكوسي أملا من أماله.

وبعيدا عن هؤلاء وقف عبد الله بن عمر بن الخطاب، ولم يكن مصدر خطورة لأحد، فهو لم ينصر علي وبائع يزيد، ووقف في وجه الخرجين عليه يوم الحرة، ثم بايع عبد الملك بن مروان. وبعد ضوب الكعبة طاف ابن عمر بها، وطاف معه الحجاج بن يوسف. وكان قد أمره عبد الملك أن يأخذ مناسكه عن عبد الله وسيأتي ذلك في موضعه.

والخلاصة: كانت الأحداث على أبواب خروج الحسين، يدورها سرجون ومعلوية - وإن كان قد مات - وبزيد، وكان ربان السفينة عبيد الله بن زياد، السفاح الذي تتولى أمامه خجلا أفعال بسر بن رطأة، وسورة بن جندب، وغوهمارغم قسوتها. وكانت الأحداث تبشر بثقافة لا تنتج إلا جيلا متسلقا يبحث عن السلطة، أو جيلا حاملا ليس عنده المقورة ليميز بين الصالح وبين الطالح، وبين ما هورجس وما هو طاهر. وبالجملة: كان الجيل الأول في القون الأول أمام امتحان لا إيجاب فيه، إما أن يختار يزيد ويقف معه لتصفية معارضيه، كابن الزبير والخولج ليستقيم الملك للأسرة الأموية، وإما أن ينقوا فيما حولهم ويقوعن الأحداث على وجهها الفطوي، بعيدا عن زخرف أعلام المعرضة، وبريق

(1) الطبري 200 / 6.

الصفحة 255

أهدافها التي ما هي إلا سواب. ويساعدهم في ذلك مخزونهم الفطوي الذي هو حجة بذاته، وما حفر في داوة ذهنهم من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يختاروا لأنفسهم الدائرة التي لا ترى عندها زخرفا أو بريقا، وإنما أخبار بحياة كريمة من ورائها موت وبعث وحساب، يتوتب عليه أما جنة وإما نار...

لقد كانت الساحة تعج بأعلام الزينة والإغواء وعلى طرقها تسير قوافل الاحتتاك، وكانت هناك حجة من الله على هذا الأعلام وهذه القوافل، حتى لا تكون لهم على الله حجة يوم القيامة. وحجة الله ظاهرة ولا تقوض نفسها على أحد، وإنما تأخذ الحجة بالأسباب في مخاطبة الناس كي يساعدهم ذلك في الالتفاف حول طوق النجاة.. وشاء الله أن يكون الحجة في هذه الساحة مقولا، وشاء الله أن يكون الناس على علم بأنه مقتول حتما، وشاء سبحانه أن يكون في الخندق المقابل للحجة أهل دنيا معهم الأعلام التي يزينها البريق، وهنا يكون الابتلاء - فمن سيقف في ساحة الدماء؟ ومن سيقف في ساحة الدينار والروهم؟

إن الجيل الأول في القون الأول كان في مفترق طرق. لأن الحجة في سنن الوجود يحب أن يهوع إليه الناس ما دام فيه من الله وهان. لأن الناس مطالبون بحركة لينظر الله كيف يعملون، قال تعالى: "والذين جاهلوا فينا لنهدينهم سبلنا" (1). فالخطوة

الأولى منهم، فإذا جاهلوا فيه عند المقدمة، ترتب على ذلك عطاء الله إن كانوا صادقين. وقال تعالى: "ولينصون الله من ينصوه" (2)، وقال: "إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى" (3)، لقد آمنوا ولا فؤادهم الله هدى، فإذا هرع الناس إلى الحجة، سلك بهم طرق الدنيا عن طريق الدين.

فالدنيا طويقة خاصة في الحياة تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي، والحياة الدائمة الحقيقية. والسعادة الحقيقية يصل إليها الإنسان. أو يعمل في الوصول إليها. عندما يكون مؤمنا بالله وكافوا بالطاغوت.

(1) سورة العنكبوت: الآية 69.

(2) سورة الحج: الآية 40.

(3) سورة الكهف: الآية 13.

الصفحة 256

خامسا - الوسائل والحصار:

بعد وفاة معاوية، حدث ما توقعه الحسن بن علي، فلقد علم كثير من أهل الحجاز واليمن والوفاق أن بني أمية ليسوا بأصحاب دين، بقدر ما هم أصحاب بغي ومكر - وكان الحسن بن علي، بعد أن صالح معاوية، يريد أن ينطلق أهل البيت فيما بعد من هذه الأرضية. فالذين علموا أن حركة بني أمية تنور حول توريث الكرسي وجمع الأموال، سيعيدون التفكير ويردون الحق إلى أصحابه لينالوا علما ونجاة. وأصحاب الحق لن يطمعوا في ما بين أيدي الناس، لأنهم لا يأكلون الصدقة، ولا يريدون إلا نصيبهم الذي كتبه الله لهم من الخمس.

فوفقا لهذا التفكير ينال الناس العلم والمال، ويفتح الله عليهم بركات من السماء، ولكن معاوية قطع طريق هذا الخط بعد أن فوض ابنه على العقل.

وما يهمننا هنا هو إلقاء الضوء على حركة أهل الوفاق، كيف بدأت؟ وما هي القوة التي أدت إلى فشلها، ثم كيف كانت حركة أبي عبد الله الحسين مع البداية، وكيف كانت حركته مع القوة الغاشمة التي صدت عن سبيل الله؟

روي أن أبا عبد الله الحسين عليه السلام خرج إلى مكة، في الوقت الذي كانت الشيعة مجتمعة في الوفاق في مقتل سليمان بن صود صحابي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - قال في الإصابة: كان سليمان خوا فاضلا شهد صفين مع علي (1)

- فقال سليمان: إن معاوية قد هلك، وإن حسيننا قد تقبضه على القوم ببيعتهم، وقد خرج إلى مكة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون.

أنكم ناصروه ومجاهدوا عهده، فاكتبوا إليه. وإن خفتهم الوهن والفشل، فلا تغروا الرجل من نفسه قالوا: بل نقاتل عهده، ونقتل أنفسنا دونه. قال: فاكتبوا إليه. بسم الله الرحمن الرحيم. لحسين بن علي من سليمان بن صود، والمسبيب بن نجية (2). ورفاعة

بن شداد، وحبیب بن مظاهر، وشيعته من

(2) قال في الإصابة أدرك النبي وهو قول ابن سعد وقيل غير ذلك (الإصابة 175 / 6).

الصفحة 257

المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة. سلام عليك. فإننا نحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو. أما بعد. فالحمد لله الذي قضم عدوك الجبار العنيد، الذي انوى على هذه الأمة فابوها أمرها، وغصبها فيأها، وتآمر عليها بغير رضى منها، ثم قتل خيلها واستبقى شولها، وجعل مال الله نولة بين جبارتها وأغنيائها، فبعدا له كما بعدت ثمود. إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق... " (1)

ثم أرسلوا الكتاب مع عبد الله الهمداني، وبعد يومين بعثوا إليه بنحو من ثلاثة وخمسين صحيفة موقعة من الرجل والاثنين والأربعة. ثم لبثوا يومين آخرين، وبعثوا إليه بكتاب قالوا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، لحسين بن علي من شيعته من المؤمنين والمسلمين. أما بعد. فحي هلا. فإن الناس ينتظرونك ولا رأي لهم في غيرك فالعجل العجل والسلام عليك (2)، ثم كتب إليه شبت بن ربعي ومن معه: أما بعد فقد أخضر الجنب، وأينعت الثمار، وطمت الجمام، فإذا شئت فاقدم على جند لك مجند. والسلام عليك (3)

وروي أن الوسل تلاققت كلها عند الحسين عليه السلام، فقرأ الكتاب، وسأل الوسل عن أمر الناس. ثم كتب مع هانئ بن هانئ السبيعي، وسعيد بن عبد الله. وكانا آخر الوسل: بسم الله الرحمن الرحيم. من حسين بن علي إلى الملاء من المؤمنين والمسلمين. أما بعد. فإن هانئا وسعيدا أقدم علي بكتيكم، وكانا آخر من قدم علي من رسلكم. وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم ومقالة جلکم، إنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق. وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأموتته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم. فإن كتب إلي أنه قد أجمع رأي ملتكم ونوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت علي به رسلكم وقوات في كتيكم،

(1) الطبري 197 / 6.

(2) الطوي 197 / 6.

(3) الطوي 197 / 6.

الصفحة 258

أقدم عليكم وشيكا أن شاء الله. فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والأخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله. والسلام (1)

وبعث الحسين إليهم مسلم بن عقيل، وكان ذلك لثمان ليال ماضين من ذي الحجة سنة 60 . وكان الحسين قد خرج من المدينة إلى مكة لليلتين بقيتا من رجب سنة 60 . وأقام بمكة شعبان وشوال وذا القعدة، ثم خرج منها لثمان ماضين من ذي الحجة يوم التروية (2)، وكان مسلم بن عقيل قد بعث إليه من الكوفة: " أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله، وقد

بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً، فعجل الاقبال حين يأتيك كتابي، فإن الناس كلهم معك، ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى والسلام (3) .

وروي أن الحسين بعد أن وصلت إليه رسائل أهل الكوفة، وعلم أن هوى أهل البصرة ليس مع آل معاوية، بعث مع مولى لهم يقال له سليمان بكتاب إلى رؤوس الأخماس بالبصرة وإلى الأشواف قال فيه: أما بعد. فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه، وأكومه بنبوته، واختاره لرسالته ثم قبضة الله إليه. وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل به صلى الله عليه وسلم وكنا أهله وأولياءه وورثته، وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فوضينا وكهنا الفوق، وأحببنا العافية. ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن ولاه، وقد أحسنوا وأصلحوا، وتحروا الحق فرحمهم الله وغفر لنا ولهم، وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب. وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أوري أهدكم سبيل الرشاد. والسلام عليكم ورحمة الله (4) . وروي أن أشواف أهل البصرة عندما قرؤوا الكتاب كتم غير

(1) الطبري 198 / 6.

(2) الطوي 315 / 6.

(3) الطوي 311 / 6.

(4) الطوي 200 / 6.

الصفحة 259

واحد منهم يدعى المنذر بن الجارود. الذي خشي أن يكون الكتاب مدسوس من قبل عبيد الله بن زياد ولذا توجه إلى مقر الإمارة، وأعطى الكتاب لابن زياد. فأمر بإحضار سليمان حامل رسالة الحسين وضوب عنقه (1) . ثم صعد إلى المنبر وقال: إني لنكل لمن عاداني، وسم لمن حل بني.. يا أهل البصرة. إن أمير المؤمنين يزيدولاني الكوفة، وأنا غاد إليها الغداة، وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان. وإياكم والخلاف والإجاف، فالذي لا إله غوه، لئن بلغني عن رجل منكم خلاف، لأقتلنه وعريفه ووليه. ولأخذن الأدنى بالأقصى حتى تسمعوا لي، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق. أنا ابن زياد. أشبهته من بين من وطئ الحصى. ولم ينو عني شبه خال ولا ابن عم (2) . ثم خرج من البصرة، واستخلف أخاه عثمان وأقبل إلى الكوفة. كما أوصى معاوية بن أبي سفيان. وروي أنه عندما دخل الكوفة كانت عليه عمامة سوداء. وكان مثلثاً، فظن الناس حين قدم عبيد الله بن زياد أنه الحسين، فأخذ لا يمر على جماعة من الناس إلا سلموا عليه وقالوا: مرحبا بك يا ابن رسول الله، قدمت خير مقدم. فأى ابن زياد من تباشروهم بالحسين عليه السلام ما ساءه. فلما دخل القصر وعلم الناس في الكوفة أنه عبيد الله بن زياد، دخلهم من ذلك كآبة وحزن شديد (3) . ولما قول ابن زياد القصر، نودي الصلاة جامعة. فاجتمع الناس. فخرج وقال: إن أمير المؤمنين ولاني مصوكم وثوكم. وأموني بإنصاف مظلومكم.... وبالشدّة على مريبكم وعاصيكم. وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهدته... (4) .

مما سبق علمنا أن الجوع بعثت بالوسائل إلى أبي عبد الله الحسين، ولم يكن النظام الحاكم بعيدا عن ما يحدث. فلقد أغلق الأبواب على البصوة، وأعلن قانونه بصراحة " لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه ولأخذن

(1) الطبري 200 / 6.

(2) الطوي 200 / 6.

(3) الطوي 201 / 6.

(4) الطوي 201 / 6.

الصفحة 260

الأدنى بالأقصى حتى تسموا ولا يكون فيكم مخالف"، إنه قانون له عند فقهاء السلطان والفتنة ألف تأويل. أما في الكوفة فلقد أعلن الأمير بأنه متبع فيهم أمر أمير المؤمنين يزيد ومنفذ فيهم عهده. ولعل في هذا كفاية لمن أراد أن يورث يزيد من دم الحسين أو أن يلتصقوا إليه الأعداء، وقيل أن نسلط الأضواء على أعمال ابن زياد في الكوفة. فلننظر مجريات الأحداث في مكة.

سادسا - العزيمة والإصرار:

كان الحسين يقف كحجر عثرة في طريق آمال عبد الله بن الزبير، الذي وضع مكة في اعتباره، لينطلق منها ويدعو إلى نفسه. روي أن ابن الزبير قال للحسين: ما تريد أن تصنع؟ فقال الحسين: والله لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة، ولقد كتب إلي شيعتي بها وأشواف أهلها، واستخير الله. فقال له ابن الزبير: أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها. وبعد أن قال ذلك، خشي أن يتهمه، فقال للحسين: أما إنك لو أقمت بالحجاز، ثم أردت هذا الأمر ههنا. ما خولف عليك إن شاء الله. وعندما خرج الحسين من عنده قال الحسين: ها إن هذا ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العواق.

وقد علم أنه ليس له من الأمر شيء، وأن الناس لم يعدلوه بي فود أي خرجت منها لتخلو له ⁽¹⁾. ولقد كان الحسين يعلم أن ابن الزبير سيقتل في مكة على طريق الفتن وذلك وفقا لإخبار النبي صلى الله عليه وسلم بالغيب عن ربه. وروي أن ابن الزبير الذي لزم الكعبة وقد عرف أن أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه أبدا ما دام حسين بالبلد، لأنه حسينا أعظم في أعينهم وأنفسهم منه قال للحسين: إن شئت أن تقيم أقمت فوليت هذا الأمر... فقال الحسين: إن أبي حدثني أن بها كبشا يستحل حرمتهما. فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش ⁽²⁾.

فالحسين يتعامل مع الأحداث وفقا لمعايير دقيقة، فابن الزبير يريد الحكم

(1) الطبري 216 / 6.

(2) الطوي 217 / 6، البداية 166 / 8.

ويعمل من أجله. وهذا قد حدث. وبما أنه ليس وحده الذي يقا تل في عالم القتن من أجل الحكم، فإن من يريد أن يتو ع منه هذا الحكم فسيقا تله. وفي جميع الأحوال ستكون مكة أرض الصواع، ومكة حرمها الله، لذا فالحسين تعامل مع الحدث من هذا الباب. فهو لا يريد أن يدخل في صواع مع ابن الزبير أو غوه داخل الحرم، لأن للحرم عنده مكانة وقدا سة، ولأنه يعرف طريقة جيدا. اختار الذهاب إلى الكوفة فهناك أو على طريقها يواجه أصول البغي والإرهاب والفتن التي اجتمعت كلها في سلة واحدة. فهناك تكون الحركة لها معنى. أما في مكة ما أروانا ماذا كان سيحدث لو واجه الحسين خصومه فيها. ولذا قال الحسين لابن الزبير: والله لأن أقتل خرجا منها - أي مكة - بشبر أحب إلي من أن أقتل داخلا منها بشبر ⁽¹⁾.

وبعد أن عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة، أشفق عليه الكثير من الناس، لأنهم كانوا يعلمون نتيجة هذا الخروج، وعندما كلموه في ذلك قال:

إنني رأيت رؤيا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأموت فيها بأمر. وأنا ماض له عله كان أولى. فقيل له: فما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدثت أحدا بها وما أنا محدث بها حتى ألقى ربي ⁽²⁾. وروي أنه قال لابن الزبير، وأيم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام، لاستخرجوني حتى يقضوا في حاجتهم، ووالله ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في السبت ⁽³⁾. وإنني ماض في أمر رسول الله حيث أمرني. وأنا لله وأنا إليه راجعون ⁽⁴⁾. ثم قال عليه السلام: والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا، سلط الله عليهم من يذلهم، حتى يكونوا أدل من قوم الأمة ⁽⁵⁾.

(1) الطبري 217 / 6.

(2) الطوي 219 / 6، أسد الغابة 21 / 2، البداية 167 / 28.

(3) البداية والنهاية 169 / 8، الطوي 217 / 6.

(4) مقتل الحسين / الخوارزمي 158 / 1.

(5) الطوي 223 / 6، البداية والنهاية 169 / 8.

ويبدو، والله أعلم، أن أجهوة التيار الأموي كانت تعد العدة من أجل القيام بعمل تخريبي للإضوار بالحسين في موسم الحج. ولا قدر الله لو حدث هذا، لوضعت الدماء على وجه فريضة إسلامية يحتشد فيها الناس، ولترتب على ذلك أمور الأمة في غنى عنها. ويبدو أن ابن عباس فطن لهذا الأمر عندما وجد الحسين طاف بالبيت، وبين الصفاء والمروة، وقص شوه، وحل من عمرته بينما الناس يتوجهون إلى منى ⁽¹⁾ ففي هذا الوقت يقول ابن عباس: كلمني حسين في الخروج فقلت: لولا أن يزي ذلك بي أو بك لشبكت بيدي في رأسك. فقال الحسين: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلي من أن يستحل بي حرم الله ورسوله. قال ابن عباس: فذلك الذي سلى بنفسه عنه ⁽²⁾.

وخوج الحسين ومعه أهل بيته، وروي أنه لما خرج من مكة، اعترضه رسل عمرو بن سعيد ابن العاص عامل يزيد بن

معاوية على مكة، فقالوا له:

انصرف، أين تذهب؟ كانوا يريدون أن يعود إلى مكة، فأبى عليهم ومضى، وتدافع الفويقان، فاضطربوا بالسياط، ثم إن الحسين وأصحابه امتنعوا منهم امتناعاً قويا. ومضى الحسين عليه السلام على وجهه. فناوه: يا حسين ألا تتقي الله، تخرج من الجماعة وتفوق هذه الأمة. فتلى قوله تعالى: (لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل. وأنا وئ مما تعملون) (3). وكان الحسين قد تلى قوله تعالى: " فخرج منها خائفا يترقب. قال: رب نجني من القوم الظالمين)، وذلك عندما سار نحو مكة بعد أن رفض بيعة يزيد، فلما دخل مكة تلى قوله تعالى: " فلما توجه تلقاء مدين، قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) (4)، وعندما خرج من مكة تلى قوله تعالى: (لي عملي ولكم عملكم... الآية).

(1) الطبري 217 / 6.

(2) رواه الطواني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد 192 / 9).

(3) الطوي 218 / 6، البداية والنهاية 166 / 8.

(4) الطوي 191 / 6.

الصفحة 263

وفي الطريق انتهى إلى ماء من مياه العرب، فإذا عليه عبد الله بن مطيع، فلما رأى الحسين قام إليه وقال: بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله. ما أقدمك؟

فقال له الحسين: كان من موت معاوية ما قد بلغك. فكتب إلي أهل العواق يدعونني إلى أنفسهم. فقال له ابن مطيع: ... فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحدا أبدا. والله إنها لحومة الإسلام تنتهك، وحومة قويش، وحومة العرب، فلا تفعل ولا تأت الكوفة، ولا تعرض لبني أمية. فأبى الحسين إلا أن يمضي (1). وقال له آخر: إني مشفق عليك من مسيرك، إنك تأتي بلدا فيه عماله وأمرؤه، ومعهم بيوت الأموال. وإنما الناس عبيد لهذا الوهم والدينار. ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك بالنصر ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك (2). فأبى الحسين إلا أن يمضي.

سابعا - التخويف والإهاب:

كتب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد: كتب إلي شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجوع لشق عصا المسلمين، فسر حين تَوَأ كتابي هذا، حتى تأتي أهل الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخزرة، حتى تتقفه فتوثقه أو تقتله والسلام (3). ولقد بينا كيف دخل ابن زياد الكوفة وعلى رأسه عمامة سوداء، وماذا قال للناس عندما خطبهم وكان قد خطب في أهل البصرة من قبل وهددهم.

وروي أن ابن عقيل تول في الكوفة على دار هانئ بن عروة، وكان الشيعة يتكتمون أخبره خوفا عليه من ابن زياد. ولكي يصل ابن زياد إلى ابن عقيل وأصحابه، دعا مولى له يقال له: معقل وقال له: خذ ثلاثة آلاف روم ثم اطلب مسلم بن عقيل، واطلب لنا أصحابه، ثم أعطهم هذه الثلاثة آلاف وقل لهم:

استعينوا بها على حرب عدوكم، وأعلمهم أنك منهم. ففعل الرجل ذلك، فجاء إلى المسجد وسمع الناس يقولون: هذا يبايع للحسين، فتقدم وقال: يا عبد الله إني أمرؤ من أهل الشام مولى لذي الكلاع. أنعم الله علي بحب هذا البيت وحب من أحبهم، فهذه ثلاثة آلاف توهم أردت بها لقاء رجل منهم بلغني أنه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكنت أريد لقاءه، فلم أجد أحدا يدلني عليه ولا يعرف مكانه. وإني لجالس آنفا في المسجد. إذ سمعت نوا من المسلمين يقولون. هذا رجل له علم بأهل البيت، وإني أتيتك لتقبض هذا المال. وتدخلي على صاحبك فأبايعه. وإن شئت أخذت بيعتي له قبل لقائه... فشكره الرجل ودعا له وقال له: لقد ساءني معرفتك إياي بهذا الأمر من قبل أن ينمى، مخافة هذا الطاغية وسطوته.. وأخذ بيعته وأخذ عليه الموائيق المغلظة ليناصحن وليكتمن. فأعطاه من ذلك مارضي به ⁽¹⁾، ثم إن معقلا مولى ابن زياد ذهب إلى واحد من أتباع ابن عقيل، وهو مسلم بن عوسجة ليدخله على ابن عقيل. فأقبل به حتى أدخله عليه، وأصبح معقل أول داخل وآخر خرج يسمع أخبيلهم ويعلم أسورهم، ثم ينطلق بها حتى يوها في أذن ابن زياد ⁽¹⁾، وروي أن ابن زياد بعد أن أخذ جميع احتياطاته الأمنية. بعث إلى هانئ بن عروة الذي يتول في دره ابن عقيل وقال له: إيه يا هانئ بن عروة، ما هذه الأمور التي ترض في دورك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين؟ جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته درك، وجمعت له السلاح والرجال في الدور حولك وظننت أن ذلك يخفى علي ⁽²⁾.

ثم دعا ابن زياد معقلا ذلك العين، فجاء حتى وقف بين يديه فقال لهانئ: أتعرف هذا، قال: نعم. وعلم هانئ عند ذلك إنه كان عينا عليهم، وأنه قد أتاه بأخبيلهم ⁽³⁾. فقال هانئ: أمره أن يخرج من دري إلى حيث شاء من الأرض.

فقال ابن زياد: لا والله لا تغلقني أبدا حتى تأتيني به. قال: لا والله لا أجيئك به أبدا، أنا أجيئك بضيبي تقتله. فقال: والله لتأتيني به، قال: والله لا آتيك به ⁽¹⁾.

فتدخل بينهما رجل فقال: أصلح الله الأمير خلني وإياه أكلمه. فقال له: يا هانئ إني أنشدك الله ألا تقتل نفسك، وتدخل البلاء

على قومك وعشوتك... فادفع الرجل إليه، فإنه ليس عليك بذلك، متحرا ولا منقصة. إنما تدفعه إلى السلطان قال: بلى والله إن علي في ذلك للتحري والعار. أنا أدفع جري وضيبي وأنا حي صحيح أسمع وأرى، شديد الساعد كثير الأعوان! والله لو لم أكن إلا واحدا ليس لي ناصر، لم أدفعه حتى أموت دونه. فسمع ابن زياد ذلك فقال: ادنوه مني فأدنوه فقال: والله لتأتيني به أو لأضربن عنقك... ثم قال للعسكر: ادنوه مني فأدنوه فاستعرض وجهه بالقضيب. فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخصه، حتى كسر أنفه وسيل الدماء على ثيابه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته. ثم قال: خنوه فألقوه في بيت من البيوت وأغلوا عليه بابه واجعلوا عليه حرسا (2).

وعندما علم ابن عقيل بما حدث، أمر عبد الله بن حزم أن ينادي في أصحابه، وقد ملأ منهم الدور حوله. وقد بايعه ثمانية عشر ألفا. وفي النور أربعة آلاف رجل. وتتأدى أهل الكوفة فاجتمعوا إليه وعقد ابن عقيل للرجال على القبائل. وسرت الخيل في اتجاه القصر. فلما بلغ ابن زياد إقباله تحرز في القصر وغلق الأبواب. وروي عن عباس الجدلي أنه قال: خرجنا مع ابن عقيل في أربعة آلاف فما بلغنا القصر إلا ونحن ثلثمائة (3).

وبينما كانت خيل ابن عقيل تتقدم نحو القصر، كانت أوراق السلطان تتجه نحو نور الكوفة. روي أن ابن زياد دعا كثير بن شهاب وأمره أن يخرج فيمن أطاعه، فيسير بالكوفة، ويخذل الناس عن ابن عقيل، ويخوفهم ويحذوهم عقوبة

(1) الطبري 205 / 6.

(2) الطوي 206 / 6، البداية 154 / 8.

(3) الطوي 207 / 6، البداية 154 / 8.

الصفحة 266

(1) السلطان . ووقف كثير بن شهاب فقال: أيها الناس الحقوا بأهليكم، ولا تعجلوا الشر، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل. فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت. وقد أعطى الله الأمير عهدا، لئن أتممت على حربه ولم تتصرفوا من عشيتكم. أن يحرم نريتكم العطاء، ويفرق مقاتلتكم في مغلي أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ الوئى بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المعصية. إلا أذاقها وبال ما جرت أيديها (2).

يقول الطوي: وتكلم الأثواف بنحو من كلام هذا. فلما سمع مقاتلتهم الناس أحنوا يتوقون وأحنوا ينصرفون وروي أن المرأة كانت تأتي ابنها أو أباها فتقول: انصرف، ويجيء الرجل إلى ابنه أو أخيه فيقول: غدا يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر؟ انصرف، فما زالوا يتوقون ويتصدعون، حتى أمسى ابن عقيل وما معه ثلاثون نفسا في المسجد، فلما أمسى وليس معه إلا أولئك نفر. خرج متوجها نحو أبواب كنده. فما بلغ الأبواب وما معه منهم عشرة، ثم خرج من الباب. وإذا ليس معه إنسان، والتفت فإذا هو لا يحس أحدا يدلّه على الطريق، ولا يدلّه على متول ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدو.

فمضى على وجهه يتلدد في رقة الكوفة لا يوري أين يذهب، حتى خرج إلى نور بني جبلة من كنده، فمشى حتى انتهى إلى باب امرأة يقال لها: طوعة كانت للأشعث بن قيس فأعتقها فتزوجها أسيد الحضرمي. فولدت له بلالا، وبعد أن عرفها بنفسه

وأن القوم كذبوه، أدخلته بيتا في درها غير البيت الذي تكون فيه (3).

ومن قصر الإمارة أعلن ابن زياد على أهل الكوفة: إن برئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل في دره ومن جاء به فله دينته. وقال: اتقوا الله عباد الله، واثموا طاعتكم وبيعنكم ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا، ثم نادى على صاحب

(1) الطبري 207 / 6، البداية 154 / 8.

(2) الطوي 208 / 6.

(3) الطوي 209 / 6، البداية 155 / 8.

الصفحة 267

(1) الشرطة: يا حصين بن تميم ثكلتك أمك، إن صاح باب سكة من سكك الكوفة، أو خرج هذا الرجل ولم تأتني به، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة، فابعث مرابدة على أفواه السكك، وأصبح غدا واستبر النور وجس خلالها. حتى تأتيني بهذا الرجل، وروي أن بلال بن أسيد الذي أوت أمه ابن عقيل أخبر الشرطة بمكان ابن عقيل وعندما علم ابن زياد بذلك أمر بإحضره.. فلما سمع ابن عقيل وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال عرف أنه قد أتى، فخرج إليهم بسيفه، واقتحموا عليه الدار. فشد عليهم يضربهم بسيفه. حتى أخرجهم من الدار. وأشرفوا عليه من فوق ظهر البيت، وأخذوا يومونه بالحجارة ويلهبون النار في أطنان القصب. فلما رأى ذلك خرج عليهم مصلتا بسيفه في السكة فقاتلهم فأقبل عليه محمد بن الأشعث فقال: يا فتى لك الأمان، لا تقتل نفسك فأقبل يقاتلهم وهو يقول:

أقسمت لا أقتل إلا حوا * وإن رأيت الموت شيئا نكرا

وظل يقاتلهم وفد أثنى بالحجارة، وعجز عن القتال. وأسند ظهوه إلى جدار الدار، فقال ابن الأشعث: لك الأمان واجتمعوا حوله فقال ابن عقيل: أما لو لم تؤمنوني ما وضعت يدي في أيديكم. وعندما انتزعوا سيفه، دمعت عيناه ثم قال: هذا أول الغدر... أين أمانكم أنا لله وإنا إليهم راجعون... وبكى، فقيل له: إن من يطلب مثل الذي تطلب، إذ قول به مثل الذي قول بك لم يبك.

فقال: والله ما لنفسى أبكى، ولا لها من القتل رثي... ولكن أبكى لأهلي المقبلين إلي. أبكى الحسين وآل حسين. ثم أقبل على بن الأشعث فقال: يا عبد الله إنني رأك والله ستعجز عن أمانى فهل عندك خير تستطيع أن تبعث من عندك رجلا على لساني يبلغ حسينا؟ فإني لا أراه إلا قد خرج إليكم اليوم مقبلا، أو هو خرج غدا هو وأهل بيته. فيقول: أن ابن عقيل بعثني إليك، وهو في أيدي القوم أسير، لا يرى أن تمشي حتى تقتل، وهو يقول لك لرجع بأهل بيتك، ولا يغوك أهل الكوفة، فإنهم أصحاب أبيك، الذي كان يتمنى فاقهم

(1) الطبري 210 / 6، البداية 155 / 8.

الصفحة 268

بالموت أو القتل، إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لمكذوب رأي.

فقال ابن الأشعث: والله لأفعلن، ولأعلمن ابن زياد إنني قد أمنتك⁽¹⁾.

وروي أن ابن عقيل عندما دخل على ابن زياد دار بينهما حوار طويل، منه أن ابن زياد قال له: إن نفسك تمنيك ما حال الله دونه ولم يرك أهله. فقال ابن عقيل: فمن أهله يا ابن زياد؟ قال: أمير المؤمنين يزيد. فقال: الحمد لله على كل حال، رضينا بالله حكما بيننا وبينكم. قال: كأنك تظن أن لكم في الأمر شيئا. فقال ابن عقيل: ما هو بالظن ولكنه باليقين. قال: قتلتني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام. فقال: أما أنك أحق من أحدث في الإسلام ما لم يكن فيه، أما أنك لا تدع سوء القتلة، وقبح

المثلة، وخبث السوء، ولؤم الغلبة، ولا أحد من الناس أحق بها منك. فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم حسيناً وعلياً وعقيلاً، وأخذ مسلم لا يكلمه⁽²⁾. وكان ابن عقيل قد عوى نظامه فقال له: إن أباك قتل خيار الناس، وسفك دماءهم، وعمل فيهم أعمال

كسرى وقيصر⁽³⁾. ووصفهم بأنهم يلغون في دماء المسلمين ولغا. ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها، ويقتلون النفس بغير النفس. ويسفكون الدم الحرام. ويقتلون على الغضب والعدوة وسوء الظن. وهم يلهون ويلعبون كأن لم يصنعوا شيئا⁽⁴⁾.

وأمر ابن زياد بضرب عنق ابن عقيل فوق سطح القصر، فصعد به وهو يكبر ويستغفر ويصلي على ملائكة الله ورسله وهو يقول: " اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وكذبونا وأذلونا وقتلونا " ثم ضوب عنقه⁽⁵⁾ وروي أنهم أحضروا هانئ بن

عروة من السجن. حتى انتهوا به إلى مكان من السوق كان يباع فيه

(1) الطبري 211 / 6.

(2) الطوي 213 / 6، البداية 156 / 8.

(3) الطوي 213 / 6، البداية 156 / 8.

(4) الطوي 213 / 6، البداية 156 / 8.

(5) الطوي 213 / 6، البداية 156 / 8.

الصفحة 269

الغنم وهو مكتوف. وعندما لم يجد أحدا من قبيلته يدافع عنه، جذب يده فزاعها.

من الكتاف ثم قال: أما من عصا أو سكين أو حجر أو عظم. فوثبوا عليه، فضربه رجل بالسيف فلم يصنع سيفه شيئا، فقال هانئ: إلى الله المعاد اللهم إلى رحمتك ورضوانك. ثم ضوبه الرجل أخرى فقتله⁽¹⁾.

وكتب ابن زياد إلى يزيد بن معاوية: " الحمد لله الذي أخذ لأمير المؤمنين بحقه وكفاه مؤنة عوه "، ثم أخوه بما تم من

لجوء ابن عقيل إلى دار هانئ وإنه جعل عليهما العيون ودس إليهما الرجال، إلى آخر القصة، ثم قال: " وقد بعثت إليك

برؤوسهما... " والسلام فكتب يزيد بن معاوية، فأخوه بأنه عنده قد عمل عمل الحزم، وصال صولة الشجاع الوابط الجأش ثم

قال له: " إنه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العواق، فضع المناظر والمسالح واحترس على الظن. وخذ على

التهمة غير أن لا تقتل إلا من قاتلك وكتب إلي - في كل ما يحدث من الخبر - والسلام " ⁽²⁾ وهكذا قول الستار على رسول

الحسين، ومما سبق رأينا أن الجماهير خذلت الحسين، لأن الدولة الأموية رهبت الجماهير. رهبتهم بصورة تأنف منها الفطوة. فإذا كان الخوف من الأمور الفطوية، فيجب أن يتم التعامل مع الإنسان بما لا يوجب الخوف الفطوي، إن الإسلام نهى عن تزويج المسلم، بل ووضع أسس راقية للتعامل مع الحيوان والطيور والنبات. فإذا جئت بقانون فيه: "أخذ الوئ بالسقيم، والشاهد بالغائب" و "لئن بلغني عن رجل منكم خلافا لأقتلنه وعريفه ووليه، ولأخذن الأدنى بالأقسي" و "احتوس من السلطان فإنه يغضب غضب الصبيان، ويأخذ أخذ الأسد، وقليلة يغلب كثير من الناس" فمثل هذا القانون لا علاقة له بالإسلام. وقانون مثل هذا يكون حجر عثرة في طريق الفطوة لأن الاختيار فيه لا يتم إلا بعقل السلطان وعينه. بمعنى أن الناس لا يرون إلا ما يرى السلطان. وهذا في حد ذاته ضد طبيعة الوجود لأنه ينتج إنسانا مشوها.

(1) الطبري 214 / 6، البداية 157 / 8.

(2) الطوي 215 / 6، البداية والنهاية 165 / 8.

الصفحة 270

والإنسان لا بد له من حركة لأن سنة الوجود أن ينظر الله إلى خلقه كيف يعملون. إن التخويف والإهاب يضرب بصورة أو بأخرى دائرة الاختيار، بل ويجتث شجرة الحرية الحقيقية التي تتغذى بماء الفطوة، ولما كانت الدولة الأموية قد عملت من أجل تنمية شجرة الإهاب، ولما كانت هذه الشجرة قد وضعت عليها عباءة القداسة والدين، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بأقل من خمسين عاما، وهذا يمثل خطرا على الأجيال وحتى قيام الساعة، فإن الحسين بن علي إذا كان له رأي في الذين خذلوه، فإن حركته ستكون نحو الجنور أي نحو صناع الإهاب. وهذه الحركة ليست من أجل وقف الإهاب، وإنما لوضع لباس العار الذي ما بعده عار على رؤوس صناع التخويف والإهاب حتى يوث الله الأرض ومن عليها.

ثامنها - صمود على الطريق:

كان الحسين عليه السلام في الطريق إلى الكوفة، ولم يكن يعلم بالأحداث التي جرت هناك، لذا بعث قيس بن مسهر إلى أهل الكوفة، وكتب معه إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين. سلام عليكم. فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد.

فإن كتاب مسلم بن عقبة قد جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم، واجتماع ملتكم على نصرنا والطلب بحقنا... فإذا قدم عليكم رسول فاكمشوا أمركم وجنوا، فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله " (1)، وأقبل قيس بن مسهر إلى الكوفة بكتاب

الحسين، حتى إذا انتهى إلى القادسية. أخذه الحصين بن نمير فبعث به إلى ابن زياد، الذي كان قد شدد الوقاية على جميع المنافذ والأبواب. وعندما علم ابن زياد بأسباب قدوم قيس بن مسهر، أمر قيس أن يصعد القصر حتى واه الناس وقال له: سب

الكذاب ابن الكذاب... فصعد ثم قال: أيها الناس، إن

هذا الحسين بن علي خير خلق الله ابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم. وقد فرقته بالحاجر فأجبيوه، ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه واستغفر لعلي بن أبي طالب. وعندئذ أمر ابن زياد أن يومي به من فوق القصر فومي به فتقطع فمات (1).

لقد كان بيان قيس بن مسهر فيه كفاية ليهب الناس هبة رجل واحد، ولكن القوى الطاغية كانت قد نشرت الذل في الطرقات بما فيه كفاية، ولكي يطوقهم الحسين بطوق الحجة مرة أخرى، بعث إليهم عبد الله بن يقطر. وما حدث لقيس حدث لابن يقطر. فلقد تلقته خيل الحصين بن نمير بالقادسية، وبعث به إلى ابن زياد، فأموه أن يصعد القصر، وأن يلعن الكذاب ابن الكذاب. فصعد فلما أشرف الناس قال: أيها الناس إني رسول الحسين بن فاطمة بن بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لتتصروه وتوزروه على ابن موجهة بن سمية الدعي.

فأمر ابن زياد بأن يلقى من فوق القصر، فومي به فكسرت عظامه وبقي به رمق، فأتاه رجل يقال له عبد الملك بن عمير. فذبحه فما عيب ذلك عليه قال: (2)
إنما أردت أن أريه (3).

فالتطريق إلى الفطوة ودعوتها كان ابن زياد قد أغلقه تماما. في أثناء ذلك كان الحسين لا يمر بأهل ماء إلا اتبعوه (4). وبينما هو في " ماء زباله " سقط إليه خبر قتل رسله بالكوفة فأخرج الحسين للناس كتابا فوقاً عليهم وفيه: " بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنه قد أتانا خبر فظيع، قتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة. وعبد الله بن يقطر. وقد خذلتنا شيعتنا. فمن أحب منكم الانصراف، فليس عليه منا ذمام " (5). فتفوق الناس عنه تفوقاً، فأخذوا يميناً

(1) الطبري 224 / 6، البداية 118 / 8.

(2) وقيل إنه رجل غوه كان يشبهه.

(3) الطوي 226 / 6، البداية 168 / 8.

(4) الطوي 226 / 6، البداية 168 / 8.

(5) الطوي 226 / 6.



وشمالاً. حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة. وذكر الطوي:

وإنما فعل ذلك، لأنه ظن إنما اتبعه الأعراب، لأنهم ظنوا أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله، ففكر أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على ما يقدمون.

وقد علم أنهم إذا بين لهم. لم يصحبه إلا من يريد مواساته والموت معه (1).

إلى هنا انتهت قصة الذين خذلوه في أصولها العريضة. فأى خطوة سيخطوها الحسين بعد ذلك فلن تكون بحال من أجل الذهاب إلى الذين خذلوه، وإنما ستكون نحو القوة الباغية التي تعوق تقدم الأمر الفطري بأحجار الكسروية وقيصورية وجاهلية. وانطلق الحسين حتى مر بطن العقبة فتول بها، وبينما هو جالس جاءه أحد عمومته فسأله: أين تريد؟ فحدثه فقال للحسين: إني أنشدك الله لما انصرفت، فوالله لا تقدم إلا على الأسنة وحد السيوف، فإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال، ووطئوا لك الأشياء فقدمت عليهم، كان ذلك رأياً. فأما على هذه الحال التي تذكوها، فإني لا أرى لك أن تفعل. فقال الحسين: يا عبد الله إنه ليس بخفي علي الوأي مارأيت، ولكن الله لا يغلب على أمره (2).

أي والله يا أبا عبد الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون. إن الناس لا يرون إلا أول الطريق أو وسطه أما نهاية الطريق فلا ترى إلا بعد أن تجيء. والله غالب على أمره. وروي أن ابن زياد بعث إلى الحصين بن نمير أن يبعث من القادسية الحر بن يزيد وبين يديه ألف من الجنود ليستقبل الحسين، وانطلق الحر بقواته لاستقبال الحسين ومراقبته.

وروي أن الحسين خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر، وكان الحر وقواته يصلون مع الحسين وأتباعه، وبعد الصلاة: قام الحسين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس فإنكم أن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن رضى الله. ونحن أهل البيت أولى ولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم والسائرين

(1) الطبري 226 / 6، البداية 169 / 8.

(2) الطوي 226 / 6.

فيكم بالجور والعوان. وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا. وكان رأيكم غير ما أتنيتي كتبكم وقدمت به علي رسلكم انصرفت عنكم" (1)، فالحسين يوضح هنا أن الدعوة إليه كانت صاورة من صدور ماضيه، وعلى هذا الرضى جاءت الوسائل التي لم يجد أمامها إلا أن يتحرك، وإنه لو لم تأت هذه الوسائل ما كان له أن يتحرك. وكيف يتحرك نحو قوم كرهوه وجهلوا حقه. فالوسائل هي دليل الرضا، والحر وقواته دليلاً على كبت هذا الرضا. ولذا قال له الحر: إنا والله ما نوري ما هذه الكب؟ التي تذكر. فقال الحسين: يا عقبة بن سمعان أخرج الخرجين اللذين فيهما كتبهم إلي، فأخرج خرجين مملوءين صحفاً. فنشرها بين أيديهم. فقال الحر: فإنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أمونا إذا نحن لقيناك أن لا نفرقك حتى نقدمك على عبيد الله بن زياد. فقال له الحسين: الموت أدنى إليك من ذلك. قال الحر: لم أؤمر بقتالك وإنما أموت أن لا أفرقك حتى أقدمك الكوفة، فإذا

أبيت فخذ طويقا لا تدخلك الكوفة ولا تردك إلى المدينة، تكون بيني وبينك نصفا، حتى أكتب إلى ابن زياد. وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية إن أردت أن تكتب إليه أو إلى عبيد الله بن زياد إن شئت فلعل الله إلى ذلك أن يأتي بأمر يبرزني فيه العافية من أن أبتلى بشئ من أمرك⁽²⁾. وسار الحسين في طويق والحر في طويق آخر يساوه وواقبه.

وروي أن الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من رأى سلطانا جاؤا مستحلا لحم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعمل في عباد الله بالإثم والعنوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول. كان حقا على الله أن يدخله مدخله. إلا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتكفروا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفئ، وأحلوا حرام الله، وحرّموا حلاله. وأنا أحق من غير، وقد آتتني

(1) الطبري 228 / 6، البداية 172 / 8.

(2) الطوي 229 / 6، البداية 173 / 8.

الصفحة 274

كتبكم، وقدمت علي رسلكم ببيعتمكم إنكم لا تسلّموني ولا تدخلوني، فإن أتمتم علي بيعتمكم تصيوا رشدكم. فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلکم في أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتكم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر. لقد فعلتموها بأبي وأخي وأبن عمي مسلم، والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته⁽¹⁾.

إن الحسين وهو يخاطب الجنود الذين لم يكتبوا إليه، خاطبهم من على أرضيه الحجة، فوضعهم مع الذين بعثوا إليه في مربع واحد. فالذين بعثوا إليهم هم أشواف القوم ورؤوسهم، والجنود لا ينفصلوا عنهم بحال، لذا كان الخطاب واحدا وموجه إلى مربع واحد.

وروي أنه خطب فيهم بمنطقة ذي حسم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

إنه قد قول من الأمر ما قد ترون. وإن الدنيا قد تغورت وتتكوت، وأدبر معروفها، واستنوت جدا، فلم يبق منها إلا صباية الإناء. وخسيس عيش كالموعى الوبيل، ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهي عنه، لوغب المؤمن في لقاء الله محقا. فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا بوما. وعندئذ قام زهير بن القين فقال لأصحابه: تتكلمون أم أنكلم. قالوا: بل تكلم، فحمد الله فأثنى عليه ثم قال: قد سمعنا هداك الله يا ابن رسول الله مقالتك. والله لو كانت الدنيا لنا باقية، وكنا فيها مخلصين، إلا أن فاقها في نصوك ومواساتك لأثرنا الخروج معك على الإقامة فيها. فدعا له الحسين. فأقبل الحر وقال: يا حسين إني أدنوك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى، فقال له الحسين: أقبال الموت تخوفني؟ ما أوري ما أقول لك، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه ولقيه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله

فإنك مقتول فقال:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى * إذا ما نوى حقا وجاهد مسلما

وواسى الرجال الصالحين بنفسه * وفرق مثورا وخالف مجرما

فلما سمع ذلك منه الحر تحى عنه وسار، وكان يسير بأصحابه في ناحية وحسين في ناحية أخرى، وبينما هم على ذلك إذا برابعة من الكوفة قد أقبلوا على رواحلهم، وعندما انتهوا إلى الحسين قال الحر بن يزيد: إن هؤلاء النفر الذي من أهل الكوفة، ليسوا ممن أقبل معك، وأنا حابسهم أورادهم فقال الحسين: لأمنعهم بما أمنع منه نفسي، إنما هؤلاء أنصري وأعواني. وقد كنت أعطيتني أن لا تعرض لي بشئ حتى يأتيك كتاب من ابن زياد، فقال الحر: أجل ولكن لم يأتوا معك، قال: هم أصحابي وهم بمتولة من جاء معي. فإن تمت علي ما كان بيني وبينك وإلا ناجرتك، فكف عنهم الحر (1).

وروي أن الحسين قال لهم: أخبروني خبر الناس وراءكم، فقال له مجمع بن عبد الله، وهو أحد النفر الأربعة الذين جاؤوه: أما أشواف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غواؤهم، يستمال ودهم، ويستخلص به نصيحهم، فهم ألب واحد عليك. وأما سائر الناس بعد. فإن أفئدتهم تهوى إليك، وسيوفهم غدا مشهرة عليك. قال أخروني فهل لكم برسولي إليكم؟ قالوا: من هو؟ قال: قيس بن مسهر. فقالوا: نعم. أخذه الحصين بن نمير، فبعث به إلى ابن زياد، فأمره ابن زياد أن يلعنك ويلعن أباك، فصلى عليك وعلى أبيك. ولعن ابن زياد وأباه. ودعا إلى نصرتك. وأخوهم بقومك، فأمر به ابن زياد فألقى من طمار القصر، فترقرقت علينا حسين عليه السلام، ولم يملك دمه، ثم قال:

منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا. الله اجعل لنا ولهم الجنة ولا، واجمع بيننا وبينهم في مستقر من رحمتك ورجائك مذخور ثوابك " (2).

وكان الحسين قد علم بقتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة، وعبد الله بن يقطر.

عندما قول نوباله. ولم يكن يعلم بقتل قيس إلا هنا عندما قابل النفر الأربعة.

ولأن الحسن حجة وخطواته من أجل هدف ومن وراء الهدف حكمة، لم يلجأ إلى أي قوة لتحميه من بني أمية. فهو سائر على طريق، فمن شاء أن ينصوه فلينصوه، والموعد الله: لقد عوض عليه أن يلجأ إلى قوية أو إلى قبيلة من القبائل، ولكنه أبقى

إلا أن يسير نحو الهدف. روي أن الطرماح بن عدي قال له:

إني لأنظر فما رى معك أحدا، ولو لم يقاتلك إلا هؤلاء الذين رأهم ملازميك لكان كفى بهم - أي قوات الحر - وقدر أيت قبل خروجي من الكوفة إليك، ظهر الكوفة وفيه من الناس ما لم تر عينا في صعيد واحد جمعا أكثر منه. فسألت عنهم. فقيل: إنهم اجتمعوا ليعرضوا، ثم يسرحون إلى الحسين. فأنشدك الله، إن قدرت على أن لا تقدم عليهم شوا إلا فعلت، فإن أردت أن تقول بلدا يمنحك الله به حتى ترى من رأيك، ويستبين لك ما أنت صانع. فسر حتى أتوك مناع جبلنا، الذي يدعى أجا، امتنعنا والله به من ملوك غسان وحمير ومن النعمان بن المنذر ومن الأسود والأحمر. والله إن دخل علينا ذل قط فأسير معك. حتى أتوك القوية. ثم نبعث إلى الرجال ممن بأجا وسلمى من طيء.

فوالله لا يأتي عليك عشوة أيام حتى يأتيك طيء رجالا وركبانا. ثم أقم فينا ما بدا لك، فإن هاجاك هيج، فأنار عيم لك بعشرين ألف طيء يضربون بين يديك بأسياقهم، والله لا يوصل إليك أبدا ومنهم عين تطوف (1).

إن هذا عرض سخي، ولكنه لا يستقيم مع الحجة في هذه الأحداث، لأن الهجرة إلى موطن آخر. توضحها أحداث أخرى وإنسان آخر. أما الأحداث حول أبي عبد الله الحسين فتتور على ساحة يدعى تيار القوة أنه منار الهدى فيها، وأنه الجماعة التي أمر الله بالتوامها، لهذا فلا بد من المفاصلة لا إلى الهجرة. لهذا قال أبو عبد الله الحسين لمن عرض هذا العرض: خاك الله وقومك خوا. إنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنا نقدر معه على الانصاف (2).

(1) الطبري 231 / 6.

(2) الطوي 231 / 6.

الصفحة 277

إن المفاضلة لا بد منها، والحق واضح وضوح الشمس، والأبيعة الذين فرقوا؟ أهل الكوفة هم في حقيقة الأمر حجة على أهل الكوفة الذين خذلوا الحسين. فالحسين كان في حاجة إلى الناس، لأنه حجة ظاهرة فيه من الله وهان، ولم يكن في حاجة لكي يقتحم بنفسه على الناس، لأن الحركة حركة اختيار لينظر الله كيف يعملون. وفي هذا المقام نسلط الضوء على ثلاث حركات لها إيقاع واحدة في دائرة الحجة.

أولها: أن الطرماح بن عدي، الذي عرض عليه العرض السابق ذكوه، قال للحسين بعد أن سمع منه: دفع الله عنك شر الجن والإنس، إني قد امتوت لأهلي من الكوفة موه ومعني نفقة لهم. فأتيتهم فأضع ذلك فيهم ثم أقبل إليك إن شاء الله فإن ألحكك فوالله لأكونن من أنصرك. فقال له الحسين: فإن كنت فاعلا فعجل رحمتك الله. يقول الطرماح: فعلت أنه مستوحش إلى الرجال حتى يسألني التعجيل (1). فهو في هذه الحركة وهذا الإيقاع يطلب الرجال. الذين يعلمون إلى أي هدف يسيرون.

ثانيها: ما رواه البغوي بسند صحيح أن أنس بن الحرث قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن ابني - يعني الحسين - يقتل برض يقال لها كربلاء، فمن شهد منكم ذلك فلينصوه. فالحرث عمل بما سمع، ما سمعه كان حجة ليس على الحرث وحده، (2)

وإنما حجة على طريق طويل. وعلى عصر ما الحلث فيه إلا فودا واحدا.

ثالثها: ما رواه الطبري من أن الحسين دخل إلى فسطاط عبيد الله بن الحر الجعفي. وقال: ادعوه لي فلما أتاه الرسول قال

لعبيد الله بن الحر: هذا الحسين بن علي يدعوك. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون والله ما خرجت من

(1) الطبري 231 / 6.

(2) البداية والنهاية (199 / 8).

الصفحة 278

الكوفة. إلا كراهة أن يدخلها الحسين وأنا بها. والله ما أريد أن أراه ولا واني.

فأخبر الرسول الحسين بذلك. فأخذ الحسين نعليه ثم قام فجاءه، فسلم وجلس، ثم دعاه إلى الخروج معه. فأعاد إليه ابن الحر

تلك المقالة. فقال له الحسين:

فإلا تتصونا، فاتق الله فينا إن تكون ممن يقاتلنا، فوالله لا يسمع وأعيتنا أحد، ثم لا ينصونا إلا هلك. فقال ابن الحر: أما هذا فلا يكون أبدا إن شاء الله ⁽¹⁾ ، فالحسين هنا دعا وذكر وأنذر. ولم يوح بدينار ولا بوهم. فمما سبق زى أنه طلب الرجال

الذين يعرفون الموقف على حقيقته. ولقد أوردنا قبل ذلك أنه قال في بيانه الذي ألقاه بعد أن علم بقتل رسله " فمن أحب منكم

الانصاف، فليس عليه منا ذمام " لأنه كره أن يسير معه الأعراب وغوهم، إلا وهم يعلمون حقيقة ما يقدمون عليه. أنه يريد

الرجال الذين يسيرون بوقود فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهان، لأن هؤلاء نروة الذين يؤمنون بالغيب. فأحاديث

الإخبار بالغيب. بما أنها تفصل بين الحق والباطل، وبين الظلام والنور وبما أنها تبين ماذا يترتب على الانحراف. وأين تقع

بصمات التريين والإغواء، التي أخذ الشيطان على عاتقه أن يضعها ليقع عليها أكثر الناس ولا يؤمن منهم إلا القليل.

وبما أنها حجة على الأكثرية، لأن الله تعالى كشف لهم بهذه الأحاديث أمورا حتى لا تكون لهم حجة على الله يوم القيامة.

(أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا نرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل

المبطلون * وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم رجعون) ⁽²⁾ . وبما أن في أحاديث الإخبار بالغيب مبشرات بعد أن ذهبت النوبة وفيها

محذورات، فكذا هي في عهد الحسين، إن فيها إخبار بالدم، ومن لبي النداء فهو إلى القتل أقرب.

لهذا فمن يشهد الحسين ونصوه، وهو على بينة من أمره، يكون في نروة دائرة الذين يؤمنون بالغيب. وفي عصر الحسين

يدخل في هذه الدائرة الذين كان هواهم فيه ولم يشهوا خروجه، ويدخل فيها بني هاشم الذين شهوا خروجه ولم يخرجوا -

وذلك لأن الحسين أذن لهم في البقاء. ومنهم من كان يبعث إليه

(1) الطبري 231 / 6.

(2) سورة الأعراف: الآية 172 - 174.

الصفحة 279

بالوسائل ليحيطه علما بما وراءه من أحداث. وفي هذه الآونة كان بني أمية يطلبونه ليقتلوه ومنهم من كان يشرح قضيته للأشواف الذين جئوا من الأمصار إلى موسم الحج.

تاسعا - وجاء الطغاة:

في الكوفة بدأت القيادة العليا تعد العدة للقضاء على الحسين ومن معه، وكانت الخطوة الأولى نحو هذا الهدف أمر القيادة الصادر إلى الحر بن يزيد، الذي يلازم الحسين ويسير معه كظله، وفيه: أما بعد، فجمع بالحسين حتى يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي، فلا تتوله إلا بالعواء في غير حصن وعلى غير ماء، وقد أموت رسولي أن يلازمك ولا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري " (1).

وبعد أن قرأ الحر البيان قال للحسين هذا كتاب الأمير عبيد الله بن زياد، وهذا رسوله. فنظر أحد أتباع الحسين إلى رسول ابن زياد فعرفه فقال له: ثكلتك أمك، ماذا جئت فيه؟ فقال له: وما جئت فيه أطعت إمامي ووفيت ببيعتي، فقال: عصيت ربك وأطعت إمامك في هلاك نفسك، كسبت العار والنار، قال تعالى: (وجعلنا منهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون) فهو إمامك (2).

وسار الحسين والحر بن يزيد برفض أن تتول قافلة الحسين إلى أي مكان به ماء، وروي أن زهير بن القين قال للحسين: يا ابن رسول الله، إن قتال هؤلاء أهون من قتال من يأتينا من بعدهم... فقال الحسين: ما كنت لأبدأهم بالقتال، فقال له زهير: سر بنا إلى هذه القوية حتى نتولها، فإنها حصينة، وهي على شاطئ الوات، فإن منعونا قاتلناهم. فقال الحسين: وأية قوية هي قال: هي العقر، فقال: اللهم إني أعوذ بك من العقر (3).

(1) الطبري 232 / 6.

(2) الطوي 232 / 6.

(3) الطوي 232 / 6.

وبينما كان الحسين في قوية العقر، كان ابن زياد قد بعث إليه بقوة عسكرية تحت قيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص. وكان ابن زياد قد كتب لعمر ولاية الوي إذارجع من حرب الحسنين، فجد الرجل وشمر عن ساعده (1). وعندما جاء بعث إلى الحسين يسأله ما الذي جاء به، وماذا يريد؟ فأخبر الحسين رسوله:

كتب إلي أهل مصوكم هذا أن أقدم، فأما إذ كوهوني فأنا انصوف عنهم (2) وبهذا الود طوق الحسين النظام بطوق الحجة،

لقد أخوهم أن الأشواف وغوهم كتوا إليه ومعه الدليل على ذلك. فإذا كانوا قد كوهوه فقد كان عليهم أن يبينوا له ذلك،

وعندئذ ينصوف عنهم. ولكن الحال الآن أنه لا واهم وإنما وى جنودا مجندة تنتشر حوله في كل مكان. فإذا كان الجند قد

جئوا ليبلغوه رد الذين كتوا إليه، فهو على استعداد أيضا للانصواف.

ولقد كان في هذا الود ما رآح الستار عن وجه السياسة الأموية، فعندما كتب عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد: " أما بعد

فإني حيث تولت بالحسين بعثت إليه رسولي، فسألته عما أقدمه، وماذا يطلب ويسأل، فقال: كتب إلي أهل هذه البلاد، وأتتني رسلهم فسألوني القوم ففعلت، فأما إذ كوهوني فبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم. فأنا منصور عنهم" (3). قال ابن زياد:

الآن إذا علفت مخالبتنا به * برجو النجاة وولات حين مناص

وكتب إلى عمر بن سعد: أما بعد فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت.

فأعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه. فإذا فعل ذلك رأينا رأينا والسلام (4). فالتيار الأموي رفض تقديم أي دليل يثبت أن الناس كوهوا الحسين، بل ورفض أن تقوم قواته المسلحة بإبلاغ الحسين أن الناس قد كوهوه، لأن تقديم ذلك إليه سيؤدي إلى نجاته، وهم لا يريدون ذلك.

(1) الإصابة 17 / 2، الطبري 233 / 6.

(2) الطوي 334 / 6.

(3) الطوي 334 / 6.

(4) الطوي 334 / 6.

الصفحة 281

باختصار: كان التيار الأموي قد سبح شوطا طويلا في مستنقعات الأوحال. حيث البغي والنكث والفساد في الأرض... لقد رفضوا إظهار بيعة، وهذا من أمور الدين. وطالبوه بمبايعة يزيد بن معاوية، وهذا ليس من أمور الفطرة. وأوصاف يزيد التي اتفق عليها العلماء تثبت ذلك. والذين قالوا إن الحسين طلب أن يضع يده في يد يزيد أو طلب منهم أن يسيروه إلى أي ثغر من ثغور المسلمين لم يصيبوا الحقيقة، لأن هذه الأحوال لا تستقيم مع المقدمات، وإذا كانت هناك أحاديث قد روت هذا، فإن هناك ما يعرضها فعن عقبة بن سمان قال: صحبت حسينا فخرجت معه من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى العواق، ولم أفرقه حتى قتل. وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة ولا بمكة. ولا في الطريق ولا بالعواق ولا في عسكر إلى يوم مقتله إلا وقد سمعتها. ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس. وما زعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسير إلى ثغر من ثغور المسلمين ولكنه قال: دعوني فلأذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر ما يصير من أمر الناس (1). فهذا القول يستقيم مع المقدمة وفيه حجة على القوم الذي يريدون قتله.

وبعد وصول كتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد، صدر إليه الأمر التالي: من عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد. أما بعد، فخل بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا ينوخوا منه قطرة، كما صنع بالنقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان. فبعث عمر بن سعد خمسمائة فارس، على رأسهم عمرو بن الحجاج، فقولوا على الشريعة وحالوا بين حسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث. وبينما جنود بني أمية عند الماء، نادى عبد الله بن أبي حصين على الحسين وقال: يا حسين ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء، والله لا تنوق منه قطرة حتى تموت عطشا. فقال الحسين: اللهم

اقتله عطشا ولا تغفر له أبدا.

روي أن حميد بن مسلم قال: إنه شاهد ابن أبي حصين بعد ذلك في

(1) الطبري 335 / 6، البداية 175 / 8.

الصفحة 282

مرضه. فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيت يثرب حتى يغمر، ثم يقى، ثم يعود فيثوب حق يقر، فما زال ذلك دأبه حتى لفظ نفسه (1).

(2) ورغم قرار منع الماء عن الحسين إلا أن فورس الحسين كانوا يحصلون على الماء، بدفع الحواس عنها بين حين وآخر. وروي أن عمر بن سعد كان يريد أن يفتح بابا للسلامة والعافية، فكتب إلى ابن زياد بذلك، فبعث إليه ابن زياد كتاب مع شمر بن ذي الجوشن، وقال لشمر: أخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي، فإن فعلوا فليبعث بهم إلي سلما، وإن هم أبو فليقاتلهم، فإن فعل فاسمع له وأطع، وإن هو أبى فقاتلهم، فأنت أمير الناس، وثب عليه فاضرب عنقه وابعث إلي رأسه (3). وكانت الرسالة التي حملها شمر إلى عمر بن سعد، تحمل في مضمونها أمر القتال، وفيها: أما بعد، فإني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه، ولا لتطاوله، ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتتعد له عندي شافعا. انظر، فإن قول حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فأبث بهم إلي سلما. وإن أورا فلحرف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتل حسين فأوطئ الخيل صوره وظهوره، فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم، إن أنت مضيت لأمرنا فيه، جزيك خاء السامع المطيع، وإن أبيت فاعتول عملنا وجندنا، وخل بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر فإننا قد أمرنا بأمرنا... (4)

وعندما حمل شمر الرسالة إلى عمر بن سعد واطلع عليها قال شمر:

أخبرني ما أنت صانع، أتمضي لأمر أميرك وتقتل عنوه، وإلا فخل بيني وبين الجند والعسكر، فقال له: لا ولا كرامة لك، وأنا أتولى ذلك (5). ونادى

(1) الطبري 334 / 6.

(2) الطوي 334 / 6.

(3) الطوي 336 / 6، البداية 172 / 8.

(4) الطوي 336 / 6، البداية 175 / 8.

(5) الطوي 337 / 6، البداية 175 / 1.

الصفحة 283

عمر بن سعد: يا خيل الله لربي وابشري! فركب في الناس، ثم زحف نحو الحسين بعد صلاة العصر وحسين جالس أمام بيته محتبيا بسيفه إذ خفق رأسه على ركبتيه، وسمعت أخته زينب الصيحة فدنّت من أخيها فقالت: يا أخي أما تسمع الأصوات (1)

قد اقتربت. فرفع الحسين رأسه وقال: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي: إنك تروح إلينا . وبينما كانت الخيل تتقدم، اتجه العباس بن علي إليهم، وعندما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء إن أبا عبد الله يسألكم أن تتصرفوا هذه العشيّة، حتى ينظر في هذا الأمر.... فإذا أصبحنا التقينا. وإنما أراد بذلك أن يرددهم عنه تلك العشيّة حتى يأمر بأمره، ويوصي أهله. فجاء رسول من قبل عمر بن سعد إلى معسكر الحسين وقال: إنا قد أجلناكم إلى غد، فإن استسلمتم سوحنا بكم إلى أمونا عبيد الله بن زياد وإن أبيتتم فلسنا تركيكم ⁽²⁾. وأثناء الليل جمع الحسين أصحابه وقال: إني لا أعلم أصحابا أوفى ولا خوا من أصحابي. ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فخواكم الله عني جميعا خوا. ألاواني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا. إلاواني قدرأيت لكم، فانطلقوا جميعا في حل، ليس عليكم مني نام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثم تفوقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يوج الله، فإن القوم إنما يطلبوني، ولو قد أصابوني لخوا عن طلب غير ⁽³⁾.

فقال له أخوته وأبنؤه، وبنو أخيه، وابنا عبد الله بن جعفر: لم نفعل لنبقى بعدك، لا رأنا الله ذلك أبدا. وقام إليه مسلم بن عوسجة فقال: نحن نخلي عنك، ولما نعدز إلى الله في أداء حقا، أما والله حتى أكرس في صدورهم رمحي، وأضوبهم بسيفي ما ثبت قائمة في يدي، ولا أفلقك، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقدفتهم بالحجرة دونك حتى أموت معك. وتكلم جماعة

(1) الطبري 337 / 6.

(2) الطوي 238 / 6.

(3) البداية 176 / 8 ، الطوي 239 / 6.

الصفحة 284

من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضا في وجه واحد، فقالوا: والله لا نفرلك ولكن أنفسنا لك الفداء، نفيك بنحورنا، وجباهنا، وأيدينا، فإذا نحن قتلنا، كنا وفينا وقضينا ما علينا ⁽¹⁾.

وقام الحسين وأصحابه إلى الصلاة، فقاموا الليل كله، يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضوعون. والحسين يؤأ قوله تعالى: (لا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خوا لأنفسهم. إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) ⁽²⁾.

وفي الصباح، وكان يوم سبت، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء، خرج الحسين فيمن معه من الناس. وكان معه اثنان وثلاثون فرسا وأربعون راجلا، فعبأهم وصلى بهم صلاة الغداة، وجعل البيوت في ظهرهم وأمر بحطب وقصب كان من وراء البيوت تحرق بالنار مخافة أن يأتوهم من ورائهم ⁽³⁾. وكل ذلك من باب الأخذ بالأسباب. وروي أن الحسين رفع يده ودعا الله تعالى، فلما دنا منه القوم، دعا واحلته، فركبها ثم نادى بأعلى صوته: أيها الناس، اسمعوا قولي، ولا تعجلوني حتى أعظكم بما هو حق لكم علي، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عنري، وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم علي سبيل. وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم " فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم

عليكم غمة. ثم اقضوا إلي ولا تنظرون إن وليي الله الذي قول الكتاب وهو يتولى الصالحين. " فلما سمع أخواته كلامه هذا، صحن وبكين، وبكى بناته فارتفعت أصواتهن. فرسل إليهن أخاه العباس بن علي، وعليها ابنه، وقال لهما: أسكتاهن فلعوري ليكثرن بكؤهن. فلما سكتن حمد الله وأتت عليه، وذكر الله بما هو أهله، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملائكته وأنبيائه، يقول الضحاك: فوالله ما

(1) البداية 177 / 8، الطبري 239 / 6.

(2) الطوي 240 / 6، البداية 178 / 8.

(3) الطوي 241 / 6.

الصفحة 285

سمعت متكلمًا قط قبله ولا بعده أبلغ في منطق منه. ثم قال الحسين: أما بعد، فانسبوني، فانظروا من أنا؟ ثم رجوا إلي أنفسكم وعانتوها، فانظروا أهل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألسنت ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وسلم، وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله، والمصدق لرسوله بما جاء من عنده.

أو ليس حفزة سيد الشهداء عم أبي. أو ليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمي، أولم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ولأخي: " هذان سيدا شباب أهل الجنة "، فإن صدقتموني بما أقول، وهو الحق والله ما تعمدت كذبا مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضر به من اختلقه، وإن كذبتوني، فإن فيكم من إن سألتوه عن ذلك أخوكم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصلي، أو أبا سعيد الخوري، أو سهل بن سعد الساعدي، أو زيد بن رُقْم، أو أنس بن مالك، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لي ولأخي. أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي، فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكون أژا ما أني ابن بنت نبيكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غوي لا منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصة، أخبروني أطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جواحه، ثم نادى: يا شيبث بن ربعي، ويا حجار بن ابجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحرث، ألم تكتوا إلي أن قد أينعت الثمار واخضر الجناح وطمت الجمام، وإنما تقدم على جند لك مجند فأقبل؟

فقالوا له: لم نفعل. فقال: سبحان الله، بل والله لقد فعلتم، ثم قال: أيها الناس إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض. فقال له قيس بن الأشعث: ولا تتول على حكم بني عمك، فإنهم لن يروك إلا ما تحب ولن يصل إليك منهم مكروه. فقال الحسين: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل، لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد، عباد الله " إنني عذت بربي وربكم أن ترجمون "، " أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب "، ثم أناخ في راحلته، وأمر عقبة بن سمعان

الصفحة 286

(1)

فعلها وأقبلوا برحفون نحو .

قال كثير بن عبد الله الشعبي: لما زحفنا قبل الحسين، خرج إلينا زهير بن القين فقال: يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نيران. حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم. ونحن الآن إخوة وعلى دين واحد وملة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتم أمة، إن الله ابتلانا وإياكم بنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم إلى نصحهم، وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنكم لا تتركون منهما إلا بسوء عمر سلطانها كله ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جنوح النخل، ويقتلان أمثالكم وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهانئ بن عروة وأشباهه. وعند ما قال لهم زهير ذلك، سبهوا وأثروا على عبيد الله بن زياد ودعوا له، وقالوا: والله لا نوح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلما. فقال لهم: عباد الله إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن سمية. فإن لم تتصروهم، فأعينكم بالله أن تقتلهم، فخلوا بين هذا الرجل وبين يزيد بن معاوية... فوماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال: اسكت اسكت الله نأمتك أومتنا بكثرة كلامك. فأقبل زهير على الناس رافعا صوته: عباد الله، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه فوالله لا تتال شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم قوما هرقوا دماء نبيته وأهل بيته، وقتلوا من نصحهم وذبح عن حريمهم. فناداه رجل من معسكر الحسين: يا زهير، أن أبا عبد الله يقول لك أقبل، فلعمري لئن كان مؤمن آل فوعن نصح لقومه وأبلغ في الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ (2).

وهكذا قامت الحجة عليهم من كل اتجاه، ليقفوا عاة أمام التلويح، ويقفوا في الدائرة الأضيق عندما يعرضون على الله قاصم الجبرلين. وبينما كان أبناء

(1) الطبري 242 / 6، البداية 179 / 8.

(2) الطوي 244 / 6، البداية 180 / 8.

ثقافة السب وعبيد الدينار يستعدون لاجتياح معسكر الحسين، كان هناك رجل بين الرجال واقب الأحداث ويسمع من هذا ومن ذاك، إنه الحر بن يزيد، الذي كانت مهمته، تنحصر في مراقبة الحسين على طول الطريق إلى الكوفة. وروي أن الحر ركب فوسه ونظر إلى معسكر الحسين، فقال له المهاجر بن أوس: ما تريد يا ابن يزيد؟ أريد أن تحمل؟ فسكت. فقال له الرجل: يا ابن يزيد والله إن أموك لعريب. فقال له: إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار، والله لا أختار على الجنة شيئا ولو قطعت وحرقت، ثم ضوب فوسه فلحق بالحسين عليه السلام فقال له: جعلني الله فداك يا ابن رسول الله، أنا صاحبك الذي حبستك عن الروع، وساوتك في الطريق وجعجت بك في هذا المكان.. وإني جئتك تائبا مما كان مني إلى ربي ومواسيا لك بنفسي حتى أموت بين يديك، أفترى ذلك لي توبة؟ قال: نعم يتوب الله عليك ويغفر لك (1).

عاشرا - القتل والصوص:

بعد أن وقف الحر بن يزيد في معسكر الحسين، خاطب القوات الأموية فقال: " ويحكم منعتم الحسين ونساءه وبناته ماء

الوفات الذي يشوب منه اليهود والنصرى، ويتوغل فيه خنزير السواد وكلابه، فهو كالأسير في أيديكم لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعاً (2) . وبدأ الحسين بن علي عليه السلام، يتصرف وفقا لما أخوه النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بخصوص نهايته. فقال الحسين:

إئتوني ثوبا لا يرغب فيه أحد، أجعله تحت ثيابي. فأتوه بنبان فقال: لا.

ذاك لباس من ضربت عليه الذلة، فأخذ ثوبا مخرقة، فجعله تحت ثيابه حتى إذ قتل وجروه من ثيابه بقي عليه هذا الثوب (3)

وبدأت المعركة، معركة الطهر ضد الرجس، معركة قتلت فيها القوات الأموية الأطفال، واستعملت أساليب في القتال، يندى لها الجبين خجلا. ليس

(1) الطبري 244 / 6، البداية 180 / 8.

(2) البداية والنهاية 181 / 8.

(3) سروال صغير يستر العورة المغلظة فقط، ويلبسه الفلاحون.

الصفحة 288

لأنها لا تستقيم مع تعاليم الإسلام، ولكن لأنها لا تستقيم مع المروءة العربية الجاهلية. ولقد حدثنا التريخ عن معرك قادها جنكزخان، وهلاكو، والقياصوة، والأكاسرة. وعلمنا سيرة قادتهم مع أبناء الملوك المهزومين، وكيف كانوا يتعاملون معهم وفقا لأعراف وقوانين متفق عليها. وعلمنا من تريخهم أيضا أن الجبان ليس هو الإنسان الذي يفر من ساحة القتال وإنما هو ذلك الإنسان الذي إذا قدر كان أكثر جبنا أي أكثر قتلا. والتحرك الأموي في كربلاء ضد أبناء النبي صلى الله عليه وسلم، هو في كثير من بنوده، لا يرتقي إلى مستوى تعامل الجباوة مع أبناء الملوك المنهزمين. ويلتقي مع تعريف الإنسان الأكثر جبنا. وفيما سبق ألقينا الضوء على تحرك الحسين نحو كربلاء من مصادر معتمدة ومعتمدة، ألا وهي: الطوي في كتابه المسمى بتريخ الأمم والملوك، والبداية والنهاية لابن كثير، ولقصة بني أمية كقادة وأهراء، وأهل الكوفة كجنود لهذه السياسة، سيكون مصدرنا الأساسي في إلقاء الضوء على ساحة المعركة هو، البداية والنهاية لابن كثير. وما اتفق معه من مصادر سنينيه بالهامش. واختيلنا لهذا المصدر في هذا الموضع بالذات له أسبابه. منها حتى لا يقال إن الأحداث مبالغ فيها. ومنها أن ابن كثير في كتابه يميل ميلا كبيرا نحو السياسة الأموية في خطوطها العريضة، وإن كان ينتقدها في بعض الأمور الثانوية، إلا أنه مؤيد لرموزها بلا استثناء، وهذا يجعل تلقي أخبار القتال مقولولا ولا شبهة فيه. ولقد أجاد ابن كثير عندما تحدث عن مقتل الحسين تحت عنوان " وهذه صفة مقتله مأخوذة من كلام أئمة هذا الشأن، لا كما زعمه أهل التشيع من الكذب " (1) .

وقدم نخبة من المرويات تكفي لما نريد أن نبينه في هذا المقام.

وعن تحديد الذي بدأ القتال، يقول ابن كثير: فتقدم عمر بن سعد بن أبي وقاص وقال لولاه: يا نريد ادن رايتك، فأدناها، ثم

شمر عمر بن سعد عن ساعده، ورمى بسهم وقال: اشهوا، إني أول من رمى القوم. فزأى الناس

(1) بالنبال . وبدأت المبارزة بين الفويقين، ووقف رجل وقال: يا حسين أبشر بالنار. فقال له الحسين: كلا، ويحك إنني أقدم على رب رحيم وشفيع مطاع، بل أنت أولى بالنار، وكثرت المبارزة بين الفويقين والنصر في ذلك لأصحاب الحسين، لقوة بأسهم، وأنهم مستميتون لا عاصم لهم إلا سيوفهم. فأشار بعض الأهواء على عمر بن سعد بعدم المبارزة (3). وبعث عمر نورا من خمسمائة رجل فجعلوا يرمون خيول أصحاب الحسين ففقروها كلها، حتى بقي جميعهم رجالة. وأمر ابن سعد بحرق الأبنية التي تحمي أجناب قوات الحسين. فقال الحسين: دعوهم يحرقونها فإنهم لا يستطيعون أن يجوزوا منها وقد أحرقت (4). ونادى ابن الحجاج أمير ميمنة جيش ابن زياد: قاتلوا من مرق من الدين وفرق الجماعة.

فقال له الحسين: يا عمر بن الحجاج أعلي تعرض الناس، أنحن مرقنا وأنتم تثبت عليه؟ أما والله لتعلمن لو قبضت أرواحكم، ومتم على أعمالكم، أيننا مرق من الدين، ومن هو أولى بصلي النار (5).

إن المعركة تكشف فيما تكشف عن سياسة التوقيع والتشويه، وعن انتاج ثقافة السب حيث الجيل والعصر الذي ضيع الصلاة. واتهام الحسين بأنه من أهل النار، وأنه ملق من الدين، دليل قاطع على أن الرحلة الأموية كرثة كوى في بدايتها فما بالك بها عند نهاية الطريق، ففي أول الطريق ضاع الدين ورموز الدين، فبأي وقود تسير القاطرة بعد ذلك؟ ثم انظر إلى هذا الجندي الأموي الذي ضاعت الصلاة في عهدهم، ماذا قال عندما سمع الحسين يقول: مروهم فليكفوا عن القتال حتى نصلي. لقد قال للحسين إن الصلاة لا تقبل منكم. فود عليه أحد جنود الحسين قال له: ويحكم أتقبل منكم ولا تقبل من آل رسول

(1) الله . وفي رواية الطوي قال له: زعمت الصلاة من آل رسول الله لا تقبل، وتقبل منك يا حمار (2). فهذا دليل على مدى السقوط الذي انحدرت إليه الأمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأقل من خمسين عاما، وليس بعد ثلاثة قرون. وبعد أن قامت القوات الأموية برفض المبارزة، وهي قانون قتالي لا خلاف عليه. وبعد أن وجهت النبال إلى خيول الحسين، وحرقت الأبنية التي تحمي أجنابه. يقول ابن كثير: كان الرجل من أصحاب الحسين إذا قتل بان فيهم الخلل، وإذا قتل من

أصحاب عبيد الله بن زياد الجماعة الكثيرة لم يتبين ذلك فيهم لكثرتهم . فالقوات الأموية في الأساس يتمتعون بكثرة عددهم، ولكنهم كانوا أكثر جبنا، فهم خائفون ولكنهم بما لديهم من عتاد، يضربون في كل مكان حتى أخبية النساء ما سلمت منهم. وروي أن حبيب بن مظاهر، قاتل بجانب الحسين قتالا شديدا، فضوبه رجل بالسيف على رأسه فقتله. وحمل عليه آخر قطعه فوقه، فقتل إليه الذي ضوبه بالسيف فاحتز رأسه. فقال له الذي طعنه إني لشريكك في قتله. فقال الآخر: والله ما قتله غوي. فقال الذي طعنه وهو من بني تميم: أعطنيه أعلقه في عنق فوسي كيما روى الناس ويعلموا أنني شلكت في قتله، ثم خذه أنت بعد ذلك فامض به إلى عبيد الله بن زياد، فلا حاجة لي فيما تعطاه على قتلك إياه. فأبى عليه فأصلح قومه فيما بينهما على هذا، فدفن إليه الرأس، فجال به في العسكر وقد علقه في عنق فوسه. وبعد المعركة أقبل به إلى ابن زياد في القصر، وبينما هو يسير، شاهده ابن حبيب بن مظاهر فقال له: إن هذا الرأس الذي معك رأس أبي، أفتعطينيه حتى أدفنه؟ فقال له: يا بني لا يرضى الأمير أن يدفن، وأنا أريد أن يثيبي الأمير على قتله ثوبا حسنا. فقال له الغلام: لكن الله لا يثيبك على ذلك إلا أسوأ الثواب، وبكى الغلام. وروي أن هذا الغلام لم يكن له همه إلا

(1) البداية 183 / 8.

(2) الطوي 251 / 6.

(3) البداية 183 / 8.

الصفحة 291

اتباع أثر قاتل أبيه. فلما كان زمان مصعب بن الزبير، دخل الغلام معسكر مصعب فوجد الرجل فقتله (1). وبدأت جحافل بني أمية تتدفق على معسكر الحسين من كل ناحية، وقتل الحر بن يزيد. وبعد ذلك صلى الحسين صلاة الخوف، ثم اقتتلوا بعدها قتالا شديدا، فلما رأى أصحاب الحسين أنهم قد كثروا، وأنهم لا يقرون عن أن يمنوا حسينا ولا أنفسهم، تنافسوا في أن يقتلوا بين يديه. فجاء عبد الله، وعبد الرحمن ابنا عزة الغفار، فقالا: يا أبا عبد الله عليك السلام، حزنا العدو إليك، فأحببنا أن نقتل بين يديك، نمنعك وندفع عنك. قال: مرحبا بكما ادنوا مني. فدنوا منه، فجعلنا يقاتلان. وجاء الفتيان الجابريان، سيف بن الحرث، ومالك بن عبد، فأتيا حسينا، فدنوا منه وهما يبكيان. فقال: ما يبكيكما، فوالله إني لأرجو أن تكونا عن ساعة قوي عين. فقالا للحسين: جعلنا الله فداك، لا والله ما على أنفسنا نكي ولكن نكي عليك، ذاك قد أحيط بك ولا نقدر أن نمنعك. فقال: خاكما الله بوجدكما من ذلك ومواساتكما إياي بأنفسكما أحسن خزاء المتقين (2).

وجاء حنظلة بن أسعد، فقام بين يدي حسين، فأخذ ينادي: يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب. مثل دأب قوم فوح وعاد وثمود والذين من بعدهم. وما الله يريد ظلما للعباد. ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التتاد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم، ومن يضل الله فما له من هاد. يا قوم لا تقتلوا حسينا فيسحتكم الله بعذاب وقد خاب من افترى. فقال له الحسين: يا ابن سعد رحمك الله. إنهم قد استوجوا العذاب حين رنوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك. فكيف بهم الآن، وقد قتلوا إخوانك الصالحين. قال: صدقت جعلت فداك أنت أفقه مني. وأحق بذلك، أفلا نروح إلى الآخرة

ونلحق بإخواننا. فقال له: رح إلى خير من الدنيا وما فيها.

(1) الطبري 652 / 6، البداية 183 / 8.

(2) الطوي 253 / 6، البداية 184 / 8

الصفحة 292

وإلى ملك لا يبلى. فقال: السلام عليك يا أبا عبد الله وعلى أهل بيتك، وعرف بيننا وبينك في جنته. فقال: أمين أمين فاستقدم
فقاتل حتى قتل (1).

ثم أتاه أصحابه مثني، وفأدى يقاتلون بين يديه، وهو يدعو لهم ويقول:

خُراكم الله خُراء المتقين. فجعلوا يسلمون على الحسين ويقاتلون حتى يقتلوا. ثم جاء حبس بن أبي شبيب، فقال: يا أبا عبد
الله، أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعز علي منك، ولو قدرت أن أدفع عنك الضيم أو القتل بشيء، أعز
علي من نفسي ودمي لفعلته. السلام عليك يا أبا عبد الله، أشهد لي أنني على هديك. ثم مشى بسيفه صلتا وبه ضربة على جبينه،
فنادى: أألا رجل لرجل، ألا ابرزوا إلي. فعرفوه - وكان من أشجع الناس - فنكلوا عنه. ثم قال عمر بن سعد: رُضخوه
بالحجارة، فومي بالحجارة من كل جانب، فلما رأى ذلك ألقى روعه ومغفوه، ثم شد على الناس، فكود أكثر من مائتين بين
يديه، ثم إنهم عطفوا عليه من كل جانب فقتل رحمه الله. وأخذ رأسه. عدد من الرجال، كل يدعي قتله، فأتوا به عمر بن سعد
فقال لهم: لا تختصموا فيه فإنه لم يقتله إنسان واحد. ففرق بينهم بهذا القول (2).

وقاتل زهير بن القين بين يدي الحسين قتالا شديدا، فشد عليه كثير بن عبد الله، ومهاجر بن أوس فقتلاه (3). وكان آخر من
بقي مع الحسين من أصحابه سويد بن عمر، وكان أول قتيل من بني أبي طالب يومئذ، على الأكبر بن الحسين بن علي. فلقد
أخذ يشد على الناس وهو يقول:

أنا علي بن حسين بن علي * نحن ورب البيت أولى بالنبي

تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

وبينما هو يقاتل، اعترضه مرة بن منقذ فطعنه، واجتمع عليه الناس فقطعوه بأسيا فمهم، فقال الحسين: قتل الله قوما قتلوك يا

بني، ما أحرأهم على الرحمن

(1) الطبري 254 / 6.

(2) البداية 185 / 8.

(3) البداية 184 / 8

الصفحة 293

وعلى انتهاك حرمة الرسول على الدنيا بعدك العفاء. وخرجت زينب، ابنة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

تنادي: يا أخياه ويا ابن أخاه، فجاءت حتى أكبت عليه. فجاءها الحسين فأخذ بيدها فودها إلى الفسطاط. وأقبل الحسين إلى ابنه، وأقبل فتيانه إليه، فقال: احموا أباكم. فحملوه من مصوعه حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه (1). ثم قتل عبد الله بن مسلم بن عقيل، ثم قتل عون، ومحمد ابنا عبد الله بن جعفر، ثم قتل عبد الرحمن وجعفر ابنا عقيل بن أبي طالب، ثم قتل القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب (2). وعن حميد بن مسلم قال: وخرج غلام كأن وجهه شقة قمر في يده السيف. عليه قميص ورار، ونعلاه قد انقطع " شسع أحدهما. فقال عمرو بن سعد بن نفيل: والله لأشدن عليه. فقيل له: سبحان الله وما تريد إلى ذلك، يكفيك قتل هؤلاء الذين واهم قد احتلواهم. فقال: والله لأشدن عليه، فشد عليه، فما ولي حتى ضرب رأسه بالسيف، فوقع الغلام لوجهه، وقال: يا عماء. فجلى الحسين كما يجلى الصقر، ثم شد شدة ليث أغضب، فضرب عمر بالسيف فاتقاه بالساعد فأطنها من لدن المرفق، فصاح ثم تتح عنه. وحملت خيل الكوفة ليستتقنوا عمر من الحسين... فاستقبلت عمر بصورها، وحركت حوافها، وجلت الخيل بفوسانه عليه، فتوطأته حتى مات. وقام الحسين على رأس الغلام، والغلام يفحص وجليه. والحسين يقول: بعدا لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك. ثم قال: عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفحك، صوت والله كثر واؤه وقل ناصوه، ثم احتمله وكأنني أنظر إلى رجلي الغلام يخطان في الأرض، وقد وضع الحسين صوره على صوره، ثم جاء به حتى ألقاه مع ابنه الأكبر ومع من قتل من أهل بيته فسألت عن الغلام فقيل: هو القاسم بن الحسين بن علي بن أبي طالب (3).

(1) البداية 185 / 8، الطبري 256 / 6.

(2) البداية 185 / 8، الطوي 256 / 6.

(3) البداية 186 / 8، الطوي 256 / 6.



وقال هانئ بن ثابت: خرج غلام من آل الحسين، وهو ممسك بعود - أي عود قصب - من تلك الأبنية، وعليه رار وقميص وهو مذعور يلتفت يمينا وشمالا. فكأنني أنظر إلى تورتين في أذنيه، تذبذبان كلما التفت. إذ أقبل رجل يركض فوسه. حتى إذا دنا من الغلام، مال عن فوسه ثم أخذ الغلام فقطعه بالسيف. قال هشام السكوني: هانئ بن ثابت هو الذي قتل الغلام، خاف أن يعاب ذلك عليه فكنى عن نفسه

(1)

ومكث الحسين نهرا طويلا وحده لا يأتيه أحد، حتى آتاه رجل من كنده يقال له مالك بن النسير. أتاه فضوبه على رأسه بالسيف، وعليه بونس له فقطع البونس، وأصاب السيف رأسه فأدمى رأسه، فامتأ البونس دما. فقال له الحسين: لا أكلت بها ولا شربت، حشرك الله مع الظالمين، وألقى ذلك البونس، ثم دعا بقلنسوة فلبسها واعتم. وقد أعيا. وجاء الكندي الذي ضربه حتى أخذ البونس (2).

وأتى الحسين بصبي له فأجلسه في حوره، ثم جعل يقبله ويودعه. فوماه رجل من بني أسد بسهم فذبح ذلك الغلام. فتلقى الحسين دمه في يده. وألقاه نحو السماء وقال: رب إن تك حبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين (3). وأحاطوا بالحسين، وأقبل إلى الحسين غلام من أهله، فأخذته أخته زينب ابنة علي لتحبسه. فقال لها الحسين:

أحبسيه، فأبى الغلام، وجاء يشند إلى الحسين فقام إلى جنبه، فأهوى بحر بن كعب إلى الحسين بالسيف. فقال الغلام: أتقتل عمي، فضوبه بالسيف فاتقاه الغلام بيده فأطنها سوى الجلدة، فإذا يده معلقة. فنادى الغلام: يا أمتاه، فأخذه الحسين فضمه إلى صوره، وقال: يا ابن أخي اصبر على ما تزل بك، واحتسب في ذلك الخير فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين، رسول الله صلى الله عليه

(1) البداية 186 / 8، الطبري 258 / 6.

(2) البداية 186 / 8، الطوي 256 / 6.

(3) البداية 186 / 8، الطوي 257 / 6.

وسلم، وعلي بن أبي طالب، وحزوة، وجعفر، والحسن صلى الله عليهم أجمعين (1).

وبعد أن فغت القوات الأموية من الخيول، ثم من الرجال، ثم من الأطفال، بدعوا يتوغلون للنساء، وكان هذا كله وفق خطة محكمة، هدفها أن يرى الحسين كل شيء قبل أن يقتلوه. يقول عبد الله بن عمار: فوالله ما رأيت مكسورا قط، قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه رُبط جأشا، ولا أمضى جنانا منه، ولا أحرأ مقدما. والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله. إن كانت الرجالة لتتكشف من عن يمينه وشماله. انكشاف المغوى إذ شد فيها الذئب، فوالله إنه لكذلك (2).

وتحرك شمر بن الجوشن في اتجاه متول الحسين الذي فيه ثقله وعياله، ثم قام بقواته فحاولوا بين الحسين وبين رحله. فقال

الحسين: ويلكم إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا في أمر دنياكم أحراراً نوي أحساب، منوارحلي وأهلي من طغانكم وجهالكم. فقال له شمر: ذلك لك يا ابن فاطمة⁽³⁾.

إحدى عشر - سلام عليك أبا عبد الله:

وقف الحسين في ساحة المعركة وحده. وكان النبي صلى الله عليه وسلم، واقب الحركة من عالم غير العالم الذي يعيش فيه الناس. فأم سلمة سؤاه في المنام بعد قتل الحسين، وعلى لحيته الزاب، ويقول لها: لقد شهدت قتل الحسين آنفاً، لقد وقف الحسين في نهاية عمل أحسن أدائه، فأقام الحجة الدائمة التي شاء الله أن يجعلها حجة دامية لتوقع الذاكرة على امتداد التاريخ، وتدفع الذهن إلى طويق البحث عن الحقيقة، كان في مواجهة الحسين أنماط

(1) البداية 187 / 8، الطبري 259 / 6.

(2) الطوي 259 / 6، البداية 188 / 8.

(3) الطوي 258 / 6، البداية 187 / 8.

الصفحة 296

بشوية أقرالها غير أفعالها، خرجت من خيام بها الكثير من التقيح والفساد، الذي يسد أبواب الأمل. ولم يرفع الحسين يده استسلاماً لهذه الأنماط، لأنه ليس من شيمة الرجل الشريف أن يتردى في هوة هذا الخوف الدليل، وأي شريف يكون غير أسف على ترك عالم الباطل هو الشئ الوحيد الذي يسود فيه، لم يرفع الحسين يده، وإنما تصدى للخيام التي بها حشداً من الجرائم، ومكتظة بالقتل والآثام، وواجه العنوان البهيمي الروي الذي ليس له نظير، كان الحسين في أحلك الأوقات يدعو لإقامة الدين، وكان خصومه الذين تزوعوا تحت ثقافة السب وأمام بيوت المال، يعملون من أجل الدنيا، كانوا يعملون من أجل كيس نقود، وكانوا يضعون العقبات أمام الحسين، حتى يظل عاجزاً عن نيل ما يشتهي بينما يبلغ كل منهم ما يريد.

1 - صرخات الحسين:

أمام المجموع التي توقع أنيابها كرقعة أنياب الحيتان، وقف الحسين والدماء تغطي وجهه بعد أن ضربه رجل من كنده بالسيف على رأسه، فقطع الونس وأدمى الرأس. فقال لهم: أعلى قتلي تحاثون؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني. وأيم الله، إنني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله إن لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم⁽¹⁾. وكان قد قال: إنني لم أخرج أشوا ولا بطوا، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، محمد صلى الله عليه وسلم، لريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسوة جدي محمد صلى الله عليه وسلم، وأبي علي بن أبي طالب. فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق. ومن رد على هذا، أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم الظالمين⁽²⁾.

(1) البداية والنهاية 188 / 1، الطبري 260 / 6، الكامل 264 / 3.

كان الحسين يذكر ويقيم الحجة على امتداد الطريق، وكان الذين من حوله تلمع في عقولهم دنانير عبيد الله بن زياد. كما لمع العجل في قلوب بني إسرائيل، كان يلقي عليهم كلمات فيها حياتهم، وبها يعيشوا أحراراً. وكانوا يبحثون عن حجة لوجوه بها. هو يريد حياتهم، وهم يريدون قتله. وصاح الحسين: ما لك يا ابن سعد قطع الله رحمك، ولا برك الله لك في أموك، وسلط عليك بعدي من يذبك على فاشك، كما قطعت رحمي ولم تحفظ قوابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رفع صوته وتلى قوله تعالى: (1)

(إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * نزية بعضها من بعض والله سميع عليم " (2)

كان يذكرهم بما يعرفون وبما يخفون. وتعالى الأصوات: الحق مع آل معاوية، وقطع ضجيجهم صوت الحسين: نعم الرب ربنا، وبئس العبيد أنتم....

يا أمة السوء بئسما خلفتم محمداً في عترته. ثم قال: أما إنكم لن تقتلوا بعدي عبداً من عباد الله فتهابوا قتله. بل يهون عليكم ذلك، عند قتلكم إياي، وأيم الله، إني لأرجو أن يكرمني الله بالشهادة، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. فناداه الحصين بن مالك: وبماذا ينتقم لك منا يا ابن فاطمة فقال:

(3) يلقي بأسكم بينكم ويسفك دماءكم، ثم يصب عليكم العذاب الأليم .

وبعد أن حوهم الحسين التحذير الأخير، عطش الحسين حتى اشتد عطشه فدنا ليشرب من الماء، فوماه حصين بن تميم بسهم فوقع في فمه، فجعل يتلقى الدم من فمه، ويرمي به إلى السماء، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم جمع يديه فقال: اللهم احصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تذر على الأرض منهم أحداً (4).

(1) مقتل الحسين / الخوارزمي 30 / 2.

(2) (سورة آل عمران: الآية 33 و 34.

(3) مقتل الحسين 34 / 2.

(4) (رواه الطواني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 193 / 9) والبداية والنهاية 187 / 8 ، الطوي 258 / 6.

2 - والله إنه ليخزني قتل الحسين:

وقف الحسين أمام رحله الذي به، ما تركته السيوف من بقايا أجساد أبنائه.

مكث نهراً طويلاً وحده، لا يأتيه أحد، حتى قوف دمه. وبعد أن لتوت الأرض من دمائه، نادى شمر بن ذي الجوشن:

ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل؟ فاقتلوه تكلنكم أمهاتكم. فحملت الرجال من كل جانب على الحسين. وضوبه زرعه بن شريك

على كتفه اليسرى، وضرب على عاتقه. ثم انصorfوا عنه، وهو ينوء ويكبو. ثم جاء إليه سنان بن أبي عمرو، فطعنه بالرمح فوق (1) . يقول عبد الله بن عمار: رأيت الحسين حين اجتمعوا عليه، يحمل على من على يمينه حتى اندعروا عنه. فوالله ما رأيت مكثورا قط قد قتل ولأده وأصحابه رُبط جأشا منه، ولا أمضى جنانا منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله (2) وروى الطوي:

كان مع الحسين سكين، فعندما أخذ سيفه قاتلهم بسكينة ساعة (3) .

وعندما جاء شمر بن ذي الجوشن، نظر إليه الحسين وقال: صدق الله ورسوله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كأي أنظر إلى كلب أبقع يلغ في دماء أهل بيتي ". وكان شمر أروص (4) . ثم قال: اللهم أحبس عنهم القطر، وابعث عليهم سنين كسني يوسف، وسلط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأسا مصورة، فإنهم كذبونا وخذلونا. اللهم إن متعتهم إلى حين فوقهم فوفا واجعلهم طرائق قديدا، ولا ترضى الولاية عنهم أبدا. فإنهم دعونا لينصرونا ثم عوا علينا فقتلونا.. ثم رآد الحسين أن يقف، ولكن قضى الله أن تنتهي أعمال الحسين بالدعاء إليه سبحانه. وأن تنتهي حركته في هذه البقعة من الأرض، لتبدأ الحركة بصورة أخرى على امتداد الزمان. وروي أن الحسين سأل عن هذه البقعة فقالوا: كربلاء، فقال: صدق الله ورسوله كرب وبلاء - وفي

(1) البداية والنهاية 189 / 8، الطبري 360 / 2.

(2) البداية والنهاية 188 / 8.

(3) الطوي 360 / 6.

(4) البداية والنهاية 188 / 8، وابن عساكر (كنز العمال 226 / 12).

الصفحة 299

رأية - صدق رسول الله أرض كرب وبلاء (1) .

و شاء الله أن تحفر في ذاكرة المسلمين أحداث كربلاء، فالأحداث والأرض حزمة واحدة. داخل الذهنية الإسلامية، واسم كربلاء اسم مقصود له معنى، وللمعنى حكمة، ومن وراء الحكمة هدف. قال في لسان العرب: الكرب: الحزن والغم، الذي يأخذ بالنفس. فإذا كان هذا وقودا لقاطرة، فإن هذه القاطرة ستدخل إلى داوة البلاء، من مدخل الأمان. وقال في المجمع: البلاء على ثلاثة أوجه: نعمة، واختبار، ومكروه. قال تعالى: (تلبون في أموالكم وفي أنفسكم) يريد توطين النفس على الصبر. وقال تعالى: (وإذا ابتلى إواهم ربه بكلمات). أي اختوره، بما تعبه به من السنن. (فأتمهن) أي عمل بهن، ولم يدع منهن شيئا. والبلاء يكون حسنا وسيئا، وأصله المحنة. والله يبلى العبد، بما يحبه ليمتحن شكوه، وبما يكوه ليمتحن صوه. قال تعالى: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة). وقال: (يوم تبلى السوائر)، أي تختبر السوائر في القلوب، من العقائد والنيات وغورها. وما أسر وأخفى من الأعمال. فيتميز منها ما طاب وما خبث. وقال (ليبلوكم أيكم أحسن عملا)، أي ليعاملكم، معاملة المختبرين لكم، وإلا فعالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شيء، وإنما يبلى ويختبر من تخفى عليه العواقب. وقوله: (أيكم أحسن

عملا) ليس يعني أكثركم عملا، ولكن أصوبكم عملا. وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة. وسنة البلاء لا يستثنى فيها المؤمن والكافر، والمحسن والمسيء. وفي الحديث القدسي: " إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك قومك، من يتبعك، ومن يتخلف عنك، ومن ينافق معك.

وهكذا تكون دائرة الكوب، مدخلا إلى دائرة البلاء. وهكذا كان للحدث كله حكمة من ورائها هدف. لقد أراد الحسين، أن يقف في وجه أعدائه، آخذا بكل سبب من الأسباب. ولكن الله قضى أن تقطع الأسباب، وأن يقع على أرض كوبلاء. وروي أنهم تركوه نهرا طويلا وهو ينوء ويكبو، ثم التفتوا حوله بعد أن

(1) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 189 / 9).

الصفحة 300

صعدت الروح إلى بلئها، وتول أحدهم من على فوسه، قيل إنه شمر بن ذي الجوشن. وقيل إنه سنان بن أنس. فاحتز رأسه، ورؤوس بقية من قتل معه.

يقول ابن كثير: كان معه رؤوس بقية أصحابه وهو المشهور، ومجموعها اثنان وسبعون رأسا. وذلك أنه ما قتل قتيل إلا احتزوا رأسه. وحملت هذه الرؤوس إلى ابن زياد. ثم بعث بها ابن زياد إلى يزيد بن معاوية إلى الشام (1).

وسلب الحسين ما كان عليه، فأخذ سواره بحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته، وأخذ نعليه رجل من بني أود يقال له الأسود، وأخذ سيفه رجل من بني نهشل بن درم. ومال الناس على الورس والحلل والإبل وانتهوها، ومال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه. فإن كانت المرأة لتنتزع ثوبها عن ظهوها، حتى تغلب عليه فيذهب به منها (2). ووجد بالحسين عليه السلام، حين قتل ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة (3). وأمر عمر بن سعد عشوة فوسان، أن يبوسوا الحسين، فداسوا الحسين بحوافر خيولهم، حتى ألصقوه بالأرض يوم المعركة (4). وكان عمر الحسين يوم قتل، ثمان وخمسين سنة (5). وقتل معه سبعة عشر كلهم، ارتكض في رحم فاطمة عليها السلام (6). وجميع من قتل مع الحسن اثنان وسبعون رجلا (7). وعن حميد بن مسلم قال: انتهيت إلى علي بن الحسين بن علي الأصغر، وهو منبسط على فاش له وهو مريض. وإذا شمر بن الجوشن في رجاله معه يقولون: ألا تقتل هذا. فقال حميد: إنما هذا صبي، حتى جاء عمر بن سعد فقال: لا يعوضن لهذا الغلام المريض. فقال لي علي بن الحسين: حزيت من رجل خوا. فوالله

(1) البداية 190 / 8.

(2) الطوي 360 / 6.

(3) الطوي 260 / 6.

(4) البداية 189 / 8، الطوي 261 / 6.

(5) رواه الطواني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد 198 / 9).

(6) رواه الطواني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (198 / 9) البداية 189 / 8 .

(7) الطوي 261 / 6 ، البداية 189 / 8 .

الصفحة 301

لقد دفع الله عني، بمقاتلك شوا. وقال حميد: فقال الناس، لسنان بن أنس:

قتلت حسين بن علي بن أبي طالب، وابن فاطمة ابنة رسول الله. قتلت أعظم رجال العرب خطأ، جاء إلى هؤلاء يريد أن يزيل ملكهم. فأت أرواك فاطلب ثوابك منهم. وإنهم لو أعطوك، بيوت أموالهم في قتل الحسين كان قليلا. فأقبل على فرسه، فأقبل حتى وقف، على باب فسطاط عمر بن سعد، ثم نادى بأعلى صوته:

أوقر ركابي فضة وذهبا * أنا قتلت الملك المحجبا

قتلت خير الناس أما وأبا * وخوهم إذ ينسبون نسبا

فقال عمر: أشهد أنك لمجنون، أدخلوه علي. فلما أدخل قال: يا مجنون أنتكلم بهذا الكلام أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك⁽¹⁾.

اثني عشر - بكاء وأحداث:

● في دار أم سلمة رضي الله عنها:

عن سلمى قالت: دخلت على أم سلمة، وهي تبكي، فقلت: ما يبكيك؟

قالت: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، وعلى رأسه ولحيته التراب. فقلت: ما لك يا رسول الله. قال: شهدت قتل الحسين آنفا⁽²⁾. وكان النبي صلى الله عليه وسلم، قد أعطى أم سلمة التوبة التي أتى بها جبريل عليه السلام يوم أن أخوه، بأن أمته ستقتل حسيننا، وقال لها: " إذا تحولت هذه التوبة دما فاعلمي أن ابني قد قتل. فجعلتها في قرورة⁽³⁾ - وفي رواية - فأخذتها أم سلمة، فصوتها في حملها⁽⁴⁾. وممكن أن تكون فعلت هذا وذلك، لأن الإخبار بالحدث تكرر أكثر من مرة.

(1) البداية والنهاية 189 / 8، الطبري 261 / 16.

(2) رواه التومذي (البداية 217 / 8) والحاكم والبيهقي (الخصائص الكوى 214 / 2) أسد الغابة 23 / 2.

(3) أبو نعيم (الخصائص الكوى 213 / 2).

(4) رواه أحمد وأبو يعلى وقال الهيثمي رجال أبو يعلى رجال الصحيح (الزوائد 187 / 9).

الصفحة 302

وروي أن أم سلمة، عندما نظرت إلى التوبة ووجدتها قد تحولت دما بكت، وقالت: " قد فعلوها ملاً الله قبورهم - أو - بيوتهم عليهم نوا. ووقعت مغشياً عليها⁽¹⁾. وفي رواية - لعنت أهل العواق، وقالت: قتلوه قتلهم الله عز وجل⁽²⁾. وتوفيت أم⁽³⁾

سلمة رضي الله عنها، في نفس العام الذي قتل فيه الحسين . وكانت محبة لأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم. وإعطاء النبي التوبة لها فيه إشارة، أن الله تعالى أخوه بأن حياتها، ممتدة إلى أن تسمع بهذه الأحداث. فتبين الحقيقة في عالم خيم عليه الظلام.

● في دار عبد الله بن عباس:

عن ابن عباس قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، نصف النهار أشعث أغبر، معه قرورة فيها دم. فقلت: بأبي وأمي يارسول الله، ما هذا؟ قال: هذا دم الحسين وأصحابه⁽⁴⁾. وهكذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، عن قتل الحسين. أخبر أثناء حياته، وفي مماته. ولا يحدث شيء في كون الله عبثا. إن جبريل عليه السلام، تول وأخبر بأن الحسين سيقتل. ومعنى أنه يقتل، أن جريمة قد حدثت، ولكل جريمة عقوبة، بمعنى أن جبريل عليه السلام أخبر بجريمة، وعقوبتها. فمن دخل في دائرة الجريمة، ضربته العقوبة. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إن جبريل أخونني أن ابني هذا يقتل، وأنه اشتد غضب الله على من يقتله "⁽⁵⁾. وكان النبي يحذر ويقول: " من آذى شعوة مني فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله " ⁽⁶⁾. ولقد تحدثنا فيما سبق أن الله لا يجعل لقاتل مؤمن توبة. لأن هذا النمط من بني الإنسان، له ضربة لا بد أن ينالها في الدنيا،

(1) البداية 218 / 8.

(2) (رواه الطواني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 194 / 9).

(3) البداية 232 / 8.

(4) (رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد 194 / 9) البداية 217 / 8.

(5) ابن عساكر (كنز العمال 127 / 12).

(6) ابن عساكر (كنز العمال 96 / 12).

الصفحة 303

ولعذاب الآخرة أكبر. سئل ابن عباس عن رجل قتل مؤمنا، ثم تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى. قال: ويحك وأنى له الهدى، سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول: يجيء المقتول متعلقا بالقاتل يوم القيامة، يقول يارب سل هذا فيم تقتلني. والله لقد أتولها الله عز وجل على نبيكم (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فخرؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما)، وما نسخها بعد أن أتولها⁽¹⁾.

وعن مؤثد قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم، عن القاتل والامر، قال: قسمت النار، سبعين جزءا فلأمر تسع وتسعون، وللقاتل جزء، وحسبه.

(أي يكفيه هذا المقدار من العذاب)⁽²⁾. إنه عدل الله، الذي تحت سلطانه لا يفر الظالمين. إن العصفور سيبحث عن قاتله يوم القيامة. فما بالك بالمؤمن وقاتله.

روى الطواني، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من أحد يقتل عصفورا، إلا عج يوم القيامة، فقال: يارب هذا

قتلني عبثاً، فلا هو انتفع بقتلي ولا هو تركني أعيش في أرضك " (3) .

● في قصر الإمارة:

عند ما سلت القافلة الأموية، ومعها الرؤوس ومن بقي من آل الحسين، من كربلاء إلى الكوفة، كان لآل الحسين نداء، يقول قبة بن قيس: نظوت إلى تلك النسوة، لما مررن بحسين وأهله وولده، صحن ولطنن وجوههن. فما نسيت من الأشياء لا أنسى قول زينب ابنة فاطمة، حين موت بأخيها الحسين صديعا وهي تقول: يا محمداه، يا محمداه صلى عليك ملائكة السماء، هذا حسين بالواء مومل مقطع الأعضاء، يا محمد وبناتك سبايا ونريتك مقتلة تسفي عليها الصبا " (4) وبني أمية من قبل طاوفا، وأس عمرو بن الحمق، وهي في

(1) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه بسند صحيح (الفتح الرباني 4 / 16).

(2) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (الفتح الرباني 5 / 16).

(3) رواه الطواني (الإصابة 349 / 6).

(4) الطوي 262 / 6.

الصفحة 304

أيديهم. أمارأس الحسين عليه السلام، فهي أول رأس رفع على خشبة (1) .

ودخل الموكب إلى قصر الإمارة. فقام عبيد الله بن زياد، ونودي الصلاة جامعة فاجتمع الناس في المسجد، فصعد المنبر ابن زياد فقال: الحمد لله الذي أظهر الحق ونصر أهله ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، وحزبه وقتل الكذاب بن الكذاب، الحسين بن علي وشيعته. فلم يؤغ ابن زياد من مقالته، حتى وثب عليه عبد الله بن عفيف، وكان من شيعة علي عليه السلام، وكانت عينه اليسوى ذهبت يوم الجمل مع علي، فلما كان يوم صفين، ضوب على رأسه ضوبة، وأخوى على حاجبه، فذهبت عينه الأخرى، فكان لا يفرق المسجد يصلى فيه إلى الليل، فلما سمع مقالة ابن زياد قال: يا ابن موجانة إن الكذاب ابن الكذاب، أنت وأبوك، والذي ولاك وأوه، يا ابن موجانة أتقتلون أبناء النبيين وتكلمون بكلام الصديقين! فقال ابن زياد علي به. فوثب عليه الجلازة فأخوه، ثم أمر بقتله، وأمر بصلبه في السبخة، فصلب (2) .

وفي القصر جلس ابن زياد للناس، وجاءت الوفود فأدخلهم. يقول حميد بن مسلم: وأذن للناس، فدخلت معهم، فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه، وإذا هو ينكت بقضيب بين ثناييه. فمارأه زيد بن رُقْم، لا ينجم عن نكته بالقضيب قال له: أعل بهذا القضيب، عن هاتين الثنيتين، فالذي لا إله غوه، لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، على هاتين الشفتين يقبلهما، ثم بكى زيد. فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك، فالله لو لا أنك شيخ قد خرفت، وذهب عقلك لضربت عنقك. فنهض فخرج. فلما خرج قال الناس: والله لقد قال زيد بن رُقْم قولا لو سمعه ابن زياد لقتله.

فقلت: ما قال. قالوا: مر بنا وهو يقول: ملك عبد عبدا، فاتخذهم تدا، أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأموتم ابن موجانة، فهو يقتل خيلكم، ويستعبد شولكم، فرضيتم بالذل فبعدا لمن رضي

(1) بالذل .

وروي أنه لما دخل، وأس الحسين، وصبيانهم، وأخوته، ونسائه، على عبيد الله بن زياد، لبست زينب بنت فاطمة رُذُل ثيابها، فلما دخلت جلست، فقال ابن زياد: من هذه؟ فلم تكلمه. فقال ذلك ثلاث، كل ذلك لا تكلمه فقال بعض إمامها هذه زينب ابنة فاطمة. فقال لها ابن زياد: الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم، وأكذب أحوثتكم. فقالت: الحمد لله، الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وطهرنا تطهرا، لا كما تقول أنت، إنما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر. فقال: فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟ قالت: كتب عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه، وتخاصمون عنده. فغضب ابن زياد. فقال له عمرو بن حريث: أصلح الله الأمير، إنما هي امرأة، وهل تَوَاخذ المرأة بشئ من منطقتها... فقال لها ابن زياد: قد أشفى الله نفسي من طاغيتك، والعصاة المردة من أهل بيتك. فبكت، ثم قالت: لعمري: لقد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطعت فوعي، واجتثت أصلي، فإن يشفك هذا، فقد اشتفيت. فقال لها: هذه شجاعة قد لعمري كان أبوك شاعوا شجاعا. قالت: ما للمرأة والشجاعة إن لي عن الشجاعة لشغلا، ولكني نفثي ما أقول.

ونظر ابن زياد إلى علي بن الحسين، فقال له: ماسمك؟ قال: أنا علي بن الحسين. فقال: أولم يقتل الله علي بن الحسين؟ فسكت. فقال له: ما لك لا تتكلم؟ قال: قد كان لي أخ، يقال له أيضا علي فقتله الناس. فقال ابن زياد: إن الله قد قتله. قال: الله يتوفى الأنفس حين موتها، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله. فقال: أنت والله منهم، انظروا هل أرك، والله إنني لأحسبه رجلا.

فقال موي بن معاذ: نعم قد أرك. قال: اقتله. فتعلقت به زينب عمته، وقالت: حسبك منا أما رويت من دمائنا، وهل أبقيت منا أحدا، إن قتلته

(1) اقتلني معه فتركه .

ثم نصب ابن زياد رأس الحسين بالكوفة، فجعل يدار به فيها، ثم دعا حر بن قيس. وأمره بحمل رأس الحسين، ورؤوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية (2) .

● في قصر الخلافة:

(3) لقد كانت سياسة معاوية أن يكون الأبراء للشدة وهو اللين . وكذلك كان ابنه، لقد مزقوا الأمة، وعندما تعرض قضاياها

عليهم، زاهم يرفعون الحقائق، ويبررون المصائب، ويلقون جميع الأخطاء على جهات خرجية، أو معارضة داخلية. وزعمون أن هؤلاء سببا في كل مشكلة، نظرا لأنهم يحسدون بني أمية على ما آتاهم الله من فضله. وعندما قدمت القافلة التي تحمل الرؤوس، وتأسر الأحياء، وعلم يزيد بن معاوية بذلك. روي أنه قال: لعن الله ابن سمية أما والله، لو أني صاحبه لعفوت عنه، فوح الله الحسين " (4) . فالذي يقول هذا، هو نفسه الذي قام بتعيين ابن زياد، وفقا لمشورة سرجون الرومي، من أجل التصدي لأهل الكوفة. وهو نفسه الذي أمر ابن زياد بمراقبة الحسين على جميع أبواب الكوفة. وهو نفسه الذي كشف عن وجهه الحقيقي، عندما دخل علي بن الحسين، وصبيان الحسين، ونسلؤه عليه، والناس ينظرون. روي أنه قال لعلي: يا علي أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقي، ونرغني سلطاني، فصنع الله به ما قدرأيت. فقال علي: ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نوأها. فقال يزيد لابنه خالد رد عليه. فما لوى خالد ما يرد عليه، فقال يزيد لابنه قل: ما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم (5) .

(1) الطبري 262 / 6.

(2) الطوي 264 / 6.

(3) البداية والنهاية 136 / 8.

(4) البداية 191 / 8 ، الطوي 264 / 6.

(5) (رواه الطواني ورجاله ثقات (الزوائد 195 / 9) الطوي 265 / 6 ، البداية 194 / 8 .

الصفحة 307

بل إن يزيد كشف عن أعماقه، عندما دخل رجل من أهل الشام، ونظر إلى فاطمة بنت علي، فقال لزيد، يا أمير المؤمنين هب لي هذه. وعندما قال الرجل ذلك، خافت فاطمة وأخذت بثياب أختها زينب. فقالت زينب للرجل: كذبت، والله ولؤمت، ما ذلك لك وله. فعندئذ، غضب يزيد بن معاوية وقال لها: كذبت والله إن ذلك لي، وإن شئت أفعله، لفعلت. قالت: كلا والله، ما جعل الله ذلك لك، إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا. فقال يزيد، إياي تستقبلين بهذا، إنما خرج من الدين أبوك وأخوك. فقالت: بدين الله، ودين أبي، ودين أخي، وجددي، اهتديت أنت وأبوك وجدك. فقال يزيد، كذبت يا عوة الله. قالت: أنت أمير مسلط، تشتم ظالما، وتقهر بسطانك (1) .

إنها خبايا تعرف في لحن القول. وروي عن مجاهد قال: لما جئ رأس الحسين فوضع بين يدي يزيد، تمثل بهذه الأبيات:

ليت أشياخي ببدر شهوا * خوع الخزرج في وقع الأسل

فأهلوا واستهلوا فوحا * ثم قالوا لي هنيا لا تسل

حين حكمت بفناء بركها * واستحر القتل في عبد الأسل

قد قتلنا الضعف من أشواقكم * وعد لنا ميل بدر فاعتدل

قال مجاهد: نافق فيها. والله ثم والله ما بقي في جيشة، أحد إلا ذمه وعابه (2) ، على هذا الشعر، وروي أن يزيد قال أيضا

ورأس الحسين بين يديه، ينكتها بقضيب كان في يده: إن هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام:

يغلقت هاما من رجال أعوة * علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال له أبو بيزة الأسلمي: رفع قضيبك، فقدر أيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلثمه (3) . وروى الطوي أن يزيد،

كان مسرورا بقتل

(1) رواه الطبراني (الرواند 195 / 9) والبداية 195 / 8، الطبري 265 / 6.

(2) البداية 192 / 8.

(3) البداية 192 / 8.

الصفحة 308

(1) الحسين . وعندما أمر بتجهيز أهل البيت، والذهاب بهم إلى المدينة قالت السيدة سكينه: ما رأيت رجلا كافوا بالله، خير من يزيد بن معاوية (2) . وروي عن الكلبي أنه قال: نشأت، وهم يقولون: ضحى بنو أمية يوم كربلاء بالدين (3) . وقال الياضي وأما حكم من قتل الحسين، أو أمر بقتله، ممن استحل ذلك فهو كافر. (4) وقال التفتلاني، في شرح العقائد النفسية: والحق أن رضا يزيد بقتل الحسين، واستبشله بذلك، وإهانته أهل بيت الرسول مما تواتر معناه، لعنة الله عليه، وعلى أنصلاه، وأعوانه (5) . وقال الذهبي: كان ناصبيا، فظا، غليظا، يتناول المسكر ويفعل المنكر، افتتح دولته بقتل الحسين، وختمها بوقعة الحرة (6) . وقال ابن كثير: كان في يزيد خصال محمودة، من الكرم، والحلم الفصاحة، والشعر، والشجاعة، وحسن الرأي في الملك، وكان ذا جمال حسن، وكان حسن المعاشرة، وكان فيه أيضا إقبال على الشهوات، وتوكل بعض الصلوات، في بعض الأوقات، وإماتتها في غالب الأوقات (7) ، وابن كثير في كتاباته التريخية، يقدم في كثير من الأحيان راء، لو أراد الباحث أن يقيم عليها دليل واحد، ما وجد هذا الدليل في كتب المسلمين المعتمدة. وذلك يعود إلى منهج ابن كثير الخاص به، في رؤيته للأحداث التريخية. فمن المعروف أن الحسين، وأهل الحرة وغوهم خرجوا من أجل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فإذا عوضنا هذا الأمر، على تفكير ابن كثير نجد أنه لا يوه. بل ويوهن خروج الذين خرجوا، بجميع أسمائهم، فيقول: إن يزيد كان إماما فاسقا، والإمام الفاسق، لا يعول بمجرد فسقه، ولا يجوز الخروج عليه، لما في ذلك

(1) الطبري 19 / 7.

(2) الطوي 267 / 6.

(3) تريخ الخلفاء 229 / 1.

(4) شذوات من ذهب / ابن العماد الحنبلي ص 68 / 1.

(5) المصدر السابق 67 / 1.

(6) المصدر السابق 67 / 1.

من إثارة الفتنة " (1) . فهذه رؤيته للمسار التاريخي . بمعنى : ليس في الإمكان .

أبدع مما كان . لقد جاء يزيد ، وعليه أن يستمر . وأن يورث الخلافة لولده ولولده أن يفعل من يشاء ، فهذا حقه الذي كتبه الله له . ومن أراد أن ينهائ عن المنكر ، فمن حق أبناء معاوية ، أن يؤدّبونه ، حتى يرجع إلى الطاعة ، ولزوم الجماعة (2) .

● الظهور والتشويه :

تحركت قافلة أهل البيت إلى المدينة . وفي المدينة نادى المنادي : قتل الحسين بن علي . يقول عبد الملك : لم أسمع والله واعية قط ، مثل واعية نساء بني هاشم في نورهن على الحسين . فقال عمر بن سعيد بن العاص : هذه واعية ، بواعية عثمان بن عفان (3) . وبكى ابن عباس . على آل البيت ، حتى فقد بصره في آخر عمره (4) . وروي أن رأس الحسين مكث في حوائن السلاح حتى ولي سليمان ، فبعث فجئ به ، فكفنه ودفنه في مقابر المسلمين . فلما دخل العباسيون سألوا عن موضع الرأس ، وأخوه . وقيل غير ذلك ، وليس هذا مجال بحثنا وبعد قتل الحسين ، بدأ الشعر يشق طريقه وهو يحمل معالم الألم على هذه الجريمة الشنعاء ، ومن هذا قالت ابنة عقيل بن أبي طالب :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم * ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعثرتي وبأهلي بعد مفنقدي * منهم أسلرى ومنهم ضوجوا بدم (5)

وأنشد الحاكم أبو عبد الله النيسابوري :

جلؤوا وأسك يا ابن بنت محمد * متوملا بدمائه ترميلا
وكأنما بك يا ابن بنت محمد * قتلوا جهرا عامدين رسولا

(1) البداية 223 / 8.

(2) البداية 224 / 8.

(3) الطوي 268 / 8.

(4) مروج الذهب 121 / 3.

(5) (رواه الطواني (الزوائد 200 / 9) الطوي 268 / 6 ، البداية 198 / 8.

قتلوك عطشاننا ولم يتدبروا * في قتلك القآن والتويلا

ويكبرون بأن قتلت وإنما * قتلوا بك التكبير والتهليلا (1)

وفي نور أهل الإيمان بدأت أحاديث الحوض ، تطفوا على الساحة ، بجانب الشعر ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : "

إني ترك فيكم ثقلين، أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض وعتوتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض" (2) . وقوله صلى الله عليه وسلم:

" أنا فوطكم على الحوض من ورد شوب ومن شوب لم يظماً. وليودن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم " (3) وهذه الأحاديث، كانت تمثل صفة قوية للتيار الأموي، الذين قتلوا أهل البيت فإذا كانت مهمتهم سهلة في مواجهة الشعر، فإنها لم تكن كذلك مع أحاديث الحوض، التي أصبحت، كمنثور سوي يوه صحابة النبي صلى الله عليه وسلم الأوفياء. ويشق طريقه في الساحة التي بدأت تشعر بالندم بعد قتل الحسين، وتبحث عن مدخلا تقدم توبتها منه، إلى الله جل وعلا. ولم يجد التيار الأموي، غير عبيد الله بن زياد ليتصدى، لما استجد في الساحة بعد قتل الحسين. فبدأ ابن زياد صده بإنكار هذه الأحاديث، ثم مواجهة الذين يروونها بكل قسوة وكل عنف.

روي أنه ذكر الحوض عند ابن زياد، فأنكر ذلك. فبلغ ذلك أنسا فقال: ما أنكرتم من الحوض؟ قالوا: سمعت النبي يذكره؟ قال: نعم. ولقد أكرت عجائر بالمدينة، لا يصلين صلاة، إلا سألت الله تعالى أن يوردهن حوض محمد صلى الله عليه

(1) البداية 198 / 8.

(2) رواه أحمد والترمذي وحسنه والطبراني وقال المنوي رجاله موثقون " الفتح الرباني 186 / 1 ."

(3) البخاري ك الدعوات ب الصراط جسر جهنم (الصحيح 141 / 4) مسلم (الصحيح 53 / 15).

الصفحة 311

(1) وسلم . وفي رواية قال ابن زياد: ولمحمد حوض؟ قالوا: هذا أنس بن مالك، يحدث أن له حوضا. فجاء أنس فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن لي حوضا وأنا فوطكم عليه " (2) .

وعن زيد بن رُقم قال: بعث إلي، عبيد الله بن زياد فأثبته. فقال: ما أحاديث تبليغنا وتروونها عن رسول الله لا نسمعها في كتاب الله، وتحدث أن له حوضا. قال زيد: لقد حدثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوعدهنا. فقال ابن زياد: كذلك ولكنك شيخ قد خرفت. قال زيد: إنني قد سمعته أذناي، ووعاه قلبي من رسول الله صلى الله عليه وسلم - وفي رواية - سمعته أول خطبة النبي في غدير خم، في الوصية بكتاب الله وأهل بيته (3) . وفي رواية قال ابن زياد: رأيت الحوض الذي تذكرون، ما أراه شيئا. فقال له ناس من أصحابه: عندك رهط من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فُرسل إليهم فسلهم. فُرسل إلى زيد بن رُقم، فسأله عن الحوض. فحدثه حديثا موثقا. فقال: أنت سمعت هذا من رسول الله... " الحديث (4) .

وعن أبي سوة الهذلي قال: كان عبيد الله بن زياد، يكذب بالحوض، بعدما سأل عنه أبا برة والنوء بن عذب، وعائذ بن عمرو، ورجلا آخر (5) .

وكان تكذيب ابن زياد بالحوض تكديبا له ثقافته الواسعة، على أرض اتخذت من قبل ثقافة سب أمير المؤمنين علي عنوانا لها، وتحت خيام هذه الثقافات، نشأت أجيال يقرؤون القرآن، لا يجاوز واقبيهم، وهذه الأجيال ما خرجت إلا من تحت

- (1) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني إسناده صحيح على شرط مسلم وأخرجه أحمد (كتاب السنة 321 / 2).
- (2) قال الألباني أخرجه الآجري في الشريعة وإسناده صحيح رجاله كلهم ثقات (كتاب السنة 322 / 2).
- (3) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني إسناده صحيح على شرط مسلم (كتاب السنة 322 / 2).
- (4) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني رجاله ثقات رجال الشيخين (كتاب السنة 322 / 2).
- (5) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني إسناده ثقات (كتاب السنة 323 / 2).

الصفحة 312

خيام بني أمية. وثقافة إنكار الحوض، شقها ابن زياد بالسكين، وبالسيف وجد عليها الظهور، ومنع العطايا عن كل من قال إن للنبي حوض. لأنه يعلم أن إثبات الحوض، سيقرب عليه أمور تدينه، وتدين ملك بني أمية الطويل العريض، وإذا كان ابن زياد قد جمع من حوله، أتباع يقولون بقوله. فإن طائفة الحق، كان يوي في أسماعهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: " اسمعوا " قالوا: سمعنا. فقال: " اسمعوا " قالوا: سمعنا، فقال: " إنه سيكون عليكم أمراء فلا تعينوهم على ظلمهم. فمن صدقهم بكذبهم فلن يرد علي الحوض " (1).

وكان في ذكرتهم أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: " أنا فرطكم على الحوض، ولأنزل عن أقواما، ثم لأغلين عليهم فأقول: يا رب أصحابي أصحابي.

فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك " (2). وقوله: " إني ترك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهم لن يتوقفا حتى يردا علي الحوض " (3).

لقد كان في ذكوة طائفة الحق، الذين لا يظوهم من خذلهم أو من نواهم أو من عاداهم، الكثير من أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وكانوا يعلمون أن في الحبل الممدود من السماء إلى الأرض، عنوان أصيل للأخذ بأسباب المعرفة. لهذا هروا إلى دائرة الطهر، في وسط هذا الليل الذي لا نجوم فيه.

ولقد صدق في هؤلاء قول النبي صلى الله عليه وسلم لحذيفة: " يا حذيفة، إن في كل طائفة من أمتي قوما شعنا غوا. إياي يريدون، وإياي يتبعون، ويقيمون كتاب الله أولئك مني وأنا منهم وإن لم يروني " (4).

- (1) رواه أحمد وابن أبي عاصم وابن حبان في صحيحه (الفتح الرباني 30 / 23) (كتاب السنة 352 / 2).
- (2) رواه البخاري ك الدعوات ب الصواط جسر جهنم (الصحيح 141 / 4) ومسلم (الصحيح 59 / 15).
- (3) رواه أحمد والترمذي وحسنه والطواني وقال المنوي رجاله موثون (الفتح الرباني 186 / 1).
- (4) رواه أبو نعيم (كنز العمال 184 / 12).

الصفحة 313

● نظرات على كربلاء:

عندما خرج الحسين كان خروجه، من تحت مظلة المثل الأعلى المرتفع.

وكان خصومه قد خرجوا من كهف المثل الأعلى المنخفض. ولم يكن خروج الحسين، نتيجة لوجود المجتمع الحر، وإنما كان الخروج من أجل خلق المجتمع الحر، لأن المجتمع الحر هو الذي يقيم الحضرة الحق. والحضرة لا تقاس بسجونها وبويق ذهبها، وإنما تقاس بعدلها. وعندما توجه الحسين إلى الكوفة، وعلم بمقتل رسله هناك، وبأن الذين أرسلوا إليه قد خذلوه، لم يتراجع وسار في اتجاه الطريق، الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن مقتله فيه. وذلك بعد أن حدد مصدر البلاء، الذي أكره الناس على عدم إقامة الحق والعدل. لقد توجه الحسين إلى كربلاء، ليس من أجل مقاومة الجماهير، وإنما من أجل مواجهة السلطة التي اتخذت مال الله هولا، ودين الله دغلا، وعباد الله خولا، وأصبحت تؤخ الذين يقرؤون القرآن، لا يجاوز رواقهم. أي تؤخ خروج جدد، ولكن تحت مظلة بني أمية. لقد اتجه الحسين نحو كربلاء، على امتداد الطريق كان يعلم أنه يسير، بين حواب الذين يكهون، ويخافون أن يفقدوا ما يحبون. ولكنه واصل المسير، وحوله نداء خالد من الرسول الأعظم يقول فيه: " من حضوه فلينصوه "، وفيه أيضا: " أنا حرب لمن حربتم... "، كان الحسين في خطاه، يقيم الحجة على كل صامت، أو متراجع، أو متردد اعتلالا بفساد المناخ، وسطوة القبائل، وتقاليدها وقوانينها، وتمادى الإهاب، وقطع الرؤوس وقتل الأطفال والنساء، كما فعل بسر بن رطاة وغوه وعلى أرض كربلاء، فاض الدم القاني، الذي راد صاحبه، أن يخرج الأمة من خيام القبائل حيث الحقد والحسد والإهاب، الذي رفع بنو أمية أعلامه زنا طويلا. وعلى مقربة من الوادي الذي يفيض بالدم القاني، تربع قاضي، على كوسي من الصلب، والنحاس الأصفر، وكأنه يصوخ في أتباعه: اسلكوا هذا السبيل، فلن تجبوا أنفسكم إلا فيه، ومن أبي فإن له من خنجري مولا ولأمزقن به أحشاء الأرض.

الصفحة 314

لقد كان القاضي يمسك بين أسنانه بقطعة من ذهب، وكأنها جيرة ملتهبة. ويتحدث عن العدل، ولم يكن يعلم أن من العدل أن يقتص الله من الظالم. ومن العدل، أن دم القليل لا تضيع سدى.. إن ساعة الانتقام، ومكانه، وكيفيته، هي في علم الله تعالى، الذي أخبر عن مقتل الحسين، وساعته، ومكانه، وكيفيته. لقد ركب أتباع بني أمية بسفينة التي ربانها معلوية وبزويد ومروان. ولن وى للسفينة شراع، إذا ما قلب البحر الهائج سطحه، وقد عبثت به الرياح والمد كيما تستمر حركة الأمواج. وعندئذ سيعلم ركاب السفينة وأن من العبث أن ينشد المراء العدالة على ظهوها. وسيعلمون، أن معنى نزول جبريل عليه السلام بخبر مقتل الحسين، يعني في مقدمته الأولى، أن هذه الجريمة عليها من الله عقوبة.

وعلى الجميع أن يأخذوا بأسباب السلامة، حتى لا يدخلوا تحت العقوبة. وأسباب السلامة، أصل أصيل في داوة الاختيار. لكنهم صادروا السلامة وأسبابها، وصوخ فيهم صلخهم: لا مناص من موت الحسين، إذا أردنا نحن أن نعيش.

وبين الأمواج، سيعلمون أن السماء عادلة، وأن القتل لا يمكن إخفؤه وسيخرج الزمان فعلتهم الغاورة إلى الضوء، لوى الأجيال أن الحواح مازالت تتفجر منها الدماء. دماء تنادي بالحرية الحقيقية، تحت مظلة العبادة الحق.

وتعلم الأجيال أن خروج الحسين، وضع على الجباوة، والعتاة، وقواتهم الضلبيّة، لباس الذل والعار. ويا له من عار تخجل منه أي قوة ضلبيّة على امتداد الزمان.

5 - الاستعباد:

بعد قتل الحسين، في إمكان كل رسام أن يرسم لك دمعة، أو جرحاً، أو آهة. في إمكانه أن يرسم لك شجرة كهذه، أو يرسم لك شاباً، اختوقت جسده سيوف المجرمين من كل جهة، وقد علّقه على هذه الشجرة، ومن حوله الغيوم تتلبد، والقمر معتما. يستطيع الرسام، أن يقوم بذلك، لتكوار الحرائم بعد الحسين. فلم يكن يمر يوماً، إلا وقرى فيه رجلاً مصلوباً، أو رأس معلقة

تتطوح

الصفحة 315

بعد أن هزت الرياح حبلها، ويستطيع الرسام أن يفهم ذلك، لذهاب الإنصاف من ساحة بني أمية، حتى أنه لا يستطيع أن تشوى أوقية من العدالة داخل خيامهم بعد أن زرع بنو أمية شجرة، وتعهبوها وعائتهم، لتكون مشنقة لكل من طعن في عدالتهم. ونحن هنا سنسلط الضوء على الأحداث التي تثبت ذلك.

أولاً - يوم الحرة أو يوم الأنصار:

حدر النبي صلى الله عليه وسلم من الكيد لأهل المدينة، أو من فعل أي عمل يؤدي إلى خوفهم، فقال: " لا يكيد أهل المدينة أحد. إلا انماع كما ينماع الملح في الماء " (1). وقال: " لا يريد أحد المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار نوب الوصاص. (2) وقال: " من أخاف أهل المدينة ظلماً، أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صواف ولا عدلاً " (3). وبعد هذا التحذير أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أن الحرة سيقفل بها خيار الناس من أصحابه الذين سلروا على هديه. فماذا حدث لأهل المدينة يوم الحرة؟

روي أن معاوية حين حضره الموت قال ليزيد: قد وطأت لك البلاد، وفوشت لك الناس، ولست أخاف عليكم إلا أهل الحجاز، فإن رابك منهم ريب، فوجه إليهم مسلم بن عقبة. فإني قد جربته مرة، فلم أجد له مثلاً لطاعته (4). فمعاوية أوصى، وهو على فراش الموت بالكيد، ويضوب أهل المدينة إذا

(1) قال ابن كثير رواه البخاري (البداية 223 / 8) البخاري (الصحيح 322 / 1) ك الحجج ب إثم من كاد للمدينة.

(2) قال ابن كثير رواه مسلم (البداية 223 / 8) مسلم (الصحيح 121 / 4).

(3) قال ابن كثير رواه أحمد (البداية 223 / 8)، (كنز العمال 238 / 12).

(4) رواه الطواني ورجاله ثقات (الزوائد 250 / 7) وابن كثير (البداية 239 / 8) والطوي 179 / 6، فتح البلي 71 /



هدوا سلطان ابنه يزيد. وعلى هذه الوصية سار يزيد. يقول المسعودي: كان يزيد صاحب طوب، وجورح، وكلاب، وقروء، وفهود، ومنادمة على الثواب، وجلس ذات يوم على شوابه، وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد مقتل الحسين فأقبل على ساقيه فقال:

اسقني شربة تزوي مشاشي * ثم مل فاسق مثلها ابن زياد

صاحب السر والأمانة عندي * ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنيين فغفوا، وغلب على أصحاب يزيد وعماله، ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الثواب، وكان له قود يكنى، بأبي قيس يحضوه مجلس منادمته، ويطح له متكئا (1) . وقال المسعودي: ولما شمل الناس جور يزيد وعماله، وعمهم ظلمه، وما ظهر من فسقه، ومن قتله ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنصره، وما أظهر من شرب الخمر، سوه سوة فوعون، بل كان فوعون أعدل منه في رعيته، وأنصف منه لخاصته وعامته، أخرج أهل المدينة عامله عليهم، وهو: عثمان بن محمد بن أبي سفيان (2) .

وروي أن عبد الله بن حنظلة الغسيل قال: والله ما خرجنا على يزيد، حتى خفنا. أن نومي بالحجرة من السماء، إنه رجل ينكح أمهات الأولاد، والبنات، والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة (3) .

وبدأ يزيد في تنفيذ وصية والده معاوية، وأرسل إلى مسلم بن عقبة، ووضع على رأس الجيش وقال له: إذا قدمت إلى المدينة، فمن عاقك عن دخولها أو نصب لك حربا، فالسيف السيف، ولا تبقي عليهم، وانتهبها عليهم ثلاثا، واجهز على هريحهم، واقتل مدروهم. وإن لم يعوضوا لك، فامض إلى مكة، فقاتل ابن الزبير، فارجو أن يظفوك الله

(1) مروج الذهب 3 / 82 .

(2) مروج الذهب 3 / 83 ، الكامل 3 / 310 .

(3) تريخ الخلفاء 1 / 195 .

به (1) . وسار مسلم بن عقبة إلى المدينة، وكان أهلها قد حفروا خندق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي كان حوه يوم الأخواب، ووقف شاعر المدينة مخاطبا يزيد فقال:

أن بالخندق المكلل بالمجد * لضوبا بيدي عن النشوات

لست منا وليس خالك منا * يا مضيع الصلوات للشهوات

فإذا ما قتلتنا فتتضر * واشرب الخمر واترك الجمعات (2)

وتقدم مسلم بن عقبة، واجتاح أهل المدينة، وكانت وقعة عظيمة. قتل فيها خلق كثير من الناس، من بني هاشم، وسائر قريش، والأنصار، وغيرهم من سائر الناس (3) . وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام... وانتهبت أموالا كثيرة منها، ووقع شر عظيم، وفساد عريض، على ما ذكره غير واحد (4) وذكر ابن كثير أن ابن عقبة قتل ألف بكر (5) ، وقتل سبعمائة رجل من

وقال المسعودي: قتل بضع وتسعون رجلا، من سائر قريش ومثلهم من الأنصار، وأربعة آلاف من سائر الناس، ممن أركه الاحصاء نون من لم يعرف⁽⁷⁾ . وقال صاحب كتاب المحن: كان مسلم بن عقبة يقول: من جاء وأس فله كذا وكذا، ومن جاء بأسير فله كذا وكذا، وجعل يغوي قوما لا دين لهم، فقتلوا ما لا يحصى ولا يعد⁽⁸⁾ ، وقتل يوم الحوة، من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ثمانون، ولم يبق بعد ذلك بوي⁽⁹⁾ . وروى ابن كثير أن ألف امرأة من أهل

(1) التنبيه والإشراف / المسعودي 280 / 1، كتاب المحن 149 / 1، الكامل 311 / 3.

(2) (التنبيه والإشراف / المسعودي 280 / 1.

(3) (مروج الذهب 84 / 3.

(4) (البداية والنهاية 238 / 8.

(5) (البداية والنهاية 265 / 8.

(6) (البداية والنهاية 266 / 8.

(7) (مروج الذهب 85 / 3.

(8) (كتاب المحن 151 / 1.

(9) (كتاب المحن 158 / 1.

الصفحة 318

المدينة، ولدت بعد وقعة الحوة، من غير زوج⁽¹⁾ ، وكان الناس يلبسون المصوغ، من الثياب قبل الحوة. فلما قتل الناس بالحوة، استحووا أن يفعلوا ذلك⁽²⁾ .
وهرب يوم الحوة إلى كهوف الجبال، العديد من الصحابة، منهم جابر بن عبد الله وأبو سعيد الخوري⁽³⁾ . وأنشد شاعر الأنصار فقال:

فإن تقتلونا يوم حوة وأقم * فنحن على الإسلام أول من قتل
ونحن تركناكم ببدر أدلة * وأبنا بأسيف لنا منكم تفل⁽⁴⁾

وروي أن مسلم بن عقبة، أتى بعلي بن الحسين، فتوأ منه ومن آباءه ثم أقعده وقال له: سلني حوائجك، فلم يسأله في أحد ممن قدم إلى السيف إلا شفعه فيه، ثم انصرف عنه. فقيل لعلي: رأيناك تحرك شفيتك، فما الذي قلت؟
قال: قلت: اللهم رب السموات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، رب العرش العظيم، رب محمد وآله الطاهرين، أعوذ بك من شوه، وأوأ بك من نحوه، أسألك أن تؤتيني خوه، وتكفيني شوه. وقيل لمسلم بن عقبة: رأيناك تسب هذا الغلام وسلفه، فلما أتى رفعت متولته. فقال: ما كان الوأي مني، لقد ملئ قلبي منه رعبا⁽⁵⁾ .
ولم تكن الكلثة في قتل أهل المدينة فقط، وإنما كانت الكلثة أيضا في أن الناس بايعوا يزيد على أنهم عبيد له⁽⁶⁾ . روى

الطوي أن مسلم بن عقبة أتى بقرشيان، ومعهم ناس من أهل المدينة، فقال لهم: بايعوا فقال القرشيان:

نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه. فقال: لا والله لا أقيلكم هذا أبدا، فقدمهما

(1) البداية 239 / 8، الخصائص الكبرى 240 / 3.

(2) كتاب المحن 159 / 1.

(3) البداية 239 / 8، الطوي 11 / 7.

(4) مروج الذهب 85 / 3، شذرات الذهب / ابن المعاد 71 / 1.

(5) مروج الذهب 85 / 3.

(6) فتح البلي 70 / 13، مروج الذهب 85 / 3، كتاب المحن 155 / 1، والطوي 13 / 7.

الصفحة 319

فضوب أعناقهما⁽¹⁾. وروي أن ابن عقبة قال لأهل المدينة: أتبايعون ليؤيد أمير المؤمنين، ولمن استخلف بعده على أن دماءكم، وأموالكم، وأنفسكم، خول له يقضي ما شاء فيها؟ فقال له يزيد بن عبد الله بن زمعة: إنما نحن نفر من المسلمين لنا ما لهم وعلينا ما عليهم. فقال مسلم: والله لأقتلنك، والله لا تشرب البلد أبدا فأمر به فضوبت عنقه⁽²⁾.

وهكذا اكتملت الدائرة، باتخاذ بني أمية عبيد الله خوفا، بعد أن اتخذوا دين الله دخلا، ومال الله هولا، ولم يكن هذا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بألف عام. لا. لأن هذه الأحداث جرت عام 63 هـ، ورواها أصحاب التواريخ والتراجم والسير، وأجمعوا على أن يزيد أباح المدينة ونهب الأموال، وهتك الأعراس، وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وبايعه الناس، على أنهم عبيد له!! وفي إجمالي أحداث يوم الحرة يقول ابن حزم:

" قتل يزيد بجيوشه، بقايا المهاجرين، والأنصار، يوم الحرة، وهي أكبر مصائب الإسلام وخرومه. لأن أفاضل المسلمين، وبقية الصحابة، وخيار المسلمين من جلة التابعين، قتلوا جهوا، ظلما في الحرب، وصوا. وجالت الخيل في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وراثت، وبالت في الروضة بين القبر والمنبر، ولم تصل جماعة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم... وأكره الناس على أن يبايعوا، يزيد بن معاوية، على أنهم عبيد له، إن شاء باع وإن شاء أعتق، وذكر له بعضهم البيعة على حكم القآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأمر بقتله، فضوب عنقه صوا. وهتك مسوف⁽³⁾، أو مجرم الإسلام هتكا، وأنهب المدينة ثلاثا، واستخف بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومدت الأيادي إليهم، انتهبت نورهم. ثم انتقل الجيش بعد ذلك، إلى مكة شرفها الله تعالى، فحوصت، ورمى البيت بحجارة

(1) الطبري 7 / 11.

(2) كتاب المحن 155 / 1.

(3) إشارة إلى ابن عقبة.

مما سبق، يمكن القول إن عدم مناصرة الحسين، فتح أبواب، للابتلاء، والعقاب وأن الحسين الذي رفض يزيد، كان أبعد نظراً من الذين جمعوا حريمهم وأولادهم، وأمروهم بعدم الخروج على يزيد، لأن في ذلك شق عصا الجماعة كما قالوا. لقد كان الحسين، أعلم بيزيد وبخطه منهم، لأنه كان يتحرك بعلم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أما الكثرة، فكانت حركتهم غير مضبوطة، لأن زيت حركتهم اختلطت به شوائب كثرة.

لقد رفع يزيد الحواب في وجه الحسين، ثم قام بتوسيع الدائرة بعد ذلك، فرفعها ضد الرأي العام الذي يسير في خط، معاكس للسلطة. وعندما قيل للحسين أن يذهب إلى يزيد وبياعه. أقسم الحسين أنهم لن يتكوه. فهم لا يريدون البيعة، وإنما يريدون رأسه، ويوم الحرة علمنا أن البعض طلب البيعة على حكم القآن وسنة رسول الله، فكان حوؤهم أن ضربت أعناقهم صوا. وبياع الناس على أنهم عبيد ليزيد، الذي كان عوره في هذا الوقت، نيف وثلاثون سنة، إن شاء باع وإن شاء أعتق.

وإذا كان يزيد قد أخاف الحسين، وأهله، يوم كربلاء، فلقد قام بتوسيع الدائرة يوم الحرة، فأخاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. روي عن محمد وعبد الرحمن، ابن جابر بن عبد الله قالوا: خرجنا مع أبينا يوم الحرة، وقد كف بصوه، فقال: تعس من أخاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلنا: وهل يخيف أهدرسول الله؟ قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من أخاف أهل هذا الحي من الأنصار، فقد أخاف ما بين هذين، ووضع يده على جنبه (2).

ثم قام يزيد، بتوسيع الدائرة، واقتحم الباب الأخير الذي يدخل من

(1) رسائل ابن حزم 2 / 140.

(2) قال ابن كثير رواه الدارقطني (البداية 223 / 8).

اقتحمه، أو كاد له، أو رماه، في دائرة الذين يؤنون الله. قال تعالى: " إن الذين يؤنون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً " (1). فزيد سير الجيوش نحو مكة، ورمى جنوده بيت الله بالحجارة. وقبل ذلك، كانوا قد أخافوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الحرة. وقبل ذلك أنه في قتل الحسين، وهو من عترة رسول الله، من أصحاب الكساء والمباهلة، وابن فاطمة ريحانة رسول الله، التي يقول فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " إنما فاطمة بضعة مني يؤذي من أذاها " (2).

إن يزيد دخل إلى جميع النواثر بعد قتله للحسين، فأذى الخط الذي يسوق الناس إلى الله، ووجه ضوبات إلى الثقل، الذي لا ينفصل عن القآن حتى يردا الحوض، ومن البديهي أن أحداً لن يستطيع أن يؤذي الله سبحانه ولكن صورة الأذى هنا، هي عوقلة الطريق، وعدم احترام المقدسات التي فيها نصوص من الله ورسوله. فأى أذى يصيب الخط الوسالي، المادي أو

المعنوي، هو في الحقيقة، موجه إلى المشوع.

وفريد أعلن، يوم أن نصبه والده، وليا للعهد. بأنه سيسير في الناس بسوة عمر بن الخطاب، وعمر رضي الله عنه كان له مفهومه الخاص، في الكعبة والحجر، ولكنه كان يعظم أمرهما. فعن الحسن قال: ذكر عمر بن الخطاب الكعبة فقال: والله ما هي إلا حجرة نصبها الله قبلة لأحيائنا، وتوجه إليها موتانا ⁽³⁾. ولكي لا يفتتن الناس بالكعبة، وفي نفس الوقت لكي يحافظ عليها عمر. روى البخاري: " لم يكن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم حول البيت حائط، فكانوا يصلون حول البيت، حتى كان عمر، فبنى حوله حائطاً جوره قصير، فبناه ابن الزبير " ⁽⁴⁾. وروى البخاري أن عمر بن الخطاب قال

(1) سورة الأحزاب الآية 57.

(2) رواه مسلم (الصحيح 3 / 16).

(3) (المروري في الجنائز (كنز العمال 100 / 14).

(4) (البخاري (كنز العمال 100 / 14).

الصفحة 322

للوكن: " أما والله إني لأعلم أنك حجر، لا تضر، ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم استلمك، ما استلمتك. فاستلمه " ⁽¹⁾.

فأين يزيد من سوة عمر؟ وقد أخذ على عاتقه أن يقوم في الناس بها. إن يزيد تعامل مع المقدسات. على أساس أنها حجرة، ولم ينظر في أعماق رؤية عمر لهذه المقدسات. بل إنه لم يهتم بما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه المقدسات. فعن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحجر: " والله لبيعته الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق " ⁽²⁾. وروى الطواني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الكعبة: " لا زال الناس بخير ما عظموا هذه الحزمة - يعني الكعبة " ⁽³⁾. وقال: " إذارأيتم قريشا قد هدموا البيت ثم بنوه، فزوقوه، فإن استطعت أن تموت فمت " ⁽⁴⁾.

ولقد ضوب يزيد المعول الأول، في الكعبة، ثم قام ابن الزبير بعملية الهدم، والتعمير. ف جاء إليه الحجاج بن يوسف حامل سيف عبد الملك بن مروان، فقام بهدم البيت على رأس ابن الزبير. وبعد ذلك، قام بعمليات الترميم، والتعمير، والترويق. وليس معنى قوله صلى الله عليه وسلم: " فإن استطعت أن تموت فمت " أن يسرع الناس إلى الانتحار، بأي طويقة من الطوق، وإنما المقصود أن تموت في سبيل الله تحت راية مبسوة.

لقد تعاملوا مع عترة النبي، التعامل الذي لا يليق بهم. ثم تعاملوا مع المقدسات، من منظور حماية السلطة من الخرجين عنها، قد خلت خيولهم المسجد النبوي، وهدموا البيت العتيق، وفي جميع الحالات لم يصب ابن

(1) قال في تحفة الأحواذي رواه البخاري. ورواه أحمد وأبو عوانة (كنز 175 / 5).

(2) (رواه الترمذي وصححه ورواه ابن ماجة والدلمي، وابن خزيمة في صحيحه (تحفة الأحواذي 305 / 4).

(3) (ذكره ابن حجر في توجمة عامر بن ربيعة (الإصابة 8 / 4) وابن ماجة (كنز 198 / 14).

(4) رواه ابن أبي شيبة (كنز العمال 251 / 11).

الصفحة 323

الزبير، وغره في الاحتماء بالبيت، من أجل الملك، فعلى امتداد التاريخ، لم نسمع بواحد من أهل البيت الأطهار، قد احتذى بالمساجد. وإنما كانت حركتهم مضبوطة، لأنها حركة في جميع الحالات لا علاقة لها بالملك، وإنما بإقامة الحجة. وهل يسعى قتل يعلم مكان قتله من أجل الملك؟

ثانياً - الوحل:

لقد بدأ يزيد شق الطويق إلى مكة التي كان ابن الزبير فيها وفي هذا الحصار، احتوت الكعبة، واحترق فيها قونا الكبش، الذي فدى به إسماعيل بن إواهيم. ودام الحصار إلى أن مات يزيد⁽¹⁾. وقال المسعودي في حرق البيت: نصب أهل الشام المجانيق، والعوادات⁽²⁾، على مكة والمسجد من الجبال والفجاج... فتوردت أحجار المجانيق، والعوادات، على البيت ورمي مع الأحجار، بالنار، والنفط، ومشاقات الكتان، وغير ذلك من المحرقات وانهدمت الكعبة واحتوت البنية⁽³⁾.

وبعد وفاة يزيد بن معاوية، جلس على العرش معاوية بن يزيد بن معاوية.

فكانت أيامه أربعين يوماً، إلى أن مات. ولما حضرته الوفاة، اجتمعت إليه بنو أمية فقالوا له: أعهد إلى من رأيت من أهل بيتك. فقال: والله ما دقت حلوة خلافتكم، فكيف أتقلد وزرها، وتتعجلون أنتم حلوتها، وأتعجل موتها، اللهم إن وئ منها، متخل عنها. اللهم إني لا أجد نوا كأهل الشورى، فأجعلها إليهم، ينصبون لها من يرونه أهلاً لها⁽⁴⁾.

وقد اختلفوا في سبب وفاته، فمنهم من رأى أنه سقي شوبة، ومنهم من رأى أنه مات حتف أنفه، ومنهم من رأى أنه طعن.

وقبض وهو ابن

(1) أسد الغابة 243 / 3.

(2) العوادات / آلة حربية لدك الحصون.

(3) مروج الذهب 86 / 3.

(4) مروج الذهب 88 / 3.

الصفحة 324

اثنتين وعشرين سنة⁽¹⁾. وبعد معاوية بن يزيد، بدأ نجم مروان بن الحكم طويد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهور. ومروان سبب من الأسباب الرئيسية في قتل عثمان، وهو أيضاً قاتل طلحة يوم الجمل، وكان يعلم أن الخلافة، ستكون له في يوم من الأيام، وعلى هذا الأساس كان يتصرف، ويفسح الطريق لنفسه. كما كان معاوية يصلح الطريق لنفسه بعد أن ألقى إليه

ومروان هو إنتاج الفوع الثاني من بني أمية، أما معاوية فكان إنتاج الفوع الأول. والنبي صلى الله عليه وسلم حذر من الفوعين. فقال: " إذا بلغ بنو أمية أربعين رجلا... وفي رواية، ثلاثين رجلا - اتخنوا مال الله هولا ودين الله دخلا، وعباد الله هولا " (2) . فهذا تحذير من الفوع الأول. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: " إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا، اتخنوا مال الله هولا ودين الله دخلا، وعباد الله هولا " (3) . وهذا تحذير من الفوع الثاني. ولقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بالأسباب، فوضع أبا سفيان، عميد الفوع الأول، في دائرة المؤلفة قلوبهم، ووضع الحكم بن العاص، عميد الفوع الثاني، على طريق النفي فنفاه، ليكون في إبعاده علامة وإرشاده ولكن الذي حدث، أن سهم المؤلفة بعد النبي لم يكن لوجود. فظهر أبو سفيان ولمع ولده. ثم جاء الحكم بن العاص من منفاه، فظهر الحكم " ولمع ولده، ومروان أخبر النبي بأنه أبو الجباوة الأربعة " (4) . وروي أن علي بن أبي طالب قال لمروان: " ويل لأمتك منك، ومن بنيك، إذا شابت فواعاك " (5) ، ومروان الذي كان يمهد الطريق

(1) مروج الذهب 3 / 89.

(2) ذكوه ابن كثير في البداية (6 / 274، 8 / 279) ورواه ابن عساکر (كنز العمال 11 / 165).

(3) ذكوه ابن كثير في البداية (8 / 279، 8 / 258) ورواه الطواني والبيهقي (كنز 11 / 162).

(4) رواه البيهقي في الدلائل وابن عساکر (كنز 11 / 361).

(5) ابن عساکر (كنز العمال 11 / 361).

الصفحة 325

لنفسه، عليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم علامة. فلقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الحكم وما ولد (1) . وروي أن الحسن بن علي قال لمروان: لقد لعنك الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وأنت في صلب أبيك (2) . وكانت ولاية مروان، تسعة أشهر وأياما، دق فيها أوتادا لا يستهان بها. وروي أنه أول من أخذ البيعة بالسيف، كرها بغير رضا من الناس... وقد كان غره ممن سلف، يأخذها بعدد وأعان. إلا مروان (3) . وذكر ابن عبد البر والذهبي وغرهما مخزي مروان بأنه أول من شق عصا المسلمين بلا شبهة (4) . وفي عهد مروان، خرج سليمان بن صود، وهو صحابي على رأس جماعة عوفت في التزيخ باسم " التوابين " (5) . ولقد رأى بن صود وأتباعه أنهم كانوا سببا في قنوم الحسين، وأنهم خذلوه حتى قتل هو، وأهل بيته، لذلك أقدموا على التوبة من هذا الذنب، بأخذ خطوة في اتجاه السلطة، لأنهم رأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه (6) . وتوجه إليهم من الشام لحربهم، عبيد الله بن زياد على رأس جيش من ثلاثين ألفا. ودرت بين الطرفين المعرك في موقعة عين الوردة، فحمل سليمان وأتباعه على جيش الشام.

واستشهد سليمان بن صود. وروي أنه عندما وقع على الأرض قال: فرت ورب الكعبة. وكان عمره يوم قتل، ثلاث وتسعين سنة. وعندما قتل سليمان استنقل أتباعه وكسروا أجفان السيوف، وخاضوا معرك عظيمة، وقتل منهم خلق كثير. ولما

علم من بقي من التوابين أن لا طاقة لهم بمن يرأئهم من أهل الشام،

(1) رواه البزار وأحمد بلفظ: لعن رسول الله فلانا وما ولد من صلبه. وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد 241 / 5).

(2) رواه أبو يعلى (الزوائد 240 / 5).

(3) مروج الذهب 103 / 3.

(4) شذرات الذهب / ابن العمال الحنبلي 69 / 1.

(5) وعند المسعودي (التوابين) أي أصحاب أبي قاب علي بن أبي طالب.

(6) مروج الذهب 111 / 3.

الصفحة 326

انحازوا عنهم. وطلب منهم أهل الشام المكافاة، والمتلذذة، لمارأوا من بأسهم وصوهم مع قتلهم. فلحق أهل الكوفة

بمصوهم، وأهل المدائن والبصرة ببلادهم (1).

وحمل أهل الشام رأس ابن صود إلى مروان بن الحكم، فجمع الناس وقال: أهلك الله رؤوس الضلال، ابن صود وأتباعه.

ثم أمر فعلقت الرؤوس بدمشق (2). وكانت حوكة ابن صود في عام 65 هـ، وهو نفس العام الذي مات فيه مروان بن الحكم،

واختلفوا في سبب وفاته، فمنهم من رأى أنه مات مطعونا، ومنهم من رأى أنه مات حتف أنفه، ومنهم من رأى أن أم خالد بن

يزيد بن معاوية هي التي قتلتها (3).

لقد كانت حوكة سليمان بن صود، مقدمة صحيحة، لو تكاتف الناس فيها لأعطت نتائج أفضل. وأقوى. إنه الرأي العام داخل

مربع سليمان بن صود، كان قد احتقن احتقاناً شديداً، ما لبث أن عبر عن نفسه وأشهد الله على ذلك بينما كان الرأي العام في

مكان آخر، تقع عليه الضربات من كل جانب، ورغم هذا، لم يقم من نومه، وينشط ذاكرته، ويتحرك التحرك الذي يستقيم مع

سنة الابتلاء، لينظر الله كيف يعمل عباده. فيصيبهم إما الثواب وإما العقاب.

ولما كان الغالب الأعم من الرأي العام في سبات عميق، مكبلين بنصوص ليس فيها من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم وهان، تدعوهم للاستسلام، وترك الدنيا، وهذه النصوص لا يستفيد منها إلا الذين يتخون مال الله

هولاً، ودين الله دخلاً، وعباد الله هولاً. ولما كان الغالب الأعم يتصرف على اعتبار أنه كحصى على الأرض تلهو بها كل

ريح، ولا يملك لنفسه سبباً من الأسباب ليدفع المخاطر عن نفسه، تركا الساحة للذين يأخون بالأسباب للوصول إلى أهداف

أهوائهم، في الوقت الذي وى من حوله نجوم

(1) مروج الذهب 114 / 3.

(2) البداية والنهاية 254، 255 / 8.

(3) مروج الذهب 107 / 3.

الهدى يأخذون بالأسباب، وهم يعلمون نتائج حركتهم مسبقا، ولم يدعهم هذا إلى الاستسلام والتهرب. لما كان الغالب الأعم على هذا النحو في القون الأول الهجوي، توالى الابتلاءات من الله سبحانه لتكون حركة التلويح، حركة صحيحة أمام كل باحث.... وفي هذه الامتحانات يضرب العذاب أقواما، ويقتل أقوام في سبيل الله، وتسير طائفة الحق شامخة، لا يظوها من خذلها، أو من عاداه، أو من نلأها. وبعد مروان، جاء ابنه عبد الملك، الذي وصف قبل أن يولد بأنه أحد الجباوة الأربعة وعبد الملك اختار من بين الناس الحجاج ابن يوسف الثقفي الذي وصف قبل أن يولد بأنه فتى ثقيف الذيال الميال.

وقبل أن يتقلد عبد الملك بن مروان السلطة، كان الناس يعلمون أنه سيصير خليفة⁽¹⁾. وذلك بعد أن وضعوا أحاديث التحذير، في داوة التبشير. وروي أن يزيد بن معاوية قال: إن الناس زعمون أن هذا يصير خليفة، فإن صدقوا، فقد صانعناه. وإن كذبوا، فقد وصلناه، وكان يزيد قد أعطى لعبد الملك قطعة أرض⁽²⁾.

وذكر ابن كثير، أنه لما سلم على عبد الملك بالخلافة، كان في حجه مصحف فأطبقه، هذا فراق بيني وبينك⁽³⁾. وقال السيوطي: عبد الملك هو أول خليفة بخل، وهو أول من غدر في الإسلام، وأول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف⁽⁴⁾. وذكر ابن كثير: أن عبد الملك كان له إقدام على سفك الدماء، وكان حزما، فطنا لأمر الدنيا لا يكل أمر دنياه إلى غيره⁽⁵⁾. وقال المسعودي: وكان له إقدام على الدماء وكان عماله على مثل مذهبه⁽⁶⁾. وروى صاحب الفتح الرباني: أن عبد الملك منع

(1) مروج الذهب 82 / 3.

(2) مروج الذهب 82 / 3.

(3) البداية والنهاية 63 / 9، تلويح الخلفاء / السيوطي 202 / 1.

(4) تلويح الخلفاء / 203 / 1.

(5) البداية والنهاية 63 / 9.

(6) مروج الذهب 109 / 3.

الناس من الحج، خوفا أن يبأيوا ابن الزبير⁽¹⁾.

وروي أن عبد الملك بن مروان، هادن ملك الروم، وبعث إليه بأموال وهدايا ليتوغل للأمة. وكان عبيد الله بن زياد، أمير بني أمية المطيع قد قتل، بعد موقعة عين الوردة وقتل معه أشرف أهل الشام، عندما التقى هو وإبراهيم بن الأشتر النخعي⁽²⁾، وبينما كان عبد الملك يعيد ترتيب أوراقه، وأوتاده، كانت الأحداث في الحجاز والوفاق تشتعل. فعبد الله بن الزبير كان قد بسط يده على رقعة كبيرة من الأرض، وكان يريد أن يضم الشام إلى سلطانه. وروي أن المختار بن أبي عبيد الثقفي، قال لابن الزبير: إنني لأعرف قوما، لو أن لهم رجل له رفق، وعلم مما يأتي، لاستخرج لك منهم جندا تغلب بهم أهل الشام. قال:

من هم. فقال: شيعة بني هاشم بالكوفة. فقال له: كن أنت ذلك الرجل. وبعثه إلى الكوفة.

فقل نأحية منها، وجعل يظهر البكاء على الطالبين وشيعتهم، ويظهر الحنين والروع لهم، ويحث على أخذ الثأر لهم، المطالبة بدمائهم⁽³⁾. وبهذه المقدمة سار إلى قصر الإمارة، وغلب على الكوفة، وابتدى لنفسه دراهم، ورفق الأموال على الناس، وخلق طاعته لابن الزبير، وجدد بيعته، وكان من قبل قد بايعه.

وتتبع المختار قتلة الحسين فقتلهم. قتل عمر بن سعد بن أبي وقاص، وهو الذي تولى حرب الحسين يوم كربلاء. فإد ميل أهل الكوفة إليه ومحبتهم له. ولقد حاول المختار أن يضع على حركته رداء أهل البيت، فكتب إلى علي بن الحسين يريد أن يبايعه، ولكن علي بن الحسين أبى أن يقبل ذلك منه، وأظهر كذبه وفجوره، ودخوله على الناس بإظهار الميل إلى آل أبي طالب. فلما يئس المختار من علي بن الحسين، كتب إلى عمه محمد بن الحنفية، يريد به علي

(1) الفتح الرباني 171 / 11.

(2) مروج الذهب 116 / 3.

(3) مروج الذهب 89 / 3.

الصفحة 329

مثل ذلك، فأشار عليه علي بن الحسين ألا يجيبه إلى شئ من ذلك، فإن الذي يحمله على ذلك، اجتذابه لقلوب الناس بهم، وتقربه إليهم بمحبتهم، وباطنة مخالف لظاهره، في الميل إليهم والتولي لهم والواعة من أعدائهم. بل هو من أعدائهم لا من أوليائهم، والواجب عليه، أن يشهر أمره، ويظهر كذبه على حسب ما فعل هو، عندما أظهر للناس كذب المختار⁽¹⁾. وأتى محمد بن الحنفية ابن عباس، يستشوه في هذا الأمر. فأوصاه بالسكوت لأن تأييد حركة المختار التي لا تقوم على أرضية إيمانية لا قيمة لها، ثم إن إظهار حقيقة المختار، لن تأتي بفائدة من عند ابن الزبير، خصم المختار الأول. لأن ابن الزبير بايعه كل الناس إلا محمد بن الحنفية⁽²⁾. وابن الزبير من المبغضين لأهل البيت. فكان ينال من علي بن أبي طالب في خطبه⁽³⁾. وكان ينتقص بن عباس⁽⁴⁾. وبالجملة: كانت حركة المختار، وابن الزبير، حركة هدفها الدنيا وليس لأهل البيت فيها أي نصيب اللهم إلا قتل أعدائهم، تحت راية المختار. ولقد جعل ابن حزم هذا القتل من مناقب المختار فقال: تتبع المختار بعض الذين شركوا في قتل ابن الزبير الحسين، فقتل منهم ما أقوه الله عليهم، وفعل أفاعيل يعفى فيها على هذه السنة⁽⁵⁾. وحركة المختار، دليل عظيم على أن أهل البيت لا يركبون باطلا ليصلوا به إلى حق. فلو كانوا طلاب دنيا، لهرولوا إلى المختار، في وقت كان البيت الأموي يعيد ترتيب أوراقه وأوتاده، بعد الخسائر التي مني بها في موقعة موحراط بين مروان والضحاك بن قيس، ثم الخسائر التي أصابته في موقعة عين الوردية، وما بعدها لكنهم لم يفعلوا ذلك، لأن الدين لا يخضع للتجلة، وحركة

(1) مروج الذهب 90 / 3.

(2) مروج الذهب 93 / 3.

(3) مروج الذهب 97 / 3.

(4) مروج الذهب 97 / 3.

(5) رسائل ابن خزم 141 / 2.

الصفحة 330

أهل البيت حركة واحدة على امتداد التاريخ، فهم في انتظار الناس، فإذا جاء الناس، على الإمام أن يتحرك بهذه الحركة التي تستقيم مع الواقع لإقامة الحجة بهم على من خالفهم. وفي عالم القتال على الدنيا، يكون التحرك خاضعا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إذارأيت رجلين من أمتي يقتتلان على المال، فأعدد عند ذلك سيفا من خشب " ⁽¹⁾ ، وقوله: " إذارأيت الأخوين المسلمين يختصمان في شبر من أرض، فاخرج من تلك الأرض " ⁽²⁾ . فكل حركة في هذه الأمور لا بد لها من فقه، وفقهه على بصوة.

والدليل على أن الدولة الأموية، وابن الزبير وغوهما كانوا يقاتلون على الدنيا، ما رواه البخاري عن أبي المنهال قال: لما كان ابن زياد ومروان بالشام، ووثب ابن الزبير بمكة، ووثب القواء بالبصرة. انطلقت مع أبي، إلى أبي بزة الأسلمي حتى دخلنا عليه في دره. فقال أبي: يا أبا بزة، ألا ترى ما وقع فيه الناس. فقال: إني احتسبت عند الله كأني أصبحت ساخطا على أحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذلة، والقلّة، والضلالة، وأن الله أنقذكم بالإسلام، وبمحمد صلى الله عليه وسلم، حتى بلغ بكم ما ترون، وهذه الدنيا التي أفسدت بينكم. إن ذاك الذي بالشام والله إن يقاتل إلا على الدنيا. وإن هؤلاء الذين بين أظهركم والله إن يقاتلون إلا على الدنيا، وإن ذاك الذي بمكة، والله أن يقاتل إلا على الدنيا ⁽³⁾ . ورواه الحاكم بزيادة: فقيل له: فما تأمونا؟ قال: لا أرى خيرا للناس إلا عصابة ملبدة، خماص البطون من أموال الناس، خفاف الظهور من دمائهم " ⁽⁴⁾ . وفي هذه الداوة ترى أعلام أهل البيت، الذين لا يأخذون من أموال الناس إلا ما كتب الله لهم.

ومن أجل المصالح دلت المعرك بين المختار، وبين ابن الزبير، سنة

(1) رواه الطبراني (كنز العمال 148 / 11).

(2) رواه الطواني (كنز 149 / 11).

(3) البخاري (الصحيح 230 / 4) ك الأحكام.

(4) رواه الحاكم وصححه (المستترك 471 / 4).

الصفحة 331

سبع وستين هجرية. وانتهت المعرك بقتل المختار، وقتل معه سبعة آلاف رجل. وتتبع قوات ابن الزبير الشيعة، بالكوفة وغوها، وقتلت منهم خلقا كثيرا ⁽¹⁾ ، ولم يبق بالساحة سوى بني أمية وابن الزبير. ودخلت سنة سبعين هجرية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال عن فتوة الستينيات " تعاونوا بالله من رأس الستين

ومن إمرة الصبيان " (2) . وكما علمنا أن الحسين قتل على رأس الستين، ثم اجتاح صبيان قريش الحرة، وحاصروا مكة، ثم وقعت معركة عديدة من أجل الدنيا، حتى دخل عام 70 هـ . وفي الاستفتاح يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " تعاونوا بالله من رأس السبعين ومن إمرة الصبيان " (3) .

وعلى رأس السبعين، قويت شوكة الروم يقول الطوي: في هذه السنة ثرت الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين، فصالح عبد الملك بن مروان ملك الروم، على أن يؤدي إليه في كل جمعة ألف دينار، خوفاً منه على المسلمين " (4) . وفي هذا الصلح، تسلل العديد من أهل الديانة النصوانية إلى بلاد الشام، وتقربوا إلى أمراء الأمصار، وفي هذا العام أيضاً قتل عبد الملك، عمرو بن سعيد الأشدق، وكان عبد الملك يظن بأن ابن الأشدق زاحمه على الخلافة. وبدأ عبد الملك يعد العدة لبسط نفوذه على الأراضي التي يسيطر عليها ابن الزبير، فخرج متوجهاً إلى العراق وعلى مقدمته، الحجاج بن يوسف الثقفي، وقيل كان على ساقته (5) . واجتاحت خيل عبد الملك الكوفة، وقتل مصعب بن الزبير، وبايعه الناس. وغرس عبد الملك ولاته على أرض العراق، وكان على رأسهم الحجاج بن يوسف. وكانت وصية عبد الملك للحجاج: إن أردت أن يستقيم لك من قبلك، فخذهم بالجماعة، وأعطهم عطاء الفوقه وألصق بهم

(1) مروج الذهب 119 / 3.

(2) رواه الإمام أحمد وأبو يعلى (كنز العمال 119 / 11).

(3) رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقاة (الزوائد 220 / 7) (الفتح الروباني 34 / 23)، (البداية والنهاية 234 / 6)، (كنز العمال 119 / 11).

(4) الطوي 184 / 7.

(5) مروج الذهب 125 / 3.

الصفحة 332

(1) الحاجة .

والحجاج أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بمجيئه، كعقاب لأمة، رفعت سيوفها وأسننتها على الحق. لينظر الله إلى أين يفر الناس من العذاب، إلى الله، أم إلى بيوت المال؟ حيث الانحناء إلى السلطان؟ إن العذاب ليس من أجل العذاب، ولكن العذاب امتحان تظهر فيه المعادن، وهو في خطوته العريضة رحمة، لأنه يدعو الناس إلى الشكر لأن الشكر نجاة من عذاب يوم عظيم، فمن فر إلى الله من عذاب الدنيا، لم يجمع الله عليه عذاب الآخرة. أما المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، فإنهم بعذاب الدنيا يعبرون إلى عذاب القبر، إلى عذاب يوم أليم، لأنهم يتعاملون مع العذاب، وفقاً لأهوائهم، فتحت العذاب تراهم يصلحون ويحلزون، وليس لله في أعمالهم نصيب. وفي سنة العذاب يقول تعالى: (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) (2) . وقال:

(3) ، وقال: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) (4) ، والحجاج عذاب، ولقد أخبر

النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه، لأن هوى الحجاج لن يكون على خط الهدى، وإنما سيختار خط الكذب، وسفك الدماء. وهذا إخبار بالغيب، ولقد شهدت حركة التلويح بذلك.

قال النبي صلى الله عليه وسلم " سيخرج من تقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول. وهو مبير " ⁽⁵⁾ . قيل إن الأول هو المختار الثقفي، الذي تتبع قتلة الحسين. أما الثاني فهو الحجاج. وكان الإمام علي، قد دعى على أهل العواق، بأن يبعث الله عليهم فتى تقيف. وأخرج البيهقي. أن عليا قال لرجل: لا مت حتى تترك فتى تقيف. قال: وما فتى تقيف؟ قال: ليقال له يوم القيامة، أكفنا

(1) مروج الذهب 143 / 3.

(2) سورة الأنفال: الآية 33.

(3) سورة النساء: الآية 147.

(4) سورة الإسراء: الآية 15.

(5) رواه ابن سعد ونعيم ابن حماد والحاكم والطواني (كنز العمال 201، 202 / 214).

الصفحة 333

زاوية من زوايا جهنم، رجل يملك عشرين أو بضعا وعشرين، لا يدع الله معصية إلا لتكبتها. حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة، وكان بينه وبينها باب مغلق، لكسوه حتى يرتكبتها، يقتل بمن أطاعه من عصاه ⁽¹⁾ . وروي أن الإمام علي قال لأهل الكوفة، فيما أخرجه الإمام أحمد عن الحسن: " اللهم كما اتتمنتهم فخانوني، ونصحت لهم فغشوني، فسلط عليهم فتى تقيف الذيال الميال، يأكل خضرتها ويلبس فروتها، ويحكم فيهم بحكم الجاهلية. قال الحسن: ما خلق الحجاج يومئذ ⁽²⁾ . وكان الإمام الحسين قد دعا عليهم يوم كربلاء فقال: اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسنين يوسف، وسلط عليهم غلام تقيف يسقهم كأسا مصوة، فإنهم كذبونا وخذلونا ⁽³⁾ . فالحجاج عذاب دق أوتاده نظام. وحكمة الوجود عمودها الفوقي، لينظر الله كيف تعملون. إن الحجاج بقعة حمراء جاهلية في ثوب به جميع الألوان، كلها تحمل زخرف الدنيا، فإلى أين يكون الوار؟ وكيف سيديون القرن الأول الهجري تليخه في هذه الحقبة الوهمية، التي عليها تنبت عقائد، وعلى مساحتها تشق أكثر من سبعين فوكة طويقها.

والحجاج وضع شنودا، ولرتكب حرائم من شأنها أن تحرك الناس، طلبا للتغيير على طريق العودة إلى الله. ويكفي أن يقول عمر بن عبد العزيز في أعمال الحجاج: " لو جاءت كل أمة بخبثها وجنأهم بالحجاج لغلبناهم " ⁽⁴⁾ . وقال أبي النجود: " ما بقيت لله حرمة إلا وقد ارتكبتها الحجاج " ⁽⁵⁾ . وسألوا مجاهد عن الحجاج فقال: تسألون عن الشيخ الكافر ⁽⁶⁾ . وقال الشعبي: الحجاج يؤمن بالجبت والطاغوت كافر بالله

(2) الخصائص الكوى 225 / 2، البداية 132 / 9.

(3) الطوي 359 / 6.

(4) رواه البيهقي (البداية والنهاية 270 / 6).

(5) البداية والنهاية 270 / 6.

(6) البداية والنهاية 136 / 9.

الصفحة 334

(1) العظيم . وقال الأوزاعي سمعت القاسم بن ضمرة يقول: كان الحجاج ينقض عرى الإسلام (2) .

فهذا هو الحجاج في نظر علماء الإسلام. أما القيادة التي دقت وتد الحجاج في جسد الأمة روي أنه قيل للوليد بن عبد الملك: ما تقول في عبد الملك بن مروان؟ فقال: ما أقول في رجل الحجاج خطيئة من بعض خطاياها (3) . ونحن هنا سنسلط الضوء على أهم الأقوال والأفعال التي أتى بها الحجاج، والتي تعتبر دعوة صريحة للخروج عليه، والالتفاف حول راية الهدى التي لم تكن خافية على أحد في هذا الزمان.

روى أبو داود عن جعفر بن عوف قال: سمعت الحجاج يخطب وهو يقول: إن مثل عثمان عبد الله كمثل عيسى بن مريم، ثم قرأ هذه الآية ويفسوها (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا)، يشير إلينا بيده، وإلى أهل الشام (4) . ثم قام الحجاج بتوسيع الدائرة، فروي عن سليمان الأعمش، أن الحجاج قال: " اسمعوا وأطيعوا لخليفة الله، وصفيه عبد الملك بن مروان " (5) . وقال: " اسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمر المؤمنين عبد الملك، والله لو أموت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر، لحلت لي دملهم وأمواهم " (6) .

وذكر الجاحظ أن الحجاج قال: والله لطاعتي أوجب من طاعة الله، لأن الله يقول: (اتقوا الله ما استطعتم)، فجعل منها مثنوية (7) . وقال الله: " واسمعوا وأطيعوا)، ولم يجعل منها مثنوية ولو قلت لرجل: ادخل من هذا الباب فلم

(1) البداية والنهاية 136 / 9.

(2) البداية والنهاية 136 / 9.

(3) البداية والنهاية 135 / 9.

(4) أبو داود حديث رقم 4641 ص 209 / 4.

(5) أبو داود حديث 4645 ص 210 / 4.

(6) أبو داود حديث 4643، ص 210 / 4.

(7) المثنوية / الاستثناء.

الصفحة 335

يدخل لحل لي دمه (1) . قال الجاحظ: لقد فهم الحجاج أن العواد طاعة أولي الأمر. وليس كما ظن. بل العواد: اسمعوا

المواظظ وأطيعوا الأوامر الإلهية. أو اسمعوا لله ولرسوله وأطيعوا الله فيما يأمركم (2).

وروي أن سجون الحجاج كان يوجد فيها شئ يلجأ الناس إليه، من حر، أو برد، وأن المسجونين كانوا يسقون الماء مشوبا بالرماد (3). وذكر أن الحجاج مر في يوم جمعة، فسمع استغاثة فقال: ما هذا؟ فقيل له: أهل السجون يقولون، قتلنا الحر، قال: قولوا لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون (4).

ولم تقف أعمال الحجاج عند هذا الحد. ففي عهده كان الصحابة يعابرون بالصحبة. وروي أنه كان يختم الصحابة بخاتم، حتى يعرفهم الناس، ويعابرونهم بصحبتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. يقول السيوطي: في سنة أربع وسبعين. سار الحجاج إلى المدينة، وصار ينعت على أهلها ويستخف ببقايا من فيها من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وختم أعناقهم وأيديهم بذلك، كأنس، وجابر، وسهل بن سعد (5). وقد قتل من الصحابة والتابعين ما لا يحصى (6). وهذه الأمور كانت دعوة في حقيقة الأمر ليتحرك الناس الحركة التي يحبون أن ينظر الله إليهم، وهم يقومون بها. كان هذا دعوة مفتوحة، للفوا إلى الله، موجه إلى جيل حديث عهد رائحة النبوة الزكية. ونحن هنا سنلقي الضوء على صور محددة لحركة الناس في هذا الجيل.

1 - حركة عبد الله بن عمر بن الخطاب:

فعبد الله عند المقدمة، رفض القتال مع أمير المؤمنين علي بن أبي

(1) حياة الحيوان 3 / 16.

(2) أنظر تفسير التومخثوي والولي والبيضوي.

(3) التنبيه والإثواف / المسعودي 1 / 291.

(4) البداية والنهاية 9 / 137.

(5) تزيخ الخلفاء 1 / 200.

(6) تزيخ الخلفاء 1 / 205.

الصفحة 336

طالب (1). وفي أكثر الأقوال رفض أن يبايع علي. ويقول ابن حزم في الذين لم يبايعوا عليا: وتأخر عن بيعة علي، قوم من الصحابة بغير عذر شرعي، إذ لا شك في إمامته (2). وعبد الله الذي لم يبايع عليا. بايع فيما بعد معاوية، ثم يزيد بن معاوية، ثم عبد الملك بن مروان. وكان عنوان عبد الله بن عمر على امتداد هذه الأحداث، من عثمان إلى عبد الملك بن مروان هو: " لا أقاتل، وأصلي وراء من غلب " (3). وكان على امتداد هذا الزمان لا يأتي أمير إلا صلى خلفه، وأدى إليه زكاة ماله (4).

روي أن عليا طلب من ابن عمر الخروج معه لقتال أهل الشام فقال: أنا رجل من أهل المدينة إن خرجت خوفا، ولكن لا أخرج للقتال في هذا العام (5). والمعنى: هو مع أهل المدينة ما يجري عليهم، جرى عليه، فإن خرج أهل المدينة مع علي، فإن ابن عمر لن يخرج هذا العام. وبعد مقتل الإمام علي، لم يبايع ابن عمر الحسن بن علي، فلما تم الصلح بين الحسن ومعاوية

بايع معاوية. وعندما أراد معاوية أن يبايع ليزيد من بعده، بعث إلى ابن عمر وقال: يا ابن عمر إنك كنت تحدثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سواد، ليس عليك فيها أمير. وإني أحزنك أن تشق عصا المسلمين، أو تسعى في فساد ذات بينهم.. فقال ابن عمر: إنك تحزنني أن أشق عصا المسلمين، ولم أكن أفعل، وإنما أنا رجل من المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر فأنا رجل منهم. فقال له معاوية:

رحمك الله (6).

وذكر ابن كثير: حين قدم نعي معاوية، لم يكن ابن عمر بالمدينة. وعندما لقي الحسين وابن الزبير قال: ما وراءكما؟ قالوا: موت معاوية، والبيعة ليزيد.

(1) البداية والنهاية 231 / 7.

(2) رسائل ابن خزم الأندلسي 138 / 2.

(3) الطبقات الكبرى 149 / 4.

(4) الطبقات الكبرى 149 / 4.

(5) البداية والنهاية 231 / 7.

(6) تزيخ الخلفاء 113 / 1.

الصفحة 337

فقال لهما: اتقيا الله ولا تفرقا بين جماعة المسلمين. وعندما قدم ابن عمر إلى المدينة، بايع يزيد (1). وعن محمد بن المنكر قال: لما بويع يزيد بن معاوية، قال ابن عمر: إن كان خوارضينا، وإن كان بلاء صونا (2). وعندما خلع أهل المدينة يزيد، روى أحمد، ومسلم، والترمذي، أن ابن عمر أنكروا على أهل المدينة خلعهم ليزيد. وروي أنه دعا بنيهم، وجمعهم وقال:

أنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، فيقول هذه غرة فلان.... فلا يخلعن أحد منكم يزيد، ولا يسوعن أحد منكم في هذا الأمر فتكون الصيلم بيني وبينه (3). وبعد مجزرة الحرة، وموت يزيد. وعندما جاءت دولة مروان التي لعن النبي صلى الله عليه وسلم رأسها في أحاديث صحيحة، منها قول عائشة:

لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم، ومروان في صلبه. فمروان قصص من لعنة الله عز وجل (4)، بعد أن جاءت هذه النولة. روى البخاري عن عبد الله بن دينار قال: شهدت ابن عمر، حيث اجتمع الناس على عبد الملك كتب: إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الملك أمير المؤمنين، على سنة الله وسنة رسوله، ما استطعت، وإن بني قد أقروا بذلك (5).

إن ما قدمناه ما هو إلا ضوء على حركة ابن عمر خلال هذه الأحداث، وللأسف الشديد، أن هذه الحركة أصبحت فيما بعد أصلا من أصول الدين، زرعه فقهاء السلاطين، والغائر الوحيد تحت شجرتهم هم الطلقاء، والملعونين، والمطرودين، وأعداء

الفتوة، والإنسانية، إن فقهاء السوء التقطوا موقف ابن

(1) البداية والنهاية 148 / غير واضح في المصدر (541).

(2) الطبقات الكبرى 184 / 4.

(3) البداية والنهاية 233، 251 / 8، الطبقات الكبرى 183 / 4.

(4) رواه الحاكم وصححه (المستدرک 481 / 4).

(5) البخاري (الصحيح 245 / 4) ك الأحكام.



عمر، وجعلوه كمامة في عالم التلجيم والاحتناك، وعلى هذه الكمامة، تعددت الفرق، وافتوت الأمة إلى أكثر من سبعين شعبة، بعد أن أصبح للجدل أسواق.

لقد سلطوا الأضواء على موقف ابن عمر، وعتموا على مواقف أبي ذر، وعمار، والمقداد، وحجر بن عدي، وزيد بن صوحان، وغيرهم، ولا تخفى الأسباب على أصحاب الضمائر والأفهام والأبصار. وفوق هذا التعظيم، وضوا عبادة عبد الله بن سبأ. فقالوا: إن ابن سبأ هو السبب في جميع الأحداث التي عصفت بالأمة. وأشهد أن ابن سبأ ما هو إلا أقصوصة، جاء بها عالم القص ليعتم بها على حركة التلرخ.

لم ينظر أصحاب الاحتناك إلا في مقدمة ابن عمر، ولم ينظروا إليه في نهاية الطريق، حيث كان يعلوه الندم. فعن الزهري عن حنوة بن عبد الله بن عمر. أنه بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر، إذ جاءه رجل من أهل الواق فقال: يا أبا عبد الله، إني والله لقد حرصت أن أتسم بسمتك، وأقتدي بك في أمر فرقة الناس، واعرّال الشر ما استطعت، وإني أقرأ آية من كتاب الله محكمة، قد أخذت بقلبي فاخبرني عنها، رأيت قوله عز وجل: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما. فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفي إلى أمر الله)، أخبرني عن هذه الآية.

فقال ابن عمر: ما لك ولذلك. انصوف عني. فانطلق الرجل حتى تورى عنا سواده. وعندما أقبل علينا عبد الله قال: ما وجدت في نفسي شيئاً من أمر هذه الآية، ما وجدت في نفسي أنني لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عز وجل⁽¹⁾. وفي رواية قال: لم أجدني آسي على شيء، إلا أنني، لم أقاتل الفئة الباغية مع علي⁽²⁾.

(1) رواه الحاكم وقال: هذا باب كبير، وقد رواه عن عبد الله بن عمر جماعة من كبار التابعين وإنما قدمت حديث شعيب بن أبي حمزة عن الزهري واقتصرت عليه لأنه صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (المستدرک 3 / 116).

(2) رواه الطواني بإسنادين ورجاله رجال الصحيح (الزوائد 7 / 242)، ورواه ابن سعد في

لقد كان هذا آخر مواقف ابن عمر، بعد أن صلى وراء الحجاج، وأخذ عنه الحجاج مناسكه يوم أن كانت الكعبة تحترق، وهم يطوفون بها كما سيأتي.

2 - حركة أنس بن مالك:

كان أنس من الذين كتّموا حديث الغدير، يوم أن قال علي بن أبي طالب في الرحبة: "أنشد الله رجلاً سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول يوم الغدير إلا قام" وقام الناس ولم يقم أنس. فدعا علي بن أبي طالب على كل من كتّم، ولم يشرك أنس في معرك علي. لكنه تحدث بعد علي عن مناقب أهل البيت، وذلك عندما علم أن مقدمته كانت مقدمة خطأ. روى ابن كثير أن أنس بن مالك جاء إلى الحجاج بن يوسف. فقال له الحجاج، هي يا خبيث، حوال في الفتن، مرة مع ابن الزبير، ومرة مع ابن الأشعث، أما والذي نفس الحجاج بيده لأستأصلنك كما تستأصل الصمغة، ولأجردنك كما تجرد الضب. فقال أنس:

إياي يعني الأمير، قال الحجاج: إياك أعني أصم الله سمعك.

فاسترجع أنس، وشغل الحجاج. فخرج أنس، فنتبعاها. فقال: لولا أنني ذكرت ولادي الصغار، وخفت عليهم، ما باليت أي قتل أقتل، وكلمته بكلام في مقامي هذا لا يستخفني بعده أبدا. وروى أن أنسا بعث إلى عبد الملك بن مروان يشكو إليه الحجاج. فكتب عبد الملك إلى الحجاج أن يتراضاه (1). وروى ابن سعد: كان أنس بن مالك من أحرص أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على المال (2).

وقفهاء السلطان وقفوا عند المقدمة، وغزلوا غزلهم، ونسجوا نسجهم، ولم ينظروا في الخاتمة، حيث كان أنس يبكي في آخر أيام حياته، وهو آخر من مات من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

= الطبقات بإسنادين (الطبقات الكبرى 185، 187 / 4).

(1) البداية والنهاية 9 / 91.

(2) الطبقات الكبرى 7 / 18.

الصفحة 340

(1) بالبصرة . وكان أنس يقول: ما بقي أحد صلى القبلتين كلتيهما غوي (2).

ولو تدبر أصحاب الغزل والنسيج، في أقوال أنس في آخر حياته، لرؤا فيها الندم. ولعلموا أن غوسهم بعد الندم لا قيمة له إلا في خرائن السلطان. فعن ابن عمران الجوني قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ما أعرف شيئا اليوم، مما كنا عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلنا: فأين الصلاة؟ قال:

أولم تصنعوا في الصلاة، ما قد علمتم (3). وروى البخاري أن الزهري دخل على أنس، فوجده يبكي. فقال ما يبكيك قال: لا أعرف شيئا مما أركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيعت (4)، إن معنى أن يضيع كل شيء عند النتيجة، أن المقدمة بعد وفاة الرسول يجب البحث فيها لنقف على الداء.

وما نسجه على موقف أنس وابن عمر، فعلوه أيضا في حركة عائشة.

تلك الحركة التي قام فقهاء السلطان بتوقيعها، وتلوينها، حتى لا يصل أحد إلى حقيقة، وكان يكفهم أن ينظروا إلى موقف عائشة في المحطة الأخيرة، حيث التوبة والندم. فعائشة بعد قتل محمد بن أبي بكر وحجر بن عدي، تبينت الحقيقة، واعترفت بأنه لولا موافقها السابقة، لكان لها شأن آخر في مقابل هذه الأحداث (5). ثم بدأت في نشر فضائل أهل البيت، وقيل أن حديثها ينشر الفضائل، كان بعد وفاة الحسن بن علي. وقيل غير ذلك. وروى أنها قالت عند وفاتها: إني قد أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقالت: ليتني لم أخلق. يا ليتني كنت شجرة أسبح وأقضي ما علي (6).

وإذا كنا قد ذكرنا أن الحجاج عقاب، وتحت هذا العقاب ينظر الله تعالى

(1) الطبقات الكبرى 7 / 26.

(2) الطبقات الكبرى 20 / 7.

(3) رواه أحمد والترمذي وحسنه وقال في الفتح الرباني 199 / 1 ، روي من غير وجه عن أنس.

(4) الفتح الرباني 200 / 1.

(5) راجع الطوي 156 / 6، ابن أبي الحديد 272 / 3.

(6) رواه الطواني (الزوائد 74 / 8) وابن سعد (الطبقات 238 / 7).

الصفحة 341

إلى عباده، كيف يعملون وإلى أين يفرون. وإذا كنا قد ذكرنا أن العقاب، على الجيل الأول، عموده الفقري أن يقوم هذا الجيل بتصحيح خطواته، وترتيب أوقافه، لأن على أوقافه ستأتي أجيال سيأخذون من مملستهم، وأعمالهم، وقودا، ويتخذونهم قوة، فإذا لم يصح الأوائل خطاياهم، حتما سيقع فيها الأواخر، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكورها كم غاب عنها، ومن غاب عنها فوضيها كان كمن شهدها " (1) ، وقوله: " المرء مع من أحب " (2). وإذا كنا قد ذكرنا، أن العمود الفقري لحركة الإنسان العاقل في هذا الكون، هو الأخذ بالأسباب، لأن فيها يظهر الإنسان الذي يخشى الله بالغيب، والإيمان بالغيب هو وعاء المؤمنين الوحيد على هذا الكون المنظور، وعلى طريق الإيمان سار علي بن أبي طالب، وعمار، والحسين، وكل منهم كان يعلم بأنه مقتول في نهاية الطريق. فلم ينظروا إلى النتائج، لأن النتائج بيد الله، والله تعالى لا يضيع عمل الصالحين، الذين يخشونه بالغيب. وهؤلاء وغيرهم، هم الذين اشتوى الله منهم أنفسهم، وأخوهم على لسان رسول صلى الله عليه وآله وسلم، بمكان وكيفية قتلهم. فلم يتكاسلوا، وأخذوا بأسباب الحياة الأبدية، حتى قتلوا وربح بيعهم. فإذا كنا قد ذكرنا ذلك في أكثر من موضع فلم يبق إلا إلقاء ضوء يسير على رجل من الرجال، أخذ بأسباب النجاة، وكتما في نفسه، وذلك عندما خطب الحجاج وجعل موتبة عبد الملك فوق موتبة النبوة. روى أبو داود عن الربيع بن خالد قال: سمعت الحجاج يخطب فقال في خطبته: رسول أحدكم في حاجته أكرم عليه، أم خليفته في أهله؟ قال الربيع: فقلت في نفسي: الله علي ألا أصلي خلفك أبدا، وإن وجدت قوما يجاهدونك، لأجاهدك معهم. وروي أنه قاتل بعد ذلك في موقعة الجمام حتى قتل (3).

(1) رواه أبو داود حديث 4345 ص 124 / 4.

(2) البخاري (الصحيح 77 / 4) والترمذي وصححه (الجامع 596 / 4).

(3) رواه أبو داود حديث 4642 ص 209 / 4، البداية 131 / 9.

الصفحة 342

لقد كانت أقوال الحجاج وأفعاله، تصطدم مع العقيدة، وهنا يكمن الامتحان الإلهي. وتحت هذا الامتحان، كان هناك من يدافع عن دينه، بيده، أو بلسانه، أو بقلبه، وكان هناك من فدى الحجاج بالمال والولد، وقاتل تحت راياته. وكان هناك أيضا من يريد أن يركب موجة المعرضة، ليصل إلى كوسي الحكم، كالمختار مثلا الذي انطلق من عباءة قال أنها هاشمية، وبتصويح من

محمد بن الحنفية. والحقيقة تخالف ذلك. باختصار: كانت هناك معرضة، ولكنها بلا رأس فيه من الله وهان. لقد كان علي بن الحسين، يعيش في عالم الغربة، وكان في هذا العالم كثير البكاء. وقيل له في ذلك فقال: أن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف، ولم يعلم أنه مات. وإني رأيت بضعة عشر من أهل بيتي يذبحون في غداة واحدة، فترون حزنهم يذهب من قلبي أبدا⁽¹⁾. وفي رواية قال: إنني كلما شربت الماء تذكرت ابن فاطمة.

وعلي بن الحسين كان علما وحده في هذه الساحة، ودليلا ينيير لمن أراد أن يتوجه إليه، روي أن الزهري قرف ذنبا فاستوحش منه وهام على وجهه، وترك أهله وماله فلما اجتمع بعلي بن الحسين قال له علي: يا زهري قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء، أعظم من ذنبك. فقال الزهري: "والله أعلم حيث يجعل رسالاته"، وفي رواية: أنه كان أصاب دما حواما خطأ، فأمره بالتوبة والاستغفار، وأن يبعث الدية إلى أهله. وعندما سمع منه الزهري قال: "والله أعلم حيث يجعل رسالاته"⁽²⁾. لقد كان علي بن الحسين علما في الساحة. روي أن هشام بن عبد الملك حج في خلافة أبيه، فطاف بالبيت، فلما أراد أن يستلم الحجر لم يتمكن حتى نصب له منبر، فاستلم وجلس عليه. وقام أهل الشام حوله، فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن الحسين، فلما دنا من الحجر ليستلمه.

تتحى عنه الناس إجلالا له وهيبه واحتراما. فقال أهل الشام لهشام: من هذا؟
فقال: لا أعرفه استقصا به، واحترقا، لئلا يرغب فيه أهل الشام. فقال

(1) البداية والنهاية 107 / 9.

(2) البداية والنهاية 107 / 9.

الصفحة 343

الفرزدق وكان حاضوا. أنا أعرفه. فقالوا: ومن هو؟ فأشار الفرزدق يقول:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته * والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم * هذا التقي النقي الطاهر العلم

إذارأته قريش قال قائلها * إلى مكرم هذا ينتهي الكرم

ينمي إلى نروة العز التي قصوت * عن نيلها عوب الإسلام والعجم

إلى أن قال:

هذا ابن فاطمة إن كنت تجهله * بجده أنبياء الله قد ختموا

من جده دان فضل الأنبياء له * وفضل أمته دانته لها الأهم

عم البرية بالإحسان فانقشعت * عنها الغواية والإملاق والظلم

إلى أن قال:

من معشر حبههم دين وبغضهم * كفر وقربهم منجي ومعتصم

يستدفع السوء والبؤى بحبهم * ويسوّاد به الاحسان والنعمة
مقدم بعد ذكر الله ذكّهم * في كل حكم ومختوم به الكلم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم * أو قيل من خير أهل الأرض؟ قيل: هم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم * ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما زمة زمت * والأسد أسد الثوى والبأس محتدم
يأبى لهم أن يحل الذم ساحتهم * خيم كرام وأيد بالندي هضم
لا ينقص العدم بسطا من أكفهم * سيان ذلك أن آثروا وإن عدموا
أي الخلائق ليست في رقابهم * لأولية هذا أوله نعم
فليس قولك من هذا؟ بضائرة * العرب تعرف من أنكوت والعجم
من يعرف الله أولية ذا * فالدين من بيت هذا ناله الأمم

يقول ابن كثير: فغضب هشام من ذلك، وأمر بحبس الفرزدق بين مكة والمدينة، فلما بلغ ذلك علي بن الحسين، بعث إلى الفرزدق باثني عشر ألف درهم، فلم يقبلها، وقال: إنما قلت ما قلت لله عز وجل، ونصوة للحق، وقيامًا بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم في نوبته، ولست أعتاض عن ذلك بشئ. فرسل إليه علي بن الحسين يقول: قد علم الله صدق نيتك في ذلك

الصفحة 344

(1)

وأقسمت عليك بالله لتقبلها. فقبلها منه .

لقد كانت هناك معرضة، للذين يقاتلون من أجل الدنيا، ولكن هذه المعرضة لم يكن لها رأس هدفها الآخرة، وتسوق الناس في الدنيا إلى عالم البركات، وشروط عالم البركات أن يؤمن أهل القوى وأن يتقوا. أهل القوى كلهم، وليس قبيلة من القبائل، أو فردا من الأفراد، فالدعوة عالمية. وتتحرك بعالميتها تحركا واحدا، على امتداد العصور. وهذا التحرك على أرض إذا سقط عليها الماء، اهترت وأنبئت نبات عالم البركات، وليس نبات عالم الضنك.

فالإنسان مرتبط بالكون، فإن استقام على الفطرة التي فطر الله الناس عليها، التقى مع فطرة الكون في معزوفة واحدة. أما إذا شذ، فإنه بهذا الشذوذ يصطدم من فطره الله في خلقه، فتضربه جميع الأسباب وفي عالم الفوية، وفي عالم القتال من أجل الدنيا، وفتح أبواب الفتن، ونشر ثقافة السب، روي أن يحيى بن سعيد قال: سمعت علي بن الحسين، وهو أفضل هاشمي أوركته يقول: يا أيها الناس، أحبونا حب الإسلام، فما روح بنا حبكم حتى صار علينا عرا. وفي رواية: حتى بغضونا إلى الناس (2) .

وفي عالم البغض والحقد والكراهية. مارس الحجاج بن يوسف مهمته بكل رتياح. فصد عن سبيل الله، وتتبع أصحاب الإمام علي في كل مكان، وشكك في أهل البيت. روي أنه طلب كميل بن زياد ليقنتله، وكان كميل صحابي أترك من الحياة النبوية، ثمان عشرة سنة، وشهد صفين مع علي (3) ، وكان شجاعا، فاتكا، وزاهدا عابدا (4) . وعندما وقف كميل أمام الحجاج، نال الحجاج من علي، فصلي كميل عليه. فقال له الحجاج: والله لا بعثن إليك من يبغض عليا أكثر مما تحبه، فرسل إليه ابن

(1) البداية والنهاية 108 / 9.

(2) البداية والنهاية 104 / 9.

(3) الإصابة 318 / 3.

(4) البداية والنهاية 46 / 9.

الصفحة 345

(1) حمص . وأمر الحجاج بقتله صوا بين يديه. فقال كميل: فاقض من أنت قاض، فإن الموعد الله، وقد أخبرني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنك قاتلي. فقال: اضربوا عنقه. فضربت عنقه (2) .
وفي عالم البغض والكراهية، أنكر الحجاج أن يكون الحسين من نرية النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه ابن ابنته. فقال له يحيى بن معمر: كذبت.

فقال الحجاج. لتأتيني على ما قتل ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك فقال:

قال تعالى: (ومن نريته دلوود وسليمان) إلى قوله: (وزكريا ويحيى وعيسى) ثم قال للحجاج: فعيسى من نرية إراهيم، وهو إنما ينتسب إلى أمه مريم.

(3) والحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الحجاج: صدقت، ونفاه إلى خراسان .

وعلى ساحة البغض والكراهية، كان الحجاج ينال من عبد الله بن مسعود ويقول: والله لو أركت عبد هذيل، لأضربن عنقه (4) . وكان يمنع الناس من القاءة في المصحف بقاءة ابن مسعود. ويقول: لا أجد أحدا يقوأ على قواءة ابن عبد إلا ضربت

عنقه. ولأحكنها من المصحف، ولو بضلع ختير!! (5) ، وقال ابن كثير: وإنما نقم على قواءة ابن مسعود لكونه خالف القواءة،

على المصحف الإمام الذي جمع الناس عليه عثمان (6) . وروي أن الحجاج قال على المنبر: عبد الله بن مسعود رأس

المنافقين، لو أركته لأسقيت الأرض من دمه (7) . وروي أنه تلا على المنبر هذه الآية: (هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من

بعدي)، وقال: والله إن كان سليمان لحسودا. قال ابن كثير: وهذا جراءة

(1) البداية والنهاية 47 / 9.

(2) الإصابة 318 / 3.

(3) البداية والنهاية 126 / 9.

(4) البداية والنهاية 128 / 9.

(5) البداية والنهاية 128 / 9 ، وقال ابن كثير رواه غير واحد.

(6) البداية 128 / 9.

عظيمة تقضي به إلى الكفر⁽¹⁾.

من كل ما سبق، نعلم أن الحجاج اقتحم على الناس من الباب الذي لا ينبغي للناس أن يسمروا له بالدخول منه، ولكن الغالب الأعم تعامى عن حركة الحجاج، كما تعاموا من قبل، عن أعمال يزيد، ومن قبله عن أعمال معاوية. وتعامى الوأي العام وإن كان يعود إلى ثقافة السب، ورشوة النبلاء، إلا أنه عذر لا تقبله الفطوة التي هي حجة بذاتها على الإنسان.

وفي عالم البغض والتعامى، تحركت جيوش الحجاج، بعد أن صدرت الأوامر إليها من عبد الملك بن مروان. وكان تحركها في اتجاه مكة لقتل ابن الزبير، وابن الزبير لم يدع شيئاً مقدساً، أو راية نقية، إلا تاجر بها لبسط نفوذه، وعبد الملك ما ترك سجناء، ولا سيفاً، إلا واستعمله من أجل بسط نفوذه. لقد كانت المواجهة بين الطرفين في مكة. وعلى مكة تحذير من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله حرم مكة. يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة، لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، ولا تحل لي قط إلا ساعة من الدهر، لا ينفر صيدها، ولا يعضد شوكها، ولا يختلي خلاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد⁽²⁾. وفي رواية قالوا: إلا الأذخر يارسول الله، فإنه لا بد منه للقين، والبيوت. قال: إلا الإذخر فإنه حلال.

وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم: وهي اليوم حرام كما حرّمها الله عز وجل أول مرة، وإن أعتى الناس على الله عز وجل ثلاثة: رجل قتل فيها، ورجل قتل غير قاتله، ورجل طلب بذحل⁽³⁾ الجاهلية⁽⁴⁾.

ومن أجل هذا، تحرك أهل البيت بعيداً عن الدائرة الحرام، وكانت حركتهم من أجل أن يدخلوا بالناس إلى المنطقة الأمان.

أما غورهم فقد تسلق

(1) البداية والنهاية 129 / 9.

(2) رواه البخاري (كنز العمال 198 / 12).

(3) ذحل / أي ثار.

(4) رواه الإمام أحمد والبيهقي (كنز العمال 206 / 12).

على الدائرة الحرام طمعا في الدنيا، حتى جاء يزيد وعبد الملك في زمن القهر، واتخاذ عباد الله خوفاً، فوجهوا الجيوش إلى الدائرة الحرام، لينالوا الدنيا على دخان الكعبة.

روي أن الحجاج زحف إلى مكة. فحاصر ابن الزبير بها وكتب إلى عبد الملك: أني ظفوت بأبي قبيس. فلما ورد كتابه على

عبد الملك بحصار ابن الزبير، كبر عبد الملك، فكبر من معه في دره، واتصل التكبير بمن في جامع دمشق فكبروا، واتصل

ذلك بأهل الأسواق فكبروا ثم سألوا عن الخبر فقيل لهم:

إن الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة، وظفر بأبي قبيس⁽¹⁾. منع ابن الزبير الحجاج أن يطوف بالبيت. ووقف الحجاج بعوفة محرما في روع مغفر⁽²⁾، وكانت مدة الحصار خمسين ليلة⁽³⁾. ثم بدأ الحجاج يصب الحجارة على مسكة صبا، وابن الزبير متحصن بالكعبة، وتفوق عن ابن الزبير أصحابه، وخذله من معه خذلانا شديدا. وجعلوا يخرجون إلى الحجاج، حتى خرج إليه نحو من عشرة آلاف، وذكر أنه كان ممن فرقه وخرج إلى الحجاج ابنا الزبير، وخبيب، فأخذا منه لأنفسهما أمانا⁽⁴⁾. وروي أنه عندما رمى البيت بالحجارة والمنجنيق، أرسل الله تعالى الصواعق والبروق والوعود. فتولت الصواعق على المنجنيق وأحرقته، فوقف أهل الشام عن الرمي، فقال لهم الحجاج، ويحكم ألم تعلموا أن النار كانت تقول على من كان قبلنا. فتأكل قوبانهم إذا تقبل منهم. فولا أن عملكم مقبول ما تزلت النار فأكلته. فعاد أهل الشام للضرب. وقتل ابن الزبير⁽⁵⁾. وأمر الحجاج بصلب الزبير بمكة. وكان مقتله سنة ثلاث وسبعين⁽⁶⁾.

(1) مروج الذهب 135 / 3.

(2) المغفر / الروع الذي يغطي به الرأس.

(3) مروج الذهب 135 / 3.

(4) الطوي 202 / 7.

(5) البداية والنهاية 222، 229 / 8.

(6) مروج الذهب 138 / 3.

الصفحة 348

وأعطى عبد الملك للحجاج الجائزة، فأقامه واليا على مكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، واليمامة، ثم جمع له العواق بعد موت بشر بن مروان بالبصرة⁽¹⁾. وبدأ عبد الملك يعيد بناء البيت الذي قام بوميه من فوق الجبال، ولم يدخر عبد الملك جهدا في تشييد البيت وزخرفته. وهذا كله شاهد صدق على حركة التلويح. حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذارأيتم قویشا قد هدموا البيت ثم بنوه فزوقوه. فإن استطعت أن تموت فمت"⁽²⁾، والدعوة إلى الموت ليست دعوة إلى الانتحار، وإنما أن تختار الموتة، التي يكون لله فيها رضا. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "كيف أنتم إذا هرج الدين، فظهرت الرغبة، واختلف الإخوان، وحرقت البيت العتيق"⁽³⁾. وكيف أنتم أي كيف تكون حركتكم، التي تحبون. أن ينظر الله إليكم وأنتم عليها. إنه توجيه خاص، بأجيال القون الأول، لأن على خيرتهم سنأتي أجيال وأجيال.

وبعد أن شيد عبد الملك البيت وزوقه، أمر عبد الملك الحجاج أن يقتدي بعبد الله بن عمر في مناسك الحج⁽⁴⁾. وروي أنه لما مات عبد الله بن عمر، صلى عليه الحجاج بن يوسف⁽⁵⁾، وأن عبد الملك حج في بعض أعوامه، فأمر للناس بالعطاء. فخرجت بوة مكتوب عليها: "من الصدقة" فأبى أهل المدينة من قبولها. وقالوا: إنما كان عطائنا من الفئ. فقال عبد الملك: نعلم أنكم لا تحبوننا أبدا. وأنتم تذكرون يوم الحرة. نحن لا نحكم أبدا، ونحن نذكر مقتل عثمان⁽⁶⁾.

وعلى بساط البغض والحقد، دلت الأحداث. وفي نهايتها مات

(1) مروج الذهب 138 / 3.

(2) ابن أبي شيبة (كنز 251 / 11).

(3) ابن أبي شيبة (كنز 251 / 11).

(4) ثبت ذلك في الصحيحين راجع: فتح البري 195 / 13 ، البداية والنهاية 353 / 8.

(5) أسد الغابة 344 / 3.

(6) مروج الذهب 146 / 147 / 5.

الصفحة 349

عبد الملك بن مروان. وروي أنه وصى ابنه بالحجاج فقال له: انظر إلى الحجاج فإنه هو الذي وطأ لكم المنابر، وهو سيفك يا وليد، ويدك على من نلأك، فلا تسمعن فيه قول أحد، وأنت إليه أوج منه إليك، وادع الناس إذا مت إلى البيعة. فمن قال وأسه هكذا. فقل بسيفك هكذا (1). ولما احتضر عبد الملك دخل عليه ابنه الوليد فبكى. فقال عبد الملك: أتحن حنين الجارية. إذا أنا مت فشمروا نثر، والبس جلد النمر، وضع سيفك على عاتقك، فمن أبدى ذات نفسه لك، فاضرب عنقه، ومن سكت مات بدائه (2).

(1) تاريخ الخلفاء 205 / 1.

(2) تاريخ الخلفاء 205 / 1.

الصفحة 350

الصفحة 351

ما أشبه الليلة بالبلحة

الصفحة 352

الصفحة 353

أولا - رياح الفوعونية

لكل شئ في الوجود مقدمة، ولم يعد من المقبول أن نقف عند النتيجة ونقول: ما الذي جاء بهؤلاء؟ لأن الفطرة لا تسمح بهذا الشطط، ومعركة التلريخ تصوخ من حولنا ونقول: إن ثوة صغرة عند المقدمة، قد تؤدي إلى فيضان كبير عند النتيجة. ولم يعد مقولا أن نمر على الأحداث التلريخية بفكر يقدم أسوا الحلول، لأن الحقيقة لا تقبل إلا أن تكون كلمة الله هي العليا. فعند مقدمة ما، قتل الحسين بن علي، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "والذي نفسي بيده، لا تقتلوه بين ظهواني قوم لا

(1)

يمنعونه، إلا خالف الله بين صدروهم وقلوبهم. وسلط عليهم ثورهم وأبسهم شيئا " . ولقد جؤا وجلسوا فوق الرقاب عذابا واختبرا، وفي نولتهم يقول الإمام علي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "... تطول نولتهم حتى لا يدعون الله محرما إلا استحلوه، ولا يبقى بيت ولا مددولا وبر، إلا دخله ظلمهم. وحتى يكون أحدكم تابعا لهم، وحتى تكون نصوة أحدكم منهم كنصوة العبد من سيده. إذا شهد أطاعه، وإذا غاب سبه، وحتى يكون أعظمكم فيها - أي في نولتهم - غنا أحسنكم بالله ظنا، فإن آتاكم الله بالعافية فاقبلوا ⁽²⁾ ، فإن ابتليتم فاصبروا، فإن

(1) رواه الطبراني (الزوائد 190 / 9).

(2) فاقبلوا / أي تقدموا

الصفحة 354

العاقبة للمتقين ⁽¹⁾ . وتحت أعلامهم أتى الله بالعافية، فلم يقبل عليها إلا القليل، وتحت السيوف حبسوا وقتلوا وتأبى السماء أن تتوك قتلهم بغير عقاب.

وجاء الوليد بن عبد الملك كنتيجة لمقدمة، كما جاء فوعن موسى في الدولة الحديثة (1575 - 945 قبل الميلاد) هاضما للتجربة الفعونية كلها، منذ بدأت في العصور التريخية (2780 قبل الميلاد). فكان تجسيدا حيا للشنوذ الذي دونه آباءه في عالم الانحراف. وعلى امتداد تريخ الفوعون، غوست بنور لم تمت شجرتها بموت الفوعون، وإنما امتدت ظلال الشجرة لتشمل عصور الدولة الفوعونية المتأخرة (945 - 343 ق. م). ثم تمتد بعد ذلك إلى نولة الإغريق، ودولة الرومان، بعد اندحار نولة الفواعنة أمام الغواة الإغريق.

فالفواعنة كانوا في عالم الأموات، وشنوذهم له أعلام في عالم الأحياء. وفيهم يقول تعالى: (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) ⁽²⁾ . قال المفسرون: الدعوة إلى النار، هي الدعوة إلى ما يستوجب النار من الكفر والمعاصي. ومعنى جعلهم أئمة يدعون إلى النار، تعيبرهم سابقين في النار، يقتدي بهم اللاحقون. وقوله تعالى: (وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة....)، أي لكونهم أئمة يقتدى بهم من خلفهم في الكفر والمعاصي، لا زال يتبعهم ضلال الكفر والمعاصي، من مقتديهم ومتبعيهم، وعليهم من الأضرار مثل ما للمتبعين فيتبعهم لعن مستمر، باستوار الكفر والمعاصي بعدهم. فالآية في معنى قوله تعالى: (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) ⁽³⁾ .

فوعون امتص التجربة والوليد بن عبد الملك امتصها أيضا. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ليكون في هذه الأمة رجل

يقال له الوليد، لهو أشر

(1) رواه الطبراني ورجاله ثقات (الزوائد 191 / 9).

(2) سورة القصص: الآية 41 و 42.

(3) سورة العنكبوت: الآية 13.

على هذه الأمة من فوعون لقومه " (1) وقال ابن حزم: الوليد بن عبد الملك، كان يركب حملاً ويمشي في الأسواق، ويحتسب على البقالين وهو أحد الفواعنة (2).

والوليد ملأ الأمة رعباً، واعتمد لها بكرة فكرية مازالت تعمل حتى زماننا هذا، أما كونه الأمة رعباً، فلقد عده ابن حزم في المسرفين في الدماء (3).

وذكر غير واحد أن الوليد كان جبوراً عنيداً (4). وكان شديد السطوة لا يتوقف عند الغضب. ولا ينظر في عاقبة، وتهون عليه الدماء (5). وروي أن عمر بن عبد العزيز قبل أن يتقلد الخلافة وكان الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وعثمان بن حيلة بالحجاز، وقوة بن شريك بمصر. قال: امتلأت الأرض والله جيراً (6).

وعندما تقلد الوليد الخلافة قال: الحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا (7) وقال: أيها الناس، عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد. أيها الناس، من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه (8) وعاصفة الدماء التي أفرها الوليد، أشرف على تنفيذها الحجاج بن يوسف. وروي أن الحجاج وفد على الوليد بن عبد الملك، فلما رأى الوليد ترجل له وقبل يده، وجعل يمشي وعليه روع، وكنانة، وقوس عربية. فقال له الوليد: لركب يا أبا محمد. فقال له الحجاج:

دعني يا أمير المؤمنين استكثر من الجهاد، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني

(1) رواه الإمام أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 240 / 5، 313 / 7) ورواه البيهقي، (الخصائص الكبرى 227 / 2) (2) رسائل ابن حزم 71 / 2.

(3) رسائل ابن حزم 75 / 2.

(4) موج الذهب 192 / 3، البداية والنهاية 164 / 9.

(5) التنبيه والإشراف 290 / 1.

(6) تزيخ الخلفاء 208 / 1.

(7) البداية 70 / 9.

(8) البداية 70 / 9.

(1) عنك .

وسار الجراد وراء رفيق لا يطمع في أحسن منه، وفي هذا الوقت كان علي بن الحسين يقيم الحجة على أرضية ثقافة السب، ويتحرك تحركاً لا تمليه إلا الدعوة. وكان علي بن الحسين كما ذكرنا من قبل، راية هدى يعرفها الخاص والعام. وروي أن هشام بن إسماعيل، كان أحد ولاية الوليد بن عبد الملك على المدينة، وعندما عزله الوليد. مر به علي بن الحسين. فناده (2)

هشام قائلا: " الله يعلم حيث يجعل رسالته " . فالحجة ظاهرة. وفي نفس الوقت بيوت المال مفتوحة، والسيوف مرفوعة، والله ينظر إلى عباده كيف يعملون.

وفي الوقت الذي كانت فيه حجة الله ظاهرة، كان خدام الوليد، يرفعونه فوق مرتبة النوبة كما رفعوا والده من قبل. وروي عن نافع مولى بني مخزوم قال: سمعت خالد بن عبد الله القسوي يقول: على منبر مكة، وهو يخاطب الناس: أيها الناس. أيهما أعظم، خليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم؟ والله لم تعلموا فضل الخليفة. إن إبراهيم خليل الرحمن استسقاها فسقاها ملحا أجاجا.

واستسقى الخليفة فسقاها عذبا فاتا. قال ابن كثير: وهذا الكلام يتضمن كفا إن صح عن قائله. قد قيل أن الحجاج بن يوسف نحو هذا الكلام، من أنه جعل الخليفة أفضل من رسول الله الذي أرسله الله. وكل هذه الأقوال تتضمن كفر قائلها ⁽³⁾. ويبدو أن الوليد قد انتفخ بهذه الأقوال، كما انتفخ فوعون بأقوال الكهنة والرعا من قبل. فروي أن الوليد قال لإبراهيم بن أبي زرعة: أيحاسب الخليفة؟ فقال: يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أم دلوود. إن الله جمع له النوبة والخلافة، ثم توعدده في كتابه فقال: يا دلوود ⁽⁴⁾.

لقد كان الفوعون يدعي أنه ابن آمون، وأبناء آمون فوق المسألة، لما قال

(1) مروج الذهب 194 / 3.

(2) البداية 71 / 9.

(3) البداية 76 / 9.

(4) تاريخ الخلفاء 208 / 1.

الصفحة 357

هامان، وكهنة التوقيع والتلجيم والاحتناك، على امتداد التاريخ الفوعوني الذين دونوا شذوذ الانحراف تحت أعلام، حور، روع، وآمون روع، وغير هؤلاء من أعلام الشيطان والدجل ⁽¹⁾. وها نحن قدرأينا الوليد يجلس على أفخم كرسي، وهو لا يعلم هل يحاسب الخليفة أم لا. وقد وصفه الذهبي في نول الإسلام، بأنه: كان دميما، سائل الأنف، يختال في مشيته، قليل العلم ⁽²⁾، وقال ابن كثير: كان لا يحسن العوبية، فجمع جماعة من أهل النحو فأقاموا عنده سنة. وقيل: ستة أشهر. فخرج يوم خرج أجهل مما كان ⁽³⁾. وفوعون موسى كان أشد جهلا، فهو الذي طلب من هامان أن يوقد له على الطين، وأن يجعل له صرحا كي يطلع إلى إله موسى. ولقد شهد الله بجهل فوعون فقال: (وأضل فوعون قومه وما هدى) ⁽⁴⁾. ومن دائرة الجهل قاد فوعون المسورة، ولكن بأعلام الدين، فقال لقومه وهو يصد عن السبيل طمعا في أن يبعدهم عن دعوة موسى عليه السلام: (إني أخاف أن يبديل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) ⁽⁵⁾.

وقام بتفسير قومه من خط موسى، وهارون عليهما السلام فقال: (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) ⁽⁶⁾. وعلى طريق فوعون سار الرعا، (فاتبعوا أمر فوعون وما أمر فوعون برشيد) ⁽⁷⁾.

ورفعت أعلام وصيحات الوعونية (قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحووا نساءهم) ⁽⁸⁾ . وذهب فوعون وقومه . ثم جاءت الأيام على امتداد التلرخ لتحمل معالمهم، لأن الاستخلاف من سنة الوجود لينظر الله كيف تعملون، وكما أن الأيام تتشابه، فكذلك تكون القلوب (كذلك قال الذين من

(1) الخوف والجوع / للمؤلف - تحت الطبع.

(2) دول الإسلام / الذهبي 55 / 1 .

(3) البداية والنهاية 161 / 9 .

(4) سورة طه: الآية 79 .

(5) سورة غافر: الآية 26 .

(6) سورة طه: الآية 63 .

(7) سورة هود: الآية 97 .

(8) سورة غافر: الآية 25 .

الصفحة 358

قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون) ⁽¹⁾ . وتحت مظلة الأيام تختبر القلوب على امتداد التلرخ الإنساني... (وتلك الأيام ندولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء) ⁽²⁾ ، وكما كان في عالم الفوعون ابتلاء، كذلك كان في عهد الوليد بن عبد الملك امتحان، فالوليد جلس على كرسي الحكم أحد عشر سنة تقريبا، وقبل وفاته بستة أشهر، مات فواعه الأيمن الحجاج بن يوسف الثقفي. وكان عد من قتله الحجاج صوا، سوى من قتل في زحوفه، وحروبته مائة ألف وعشرين ألفا ⁽³⁾ . وروي أن الحجاج مات وفي حبسه خمسين ألف رجل وثلاثين ألف امرأة ⁽⁴⁾ . منهن ستة عشر ألفا مجردة ⁽⁵⁾ . وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد ⁽⁶⁾ .

1 - تشابه القلوب:

إذا كان الوليد قد ارتكب الحرائم، التي ارتكبها آباءه من قبل، وزاوا عليه أنهم اقتحموا المساجد ورموا الكعبة وقتلوا الذين اشوى الله أنفسهم. فماذا كان الوليد من دونهم جميعا الذي وضع في دائرة الفوعون، وكان خطوه على الأمة أشد من خطر فوعون على قومه؟ في البداية نقول: إن القوان الكريم أشار إلى أن الرسالة الخاتمة جاءت لتخاطب الجميع، وعلى رأسهم الفواعنة الجدد. ولعلمه سبحانه أن الفواعنة الجدد سيسحقون شعوبهم، ويتخذون مال الله هولا، ودين الله دخلا، وعباد الله هولا، جعل خطاب الرسالة الخاتمة موجه إلى الفواعنة وشعوبهم بمعنى أنه خاطب الشعوب باعتبار أن منهم الفواعنة، وخاطب الفواعنة على اعتبار أنهم يمسون بوقبة شعوبهم. فالشعوب والفواعنة جزء واحد في

(1) سورة البقرة: الآية 118 .

(2) سورة آل عمران: الآية 140.

(3) التنبيه والإشراف 290 / 1.

(4) المصدر السابق 291 / 1.

(5) المجردة / التي زع شوها.

(6) مروج الذهب 204 / 3.

الصفحة 359

جسد واحد، قال تعالى: (إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فوعن رسولا * فعصى فوعن الرسول فأخذناه أخذاً وببلا) ⁽¹⁾.

فالخطاب لجبارة قویش، ولم يقل لهم مثلاً: كما أرسلنا إلى مدين رسولا، أو إلى ثمود رسولا، وإنما قال: (كما أرسلنا إلى فوعن رسولا)، لقد وضعهم في كفة النمط البشري المستكبر الذي يتسلق من أجل العلو في الأرض.

وليس معنى هذا أن المجتمع القوشي كله في صدر الدعوة كان يحمل البصمة الفوعونية، لأن مجتمع فوعن موسى كان به مؤمن آل فوعن والسيدة آسية وفي هذا كفاية، لأن الدعوة لا تقاس باللحوم وكثرة العدد وإنما تقاس بالصدق والثبات على المبدأ. فقویش كانت تقف في الصدر الأول على أرضية الفواعنة.

وهم على نفس الأرضية خاطبهم القآن، وذكرهم أن فوعن عصى الرسول وخطه المتمثل في هارون. ولما كانت المقدمة تحمل عصيان فإن النتيجة جاءت بالأخذ الوبيل.

والوليد بن عبد الملك كما ذكرنا كان الشخص الذي امتص التجربة كلها، داخل النفسية القوشية المتمثلة في الظالمين من بني

أمية. وإذا كنا قد علمنا أن أوتاد الخيمة الفوعونية القديمة تقويم على أرضية مصالح الفوعون. والتي هي نفسها مصالح الدائرة

الفوعونية من كهنة وغوغاء ورعاع. وأن أهم هذه الأوتاد قول فوعن (يا أيها الملاء ما علمت لكم من إله غوي) ⁽²⁾. وأن

فوعن بقوله هذا قام بتعطيل منهاج الفطرة، وجعل من نفسه مصورا للتشريع. ثم قوله: (ما أريكم إلا ما أرى) ⁽³⁾، قال

المفسرون: أي ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي. وإنه على يقين مما يهدي إليه قومه..... وأنه بهذا القول جعل من

مقعده حيث الجهل والظلام منوا للعلم، وأن هذه الأوتاد ما كان لها أن تقوم إلا على أرضية ثقافية استخفت بالعقول على

دروب المتاحوة بالدين. ألم يقل لهم:

(1) سورة المزمّل: الآية 15 - 16.

(2) سورة القصص: الآية 38.

(3) سورة غافر: الآية 29.

الصفحة 360

(إني أخاف أن يبديل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) ⁽¹⁾. فطويقه إلى عقولهم كي يستخفهم كان يحمل عنوان الدين

الذي التقى مع أهوائهم.

إذا كنا قد علمنا ذلك من سورة الفعون كما قصها القرآن الكريم، وعلمنا أيضا أن هذه الحركة الفعونية كانت تجري على أرضية الفتنة، لقوله تعالى:

(فما آمن لموسى إلا نوية من قومه على خوف من فعون وملأهم أن يفتنهم) ⁽²⁾ ، فإن الوليد بن عبد الملك الذي امتص تجربة بني أمية وضع هو وقائمة المنتفعين والمتسلقين معه منهجا يلتقي في خطوطه العريضة مع المنهج الفعوني الذي يقوم على قوله: (ما أريكم إلا ما أرى) ⁽³⁾ . وهذا المنهج دخل إلى الغالب الأعم في الأمة كما دخل إلى قوم فعون من قبل، وذلك لأنه دخل من باب قوله: (إني أخاف أن يبديل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) ⁽⁴⁾ ، وكانت حركة منهج الوليد تستقيم مع حركة المنهج الفعوني في اتجاه الفتنة يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: (هو الذي أتول عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) ⁽⁵⁾ .

ولقد ذكرنا من قبل أن القرآن الكريم كتاب طاهر ولا يمسه بتأويل إلا طاهر، وهذا الطاهر لا بد أن يكون بنص وإلا ادعى كل إنسان الطهارة. وذكرنا أن أجر الرسالة الخاتمة لا يصب إلا في وعاء مودة ذي القوي، وأن دائرة ذي القوي دائرة لها رأس. وكما أن لكل قوم سادة حتى النحل له سادة، كذلك دائرة ذي القوي فإن لها سادة يرتبطون بالقرآن ولا ينفصلا حتى يردا على الحوض.

فهل لرفعهم الله يعلمهم درجات، بمعنى أنهم يمتازون عن بقية الأمة بعلمهم

(1) سورة غافر: الآية 26.

(2) سورة يونس: الآية 83.

(3) سورة غافر: الآية 29.

(4) سورة غافر: الآية 26.

(5) سورة آل عمران: الآية 7.

الصفحة 361

الذي رفعهم به الله درجات، فإذا ذهب العلم، لأن ذهاب العلم ذهاب حملته ويترتب على ذلك التيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: " مثل العلماء في الأرض، مثل النجوم في السماء، إذا ظهرت ساروا بها وإذا تورلت عنهم تاهوا " ⁽¹⁾ . فالعلماء تحت سقف الأمة شربوا من علوم دائرة ذي القوي وساروا بمشاعلهم حتى لا يسقطوا في حفر الفتن يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

" النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي " ⁽²⁾ . فتحت مشاعل أهل البيت يكون الأمان من الفتن ومن كل مكروه،

لأنهم مع كتاب الله الهادي ثقلين في حبل واحد. يقول الزرقاني في شوح المواهب: أما الكتاب فلأنه معدن العلوم الدينية، والأسوار والحكم الشوعية، وكنوز الحقائق، وخفايا الدقائق.

وأما العزة، فلأن العنصر إذا طاب أعان على فهم الدين، فطيب العنصر يؤدي إلى حسن الأخلاق، ومحاسنها يؤدي إلى صفاء القلب وزاهاته وطهرته (3).

وقال صاحب التاج الجامع للأصول: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

" احسنوا خلافتي فيهما باحزّامهما، والعمل بكتاب الله وما واه أهل العلم من آل البيت أكثر من غورهم " (4).

فإذا كنا قد علمنا ذلك، وعلمنا كيف حارب أهل البيت حتى لا يقوموا في الأمة بالعمل الذي يستقيم مع مرتبة العلم التي فضلهم الله بها وبغورها، وكيف قتل أمير المؤمنين الذي عليه نص بأنه يقاتل على التأويل حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فإذا كنا قد علمنا هذا وغره على امتداد هذا الكتاب، فلم يبق إلا أن نقول إن ذهاب العلم، وذهاب حملته، يفتح الطريق أمام الذين يبتغون الفتنة. ولدينا العديد من النصوص التي تقول بأن حركة بني أمية ما هي إلا حركة فتنة على طريقها رفع أعلام أغيلمة وسفهاء قريش الذين يتخونون ما الله بولا، وعباد الله خولا، ودين الله دخلا. وفي عالمهم يقتل المتقين، وتضيع الصلاة،

(1) رواه الإمام أحمد (كشف الخفاء 405 / 2) (2) رواه أبو يعلى (كشف الخفاء 436 / 2)، (كنز العمال 102 / 12).

(3) شرح المواهب 2 / 8.

(4) التاج الجامع للأصول 1 / 48.

الصفحة 362

ويؤاؤ القآن خلف لا يجاوز واقبيهم، ويكون القتال فيه على الملك. فعلم الفتن إنتاج طبيعي لمقدمة ذهب فيها العلم. ومعنى: ذهب فيها العلم. أنه لا يوجد إلا في المكان الذي ذهب إليه. ومشاعله لا توجد إلا في المكان الذي تولت فيه.

2 - دأوة الرؤية الفوعونية:

والوليد بن عبد الملك الذي وصف بأنه " قليل العلم " (1)، وأنه كان " لا يحسن العربية، وجمع أهل النحو فأقاموا عنده فخرج يوم خرج أجهل مما كان " (2)، الوليد هذا كان رأس دأوة تتأول كتاب الله على طريق الفتنة، كما تأول فوعون صفحة الوجود فنأدى " ما أريكم إلا ما أرى "، وكما التقط الفوعون الواد من وراث آباءه. كذلك فعل الوليد بن عبد الملك. لقد كانت دأوة القدر أهم دأوة تجول فيها بني أمية والتقطوا منها كل ما يستقيم مع أعمالهم، ثم قذفوا بما التقطوه إلى علمائهم ليتأولوه، ويضعوا عليه رداء الدين ليعبر إلى الغالب الأعم من الأمة بكل سهولة وبكل يسر. والكلام في القدر كلام قديم. قال تعالى:

(سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم ألا تخرصون) (3). يقول الألوسي في تفسيره: ولم يربوا بهذا الكلام الاعتذار عن ارتكاب القبيح... بل هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وأنهم يعبدون الأصنام لتقريبهم إلى الله زلفى، وإن ما ارتكبه حق ومشروع، ورضي الله عنه بناء على أن المشيئة والإرادة تسلي الأمر وتستلزم الوضا. فيكون حاصل كلامهم: إن ما ارتكبه من الشوك والتحريم وغورهما مما تعلق به مشيئة الله وإرادته، وكل ما تعلق به مشيئة الله وإرادته فيه مشروع

(1) دول الإسلام / الذهب 208 / 1.

(2) ابن كثير (البداية والنهاية 161 / 9).

(3) سورة الأنعام: الآية 148.



موضي عنه (1) . ولقد رد عليهم الوآن الكريم وبين أن الذين من قبلهم قالوا مثل قولهم فذاقوا العذاب، والعذاب لا يكون نتيجة لفعل رضي الله عنه.

ثم بين أن قولهم لا يستند إلا على الوهم والخيال. وتحداهم إن كان عندهم علم بهذا فليخرجوه. ولقد أراد طاوور الشرك في مكة أن ينسج من مسائل القدر عقبات أمام الرسالة الخاتمة، ولكن الوآن الكريم أطاح بنسجهم في آيات كثرة ومنهم أيضا قوله تعالى: (وقال الذين أشكروا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ولا أبؤنا ولا حرمنا من دونه شيء)، ثم صوف الله تعالى الخطاب عنهم لسقوط فهمهم وقال لنبيه: (كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين * ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (2) ، قال المفسرون: فكأنهم يقولون: لو كانت النواهي التي جاءت بها الرسالة حقة، وإن النواهي لله سبحانه، كان الله سبحانه شاء أن لا نعبد شيئا غوه، وأن لا نحرم دونه شيئا، ولو شاء الله سبحانه أن لا نعبد غوه ولا نحرم شيئا، لم تعبد ولم نحرم لاستحالة تخلف مراده عن رادته، لكننا نعبد غوه، ونحرم أشياء، فليس يشاء شيئا من ذلك، فلا نهى ولا أمر منه تعالى، ولا شريعة ولا رسالة من قبله.

هذا توير حجتهم على ما يعطيه السياق ومعوى مرادهم. إن عبادتهم لغير الله وتحريمهم لما حرموه، وبالجملة عامة أعمالهم، لم تتعلق بها مشيئة من الله ينهي، ولو تعلق لم يعملوها. ثم قال تعالى لنبيه: (كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسول إلا البلاغ المبين)، خطاب للبي يأوه تعالى أن يبلغ رسالته بلاغا مبينا، ولا يعتني بما لفقوه من الحجة، فإنها داحضة والحجة التامة عليهم بالبلاغ. فالذين من قبلهم قالوا بهذا ولو كان قولهم صحيحا ما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم. وهؤلاء ركوا سنن الذين من قبلهم وقالوا قولهم، ولقد رسل الله لهم رسولا ليزيل من عقولهم بصمات سلفهم الضال. فالبلاغ حجة

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية / محمد أبو زهرة 99.

(2) سورة النحل: الآية 35 - 36.

عليهم بأن حركتهم نحو الأصنام والطاغوت حركة ليس لله فيها أي نصيب.

لقد كان القول القدر يدور في إحياء المشركين عند بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وبعد النبي حمل تركه القول بالقدر طاوور النفاق وجميع تيلوات الهدم والصد عن سبيل الله. وظهر القول بالقدر في عصر عمر بن الخطاب عندما دخل أبحار اليهود في الإسلام، وعندما اتسعت دائرة الفتوحات وتسربت المفاهيم الغير إسلامية إلى ديار المسلمين، ولما جاء عصر الإمام علي، واجه الإمام هذه التيلوات... روي أن الإمام علي عند مسوه إلى صفين قيل له:

أخبرنا عن مسونا إلى صفين أكان بقضاء الله وقوه؟ فقال: والذي فلق الحبة، ووأ النسمة، ما وطأنا موطنًا، ولا هبطنا واديا، إلا بقضاء الله وقوه. فقال السائل: فعند الله أحتسب عناية، ما رى من الأجر شيئا. فقال الإمام: مه أيها الشيخ: لقد عظم الله أركم في سركم وأنتم سائرون، وفي منصوكم وأنتم منصوفون، ولم تكونوا في شيء من أهوالكم موهين ولا

مضطرين، فقال الشيخ: وكيف القضاء والقدر ساقنا؟ فقال الإمام: ويحك، لعلك ظننت قضاء لازما وقورا حتما، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنهي. ولم تأت لائمة من الله لمذنب. ولا محمداً لمحسن. ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسئ. ولا المسئ أولى بالذم من المحسن. تلك مقالة عباد الأوثان، وجنود الشيطان، وشهود الزور أهل العمي عن الصواب. وهم قنوية هذه الأمة ومجوسها. إن الله أمر تخيراً ونهى تحذيراً، وكلف تسييراً، ولم يعصه مقلوباً، ولم يطع كلها. ولم يرسل الوصل إلى خلقه عبثاً، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً. ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار.

فقال الشيخ: فيما القضاء والقدر اللذان ما سونا إلا بهما؟ فقال الإمام: هو الأمر من الله تعالى والحكم، ثم تلا قوله تعالى: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) (1).

وروي أن سائلاً قال للإمام علي: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر. فقال

(1) الصواعق / ابن حجر ص 130.

الصفحة 365

الإمام: يا سائل. إن الله خلقك كما شاء أو كما شئت؟ قال: كما شاء فقال الإمام: إن الله يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما يشاء؟ قال: كما يشاء، فقال الإمام: يا سائل. ألك مشيئة مع الله أو فوق مشيئته. أو دون مشيئته. فإن قلت مع مشيئته، أذعيت الشوكة معه، وإن قلت دون مشيئته، استغنيت عن مشيئته وإن قلت فوق مشيئته كل مشيئتك غالبية على مشيئته. ثم قال الإمام: يا سائل.

ألست تسأل العافية؟ قال السائل: نعم، فقال الإمام: عن ماذا تسأله العافية؟

أمن بلاء هو ابتلاك به، أو من بلاء غيره ابتلاك به؟ قال الرجل: من بلاء ابتلاني به. فقال الإمام: ألست تقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال السائل: بلي، فقال الإمام: أتعرف تفسوها؟ قال: لا يا أمير المؤمنين علمني مما علمك الله. فقال: تفسوه إن العبد لا قوة له على طاعة الله ولا على معصيته. يا سائل، إن الله يسقم ويدوي، منه الداء ومنه الدواء، ثم قال: لو وجدت رجلاً من أهل القدر لأخذت بعنقه ولا زال أضربه حتى أكسر عنقه، فإنهم يهود هذه الأمة (1) وظلت تيارات القول بالقدر تحفر في جدار الأمة حتى بعد وفاة الإمام علي. روي أن الإمام الحسن بن علي بعث برسالة إلى قوم من أهل البصرة ادعوا الجبر فقال: من لم يؤمن بقضاء الله وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه عليه ربه فقد كفر. إن الله لا يطاع استكراها، ولا يعصى لغلبة، لأنه المليك لما ملكهم، والقادر على ما أقوهم عليه. فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء لحال بينهم وبين ما فعلوا. فإن لم يفعلوا، فليس هو الذي أجوهم على ذلك، فلو أجبر الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب.

(2) ولو أجوهم على المعاصي، لأسقط عنهم العقاب.

فهذا الكلام صادر من عند سادة أهل البيت، فإذا ذهب العلم الذي إذا ضبط البرء حدوده خصم من خالفه. ومع بروز

(1) تاريخ الفرق الإسلامية / محمد خليل الزين ص 73.

(2) (تاريخ الفرق الإسلامية / محمد خليل الزين 70.

الصفحة 366

بالمقتال على الدنيا، وتقوى المسلمون أثر السياسة التي اتبعتها الدولة، وضعف أمر الدين وتغلّبت المطامع والأهواء على عقول المسلمين، وصدت الدولة كل دعوة تدعو المسلمين للاحتفاظ بعقيدتهم الحقّة، ووقف العامة والغوغاء حائزاً أمام الدعاة المصلحين الذين دعوا الأمة للتمسك بسيرة السلف الصالح من المهاجرين والأنصار. وكان الرعاع دعاة سوء. وملتقى كل من يريد هدم الإسلام، وحولوا القوة التي حصنها الإسلام لصالحهم الخاص، وجرّوا السيف على رقاب الأئمة والقادة والعلماء لأنهم لم يسيروا في ركابهم.

وعندما اشتغل المسلمون بالفتن الداخلية، وجانبوا تعاليم القوّان، اندس بين المسلمين رجال دخلوا في الإسلام من فوس ونساطرة ويعاقبه ويهود، وتريّفوا زي العلماء وأظهروا المحافظة على تعاليم القوّان. ثم أدخلوا عقائدهم السابقة من القول بالحلول والقدر والجبر في عقيدة المسلمين، وفسروا آيات كتاب الله حسب ما يؤيد ما يذهبون إليه. ففريق أخذ بظاهر تلك الآيات، وفريق آخر أولها، فنشأت القدرية في ثوبها الجديد، وبالغ القوي في القدر، فجعل العبد خالفاً لأفعاله، وبالغ الجوي في مقابلته فسلب عنه الفعل والاختيار، وبالغ المعطل في التّزويه فسلب عن الله صفات الجلال ونعوت الكمال، وبالغ المشبه في مقابلته، فجعله كواحد من البشر له وجه ويدين⁽¹⁾.

وهكذا عصفت رياح الفتن داخل الجماجم البشوية في الدولة الأموية التي قاتلت أصحاب العلم وجوّوا بما قاله المشوكون عند البعثة النبوية ولكن في ثوب جديد راق. ولقد اتفق العلماء كافة على أن القول بالقدر شاع في الدولة الأموية، وأن الدولة احتضنت هذا التيار وتبنته حتى تروّع على توبتها⁽²⁾، وفكوة القضاء والقدر التي طرحتها أجهوة الصد عن سبيل الله هدفها وضع العالم في حوة واضطراب فكري، ينتج عن ذلك عدم تقديس الشوائع، وعدم التقيد

(1) المصدر السابق 42.

(2) راجع: تليخ المذاهب الإسلامية / محمد أبوزهوة ص 104 - 111 ، وتليخ الفرق الإسلامية / خليل الزين ص

.66

الصفحة 367

بنواميسها، وإلى لتكاب المحظورات التي حظرتها الديانات السماوية بحجة أنها بقضاء الله تعالى. واحتضان الدولة الأموية لهذا التيار الهدف منه التعيم على ما ورد في شأنهم، وخضوع المسلمين لهم بحجة أن قيادتهم مفروضة عليهم بقضاء الله وقوره، وأن أي تنود عليهم هو تنود على قضاء الله وعن أول من قال بالجبر في ثوبه الجديد يقول الشيخ محمد أبوزهوة:

إننا نجزم بأن القول في الجبر شاع في أول العصر الأموي وكثر حتى صار مذهبا في آخوه... وقد قالوا إن أول من فعل ذلك بعض اليهود، فقد علموه بعض المسلمين وهؤلاء أخوا ينشرونه. ويقال إن أول من دعا إلى هذه النحلة من المسلمين " الجعد بن زهرم "، وقد تلقاه عن يهودي بالشام، ونشوه بين الناس بالبصرة. ثم تلقاه منه " الجهم بن صفوان " (1)، ولم يكن الجهم يقول بالجبر يقول بالجبر فقط بل إن جهما كان يدعو إلى رأي آخرى (2)، تتعلق بالجنة والنار، ورؤية الله يوم القيامة وغير ذلك. وهكذا تشابكت فروع الشجرة الأموية مع فروع شجرة أهل الكتاب. بعد أن التقطوا منهم فكرة الجبر في ثوبها الجديد، لأنها تتلائم ومبادئهم السياسي. ومن المعلوم أن الشام عاصمة الخلافة الأموية كانت متبعا للديانات والآراء المختلفة. كان الأمويون يتسامحون مع رؤوساء الأديان، ويعقنون مع القياصوة معاهدات الصلح ليتوخوا للمسلمين في قتالهم على الملك. وفي أثناء هذه المعاهدات كان الأحرار الجدد يتسللون لتكملة بناء الأحرار الأوائل. وكان الأمويون يقربون الأحرار إليهم. ومن الثابت أيضا أن سرجون النصواني كاتب معاوية ومن بعده يزيد ثم مروان بن الحكم (3)، وكاتم أسوار الدولة الأموية كان على رأس الجبرية (4).

فالدولة الأموية باتفاق جميع علماء الفرق تبنت تيار الجبرية، لأن تحت

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية ص 102، تاريخ الفرق الإسلامية / محمد خليل ص 68.

(2) تزيخ المذاهب الإسلامية 106.

(3) (التنبيه والإثواف / المسعودي 285 / 1.

(4) (تزيخ الفرق الإسلامية / الأزين ص 69.

الصفحة 368

خيمتهم لا تظهر عورات بني أمية، وعلى مناوهم يجد فقهؤهم أبوابا للخروج من كل مرق. فإذا قيل لهم لماذا قاتلتم عليا ثم قمتم بسببه بعد ذلك؟ أو لماذا قاتلتم حجر بن عدي واستلحقتهم زياد وقتلتم الحسين؟ أو لماذا اجتحم المدينة يوم الحرة ثم توجهتم إلى مكة لرميها بالحجارة، أو لماذا استخدمتم مال الله لولا وعباد الله خولا ودين الله دخلا وضيعتم الصلاة؟. فإذا قيل لهم هذا أو غيره قالوا: كل هذا بقضاء الله وقدره. وعلى هذا أجمعت الأمة. فمن أبي فالسيف.

ولما كانت الدولة الأموية قد أخذت الخطوة الرسمية في اتجاه سنن الذين خلوا من قبل، فإن أهل الكتاب قد أخوا خطوة إضافية تتفق مع أهدافهم التي يسرعون من أجل تنفيذها في الفساد، فقاموا بتغذية الساحة بتيار مضاد لتيار الجبرية لسبب رئيسي هو وضع المسلمين في حلقة من الحرة والاضطراب الفكري حتى لا يصلوا إلى الحقيقة التي تغذي الفطرة. في التيار الذي قذفوا به هو تيار القرية وهذا التيار يعمل تحت عنوان: إن كل فعل للإنسان هو رادته المستقلة عن رادة الله سبحانه وتعالى (1). وهذا العنوان يعرض تيار الجبرية معرضة تامة. فبينما تقوم الجبرية على تحجر الإنسان والوقوف كحجر عثرة أمام سعيه ونضاله وتدعو الإنسان للخضوع والاستسلام لأولياء الأمر، بدعوى أن الله قدر عليهم رألا. أن يكونوا محكومين

للطغاة، وكما قال الشاعر:

هوى قلم القضاء بما يكون * سيات منك التحرك والسكون

(2) جنون منك أن تسعى لوزق * ويزرق في غشوته الجنين

فإن تيار القدرية يعمل على الخط المقابل، والهدف من وراء ذلك العمل على اشتغال الساحة وفي جميع الحالات فالنتيجة لصالح أهل الكتاب. ويقول الشيخ أبو زهرة عن أول من تكلم في القدر ووضع وتد هذا التيار على أرض الواقع: أول من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصوانيا، فأسلم ثم تنصر. وأخذ عنه معيد الجهني، وغيلان

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية ص 111، تاريخ الفرق الإسلامية ص 79.

(2) (تاريخ الفرق الإسلامية / الأين ص 81.

الصفحة 369

(1) ⁽¹⁾ وأخذ بني أمية من هذا التيار كل ما يتفق مع طروحاتهم السياسية فيما يتعلق بالخلافة والأسماء والصفات، ثم تصورا بعد ذلك لأتباع هذا التيار فقتل منهم من قتل وهرب من هرب. ولكن المذهب لم يمت بل دام بعد ذلك في البصرة قرونا طويلة فوخ فيها، بل تحول عند طائفة منهم إلى ما يشبه مذهب الثنوية الذين جعلوا العالم محكوما بقوتين النور والظلمة ⁽²⁾ .

وظلت طائفة الجبوية رافعة لأعلامها التي لا تطولها أعلام، وظلت تتقدم لجعل دين؟ الله دخلا ولا اتخاذ عباد الله خولا، وكانت في تقدمها تؤدي ثياب الدين وفي يدها سيف فوعن. وفي هذا الوقت الذي واهمت فيه الأفكار ظهر بالساحة أسئلة تبحث لها عن إجابات مثل: هل مرتكب الكبوة مؤمن أم غير مؤمن؟ وهل يضر مع الإيمان ذنب؟ وكان مصدر هذه التسؤلات تلك الحرائم البشعة التي ارتكبتها الخلفاء والأمرء ابتداء من مقتل الحسين، ومرورا باجتياح المدينة، وانتهاء برمي الكعبة.

فجميع هذه الحرائم تتم باسم الدين، والفتوة السوية ترفض جميع التبروات والتوقيعات التي تدافع هذه الأعمال الوحشية.

وأمام هذه الأسئلة برز تيار " الموجئة " لبياشر عمليات التكميم والتعمية. وبنور الموجئة وضعت في عهد عبد الملك بن مروان ⁽³⁾ . ثم احتضن الوليد بن عبد الملك هذه البنور تحت إشراف أهل الكتاب، حتى توع شعورها ثم أصبح غابة. وذهب

العديد من العلماء إلى أن بنور وضعها الصحابة الذين اعتزلوا أحداث عثمان، ولم يشركوا في القتال بين أمير المؤمنين علي ومعاوية أمثال: سعيد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأبو بكر ⁽⁴⁾ . فهؤلاء الصحابة يقول النووي في موقفهم: إن القضايا

كانت بين الصحابة مشبهة، حتى أن جماعة منهم تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفين، ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب ⁽⁵⁾ .

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية ص 112، تاريخ الفرق الإسلامية ص 40.

(2) (تاريخ المذاهب الإسلامية ص 117.

(3) رسائل ابن حزم ص 163.

(4) (تاريخ المذاهب الإسلامية ص 120.

(5) (تاريخ المذاهب الإسلامية ص 120.

وقالوا إن هؤلاء الصحابة الذين اعتزلوا الطائفتين، رُجئوا الحكم في أي الطائفتين أحق، وفوضوا أمرهم إلى الله تعالى، وعلى هذا تكون هذه الطائفة من الصحابة أول من وضع بؤة الإرجاء.

ومن وجهة نظري فأنا لا أوافق على هذا التصور، لأن من الصحابة من تأول الأحداث بصورة خاطئة ثم ندم بعد ذلك. ومنهم من كان يخاف من سيوف الجلادين، ويعلم أنهم سيجلسون على الكراسي الأولى في نهاية الأحداث كما أخبر النبي. فأثر الصمت والسكون ومنهم من اكتفى بمراقبة الأحداث من بعيد، خوفاً على رأسه من سيف أبي الحسن في الوقت الذي كان يحشد فيه الناس ليقفوا وراء معاوية. وبالجملة: لم يكن هناك لرجاء، وإنما كانت هناك مصالح.

ولا يوجد صحابي اعتزل القتال إلا وهو يعلم أن علياً كان صاحب الحق في جميع معركته التي خاضها. ولا يوجد صحابي وضع علياً في كفة ومعاوية في كفة لوى أيهما أرجح. فأين الإرجاء والنبي صلى الله عليه وسلم ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهلها، والأحداث في عهد الصحابة كان فيها من الله وهان يجذب العقل إليه ويدعوه إلى التمييز؟ والقول بأن الصحابة كانوا يخافون من الوقوع في الفتن فلُرجئوا الحكم في الأحداث إلى الله تعالى، لا يتعادل من أصناف الفتن، يقول تعالى: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) ⁽¹⁾ فهل خافوا من الوقوع في هذه الفتن؟ إن التاريخ لم يسجل ذلك للكثير منهم. فلماذا خافوا هناك ولم يخافوا هنا. ثم كيف يهربون من الفتن وتحت سقفها يختبر الله تعالى عباده، قال تعالى: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ⁽²⁾.

إن الله تعالى يبتلي ما في الصدور، ويمحص ما في القلوب بأحداث تجري على صفحة الوجود. ومخاصمة الفتن في القون الأول لا يستقيم مع حركة هذا الوجود، لأن هناك أحداث لا بد فيها من القتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين

(1) سورة التغابن: الآية 15.

(2) سورة العنكبوت: الآية 2 - 3.

كله الله، وهناك فتن يقذف بها تيلات الهدم، فلا بد من التصدي لها وكشف أوتاد النفاق فيها ⁽¹⁾. والمال والبنون لا يمكن مخاصمتها وهما من الفتن، إنما يتم التعامل معهما بميزان الله تعالى. إن المخاصمة لا يستقيم مع حركة الوجود، والذي يستقيم هو التعوذ من مضلات الفتن.

وعلى ما سبق لا نوافق بأن توضع بؤة الإرجاء على أرضية اعتزال الصحابة أيام قتال أمير المؤمنين علي ومعاوية، لأن التاريخ يشهد بأن هذه البؤة وضعت من أجل احتتاك الكثير من عباد الله، ولتتعانق شجرتها مع شجرة الجبرية في ليل واحد. وبؤة العرجة أمام الناقد البصير شربت من نفس الماء الذي شرب منه الجبرية، وصبت ثملها في سلتهم بصورة أو بأخرى. لقد دخلوا من باب الفلسفة، والفلسفة عندما تكون أجوبتها عقلية أو منطقية، تولد عن الإنسان قناعة فكرية بما سمع. أما إذا جعلت الجمود لها مادة والمتاهات لها ديار، ثم دخلت من باب القضاء والقدر، فهنا تكمن الكثرة. لأن هناك الكثير من بني

الإنسان يؤثر عليهم الكلام في القضاء والقدر، وينتهي بهم التفكير في مسائله إلى عدة طرق: إما متشائمين، وإما مستسلمين، أو مضطربين فكراً أو سلوكاً. وهذا التفكير يدفع بأصحابه في أحد طريقتين: إما طريق الاستسلام للقدر نتيجة لفهمهم الخاص، وإما أن ينسوا إلى الله تعالى الظلم أو يكفروا به مطلقاً، أو يكفروا به وهم لا يشعرون. وإذا كان بنو أمية وأهل الكتاب هم الذين يشرفون على مطبخ الفلسفة فلا خير يرجى من عندهم.

لقد التقط الوليد بن عبد الملك بؤة الإرجاء التي تركها له والده⁽²⁾. ومن الذين جهزوا وزودوا تيار الإرجاء يوحنا الدمشقي، الذي كان يتمتع بشهرة كبيرة في عاصمة الأمويين، وكان يقوم ببحوث دينية في الوقت الذي كان الناس يتحدثون فيه عن الإرجاء⁽³⁾، ولقد ذكر أكثر من واحد أن هناك صلة بين مبادئ

(1) روي عن علي أنه قال: " لا تكرهوا الفتنة في آخر الزمان فإنها تبيير المنافقين " رواه أبو نعيم كثر العمال 189 / 11.

(2) رسائل ابن حزم ص 163.

(3) حياة الشعر في الكوفة / د. يوسف خليف ص 312.

الصفحة 372

المرجئة، وبين تعاليم الكنيسة الشرقية التي ينتمي إليها يوحنا الدمشقي⁽¹⁾. هذا عن الأصابع التي وراء تيار المرجئة. أما عن ظروف ظهور التيار يقول د. خليف: إن زعة الإرجاء اشتدت في الفتوة التي تبدأ من مصوع الحسين، وتمتد إلى خلافة عمر بن عبد العزيز - أي فتوة يزيد، ومروان، وعبد الملك والوليد، وسليمان بن عبد الملك - ومن الطبيعي أن تشتد زعة الإرجاء في هذه الفتوة. لأنها فتوة اضطراب سياسي وقلق نفسي. وأخذ الناس فيها بالشبهة والظنة⁽²⁾. ومن المعروف أن الأمور في الكوفة زدادت سوء وشدة في أعقاب مصوع الحسين، وانتشرت الثورات فيها بشكل قوي.. وأدركت الدولة الأموية أن الأمر لا بد مفلت من يدها، إن لم تقابل هؤلاء المتوردين بمنتهى القسوة والعنف. فسلطت عليهم أشد ولاياتها عتوا وجبروتها، عبىد الله بن زياد، والحجاج بن يوسف، وتوتب على هذا أن الكوفة عاشت في ظلال حكم دكتاتوري رهيب⁽³⁾.

وأمام هذا برزت التسؤلات، هل مرتكب الكبوة مؤمن أم غير مؤمن؟

وهل يضر مع الإيمان ذنب؟ إن القوم قتلوا الحسين وكانوا يرفعون أعلاماً إسلامية، والقوم فتحوا السجون وأخذ الوري بذبذب المذبذب. ولم يعد الإنسان يأمن إذا أصبح أن يمسي، وإذا أمسى أن يصبح... كل هذا يتم باسم الإسلام، فأين الحقيقة؟ هل الذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس يعتبروا في دائرة الأمان؟ كيف والله قال في كتابه (فيشرهم بعذاب أليم)⁽⁴⁾؟ هل من يقتل مؤمناً متعمداً لا يضره شيء، كيف والله تعالى قال: (فجرؤه جهنم خالداً فيها)⁽⁵⁾؟

هل الذين يشهدون الزور ويقومون كل يوم خيمة للهو، وإذا مروا بآية من آيات الله مروا عليها كأنهم صما وعميانا هل هؤلاء

لا يضر مع إيمانهم ذنب؟

(1) المصدر السابق ص 312.

(2) المصدر السابق 313.

(3) المصدر السابق 314.

(4) سورة آل عمران: الآية 21.

(5) سورة النساء: الآية 93.

الصفحة 373

كيف وهؤلاء لا يجزون الفرقة ولا يلقون تحية ولا سلاما. وكانت هناك أسئلة عن قيمة العمل وقيمة حركة الإنسان في عالم الابتلاء والاختبار. فالله تعالى قون الإيمان والعمل في حبل واحد فقال: (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات) (1). وميز سبحانه بين عمل المؤمن وبين عمل المفسد، فقال: (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض) (2). وقال: (وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء) (3). فأين هذا من الذي يجري في الساحة؟ فهذه الأسئلة وغورها كانت تطرح على أرض الواقع، الذي اعتمد حكامه مذهب الجوية إماما لهم، وأمام هذه الأسئلة تحرح القاضي وهو في الوقت نفسه السيف، لإيجاد النواء المناسب لهذه الأسئلة وغورها. والضمير الآثم إذا بحث عن النواء، جاء به من حركة أوزاره الماضية. يقول د. خليف: في هذا الجو السياسي المضطرب، ظهرت المرجئة.. مذهبيا سياسيا مسالما... والدولة الأموية كانت عاملا قويا على استتوار مذهب المرجئة... وسرع الناس إلى اعتناق المذهب الذي وجوا فيه وسيلة للعيش في سلام واطمئنان مع الحكومة الدكتاتورية.

ووجد الأمويون في هذا المذهب ضالتهم المنشودة، التي كانوا يتمنون أن يعثروا عليها وسط الاتجاهات والمذاهب المتعددة المعادية لهم (4). ويقول د. شوقي ضيف عن هذه الاتجاهات: إن أفكار المرجئة تخدم البيت الأموي، الذي كان في رأي الشيعة وكثير من الأتقياء منحرفا عن الجادة الدينية، وينبغي أن يغوره المسلمون ويضعوا مكانه البيت العلوي. والمرجئة لم يكونوا يوافقونهم على هذا الوأي، لأنهم لا يريدون المفاضلة بين المسلمين ولا الحكم على أحد بتقوى وغير تقوى، فالمسلم يكفي أن يكون مسلما" (5).

(1) سورة الحج: الآية 14.

(2) سورة ص: الآية 28.

(3) سورة غافر: الآية 58.

(4) المصدر السابق 309.

(5) التطور والتجديد في الشعر الأموي ص 50.

الصفحة 374

فالمذهب جاء لينضم إلى بقية المعاول التي عملت من أجل ضياع الحقيقة وتشويه الدين. جاء ليوقف بالناس على رضية واحدة. ولأن الناس ينظرون إلى أعمال بني أمية نظرات لرتياب وشكوك. قام المذهب بذبح الأعمال التي تميز هذا عن ذلك.

وليس معنى هذا أن بني أمية وأصحاب المقاعد الأولى قد تساوت رؤوسهم مع بقية الناس، لأن مذهب الجورية فصل بين الناس وجعلهم يستسلمون لبني أمية وأصحاب مقاعدهم.

يقول د. خليف: ومسألة الإيمان مسألة تتصل اتصالا وثيقا بمبادئ المرجئة السياسية، فقالت طائفة: إن الإيمان مصوره القلب، فيكفي إن يكون الإنسان مؤمنا في قلبه، وليس الاقرار باللسان ولا الأعمال من صلاة وصوم ونحوهما جزء من الإيمان. وقالت طائفة أخرى: الإيمان ركنان: تصديق بالقلب، وإقرار باللسان. لا بد منهما معا ليكون الراء مؤمنا كامل الإيمان صحيح العقيدة. ومعنى هذا أن المرجئة جميعا يتفقون على أن العمل ليس ركننا من رُكان الإيمان⁽¹⁾. ويقول الشيخ أبوزهرة عن عقائدهم: قرروا أنه لا يضر مع الإيمان ذنب فقالوا: إن الإيمان إقرار وتصديق واعتقاد ومعرفة، ولا يضر مع هذه الحقائق معصية. فالإيمان منفصل عن العمل، بل منهزم عم أن الإيمان اعتقاد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه وعبد الأوثان، أو زوم اليهودية والنصوانية في دار الإسلام وعبد الصليب. وأعلن التثليث في دار الإسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل ومن أهل الجنة! بل إن بعضهم عم أن لو قال قائل: أعلم أن الله قد حرم أكل الختير، ولا أوري هل الختير الذي حرمه هو هذه الشاة أم غوها كان مؤمنا. ولو قال: أعلم أنه قد فوض الحج إلى الكعبة. غير أنني لا أوري أين الكعبة ولعلها بالهند كان مؤمنا.. ويظهر من هذا أنهم تجوزوا الحد في الاستهانة بالعمل، من حيث اتصاله بأصل الإيمان. ومن حيث أؤه في دخول الجنة إن كان صالحا، ودخول النار إن كان غير صالح. بل كان إثما منفيا. فاستهانوا أيضا بأصل الإيمان فحرفوا حقيقة، وجعلوه مجرد

(1) تاريخ الشعر في الكوفة 310.

الصفحة 375

الاذعان القلبي وإن خالفته الجورح... وفي وسط تلك الأحوال غير السليمة وجد من المتعبيين لهذا المذهب من يستهين بحقائق الإيمان وأعمال الطاعات.

ومن يستهين بالفضائل، واتخذ مذهبها له كل مفسد مستهتر. حتى لقد ذكر فيه المفسدون واتخوه نريعة لمآثمهم ومنهلا لمفاسدهم، ومساوا لنياتهم الخبيثة، وصادف هو أكثر المفسدين⁽¹⁾.

وهكذا تعانقت الأشجار على سنن الأولين، وهكذا فوضت الدولة المذهب الذي راه يستقيم مع مبادئها على طريق فوعون. لقد أعطت المرجئة للطغاة ثياب المؤمنين، وأعطت الجورية لهم سيفا قاطعا. ويا له من عالم لم يمت فيه فوعون وهامان، عالم تخصص في الاحتيال على الناس بالعنف أو بالحسنى لتحتفظ فيه الجبرلين بالكواشي، ويا له من فقه بالخديعة يستلب الأرواح. وكأن صوت فوعون قد جاء من بعيد ويقول: كل هذا يلائم سياستنا الموسومة، هذا هو منطق التجربة الذي يتصرف بوحيه كل من سار على طريقي. فأنا أضع الخطة وأنتم تقومون بالتنفيذ. أنا أنصب الشوك وأنتم تحطمون الفروع الوائدة على الحاجة حتى يتم اقتناص الطائر.. وهكذا فإن على القائد الطموح إن أراد أن يحافظ على مركزه أن يتصرف كصائد مع شعبه.

وكما حذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بني أمية، ووضع الوليد في كفة الواعنة. فإن صلى الله عليه وسلم ذم

القبرية والموجئة من قبل أن يعرف الناس عنهما شيئاً. وذلك وهو يقيم الحجة على القرون من بعده بصفة عامة وعلى القون الأول بصفة خاصة. فقال: " صنفان من أمتي ليس لهم من الإسلام نصيب: الموجهة والقبرية " (2) . وقال: " اتقوا القدر فإنه شعبة من النصوانية " (3) . ولقد رأينا بصمات أهل الكتاب على هذه المذاهب.. وقال

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية ص 122.

(2) (رواه البخاري في التزيخ والنسائي وابن ماجه والخطيب والطواني (كنز العمال 118 / 1).

(3) (رواه ابن أبي عاصم والطواني وابن عدي (كنز العمال 119 / 1).

الصفحة 376

رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ينشق الشيطان بالشام نعهه يكذب ثلثاهم بالقدر " (1) . وقال صلى الله عليه وسلم: " صنفان من أمتي لعنهم الله على لسان سبعين نبيا، القبرية والموجهة الذين يقولون الإيمان إقرار ليس فيه عمل " (2) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام: " الإيمان بالقلب واللسان والهجرة بالنفس والمال " (3) . وقال: " ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن: هو ما وقر في القلب وصدقه العمل " (4) . وقال: " الإيمان والعمل أخوان شريكان في قون لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحبه " (5) . وقال " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " (6) . وقال: " لا يقبل إيمان بلا عمل ولا عمل بلا إيمان " (7) . وقال: " لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة حتى يؤمن جره بوائقه " (8) .

وهكذا أقام النبي صلى الله عليه وسلم الحجة، وفيها ظهرت بصمات أهل الكتاب على هذه المذاهب، وتم تعرية الذين ذبحوا العمل على طويق الاحتتاك. وهذه المذاهب التي صنعت من أجل حماية الطغاة ما جاءت إلا من طويق الذين لعنهم الله، وعلى رأسهم الشيطان قال تعالى بعد أن رفض الشيطان السجود لآدم (وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين) (9) ، وقال عن فوعون وقومه أصحاب طروحات الاستكبار والجهل (وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة) (10) ، وقال

(1) رواه البيهقي وابن عساكر (كنز العمال 140 / 1).

(2) (رواه الديلمي عن حذيفة، والحاكم عن أبي أمامة (كنز 135 / 4).

(3) (رواه عبد الخالق بن زاهر في الأربعين (كنز 24 / 1).

(4) ابن النجار (كنز 25 / 1).

(5) ابن شاهين (كنز 36 / 1).

(6) (رواه أحمد والبيهقي والنسائي وابن ماجه (كنز 37 / 1).

(7) (رواه الطواني (كنز العمال 68 / 1).

(8) (رواه الإمام أحمد (الزوائد 53 / 1).

(9) سورة ص: الآية 78.

(10) سورة القصص: الآية 42.

الصفحة 377

عن الظالمين من أهل الكتاب الذي يسعون في الأرض فسادا (فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم) ⁽¹⁾ . وقال عن المنافقين: (إن الذين يؤنون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة) ⁽²⁾ ، إنه طريق واحد لأنماط متعددة (أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصوا) ⁽³⁾ .

من علامات طريق اللعن القودية والختورية، قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير...) ⁽⁴⁾ . والقودية هي التقليد للشئ دون الوقوف على بدايته ونهايته ووسائله وأهدافه، والختورية هي البحث عن المادة والتهاهما من بين القانورات، وعدم العفة، وعدم الطهارة، وبلادة الحس، وعدم التبصر في الأمور للوقوف على حقيقة الأمور. والظالمين من أهل الكتاب لهم علامات على طريق اللعن فعندما نهاهم الله أن يعتنوا في السبت، لم يلتزموا بما أمر الله به. فجاءهم العقاب قال تعالى: (فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) ⁽⁵⁾ ، وكما اعتدت اليهود في السبت اعتدى بني أمية أيضا في السبت.. روي أن الحسين قال قبل كربلاء " لو كنت في جحر لأخرجوني واعتنوا علي كما اعتدت اليهود يوم السبت " ⁽⁶⁾ . وعلى هذا فطريق القودية طريق مقوح. ولقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يمسخ قوم من أمتي آخر الزمان قردة وخنازير. قالوا: يا رسول الله ويشهدون أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. قال: نعم ⁽⁷⁾ .

وطريق اللعن في نهايته يجلس المسيح الدجال ليستقبل القردة والخنازير،

(1) سورة المائدة: الآية 14.

(2) سورة الأحزاب: الآية 57.

(3) سورة النساء: الآية 52.

(4) سورة المائدة: الآية 60.

(5) سورة الأعراف: الآية 166.

(6) الطوي 217 / 6 ، البداية والنهاية 169 / 8.

(7) رواه نعيم ابن حماد (كنز العمال 280 / 14).

الصفحة 378

وأصحاب القدر الذين سلروا على نهج بني أمية. هم بلا شك في مقدمة الطابور إلى الدجال، قال النبي صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء: " فإذا لقيتموهم فلا تسلموا عليهم، وإن مرضوا فلا تعذبوهم، وإن ماتوا فلا تشهروا جنازهم، فإنهم شيعة الدجال " ⁽¹⁾ . وكشف النبي صلى الله عليه وسلم خطوات هؤلاء وما سيتوتب على هذه الخطوات داخل الأمة، وكيف ستنتهي الحلقات

جميعا إلى الدجال في حديث رواه البغوي قال:

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: يكون قوم من أمتي يكفرون بالقآن وهم لا يشعرون، كما كفت اليهود والنصرى. يقرون ببعض القدر ويكفرون ببعضه. يقولون: الخير من الله والشر من إبليس، فيقرؤون على ذلك كتاب الله، ويكفرون بالقآن بعد الإيمان والمعرفة. فما تلقى أمتي منهم إلا العدوة والبغضاء والجدل. أولئك زنادقة هذه الأمة، في زمانهم يكون ظلم السلطان، فيا له من ظلم وحيف وآؤه. ثم يبعث الله طاعونا فيفني عامتهم، ثم يكون الخسف، فما أقل من ينجوا منهم. المؤمن يومئذ قليل فوحه شديد غمه، ثم يكون المسخ، فيمسخ الله هؤلاء قردة وخنزير، ثم يخوج المسيح الدجال على إثر ذلك قريبا. ثم بكى رسول الله، حتى بكينا لبكائه وقلنا: ما يبكيك؟ قال: رحمة لأولئك القوم، لأن فيهم المقتصد وفيهم المجتهد " (2) .

إن الدجال لن يستقبل قردة وخنزير، وإنما يستقبل أنماطا بشرية فيها من القودية والخرورية الكثير. وهؤلاء إنتاج لحلقات كثيرة (3) . على رأسها أصحاب القدر الذين جلسوا على موائد أهل الكتاب، فأملوا عليهم من سننهم الكثير.

وعلى هذه التصورات قولا كتاب الله، في عالم العدوة والبغضاء والجدل وظلم السلطان. إنه طريق اللعن والجدل العقيم والبصوة المطموسة. وفي نهاية هذا الطويق يجلس في ليل احتجبت نجومه وتولى قوه. فاحتضن ظلامه

(1) رواه الحاكم (كنز العمال 138 / 1).

(2) رواه الطواني والبغوي كنز العمال حديث 38828.

(3) راجع شوح الحديث في كتابنا عقيدة المسيح الدجال، ط دار الهادي بيروت.

الصفحة 379

الذين تشابهت قلوبهم على امتداد التاريخ الإنساني. فالدجال فتنة في سلتها تقع جميع الفتن وذبولها منذ كانت الدنيا.

نظرات على الأطلال:

أ - صنود ورود:

لم يقف تيار الحق موقف الدليل على امتداد هذه الأحداث، فالاضطهاد لم يقل عزيمة الذين يسيرون على طريق علي بن أبي طالب، فكانوا يصوخون في وجه الباطل ويضحون بالغالي والنفيس في سبيل المحافظة على الإسلام والوقوف في وجه أعداء الحق. وكانت ثرة الحسين وحجته قد علمت الناس التضحية، وعلم الناس أن بني أمية يعاملون الذين يجهرون بمخالفتهم إما بالسيف، وإما على أنهم من المؤلفة قلوبهم، وعن طريق المال تتلاشى مقاومة خصومهم.

ورفض اتباع الحق أن يقفوا داخل مربع المؤلفة قلوبهم لحساب بني أمية، وجاءت الأيام بثورة زيد بن علي بن الحسين عام 122 هـ ، ذكر ابن الأثير: إن ثورة زيد بن علي جاءت في وقت بدت البغضاء للأمويين بنفوس الشعب (1) .

ودعا زيد إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وجهاد الظالمين، وإعطاء المحرومين، وقسم الفئ بين أهل بالسوية، ورد المظالم.

ووطد زيد ثورته ببث الدعاة والرسول، وضاعف اتصاله زعماء البلاد والعلماء وزعماء العشائر وحملة القرآن والحديث، ومن كان له أثر فعال في توجيه الرأي العام. ولم يقف الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بن مروان من هذه الثورة موقفاً يختلف عن موقف آبائه وهم يدافعون عن دنياهم، فبعث جيشاً حورا لقتال زيد بن علي يقول المسعودي: فلما قامت الحرب انهزم أصحاب زيد... وحال المساء بين الفريقين، فاح زيد مثخنا بالجرار وقد أصابه سهم في جبهته. فأتى بحجام من بعض القوى فأخرج النصل، ومات زيد، فدفنوه في ساقية ماء، وجعلوا على قبره التراب والحشيش، وأجرى الماء على ذلك. وذهب الحجام

(1) راجع ابن الأثير 92 / 5، البداية والنهاية 330 / 9.

الصفحة 380

فأخبر يوسف بن عمر الثقفي قائد جيش هشام بن عبد الملك، ودله على قبره، فاستخرجه يوسف وبعث رأسه إلى هشام. فكتب إليه هشام: أن اصلبه عياناً. (1)
- صلبه يوسف كذلك (1)
مصلوبا حتى أيام الوليد بن يزيد الذي أمر بإزاله وحرق جثته ويقال إن زيادا مكث مصلوبا أربع سنين (2).

وعندما مضى عهد هشام بن عبد الملك وجاء من بعده عهد الوليد بن يزيد، الذي يقول فيه الذهبي: اشتهر الوليد بالخمير والتلوط فخرجوا عليه لذلك (3). وقال فيه أيضا: كان الوليد فاسقا مهتكا (4)، فعندما جاء عهد هذا الخليفة، قام يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بثورته. ولكن الخليفة الفاسق تصدى لها بعامتة وغوغائه، وبعث جيشا حورا فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال، حتى قتل أصحاب يحيى كلهم، وقتل يحيى واحتوت رأسه، وصلب بالجزجان من بلاد خراسان، وبعثت رأسه إلى نصر بن سيار، فبعث به نصر إلى الوليد بن يزيد (5). ويقول المسعودي كان ظهور يحيى في آخر سنة 125 هـ وقيل في أول سنة 126 هـ (6).

ويقول المسعودي عن الخليفة الأموي الوليد بن يزيد الذي ثار عليه يحيى بن زيد: كان الوليد بن يزيد صاحب شواب ولهو وطرب وسماع للغناء، وهو أول من حمل المغنيين من البلدان إليه، وجالس الملهين، وأظهر الشراب والملاهي والغرف، وفي أيامه غلبت شهوة الغناء على الخاص والعام، واتخذ القيان وكان مهتكا ماجنا خليعا (7). وذكر أن الوليد ألد في شعر له ذكر فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وإن الوحي لم يأتيه عن ربه. كذب أخواه الله

(1) مروج الذهب 251 / 3، البداية والنهاية 331 / 9.

(2) البداية والنهاية 331 / 9، مقاتل الطالبين ص 139 / 1.

(3) تريخ الخلفاء 233.

(4) نول الإسلام / الذهبي 75 / 1.

(5) مقاتل الطالبين 150 / 1.

(6) مروج الذهب 259 / 3.

(7) مروج الذهب 263 / 3.

الصفحة 381

ومن ذلك الشعر:

تلعب بالخلافة هاشمي * بلا وحي أتاه ولا كتاب

فقل لله يمنعي طعامي * وقل لله يمنعي شرابي

وقال ابن كثير: في خلافة هشام أمر الوليد بن يزيد على الحج سنة 116 هـ ، فأخذ معه كلاب الصيد خفية ولكن أمرها قد انكشف واصطنع الوليد قبة على قدر الكعبة، وعزم أن ينصب تلك القبة فوق سطح الكعبة ويجلس هو وأصحابه هنالك، واستصحب معه الخمر وآلات الملاهي وغير ذلك من المنكوات. فلما وصل إلى مكة هاب أن يفعل ما كان قد عزم عليه من الجلوس فوق ظهر الكعبة. خوفا من الناس ومن إنكلهم عليه ذلك⁽¹⁾. وقال ابن كثير:

وبعد موت هشام قصد الوليد دمشق، واستعمل العمال وجاءته البيعة من الآفاق وجاءته الوفود، وكتب إليه نائب رمنية بيلك له في خلافة الله له على عبادته والتمكين في بلاده⁽²⁾.

وقال ابن كثير: كان هذا الرجل مجاها بالفواحش مصرا عليها، منتهكا محرم الله عز وجل لا يتحاشى من معصية، وربما اتهمه بعضهم بالزندقة والانحلال من الدين فأنه أعلم. لكن الذي يظهر أنه كان عاصيا شاعرا ماجنا متعاطيا للمعاصي. لا يتحاشاها من أحد، ولا يستحي من أحد، قيل أن يلي الخلافة وبعد أن ولي⁽³⁾ ، وذكر ابن كثير أن الوليد كان يحب نصوانية، وكان يذهب متكررا إلى بستان قريب من الكنيسة للقائها. وفي لقاء من اللقاءات قال الوليد شعوا منه:

أضحك فؤادك يا وليد عميدا * صبا قديما لللسان صبيدا

في حب واضحة العورض طفلة * رزت لنا نحو الكنيسة عيدا

مازلت لمقها بعيني دامعة * حتى بصوت بها تقبل عودا

(1) البداية والنهاية 2 / 10.

(2) البداية والنهاية 4 / 10.

(3) البداية والنهاية 6 / 10.

الصفحة 382

عود الصليب فويح نفسي من رأى * منكم صليبا مثله معبودا

فسألت ربي أن أكون مكانه * وأكون في لهيب الجحيم وقودا⁽¹⁾

وقال ابن كثير: قال القاضي أبو الفوج: أخبار الوليد كثرة، قد جمعها الإخيليون مجموعة ومفودة، وقد جمعت شيئا من

سوته وأخبله، ومن شوه الذي ضمنه ما فجر به من حوته وسفاهته وحمقه وهوله ومجونه وسخافة دينه، وما صوح به من الالحاد في القآن الغريز، والكفر بمن أتوله وأتول عليه (2).

هذا هو الخليفة الذي يصدر القوانين، وقيل: الذي يقوم بأمر الدين، وقيل: صاحب الجماعة التي إذا خرج منها واحد مات ميتة جاهلية. فمن الذي يجرو أن يقيم الحد على الوليد أعلى سلطة في الدولة؟ إن الوليد ما كان يوتعد إلا من صوت الحق. كانت دقات قلبه تقشعر من رعدة الخوف، لهذا كان يبعث بمن يأتيه بخبر أي تحرك. وما أن يخبروه، حتى يصدر أوامره للجلادين وقطاع الطرق والوقاب، وعلى الأعواد تصلب الأجساد، وبعد ذلك يخرج الوليد إلى مستقع الرجل الذي لا يقام للقتل وإنما للهو الذي خرج من معطف المرجئة الذين فصلوا الإيمان عن العمل.

وأفعال الوليد وأهواله لم تأت فجأة ولم تذهب سدى، فكما أن الوليد استلم مشاعلها فكذلك قام بتسليم مشاعلها وعلى امتداد هذا الطريق صلب أكثر من واحد من الذين عرضوا هذا العبث. وعن مشاعل الوليد يقول د. خليف:

إننا أمام ظاهوه اجتماعية شديدة الخطر لمن يسبق للمجتمع الإسلامي أن شهد مثلها، فأول مرة في تزيخ هذا المجتمع، نجد أنفسنا أمام خليفة ماجن متهتك خليع، نسي أنه أموا للمؤمنين وأنه أمام المسلمين. فاندفع في حياة لاهية مستهزة حتى أطلق عليه "الخليع" والناس على دين ملوكهم. وفعلا اندفع كثير من الناس يقلدون خليفتهم. دون أن يجنوا في ذلك حرجا عليهم، أو يخشوا تنفيذ الحدود فيهم.. فإن الخليفة الوليد بن يزيد. لم يجد أحدا ينفذ فيه الحد،

(1) البداية والنهاية 7 / 10.

(2) البداية والنهاية 7 / 10.

الصفحة 383

لأنه هو نفسه صاحب الحق الشرعي في تنفيذ الحدود، ولم يكن من المعقول أن ينفذ الحد في نفسه، ولم يكن من المعقول أيضا أن ينفذه فيه غره (1).

إن الناس لم يشعروا بالخلج بفضل عقيدة المرجئة، والوليد لم يشعر بالخلج بفضل عقيدة الجبرية. وفي موجة الغناء والشعر والمجون استجاب كثير من الشباب إلى النداء، ومضوا يغرقون همومهم في هذه الحياة الصاخبة المعقدة، يقول د. خليف: وكثرت جماعات المجون، ودوت مغزوفات ضخمة اشترك فيها مجموعات هائلة من الغواف. وعلى الجسر الذي يصل الشاطئين الأموي والعباسي أخذت جماعات من المجان والخلعاء تمر فوقه لتستقبل على الشاطئ الآخر الوديلة. وقد تجردت من ثيابها جميعا. وبسطت فراعياها إلى أقصاها، لتضم إلى أحضانها هؤلاء الوافدين من طلابها، وتبلغ الغلوية مداها، ويتساقط الشباب تساقط الفواش المتهافت على النار. وكلما اشتدت ظلمة الهاوية، زاد عدد المتخبطين فيها، وفي أعماقها السحيقة، مضت جماعات من الشواء تضوب على غير هدى. وقد ألف اللهو بينهم، وربط المجون بين أسبابهم. كلهم فاسق، وكلهم خليع، وكلهم سكير. وهذه المدرسة اللاهية، هي التي أرست قواعد غزل النساء، وغزل الغلمان. فالقول في هذه المدرسة لم يكن حديث العاطفة، وإنما كان حديث الغرزة، ولم يكن نجوى الروح. وإنما كان نداء الجسد. وعلى بناء هذه المدرسة كثرة طائفة

الجلري والمغنيات في المجتمع الإسلامي، وعلى أكتاف هذه المدرسة انتشرت الوندقة ودقت أوتادها، وراج شعر الأدوة (2) .
وكان الوليد بن عقبة، وصاحبة أوزبيد النصواني أول من حفر الحوة لهذه البنة في عهد عثمان بن عفان.
فمع شعر الأدوة، ومع الجلري، سبحت الدولة الأموية في آخر أيامها، ثم قامت بتسليم هذه الآفة الاجتماعية إلى الدولة
العباسية، حيث كثر الويق في هذه الدولة. وكان الجلري والغلمان والإيماء فيها من أجناس وثقافات وديانات

(1) حياة الشعر في الكوفة ص 205.

(2) المصدر السابق 633، 634.

الصفحة 384

وحضرات مختلفة. فأثر هذا في الحكام وأبنائهم. وكثر الجلري في القصور وكان بينهن من يعلقن الصلبان (1) .
وكانت هذه الحلقة عضوا مهما في اتباع سنن الأولين، وعلى امتداد المسوة التاريخية، ولم يقف خط علي بن أبي طالب من
هذه الظاهرة وغورها موقف الصامت. فمع بداية النولة كان بنو العباس، وبنو علي كشيء واحد، وتكاتفوا سويا من أجل تقديم
الصورة الأفضل لحركة المسلمين على طريق الإسلام. وعندما جاء عهد أبي جعفر المنصور آخر عام 136 هـ وتغير الحال.
فلقد أحاط المنصور نفسه بهالة كبرة من القداسة، كان لها أسوأ الأثر في خوع الناس، وخضوعهم للظلم والفساد. وفي ظل
حكمه الاستبدادي لم يحسب أي حساب للوعية. يقول الحافظ السيوطي: قتل المنصور خلقا كثيرا حتى استقام ملكه، وهو الذي
ضرب أبا حنيفة على القضاء، ثم سجنه فمات بعد أيام، وقيل إنه قتله بالسم لكونه أفتى بالخروج عليه (2) . وإنه أول من أوقع
الفتنة بين العباسيين والعلويين وكانوا قبل شيئا واحدا (3) . وقتل المنصور جماعة كثيرة من آل البيت، فإن لله وإنا إليه راجعون
(4) . وكان يقول: لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو، لأن بني مروان لم تبل رحمهم. وآل أبي طالب لم تغمد
سيوفهم، ونحن من قوم رونا أمس سوقه واليوم خلفاء. فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة (5)
وفي عهد المنصور خرجت العديد من الرايات العلوية تطالب بأن تكون حركة المسلمين في عالم الاختبار حركة إسلامية
ليفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة.

وكان من هؤلاء محمد بن عبد الله بن الحسن (عام 145 هـ)، وكان يدعى بالنفس

(1) العصر العباسي الأول / د. شوقي ضيف ص 21.

(2) تزيخ الخلفاء 241.

(3) تزيخ الخلفاء 243.

(4) تزيخ الخلفاء 243.

(5) تزيخ الخلفاء 248.



الركية لرهده ونسكه، وبويع له في كثير من الأمصار. وتصدت جيوش الدولة لحركة محمد بن عبد الله، وانتهى الأمر بقتله لينضم إلى الشهداء الذين سبقوه وروي أن أبا جعفر المنصور جمع قادة حرسه وجيوشه وقال لهم: والله ما رأيت رجلاً أنصح من الحجاج بن يوسف لبني مروان، فقال له المسيب بن زهير: يا أمير المؤمنين، ما سبقنا الحجاج بأمر تخلفنا عنه، والله ما خلق الله على جديد الأرض (1) خلقاً أعز علينا من نبينا صلى الله عليه وسلم. وقد أوتنا بقتل ولاده فأطعناك وفعلنا ذلك، فهل نصحناك أم لا؟ فقال له المنصور: اجلس لا جلست (2).

وهكذا عاد الحجاج من جديد، ولكن في عالم يغلب عليه حياة الجوري تلك الحياة التي خرجت بترتها من غابة بني أمية ليستظل تحتها القادم الجديد.

وسلرت أحوال خط علي بن أبي طالب في النظام العباسي بين أذى الدولة المكشوف، وبين أذى الطرق الخفية المضمونة النتائج والتي تتدثر في رداء من الطيبة الظاهرة. حتى جاء عهد المتوكل فأمر بهدم قبر الحسين، وهدم ما حوله من الدور. يقول السيوطي: وكان المتوكل معروفاً بالتعصب، فتألم المسلمون من ذلك، وهجاه الشعراء، فمما قيل في ذلك:

يا الله إن كانت أمية قد أتت * قتل ابن بنت نبيها مظلوماً

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله * هذا لعمرى قره مهدوماً

أسفوا على أن لا يكونوا شلوكوا * في قتله فنتبعوه رميماً (3)

وقال السيوطي: قتل المتوكل يعقوب بن السكيت، الإمام في العربية، فإنه ندبه إلى تعليم ولاده، فنظر المتوكل يوماً إلى ولديه. المعتر والمؤيد وقال لابن السكيت: من أحب إليك هما أو الحسن والحسين. فقال: قنبر مولى علي بن أبي طالب خرا منهما. وعندئذ أمر المتوكل الأتراك فداسوا بطنه حتى مات،

(1) جديد الأرض / وجهها.

(2) موج الذهب 364 / 3.

(3) تزيخ الخلفاء 321.

وقيل: أمر بسل لسانه فمات (1).

وهكذا جمع بني العباس في منتصف رحلتهم الهلع المروع إلى الخوف المرتجف وألقوه على خط الإمام علي بن أبي طالب. وعلى الرغم من ذلك ظل هذا الخط يعمل على امتداد الثلاثة قرون الأولى يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم: "سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي الناس خير؟ قال: قوني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...". (2) وفي رواية عدد أربعة قرون (3). وقال النووي: قال الحسن وغيره القون عشر سنين، وقال قتادة:

سبعون، وقال النخعي أربعون، وقال زرارة: مائة وعشرون، وقال عبد الملك:

والخيرية هنا لا تقاس بالفتوحات أو بالهجوم على المدينة أو مكة من أجل الملك، وإنما الخيرية عمودها الفقوي هو دعوة الناس إلى الخير والعمل على إصلاح ما أفسوه. والخيرية هي التي تعمل من أجل بناء الإنسان العابد الصالح أولاً. لأن شرط التمكين في الأرض أن يكون العابد صالحين. قال تعالى:

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون * إن في هذا لبراهين لقوم عابدين) (5) ، وشرط نزول البركات أن يكون الناس مؤمنين قال تعالى: (ولو أن أهل القوى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) (6) . فالخيرية تسوق الناس إلى الله وتذكروهم بما نسوه، كي يرفع الله عنهم العذاب الذي تعددت أشكاله وأوانه، لأن من السنن الإلهية أن الذين نسوا ما ذكروا به، كان حقا على الله أن يفتح عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما

(1) راجع كتاب مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني (284 - 356 هـ).

(2) رواه مسلم (الصحيح 85 / 16).

(3) مسلم (الصحيح 87 / 16).

(4) (النووي شرح مسلم 85 / 16).

(5) سورة الأنبياء: الآية 105 - 106.

(6) سورة الأعراف: الآية 96.

الصفحة 387

(1) أو قوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) (1) .

والخيرية لها أعلام ومشاعل روى الترمذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يكون بعدي اثنا عشر أمرا كلهم من قريش " (2) . وروى الطواني:

" لا زال هذا الأمر ظاهرا على من نوأه لا يضره مخالف ولا مفارق حتى يمضي اثنا عشر خليفة من قريش " (3) ، وروى ابن عساکر: " لا زال أمر أمتي صالحا حتى يمضي منهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش " (4) . وروى نعيم بن حماد: " يكون بعدي من الخلفاء عدة نقيب موسى " (5) .

والطريق إلى نقيب بني إسرائيل لا بد وأن يأخذ في حسابيه مقولة هارون من موسى، ودائرة الخيرية لا يضرها من خذلها أو من عاداها أو من نوأها. روى البخاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا زال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاوتون. وهم أهل العلم (6) ولقد علمنا من هم أهل العلم الذين قاتلوا، ولم يقاوت أحد من أهل العلم من أجل إقامة الدين، أو على تأويل القرآن إلا خط علي بن أبي طالب. وروى مسلم: " لا زال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي من الله أمر الله وهم كذلك " (7) . وفي رواية: " لا زال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو

خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على

- (2) رواه التومذي وقال حديث حسن صحيح (كنز العمال 12 / 24) والبخري بلفظ: يكون اثنا عشر أمرا فقال كلمة لم أسمعها. فقال أبي أنه قال: كلهم من قريش (الصحيح 4 / 248).
- (3) رواه الطواني (كنز العمال 12 / 23).
- (4) رواه ابن عساكر (كنز العمال 12 / 32).
- (5) كنز العمال 12 / 33 ورواه أحمد والحاكم (كنز العمال 12 / 33).
- (6) البخري (الصحيح 4 / 263) ك الاعتصام.
- (7) مسلم (الصحيح 13 / 65) ك البهاء.

الصفحة 388

الناس " (1) . وفي رواية عند الإمام أحمد والحاكم وأبو دلوود بزيادة " حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى ويقول عيسى بن مريم " (2) . وكثير من الشواح ذكر أن أمر الله هنا هو المهدي المنتظر الذي يقول عيسى بن مريم في زمانه. ومن المحفوظ أن المهدي من أبناء علي بن أبي طالب وفاطمة ریحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإذا كان المهدي خاتمة فلا بد من البحث عن المقدمة لنعرف من هم أصحاب هذه الطائفة.

إن دائرة الخوية دائرة أصيلة في الوجود، لم يكسوها ظلم بني أمية وبني العباس. ولا تعرف الدائرة بالكثرة، لأن الحق حق وإن قل أتباعه، والباطل باطل وإن كثر أتباعه. ولا يمكن لباحث أن يهمل الكثرة من هذه الأمة، وأن يحسبها ضمن موبع الحكام. فالتاريخ يشهد بأن الحكام كانوا في واد والجماهير في واد آخر. إن السواد الأعظم من الجماهير لم يلتفت حول الحكام، وإنما انطلقوا في روع الأرض ينشرون الإسلام وتعاليمه السمحة التي تحتضنها فطرة الباحثين عن الحقيقة. لقد التفت الجماهير حول الوهاد الأوائل الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئا، وبنوا لهم الأضوحة بينما لم يلتفتوا حول الطغاة ولم يسألوا عنهم أين دفنوا. وبصوف النظر عن شوعية بنا الأضوحة إلا أن هذا العمل كان تعبيرا مقصودا أو غير مقصود للنفسية الإسلامية المحتقنة من دائرة الحكام الذين فوضوا أنفسهم فوضا على الجماهير وساقوهم إلى عالم الجبرية والطاغوت.

إن الجماهير الإسلامية قامت بنشر الدعوة، وأقامت حضرة فطوية غير حضرة الملوك، وهذه الحضرة هي الباقية ولن تعلقا عليها حضرة حتى يأتي أمر الله.

ب - إفراات فكرية:

ذكرنا فيما سبق المذاهب القديمة التي قامت في العصر الأموي، ونبئت

جنورها قبل ذلك. ونحن هنا سنلقي بعض من الضوء على مذاهب فكرية أخرى، كان لها الأثر البالغ بعد النولة الأموية. ومن هذه المذاهب مذهب المعتزلة. يقول الشيخ أبو زهرة: نشأت هذه الفقة في أواخر العصر الأموي. وفي هذا الوقت دخل الإسلام طوائف من المجوس واليهود والنصرى وغير هؤلاء وأولئك، رؤوسهم ممثلة بكل ما في هذه الأديان من تعاليم جرت في نفوسهم مجرى الدم. ومنهم من كان يظهر الإسلام ويبطن غيره. إما خوفاً رهبة، أو رجاء نفع دنيوي، وإما بقصد الفساد والإفساد وتضليل المسلمين.

وقد أخذ ذلك الفريق ينشر بين المسلمين ما يشككهم في عقائدهم. وظهرت ثمار غوسهم في فوق هادمة للإسلام تحمل اسمه ظاهراً وهي معاول هدمه في الحقيقة... وقد تصدى للدفاع عن الإسلام أمام هؤلاء، فوقة درست المعقول وفهمت المنقول فكانت المعتزلة⁽¹⁾. ولم يجد المعتزلة من الأمويين معارضة.

لأنهم لم يثيروا شغبا عليهم ولا حرباً. إذ أنهم كانوا فوقة لا عمل لها إلا الفكر وقوع الحجة، ووزن الأمور بمقاييسها الصحيحة. ومع أن الأمويين لم يعرضوهم فهم أيضاً لم يعاونوهم⁽²⁾.

ويختلف العلماء في أساس بذرة المعتزلة. فبعضهم وى أنها ابتدأت في قوم من أصحاب علي بن أبي طالب اعتزلوا السياسة، وانصرفوا إلى العقائد عندما صالح الحسن معاوية، ولزموا منزلهم ومساجدهم وقالوا: نشغل بالعلم والعبادة. وبعضهم وى أن رأس المعتزلة هو واصل بن عطاء... والمعتزلة في كتبهم يرون أن مذهبهم أقدم في نشأته من "واصل" ويعدون من رجال مذهبهم كثيرين من آل البيت⁽³⁾. ويقول الشيخ أبو زهرة: والذي زاه أن المذهب أقدم من "واصل" وأن كثيرين من آل البيت قد نهجوا منهجه، كريد بن علي الذي كان صديقاً لواصل. ولكن واصلاً من أبرز الدعاة، فكان عند الأكثرين رأسه لأنه أبرز

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية 131 / 1.

(2) المصدر السابق 132 / 1.

(3) المصدر السابق 124 / 1.

من دعا إليه⁽¹⁾.

ومذهب المعتزلة يقوم على أصول خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمقتلة بين المقتلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والتوحيد، هو لب مذهبهم وأس نحلتهم، فقالوا: إن الله واحد أحد. ليس كمثل شئ، وهو السميع البصير. وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة، ولا لحم ودم، ولا شخص ولا جوهر ولا غرض. ولا بذى لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة. ولا بذى حولة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة. ولا طول ولا عرض ولا عمق. ولا اجتماع ولا افتراق. ولا يتحرك ولا يسكن

ولا يتبعض. ولا بذى أبعاض وأجزاء. ولا جورح وأعضاء. وليس ذي جهات. ولا بذى يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت ولا يحيط به مكان. ولا يجري عليه زمان. ولا تجوز عليه المماسمة ولا العزلة. ولا الحلول في الأماكن. ولا يوصف بشئ من صفات الخلق الدالة على حوثهم ولا يوصف بأنه متناه. ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات. وليس بمحدود ولا والدولا مولود. لا تحيط به الأقدار، ولا تحجبه الأستار. ولا تتركه الحواس. ولا يقاس بالناس ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه. ولا تجري عليه الأوقات. ولا تحل به العاهات، وكل ما يخطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له. ولم يزل ولا سابقا. متقدما للمحدثات. موجودا قبل المخلوقات. ولم يزل عالما قانوا حيا. ولا زال كذلك لا تراه العيون. ولا تتركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام. ولا يسمع بالأسماع.

شئ لا كالأشياء عالم قادر حي. لا كالعلماء القارين الأحياء. وأنه القديم وحده. ولا قديم غيره. ولا إله سواه ولا شريك له في ملكه ولا وزير له في سلطانه. ولا معين له على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق. لم يخلق الخلق على مثال سابق. وليس خلق شئ بأهون عليه من خلقه شئ آخر. ولا بأصعب عليه منه. ولا يجوز عليه اجتار المنافع، ولا تلحقه المضار ولا يناله السرور واللذات. ولا يصل إليه الأذى والآلام. ليس بذى غاية فيتناهى. ولا يجوز عليه

(1) المصدر السابق 1 / 124.

الصفحة 391

الفناء. ولا يلحقه العجز والنقص. تقدر عن ملامسة النساء. وعن اتخاذ صاحبة والأبناء. وقد بنوا على هذا الأصل استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، لاقتضاء ذلك الجسمية والجهة (1). أما قولهم في العدل بينه المسعودي في مروج الذهب فقال: هو أن الله لا يحب الفساد. ولا يخلق أفعال العباد. بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقوة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم. وأنه لا يأمر إلا بما أراد. ولم ينه إلا عما كره. وأنه ولي كل حسنة أمر بها. ووى عن كل سيئة نهى عنها (2). لم يكلفهم ما لا يطيقون. ولا أراد لهم ما لا يقرون. وأن أحدا لا يقدر على قبض ولا بسط إلا بقوة الله تعالى التي أعطاهم إياها. وهو المالك لها تونهم يفنيها إذا شاء. ولو شاء لجبر الخلق على طاعته. ومنعهم اضطورا عن معصيته. ولكنه لا يفعل. إذ كان في ذلك رفع للمحنة وإزالة للبلوى.

وقد روي بهذا الأصل على الجبرية الذين قالوا: أن العبد في أفعاله غير مختار. فعنوا العقاب على ذلك يكون ظلما، إذ لا معنى لأمر الشخص بأمر هو مضطر إلى مخالفته، ونهيه عن أمر هو مضطر إلى فعله (3).

وفيما يتعلق بالعدل يقول الشيخ محمد خليل الزين: قال المعتزلة: إن الله عادل لا يصدر منه الظلم ولا يجدر أن يتصف به. وقالوا: إن الأجسام تدل بما فيها من العقول والنعم التي أنعم الله بها على خلقه، تدل أن الله لا يصدر منه الظلم والعقول تدل بأنفسها على أن الله ليس بظالم. ولا يجوز أن يجمع الظلم ما دل بنفسه على أن الظلم لا يقع منه تعالى.

والظلم والجور منفيان عنه، بدليل قوله تعالى: (وما ربك بظلام للعبيد).

وقد فوعا على العدل غايات ثلاث:

(2) استدلوا على هذا بقوله تعالى: (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك).

(3) المصدر السابق 127 / 1.

الصفحة 392

الأولى: أن الله يسير بالخلق إلى غاية ومصلحة، وهو حكيم ولا يصدر من الحكيم فعل لا تكون فيه مصلحة وغاية. وتلك المصلحة عائدة للمخلوقين.

وسبحانه لا يفعل شيئاً به غاية لنفسه. فالوجود ومن فيه يسير ويمشي وراء غاية ومصلحة. والغاية تختلف بحسب المعنى وأهميته، فتارة تكون ظاهرة المنفعة ففعلها صلاح، وتارة تكون خفية لا تترك العقول مصلحتها، وهذه إما أن يقنع العقل بوجودها، أو يشكك، فإن شكك يجب تون بالمقياس الوهاني، فإن توافقاً وإلا وجب طرحها.

الثانية: من لولم العدل، أن الأوامر والنواهي الشرعية، ذات حسن وقبح ذاتي. وهي قبل أمر الشروع فيها حسن وقبح ذاتي - فالوديعة إذا ردت فيها حسن ذاتي قبل أمر الشروع فالحسن والقبح في الموجودات من الأمور الذاتية. وقالوا: إن العقل هو المرجح، فما حكم بقبحه فلا بد أن يأتي به نهي من الشروع.

فالحسن من مقومات الذات لأنه عوض يتحكم به الشروع. وقالوا: إنا نعلم بالضرورة حسن بعض الأشياء وقبح بعضها من غير نظر إلى أمر الشروع. فإن كل عاقل يجزم بحسن الاحسان ويمدح فاعله، ويعلم بقبح الإساءة والظلم. وهذا الحكم ضروري لا يقبل الشك. وقالوا: لم نعلم حسن الأشياء وقبحها عقلاً.

وقالوا: إن الله داعياً لفعل الحسن وليس له صرف عنه. وله صرف عن فعل القبيح وليس له داعٍ إليه، وهو قادر على كل مقدر، ومع وجود المقورة والداعي يجب الفعل. لأنه تعالى غني يستحيل عليه الحاجة وهو عالم بحسن الحسن وقبح القبيح. ومن المعلوم بالضرورة، أن العالم بالقبيح الغني عنه لا يصدر عنه. وأن العالم بالحسن القادر عليه إذا خلا عن جهات المفسدة فإنه يوجد. وتحروه أن الفعل بالنظر لذاته ممكن وواجب النظر إلى علته، وكل ممكن مستند إلى قادر. وعلته تتم بواسطة القوة والداعي، فإذا وجد ما تقدم تم السبب. وعند تمام السبب يجب وجود الفعل. ولو جاز فعل القبيح منه تعالى أو الاخلال بالواجب، لارتفع الوثوق بوعده ووعيده، وأمكن تطوف الكذب عليه تعالى. ولجاز منه إظهار المعجزة على يد الكاذب. وذلك يقتضي الشك في صدق الأنبياء. وبطل الاستدلال بالمعجزة.

الصفحة 393

الثالثة: التي يتوعد على القول بالعدل مسألة الأفعال الصاورة منا، هل نفعها باختيار أو نحن مسيرونها إليها. فقد ذهب المعتزلة إلى أن الإنسان مختار في أفعاله. وأن أفعال العباد مخلوقة لهم وهي من كسب أنفسهم... وشبهوا أفعال الإنسان بالحركة الاختيارية، فإن الإنسان يفعلها على اختياره. وفوعوا على هذا القول أن الإنسان لو لم يكن مختاراً في أفعاله لما جاز عذابه على عدم امتثاله، لأن العذاب متوعد عن عدم امتثال الأوامر الممكن إثباتها بمطلق رادة العبد. وقالوا: أن العقل لا

يجوز أن يكلف الإنسان بالإتيان بشئ هو مسلوب القوة عنه، فإن قصر بالإتيان بشئ مسلوب القوة عنه يعاقب ويعذب فإن هذا تكليف بالمحال. وقالوا: إن الإنسان المسلوب الاختيار لا يأتي الوعيد بحقه لأن الوعيد إنما يجيء في المسائل المقنونة للإنسان. والمسائل التي لا قوة للخلق على الإتيان بها يقبح العقل العقاب عليها. ولا معنى لأن يقال للعبد. اعمل وهو مسلوب الاختيار.. إنما يصح لمن يكون له حرية الاختيار، هذا من الوجهة العقلية، وأما النقل فقد استدلوا على حجة دعواهم بالآيات القوانية. مثل قوله تعالى: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله)، فهذه الآية من الآيات التي تنم عمل من الأعمال، وأما الآيات التي بها مدح للمؤمنين وذم للكافرين مثل قوله: (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت اليوم تجزون بما كنتم تعملون) (1).

وقالوا في الوعد والوعيد: إن الوعد والوعيد نزلان لا محالة. فوعد الله بالثواب واقع. ووعيده بالعقاب واقع أيضا. ووعدده بقبول التوبة النصوح واقع أيضا. وهكذا فمن أحسن يجلي بالإحسان إحسانا، ومن أساء يجلي بالإساءة عذابا أليما. فلا عفو عن كبيرة من غير توبة، كما لا حرمان من ثواب لمن عمل خيرا. وإن هذا فيه رد على المرجئة الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. إذ لو صح هذا، لكان وعيد الله في مقام اللغو. قال

(1) تاريخ الفرق ص 137، 138.

الصفحة 394

(1) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

ومن قولهم في المتولة بين المتولتين: إن الإيمان إقرار باللسان ومعرفة وعمل بالجوارح. وإن كل عمل فرضا أو نقلا هو إيمان، وكلما زداد الإنسان خوا زداد إيمانا، وكلما عصى نقص إيمانه.

فالإيمان مركب من أمور، فلو أخل المكلف بأحدها يسلب عنه اسم الإيمان. فلا يقال له مؤمن أو كافر. بل هو بمتولة من المتولتين. وموتكب الكبيرة لا كافر ولا مؤمن. والكبيرة عندهم أنواع، منها ما تؤول إلى الكفر.

(2) ومنها ما يطلق على مرتكبها اسم الفسوق فقط . ويقول الشيخ أبو زهرة: من اعتقادهم، أن العاصي من أهل القبلة في

متولة بين المتولتين. برون أنه لا مانع من أن يطلق عليه اسم المسلم تميزا له عن الذميين لا مدحا ولا تكريما. وأنه في الدنيا يعامل معاملة المسلمين، لأن التوبة له مطلوبة. والهداية مرجوة. وقد قال في ذلك " ابن أبي الحديد " وهو من شوخ المعقولة:

إننا وإن كنا نذهب إلى أن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنا ولا مسلما. نجيز أن يطلق عليه هذا اللفظ.

إذا قصد به تميزه عن أهل الذمة وعابدي الأوثان، فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرج عن أن يكون مقصودا به التعظيم

(3)

والثناء أو المدح .

ومن قولهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أنهما واجبان عقلا ونقلا. ويذهبون إلى أنهما واجبان باللسان والقلب

واليد، وقد فسر المؤمخثوي صاحب الكشاف. إلى أن الأمر بهما من فروض الكفاية، لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف،

وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يبأشوره. وأن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر وقد يغلط في موضع اللين

ويلين بموضع الغلظة. وينكر على من لا يزيد إنكله إلا تحاديا. والأمر بالمعروف تابع للمأمور به، إن كان واجبا فواجب، وإن كان ندبا فنذب، وأما النهي عن المنكر

(1) المصدر السابق 128 / 1.

(2) (تزيخ فوق الإسلامية / الزين ص 141.

(3) (تزيخ المذاهب الإسلاميه ص 128 / 1.

الصفحة 395

(1) كله لأن جميع المنكر تركه واجب، لاتصافه بالقبح وشرط الوجوب أن يغلب على ظنه وقوع المعصية (1) ... وقالوا في النوة يقول فيه ابن أبي الحديد: إن الذي عليه أصحابنا، أن النبي مؤه قبل البعثة. عما فيه تنفير عن الحق الذي يدعو إليه. وعما فيه غضاضة وعيب. مثل: الكفر أو الفسق، لأننا نجد أن التائب العائد إلى الصلاح بعد أن عهد منه السخف والمجون والفسق لا يقع بالمعروف ونهيه عن المنكر عند الناس موقعهما ممن لم يعهده، إلا على السعد والصلاح. كما أنه لا يجوز أن يكون محترفا بحرفة يستخفون الناس بصاحبها. هذا قبل البعثة، أما بعد البعثة.

(2) فقد منع أصحابنا وقوع الكبائر منهم عليهم السلام أصلا. ومنعوا أيضا وقوع الصغائر المستخفة منهم (2) .

مما سبق نعلم أن المعتولة لم يهضموا نظرية الجبر، ونفوا القول بالقدر.

ورفضوا أن يكون الإنسان مجرد آلة صماء، لارأي له ولا حرية ولا اختيار، إنما تسره يد القضاء من وراء ستار، فأثبتوا

أنهم يحتومون الحرية الفردية. حرية الفكر والعمل. ويقرون المواهب العقلية. ويقول الشيخ / محمد خليل: وإني لأعتقد أن

المعتولة بنفيهم القدر عن أفعال العباد الاختيارية المكتسبة، قد أصابوا هدفين في وقت واحد، فإنهم لم ينفوا الظلم عن الله

ودافعوا عن العدالة الإلهية فحسب، بل دافعوا أيضا عن الحرية الإنسانية. لأنهم اعتبروا الإنسان حرا في أفعاله فوفعوا من

شأنه. وجعلوه مخلوقا عاقلا حرا جدوا بتحمل المسؤولية (3) .

والمعتولة لم تظهر شجرتهم في العهد الأموي على الرغم من أنهم بنؤوا في هذا العهد، فما كانت الدولة لتسمح بهذه

الأفكار. وهي التي تحرب كل فكر لا يتفق مع سياستها. ولكن الشجرة بدأت في الظهور عندما شاخت الدولة الأموية، ثم

توقعت شجرتهم وأورقت عندما جاء العهد العباسي، ففي هذا العهد

(1) تاريخ الفرق الإسلاميه 143.

(2) المصدر السابق 145.

(3) المصدر السابق 134.

الصفحة 396

طم سيل الاحاد والوندقة. فوجد الخلفاء في المعتولة سيفا مسولا على الزنادقة لم يغلوه، بل شجعوهم على الاستوار في

نهجهم. ويقول الشيخ أبو زهرة: كان جدال المعتولة بقوة وحسن دليل. وفصاحة وبيان وقوة على الإقناع اكتسبوها من علومهم ومملستهم الجدل، حتى أن بعض خصومهم من غير المسلمين كانوا يسلمون بعد مناقشتهم، ولقد قال مؤرخوا المعتولة: أن أبا الهذيل العلاف أسلم على يديه أكثر من ثلاثة آلاف رجل من من المجوس، لحذقه وواعته في المناظرة، وقوة ما يدعو إليه وضعف ما يدعون إليه⁽¹⁾. وظل المعتولة يحطمون أسوار الجهل الذي ألقى على كاهل الأمة من كل مكان، فلما جاء المأمون وقد كان يعتبر نفسه من علماء المعتولة شابعهم وقوبهم وأدناهم وجعل منهم حجابهم ووزراءه. وكان يعقد المناظرات بينهم وبين الفقهاء لينتقوا إلى رأي متفق.

واستمر على ذلك حتى توفي سنة 218 هـ⁽²⁾. ومن أقوال المأمون: من علامة الشريف أن يظلم من فوقه ويظلمه من هو دونه. وقال أيضا: لوددت أن أهل الحرائم عرفوا رأيي في العفو، ليذهب عنهم الخوف. ويخلص السرور إلى قلوبهم⁽³⁾. وقال: أول العدل أن يعدل الرجل في بطانته، ثم الذين يلونهم حتى يبلغ إلى الطبقة السفلى. وقال: غلبة الحجة أحب إلي من غلبة القوة، لأن غلبة القوة تروى بزوالها. وغلبة الحجة لا يزولها شيء. وقال: لا زهة ألد من النظر في عقول الرجال⁽⁴⁾. وكان المأمون يقرب آل البيت إليه، وعلى رأسهم الإمام أبي الحسن الوضارضي الله عنه. وروي أن المأمون أراد أن يقلد الوضارولاية العهد من بعده، لتكون الخلافة في أفضل آل أبي طالب. ولكن الوضار أبي عليه إباءا شديدا لأسباب عديدة زاهها. منها: أن قار مثل هذا هو بمثابة قار فوقي. وهذا لا يستقيم مع حركة أهل البيت التي لا تبحث عن الحكم وإنما تبحث عن

الجماهير

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية 140 / 1.

(2) المصدر السابق 132 / 1.

(3) تريخ الخلفاء 297، 298 / 1.

(4) المصدر السابق 308 / 1.

الذين يتحركون الحركة التي يحوا أن واهم الله فيها، فالإمام إذا هتف باسمه أهل القوى عليه أن يلبي النداء، ويسير بهم نحو طويق البركات لأن الحركة في أصولها العريضة حركة حجة في عالم الابتلاء، لينظر الله إلى عباده كيف يعملون. ومنها أيضا لا يختلفوا عن بني أمية من ناحية القتال على الملك.

وروي أنه في أيام المأمون أحصيت أولاد العباس، فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفا، ما بين ذكر وأنثى وذلك عام مأتين. الكثير منهم على رأس العسكر وعلى بيوت المال، وكل منهم ينتظر نوره في الحكم. والإمام الوضار يرى أن لكل زمان حركة، ولكل أحداث فقه. وربما تتطلب هذه الحركة أن يجلس في دائرة الضوء، بينما تتطلب الأحداث أن لا يكون له أي نشاط ملحوظ. وعندما أصر المأمون على أن يكون الوضار وليا للعهد، قال له الوضار: إني أجيبك إلى ما تريد على أنني لا أمر ولا أنهي ولا أفتي ولا أقضي ولا أولي ولا أعزل. فأجابته المأمون إلى ذلك كله.

وعلى الرغم من أن الرضا لم يباشر أي سلطة إلا أن هذا لم يلق قولاً من بني العباس. يقول المسعودي: بايع المأمون للرضا علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالعهد من بعده، فاضطرب من بمدينة السلام من الهاشميين. وعظم ذلك على أهل بغداد عامة، وعلى الهاشميين خاصة. لزوال الملك عنهم ومصوه إلى ولد أبي طالب، فأخرجوا الحسن بن سهل وكان خليفة المأمون على العواق. وبايعوا المنصور بن المهدي، فلم يتم له أمر، وكان مضعفاً فبايعوا أخاه إبراهيم بن المهدي بالخلافة لخمس من المحرم سنة 202 هـ، ودعي له على المنابر بمدينة السلام وغيرها، فوجه الجيوش لمحاربة الحسن بن سهل خليفة المأمون على العواق، وهو يناجيه المدائن، فكانت الحروب بينهم سجلاً سنة 201 هـ. ومات الإمام الرضا عام 203 هـ. وقيل قتل (2). وبعد وفاة المأمون عام 218 هـ. بدأت شجرة المعتزلة

(1) التنبية والإشراف 318 / 1، دول الإسلام / الذهبي 113.

(2) قال المسعودي: قبض الرضا بطوس لعنب أكله وقيل أنه كان مسموماً (مروج الذهب =

الصفحة 398

تجف. وعندما جاء عهد المتوكل سنة 232 هـ يقول المسعودي: أمر المتوكل يتوك النظر والمباحثة في الجدل. والتوك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والوائق والمأمون وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر شوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة (1). وبايع المتوكل لبنيه الثلاثة: محمد المنتصر بالله، وأبي عبد الله المعتز بالله، والمستعين بالله. وفي ذلك يقول ابن المدبر في ذكوه لهذه البيعة:

يا بيعة مثل بيعة الشجرة * فيها لكل الخلائق الخوة

آدها جعفر وصوها * إلى بنيه الثلاثة البررة (2)

وفي ذلك يقول علي بن الجهم:

قل للخليفة جعفر يا ذا الندى * وابن الخلائف والأئمة والهدى

لما ردت صلاح دين محمد * وليت عهد المسلمين محمداً

وثنيت بالمعتز بعد محمد * وجعلت ثالثهم أعز مؤيدا (3)

وفي عام 235 هـ أمر المتوكل بهدم قبر الحسين وهدم ما حوله من النور، وخرب وبقي صواء. يقول السيوطي: وكان المتوكل معروفاً بالتعصب (4).

وسلرت الأمور بعد المتوكل إلى ما ذكرناه. يقول الدكتور أحمد أمين: إن السلطات الحكومية من عهد المتوكل. قد تخلت عن نصوة المعتزلة، وأغلب الناس يمالؤون السلطة أينما كانت ويخافون أن يعتنقوا مذهباً لا ترضاه. فهربوا من الاعوال إلى من يهاجم الاعوال (5). وفي أثناء ذلك، ظهر أبو الحسن الأشعري، الذي ولد بالبصرة عام 260 هـ. وكان قد التحق

بالمعتزلة مبكراً

(1) مروج الذهب 98 / 3، دول الإسلام 126 / 1.

(2) المصدر السابق 100 / 4.

(3) المصدر السابق 100 / 4.

(4) تزيخ الخلفاء 321 / 1.

(5) تزيخ الفوق الإسلامية ص 150.

الصفحة 399

ودرس مذهب الاعتزال على الجبائي رئيس معتولة البصوة أربعين سنة⁽¹⁾. وظل الأشعوي يؤمن ببراء أستاذه ويناضل عنها بحماس، ولكن الناس شاهنوا عليه تغييرا مفاجئا، حيث اعتكف في منزله بضعة أيام لا يرى أحد. ثم خرج على إثر ذلك فصعد المنبر في وسط جوع حاشدة من الناس ثم قال بعد أن زع عباءته:

إني كما خرجت من هذه العباءة، أعلن وائتي من كل أخطائي السابقة، وأصوح بأن جميع رأئي الماضية باطلة⁽²⁾. ويقول الشيخ أبو زهرة: إن الأشعوي وجد من نفسه ما يبعده عن المعتولة، مع أنه تغذى من مؤاندهم. ونال من ثورات تفكرهم، ثم وجد ميلا إلى آراء الفقهاء والمحدثين، مع أنه لم يغش مجالسهم ولم يدرس العقائد على طريقتهم⁽³⁾. وبدأ الأشعوي يشن هجومه على المعتولة. يقول الصعيدي في كتاب المجدون في الإسلام: أنه كان الأجدر بالأشعوي ألا ينتكر لمذهب مكث معتقنا صوابه أربعين سنة، كل هذا التتكر، لأنه بلا شك كان مخلصا في اعتقاده له كل هذه المدة، بل كان له وجهه من النظر يعتمد عليها فيه. ووى معها أنه لا تنافي في الإسلام إن لم يكن هو الإسلام، فلا يصح أن ينفي الإسلام عن المعتولة أو يقال أنهم فساق مسلمون، وإنما هم يثابون على صوابهم ويعنزون في خطأهم.

وقد انتفع بهم خلقا كثيرا.. لم يكن من اللائق أن يبالغ في خصومتهم بعد مخالفته لهم لأنهم كانوا أساتذته⁽⁴⁾. ويقول

الدكتور حمودة في كتابه الأشعوي:

كثير من الباحثين تعوض لأسباب تحول الأشعوي. ويذكره ناقوه تبعا لبعض الروايات عن معاصريه، أنه كان خاضعا في ذلك لضغط من أفراد أسرته، كما يحاول البعض الآخر تعليل ذلك وغبة إلى الحسن أن يستغل كراهة الشعب للمعتولة، وأن يظفر بالبطولة والمجد على حسابهم⁽⁵⁾.

(1) تاريخ بغداد 347 / 11.

(2) تزيخ الفوق الإسلامية، ص 151.

(3) تزيخ المذاهب الإسلامية 160 / 1.

(4) تزيخ الفوق الإسلامية ص 152.

(5) المصدر السابق 153 / 1.

وإذا كانت هذه مقدمة الأشعوي، فيجب أن نلقي نظرة على النتيجة. يقول الشيخ أبو زهرة: وقد نال الأشعوي متولة عظيمة. وصار له أنصار كثيرون ولقي من الحكام تأييدا ونصرة. فتعقب خصومه من المعتولة وغيرهم. وبث أنصاره في الأقاليم يحاربون خصوم الجماعة ومخالفها. ولقبه أكثر علماء عصوره بإمام أهل السنة والجماعة⁽¹⁾. وقد استمرت عقيدة الأشعوي وكتب لها البقاء⁽²⁾. وإذا كنا قد عرفنا بداية الحركة ونتيجتها الخاصة بالأشعوي، فإننا نلقي هنا بعض الضوء على هذه العقيدة. يقول الشيخ أبو زهرة: إن الأشعوي جاء لإحياء آراء الإمام أحمد بن حنبل في نظره إذ يعتبر منهاجه هو منهاجه⁽³⁾. وأنه يرى أن ما يعتقدوه هو رأي الإمام أحمد. ويعتبره الإمام المقدم والعالم المفهم⁽⁴⁾. وأن الدرس لحياة الأشعوي يجد أن الذي يتفق مع اطلاعه هو أن يختار مذهبا وسطا⁽⁵⁾. فأيها في الصفات وسط بين المعتولة ومعهم الجهمية، وبين الحشوية والمجسمة. فالأولون نفوا الصفات ولم يثبتوا إلا الوجود والقدم والبقاء والوحدانية، ونفوا السمع والبصر والكلام وغيرها من الأوصاف الذاتية، وقالوا: ليست شيئا غير الذات وإنما في القوان أسماء الله تعالى كالرحمن والرحيم. وجاء الأشعوي فأثبت الصفات التي وردت كلها في القوان والسنة، وقرر أنها صفات تليق بذات الله.. فسمع الله ليس كسمع الحوادث وبصوه ليس كبصوهم وكلامه ليس ككلامهم.

ويقول الشيخ خليل الزين في هذا المجال: وجاء في دائرة المعارف الإسلامية. أن الأشعوي خالف المعتولة بقوله: إن الله صفات زلية مثل العلم والبصر والكلام. وأنه عالم بعلم بصير يبصر متكلم بكلام وينكر المعتولة أن الله

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية 168.

(2) تزيخ الفوق الإسلامية 164.

(3) تزيخ المذاهب الإسلامية 162.

(4) المصدر السابق 165.

(5) المصدر السابق 165.

صفات ويقولون: أنه عالم بذاته متكلم بذاته. وقالت المعتولة إن ما جاء في القوان الكريم مثل: يد الله ووجهه يجب أن تفسر على أنها لطفه وذاته، أما الأشعوي فمع تسليمه بأنه ليس ذلك شئ من المفهوم التجسدي فإنه يرى أن هذه الصفات حقيقة لا نعلم طبيعتها بدقة. وهو يرى مثل هذا الرأي مثل استواء الله على العرش. فهو يقول إن الاستواء على العرش ليس معناه الاستيلاء أو القهر أو الغلبة، بل العواد الاستواء حقيقة، وليس للمعتولة أن ينكروا ذلك. إذ كيف يجوز لهم أن يسلموا بوجود الله في كل مكان وينكرون أنه عليه العرش.

ويقول: لو كان الاستواء على العرش هو القوارة والاستيلاء لما كان هناك فرق بين العرش والأرض⁽¹⁾.

أما عقيدته في مرتكب الكبوة، يقول الشيخ أبو زهرة: وبالنسبة لموتكب الكبوة قال المعتولة: إن صاحب الكبوة مع إيمانه

وطاعته إذا لم يتب عن كبروته لا يخرج من النار. وقال المرجئة: من أخلص لله وآمن فلا تضره كبره مهما تكن. فسلك الأشعوي طريقا وسطا وقال: المؤمن الموحد الفاسق هو في مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عاقبه بفسقه ثم أدخله النار ⁽²⁾.

وأما عقيدته في قوة الله يقول الشيخ أبو زهرة: ورأيه في قوة الله وأفعال الإنسان وسط بين الجبرية والمعتولة. فالمعتولة قالوا: أن العبد هو الذي يخلق أفعال نفسه بقوة أودعها الله تعالى إياه. والجبرية قالوا: أن الإنسان لا يستطيع إحداث شيء ولا كسب شيء، بل هو كالريشة في مهب الريح فقال الأشعوي:
إن الإنسان لا يستطيع إحداث شيء ولكن يقدر على الكسب ⁽³⁾.

وبالنسبة لرؤية الله يوم القيامة يقول الشيخ أبو زهرة: قال المعتولة: الله سبحانه وتعالى لا يرى... وقال الأشعوي، يرى من غير حلول ولا

(1) تاريخ الفرق الإسلامية 158.

(2) تزيخ المذاهب ص 167.

(3) المصدر السابق 166.

الصفحة 402

(1) حدود . ويقول الشيخ خليل الزين: زه المعتولة ذات البري عن كل آفة. وعضوا واستدلوا على صحة دعواهم بالكثير من الأدلة. نفا رؤية البري تعالى بنفي الجسمية، فإذا انتفت الجسمية انتفت الجهة، وإذا انتفت الجهة انتفت الرؤية، لأن المرئي له حيز وجهه وشكل، والجميع محال تحققها في ذات الله. نفا الجسمية بقولهم: أن كل جسم حادث ومحتاج إلى الإغاض، وأن الذي لا يتخلى عن الحادث لا بد أن يكون حادثا. نفا الرؤية بالدليل العقلي والنقلي بقول تعالى: (لا تتركه الأبصار وهو يدرك) وقوله تعالى مخاطبا موسى عليه السلام: (لن زاني) فأدلتهم في التوحيد مركبة من العقلية والنقلية ⁽²⁾. وذهب الأشعوي إلى جواز رؤية الله تعالى في الآخرة، وقال: إن كل موجود يصح أن يرى. فإن المصحح للرؤية هي إنما هو الوجود. والبري موجود فيصح أن يرى ⁽³⁾. ويقول الشيخ أبو زهرة: وبالنسبة للألفاظ التي وردت موهمة للتشبه في القوان مثل... (يد الله فوق أيديهم)، وقال المعتولة: المراد سلطان الله فوقهم.

وقال الحشوية: يده يد جرحه. وقال الأشعوي: يده يد تليق بذاته ⁽⁴⁾.

كانت هذه أهم ملامح مذهب الأشعوي. ويقول الشيخ أبو زهرة: وجاء من بعد الأشعوي علماء يخالفونه. فابن حزم يعد الأشعوي من الجبرية، لأن رأيه في أفعال الإنسان لا يثبت الاختيار للعبد ⁽⁵⁾، وعن منهج الأشاعوة يقول الدكتور محمود قاسم في كتاب مناهج الأدلة في عقائد الملة: إنهم أنكروا ضرورة وجود الغاية والحكمة والصلاح في العالم. وحقروا من شأن العقل في التفوق بين الحسن والقبيح. وزعموا أن الشرع لو مدح الكاذب لكان حسنا ولو ذم الصدق

لكان قبيحا، كذلك نفت هذه المدرسة أن يكون للفرد حرية واختيار وقوة على خلق أفعاله. ومع ذلك فهي ترى أنه من الممكن أن المكلف الكافر بالإيمان مع عدم استطاعته له. بناء على رادة الله ومشينته⁽¹⁾ ومما سبق يمكن القول أن الاختلاف بين المذاهب قد وقع. وأن هناك من أصاب الحقيقة أو اقترب منها. وأن هناك من ابتعد عنها وقطع شوطا كبيرا في عالم الفتنة والتأويل. ذلك العالم الذي يدخله الذين في قلوبهم زيغ. وأن العمود الفقري لهذا الاختلاف، تلك الآراء التي تعرض بعضها بعضا فيما يختص بمعرفة الله عز وجل. بمعنى أن الاختلاف في معرفة الله هو عمدة الاختلافات.

والله تعالى لم يتوك معرفته للعباد كي يقولوا فيها بآرائهم، وإنما بعث الأنبياء والوسل ليبينوا ذلك لأممهم، لأن الهدف من خلق الجن والإنس أن يعبدوا الله.

ولا تصح عبادة الله إلا بمعرفة الله. فالمنحرفين من أهل الكتاب يعبدون الله، ولكنهم انحرفوا عن المعرفة الحقة. فأصبحت العبادة هباء ضائع في خلاء.

. في رأينا أن أسباب هذا الاختلاف، يعود إلى إبعاد الراضين في العلم عن مزاوله عملهم الوسالي وسوق الناس إلى صواط الغريز الحميد، لينالوا سعادة الدنيا بما يتوافق مع الكمال الأخروي. وهذا الاختلاف يصوخ في أعمال الوجود. إن الكتاب لو كان في غير حاجة إلى الراضين في العلم أصحاب التأويل، لأجمع الناس على مدلوله ولم تفوق الأمة. ولكن الاختلاف قد وقع عندما جلس الذين يحتاجون إلى التعليم والإرشاد على المقاعد الأولى. ليصبحوا قوين القوان الذي اشتمل تبيان كل شئ، وأول هذه الأشياء معرفة البري جل وعلا. ولقد تحدثنا من قبل أن الله تعالى جعل المودة والرحمة بين الزوجين. لتكون رضية إنشاء البيت المسلم وانتصرا للفظوة. وأخر مودة ذي القوي أحوال للرسالة الخاتمة. والفوق بين المودة بين الزوجين وبين مودة ذي القوي، أن الأولى مجعولة داخل النسيج الإنساني. أما الثانية فأمور بها لتكون حركة لينظر الله إلى عباده كيف يعملون. فالداوة الأولى وقود للداوة الثانية،

وعندما أبعد أهل العلم الذين رفعهم الله درجات وجعلهم قرين الكتاب ولا ينفصلا حتى يردا على الحوض. والله يوكي من يشاء. عندما أبعثوا وانتهى المطاف بعدم رواية الحديث. وظهور الذين وضعهم الرسول في دائرة التحذير، بعد أن خمد التحذير منهم في عالم اللارواية، بدأ هؤلاء يضعون الحديث على رسول الله. ومن هذه التوبة خرجت القبرية والجبرية والمرجئة وغوهم، فكل مذهب كان له وقوده من الحديث والتأويل. ويشرف على أكثرهم علماء أهل الكتاب الذين لا يتوكلون فتنة إلا سلوا إليها. ومن توبة الأحاديث الموضوعية جاء اختلاف الرواية والفتيا والسورة والأخلاق وطريق الهداية والإرشاد وكل شيء، ونحن نرى أن الكثير من الحديث وضع الخدمة أصحاب المقاعد الأولى وتحقيق أهدافهم. وأن الكثير من الحديث الصحيح تم تأويله لخدمة نفس الأهداف، التي منها اتخذ مال الله ولا ودين الله دخلا وعباد الله خولا، وأول خطوة لتحقيق هذه الأهداف كانت فتح باب المواجهة مع أهل البيت ولا اختلاف ولا خلاف بين أهل العلم على أن عليا كان مصيبا في قتاله لأهل البغي وأن أهل البغي عندما ركعوا على رقبة الأمة قاموا بسب الإمام على مناوهم وقتلوا أتباعه، ثم فتحوا الأبواب أمام أغيلمة قريش الذين أقاموا لجعل الإمام على المجازر.

لقد كان أهل البيت حلقة وجهوا إليها الضربات ليكون الطويق أمام الحلقة الثانية مفتوحا فتوجه إليها الضربات بما يستقيم معها، وبما يتقبله العامة في هوء. وذلك بطرح مجموعة من الأحاديث يكون الهدف منها التقليل من شأن النوبة ومن تحت عباءة ثقافة التقليل يحققون هدف التماس الأعذار. بمعنى إذا كان هذا هو شأن النبي فلا عصمة لأحد. ومن هذا الباب تلتقي هذه الأعذار مع العقائد التي تشرف عليها النولة. بمعنى يكفي أن يكون قلبك عامرا بالإيمان وأنت على طويق ضاعت فيه الصلاة.

روي البخاري عن أبي هريرة قال: أقيمت الصلاة. وعدلت الصفوف قياما. فخرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قام في مصلاه ذكر أنه جنب. فقال لنا: مكانكم. ثم رجع فاغتسل. ثم خرج إلينا ورأسه يقطر.

الصفحة 405

(1) فكبّر فصلينا معه . وروى البخاري عن أبي هريرة قال: صلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم الظهر أو العصر. فسلم. فقال له ذو اليمين: أنسيت أم قصوت؟ قال النبي: لم أنس ولم أقصر. فقال ذو اليمين: بلى قد نسيت (2) . وفي رواية: فقال له ذو اليمين: أقصوت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ قال النبي: أصدق ذو اليمين قال الناس: نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى اثنتين أخريين ثم سلم... الحديث (3) .

وروى البخاري أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، وقال: يا رسول الله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال النبي: والله ما صليتها... الحديث (4) . وروى البخاري عن قتادة قال: سونا مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فقال بعض القوم: لو عرست بنا يا رسول الله. قال: أخاف أن تتاموا عن الصلاة. فقال بلال: أنا أوقظكم فاضطجعوا. وأسند بلال ظهوه إلى راحلته فغلبته عيناه فنام.

(5) فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم. وقد طلع حاجب الشمس. فقال: يا بلال أين ما قلت... الحديث .

روى مسلم عن عائشة: اعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رقد ناس واستيقظوا. ووقفوا واستيقظوا فقام عمر بن

الخطاب فقال: الصلاة. وفي رواية:

الصلاة نام النساء والصبيان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما كان لكم أن تنزروا رسول الله على الصلاة..

الحديث (6) . معنى ما كان لكم أن تنزروا:

أي تلحوا عليه فيها.

(1) البخاري (الصحيح 60 / 1) ك الغسل.

(2) البخاري (الصحيح 212 / 1) ك الكسوف باب ما جاء في السهو.

(3) البخاري (الصحيح 212 / 1) ب ما جاء في السهو.

(4) البخاري (الصحيح 112 / 1).

(5) البخاري (الصحيح 112 / 1) ك الصلاة، باب الأذان بعد ذهاب الوقت.

(6) رواه مسلم (137، 138 / 5 الصحيح)، في كتاب المساجد وقت العشاء.

الصفحة 406

ولم يقتصر نسيان النبي كما قالوا على الطهارة وعدد الركعات والصلاة في وقتها، وإنما شمل النسيان أشياء أخرى. روى

البخاري عن عائشة قالت: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقرأ القرآن. فقال: رحمه الله. لقد أذكري كذا وكذا آية من

سورة كذا (1) وفي رواية يوحى الله لك أذكري كذا وكذا آية كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا (2) .

لا حرج على أصحاب المقاعد الأولى في نسيان كل شيء ما دام القلب عامراً بالإيمان وهذا باب كبير في عقيدة العرجة

التي نسجت خيوطها على حساب الدعوة. إن هذه الأحاديث وغيرها تم تأويلها لخدمة أهداف الذين ضيعوا الصلاة، ثم كيف

يجري على النبي صلى الله عليه وسلم النسيان وهو القائم بدعوة الناس إلى صراط العزيز الحميد. وما هي الحكمة من محافظة

عمر بن الخطاب على الصلاة بينما رسول الله إما ناسياً أو نائماً.

ولم يقفوا في التأويل عند هذه الأحاديث وإنما ذهبوا إلى أبعد من هذا.

روى البخاري عن عائشة قالت: سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني زريق يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى

كان النبي صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أن يفعل الشيء وما فعله.. الحديث (3) . كيف تكون هناك قوة للساحر على نبي الله

ورسوله؟ كيف والله تعالى نفى السحر عن رسوله فقال: (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً * انظر كيف ضربوا لك

الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً) (4) .

ومن دائرة السحر هبطوا، فوفعوا بعض الصحابة على مقام النوبة. ليعطوا لأنفسهم المبرر في ركوب رقبة الأمة مع وجود

السابقين عليهم والأفضل منهم.

روى البخاري: استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه

(1) البخاري (الصحيح 233 / 3) في فضائل القرآن باب نسيان القرآن.

(2) البخاري (الصحيح 233 / 3).

(3) البخاري ك الطب باب هل يستخرج السحر (الصحيح 20 / 4).

(4) سورة الفرقان: الآية 7، 8.



وسلم. وعنده نوسة من قريش يكلمنه ويستكثونه عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر قمن فبارن الحجاب (1) ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدخل عمر ورسول الله يضحك!! فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله. قال النبي: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب. فقال عمر: فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله.. فقال رسول الله: إيها يا ابن الخطاب. والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك (2) . وروى الترمذي عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا. فسمعنا لغطا وصوت صبيان. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا حبشية توف والصبيان حولها. فقال النبي: يا عائشة تعالي فانظري. فجئت فوضعت لحيي على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجعلت أنظر إلى ما بين المنكب إلى رأسه فقال لي: أما شبعت. فقلت، لا. لأنظر متولتي عنده. إذ طلع عمر بن الخطاب. فرقص الناس عنها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر.. الحديث (3) . وروى البخاري عن عائشة قالت: دخل علي النبي صلى الله عليه وسلم. وعندي جريتان تغنيان بغناء بعث فاضطجع النبي صلى الله عليه وسلم على الفواش وحول وجهه. فدخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزملة الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأقبل عليه النبي صلى الله عليه وسلم قال: دعهما... الحديث (4) . وهكذا رأينا رواية يقول فيها النبي صلى الله عليه وسلم لعمر: والذي

(1) إن المبادرة بالحجاب لازمة عند دخول الأجنبي سواء كان عمر أولا. هذا إذا كانت هذه الواقعة بعد نزول آية الحجاب، أما إذا كانت قبل نزول آية الحجاب، فما الداعي لأن يقمن وبيادرن الحجاب. كان يكفي القيام ولا حاجة للحجاب (السندي شرح البخاري 294 / 1).

(2) البخاري (الصحيح 294 / 2) ك بدء الخلق ب مناقب عمر .

(3) رواه الترمذي وصححه (الجامع 622 / 5).

(4) البخاري ك الجهاد والسير، باب الرق (الصحيح 154 / 2).

نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك. ورأينا في رواية أن النبي نسي كم صلى، وعند البخاري قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطان فلبس عليه حتى لا يوري كم صلى. فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس (1) ، وروى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما منكم من أحد إلا ومعه شيطان. قالوا: وأنت يا رسول الله. قال: وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم (2) - وفي رواية بزيادة: فلا يأمنني إلا بخير (3) . ويا للعجب عمر يفر الشيطان منه. بينما يأمر النبي بخير. كيف والله تعالى هو الأمر ولا أمر سواه. قال تعالى: (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبوا إلا إياه) (4) . كيف وليس للشيطان على الرسول سبيلا. قال تعالى: (وما ينطق عن الهوى). ومنذ متى والشيطان يأمر بالخير والله تعالى يقول: (فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) (5) . وقال: (إن الشيطان كان للرحمن عصيا) (6) . وقال: (وكان الشيطان للإنسان خفولا) (7) . وقال: (هل أتبنكم على من تتول الشياطين تتول على كل أفاك أثيم) (8) . أما خير خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول له البري تبرك وتعالى: (وتوكل على الغرير الوحيم الذي واك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين (9)

* إنه هو السميع العليم) . ويقول له: (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) .

(1) البخاري ك الكسوف باب إذ لم يدر كم صلى (الصحيح 213 / 1).

(2) رواه مسلم (كنز العمال 247 / 1).

(3) رواه أحمد ومسلم (كنز العمال 247 / 1).

(4) سورة يوسف: الآية 40.

(5) سورة النور: الآية 21.

(6) سورة مريم: الآية 44.

(7) سورة الفرقان: الآية 29.

(8) سورة الشعراء: الآية 221 - 222.

(9) سورة الشعراء: الآية 217 - 220.

(10) سورة الحجر: الآية 98 - 99.

الصفحة 409

ولم تقف الحركة عند زمن البعثة حيث فضلوا على النبي بعض صحابته.

وإنما تتبعا الحركة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وقداموا مواقف ترفع من شأن الباحثين عن الحقيقة أمثال زيد بن عمرو بن نفيل. روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي زيد بن عمرو قبل أن يتول الوحي على النبي. فقدم إليه النبي سؤة. فأبى زيد أن يأكل منها وقال: إني لست آكل ما تدبجون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه ⁽¹⁾.

وروى الديلمي قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " سمعت زيد بن عمرو، يعيب أكل ما ذبح لغير الله فما ذقت شيئا ذبح على النصب حتى أكرمني الله تعالى بما أكرمني به من رسالته ⁽²⁾. وكما أظهروا فضل زيد بن عمرو. أظهروا فضل قس بن ساعدة الأيادي، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " رحم الله قسا كاني انظر إليه على جمل أورك تكلم بكلام له حلاوة ولا أحفظه " ⁽³⁾.

كيف وهو النبي الأعظم الذي اصطفاه على أرضية الجنور الطاهرة. لقد قال النبي الأعظم: إن الله خلق الخلق فجعلني في خروم فرقة. ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خروم فرقه. ثم جعلهم قبائل فجعلني في خروم قبيلة. ثم جعلهم بيوتا فجعلني في خروم بيتا وخروم نفسا ⁽⁴⁾. كيف وقد سأله: يا رسول الله هل أتيت في الجاهلية شيئا حراما؟ قال: لا ⁽⁵⁾. وقيل له: هل

عبدت وثنا قط؟ قال: لا، قالوا: فهل شربت خمر قط؟ قال: لا. وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أوري ما

⁽⁶⁾ الكتاب .

(1) البخاري ك بدء الخلق ب حديث زيد بن عمرو (الصحيح 316 / 2).

(2) الديلمي (كنز 79 / 12).

(3) الأردني (كنز 77 / 12).

(4) رواه الترمذي وصححه (الجامع 584 / 5).

(5) رواه ابن عساكر (كنز 348 / 12) وقال الهيثمي رواه الطواني في الثلاثة (الزوائد 226 / 8).

(6) رواه أبو نعيم (كنز العمال 406 / 3).

الصفحة 410

والخلاصة: أن الهدف كان من أجل نشر ثقافة لا تقود إلى حقيقة، ولا تدين الذين ركبو رقبة الأمة.. بمعنى أن القامات متساوية. ولم يكن الهدف من وراء هذه الثقافة نشرها على العامة في الطرقات، وإنما دقها أمام الباحثين ليفوز المرجئة والجبرية وجميع المذاهب التي تتادي بالمقامات المتساوية. ولقد رأينا على أرضية هذه الأحاديث أن هناك من يتقدم خطوة فيصلي بينما الرسول ينام.

ويتذكر كم صلى بينما الرسول ينسى ويخاف منه النسوة بينما الرسول يضحك ويتعجب ويفر منه الشيطان بينما زملوه في بيت الرسول. ورأينا قبل البعثة كيف كان أصحاب الروع لا يأكلون إلا ما ذكر عليه اسم الله، وكيف أن المعصوم استفاد منهم الكثير. وأنه سمع من قسا كلام له حلاوة وطلاوة. ورأينا كيف نسوا إليه أنه سحر فكان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله. فإذا أضيف إلى هذا كله أنه كان ينسى آيات القرآن وأنه لم يأمر بجمعه ولا بجمع السنة وأنه لم يعين نائباً له ليسوق الناس إلى صراط العزيز الحميد، فلنا أن نتوجه بسؤال إلى بني أمية ومن شايعهم ومن شويوا من إنائهم فنقول: ماذا أبقيتم من النبوة؟ بعد أن اتخذتم مال الله ولا ودين الله دخلاً وعباد الله حلاً.

ومن دائرة النبي صلى الله عليه وسلم هبطوا إلى دائرة القرآن الكريم.

روى البخاري عن عمر بن الخطاب قال: إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق. وأقول عليه الكتاب، فكان مما أقر الله آية الرمح. فوأنها وعقلناها ووعيناها. رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرمح في كتاب الله. فيضلوا بترك فريضة أتوها الله. والرمح في كتاب الله حق على من زنى إذا أحسن من الرجال والنساء.. ثم إننا كنا نقول من كتاب الله: أن لا تغوا عن آبائكم فإن كفر بكم أن تغوا عن آبائكم... الحديث⁽¹⁾. وأخرج مسلم عن عائشة أنها قالت: كان فيما أتول من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم

(1) البخاري ك الحدود ب رجم الحبلى (الصحيح 179 / 4).

الصفحة 411

نسخن بخمس معلومات. فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي فيما يوقاً من القرآن⁽¹⁾. وروى البخاري عن علقمة.

قال: قدمنا الشام، فأتانا أبو برداء فقال: أفيكم أحد يوقاً علي قاءة عبد الله، فقلت: نعم أنا، قال: فكيف سمعت عبد الله يوقاً

هذه الآية (والليل إذا يغشى)، قلت: (والليل إذا يغشى).

والذكر والأنثى). فقال: وأنا والله هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأها. ولكن هؤلاء يريدون أن أقوا (وما خلق) فلا أتابعهم (2). فهذه الأحاديث لها تأويلها، ولكن لتأويل الجبرية والموجئة طرق أخرى ولبنى أمية ومن شايعهم أهداف أخرى.

وبالإضافة إلى هذه الأحاديث، يوجد كم غير قليل من الأحاديث التي تدعو إلى التسليم بالأمر الواقع، الأمر الذي أدى إلى دخول الأمة إلى دائرة القهر التاريخي. أو إلى دائرة الاحتقان التاريخية. وهناك أحاديث كثيرة تدعو إلى ترك الدنيا والزهد وترتب على ذلك ظهور طبقات من الصوفية. منها ما هو قريب.

ومنها ما هو بعيد، وعلى هذا تعمقت جنور الطاغوت الذي يوقع أعلام الجبرية، ويرتدي ملابس الموجهة وغرهم. وعلى هذا تقدم الطابور الذي يتخذ تهويد الفطرة أو تتصوها هدفا له. وبعد أن طوحت الأحاديث لينال كل طابور ما يتفق مع أهوائه، وبعد أن دقوا الأوتاد حول دائرة الطهر وحول كتاب الله وحول عباد الله. هبطوا درجات، ودخلوا من باب الأسماء والصفات، فتأولوا الأحاديث الخاصة بها. وترتب على ذلك حدوث التباس في معرفة البري جل وعلا، والتي على قوائمها تبنى العبادة الحق. ومن هذه الأحاديث التي تحدث الالتباس وتحير العقول كان ابن عباس ينتفض. فعن طلوس عن أبيه عن ابن عباس قال: حدث رجل بحديث أبي هرة فانتفض ابن عباس وقال: ما بال أقوام يجنون (3) عند محكمة ويهلكون عند متشابهة " (4). قال الألباني: لم أقف عن حديث أبي

(1) مسلم (الصحيح 29 / 10).

(2) رواه البخاري كالتفسير (الصحيح 215 / 3).

(3) يجنون / أي يجتهون.

(4) رواه ابن أبي عاصم (كتاب السنة 212 / 1) وقال الألباني إسناده صحيح.

الصفحة 412

هروء... ويغلب الظن أنه حديث " إن الله خلق آدم على صورته " وهو حديث صحيح (1).

وهذا النوع من الحديث قامت عليه مذاهب ومدلس وعلى قاعدتهم حدث الاختلاف والافتراق، وكما ذكرنا من قبل أن حزمة الأحاديث التي ذكرناها في هذا الباب أحاديث صحيحة تم تأولها لخدمة أهداف سياسية. من هذه الأحاديث ما رواه البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول ربنا تبرك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا. حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له. من يسألني فأعطيه. ومن يستغفر فأغفر له (2). وما رواه البخاري عن رؤية الله تعالى يوم القيامة. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته (3). وروى البخاري أن الله يجمع الناس يوم القيامة.

فيقول: (من كان يعبد شيئا فليتبعه " إلى أن قال: " وتبقي هذه الأمة فيها مناقوها. فيأتهم الله في غير الصورة التي

يعرفون. فيقول: أنا ربكم. فيقولون:

نعوذ بالله منك! هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا. فإذا أتانا ربنا عرفناه. فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه " (4) . وروى البخاري أن حديثاً سيحوي بين الله وبين أحد عباده يقول فيه العبد: " إني رب أدخلني الجنة " إلى أن يقول له الله: " ويملك يا ابن آدم ما أغترك. فيقول إني " رب لأكونن أشقى خلقك، فلا زال يدعو حتى يضحك الله منه. فإذا ضحك منه قال له: ادخل الجنة " (5) . وما رواه البخاري أيضا يقال لجهنم يوم القيامة: " هل امتلأت. تقول: هل من مزيد. فيضع الرب تبرك وتعالى قدمه عليها فتقول: قط

(1) رواه البخاري (الصحيح 85 / 4).

(2) البخاري ك الدعوات ب الدعاء ونصف الليل (الصحيح 101 / 4).

(3) البخاري ك التوحيد ب وجه يومئذ ناضوة (الصحيح 243 / 4).

(4) البخاري ك الدعوات ب الصراط جسر جهنم (الصحيح 140 / 4).

(5) البخاري ك التوحيد باب وجه يومئذ ناضوة (الصحيح 284 / 4)

الصفحة 413

قط (1) وفي رواية: فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط قط. فهناك تمتلئ ويروي بعضها إلى بعض " (2) .
فهذه الروايات وأمثالها تم تأويلها على رقعة كبيرة من أرض الاختلاف.
واستغلها الذين لا يؤمنون بالعقل، فأثبتوا لله النزول إلى الناس في ظلل من الغمام والاستقرار على العرش. وأثبتوا الله الضحك والسرور والحزن وأثبتوا له الوجه واليد والقدم. من غير تأويل ولا تفسير ومن أهم أعلام الذين لا يؤمنون بالعقل " ابن تيمية " الذي زعم أن هذا هو مذهب السلف الصالح. يقول الشيخ أبو زهرة: وما أقوه ابن تيمية. أن مذهب السلف إثبات كل ما جاء في القرآن الكريم من فوقية وتحتية واستواء على العرش. ووجه ويد ومحبة وبغض وما جاء في السنة أيضا. من غير تأويل. وبالظاهر الحرفي (3) . ثم يتساءل الشيخ أبو زهرة:

هل هذا هو مذهب السلف حقا؟ ونقل في الإجابة على ذلك. لقد سبقه بهذا الحنابلة في القرن الرابع الهجري وادعوا أن ذلك مذهب السلف، وناقشهم العلماء في هذا الوقت. وأثبتوا إنه يؤدي إلى التشبيه والجسمية لا محالة. وكيف لا يؤدي إليهما والإشلة الحسية إليه جاؤة، لذا تصدى لهم الإمام الحنبلي ابن الجزري. ونفى أن يكون ذلك مذهب السلف. ونفى أيضا أن يكون ذلك رأي الإمام أحمد. وقال: رأيت من أصحابنا من تكلم في الأصول بما لا يصح.

فصنفا كتبنا شأنوا بها المذهب، ورأيتهم قد تروا إلى مرتبة العوام فحملوا الصفات على مقتضى الحس. سمعوا حديث أن الله خلق آدم على صورته، فأثبتوا له صورة ووجها زائدا عن الذات. وفما ولهوات وأضواس وأضواء لوجهه. ويدين وأصبعين وكفا وخصوا وإبهاما. وصورا وفخذا وساقين ورجلين وقالوا: ما سمعنا بذكر الرأس! وقد أخنوا بالظاهر في الأسماء والصفات...

ويقولون: نحن أهل السنة. وكلامهم صريح في التشبيه. وقد تبعهم خلق من

العوام. وقد نصحت التابع والمتوع وقلت: يا أصحابنا أنتم أصحاب وأتباع.

وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل يقول: كيف أقول ما لم يقل. فإياكم أن تبتدعوا في مذهبه ما ليس منه ⁽¹⁾.

كان هزارد ابن الجوزي عليهم عندما خرجت شجرتهم. ويقول الشيخ أبو زهرة: ولقد قال في ذلك القول الذي ينتقده ابن الجوزي. القاضي أبو يعلى الحنبلي المتوفى 457 هـ وابن الواغوني المتوفى 527 هـ. وهكذا استتكر الحنابلة ذلك الاتجاه عندما شاع في القرن الرابع والخامس الهجري، ولذلك استتر هذا المذاهب. حتى أعلنه ابن تيمية المتوفى 768 هـ في حوأة وقوة. وزاد آراءه انتشرا اضطهاده بسببها. فإن الاضطهاد يذيع الآراء وينثوها، ولذلك كثر أتباعه بسبب الاضطهاد وكسب الرأي ذيوعا وانتشورا. وفي هنا أنه يجب أن تذكر أن الادعاء بأن هذا مذهب السلف موضع نظر ⁽²⁾.

ويقول ابن حجر الهيتمي المتوفى 974 هـ -: ابن تيمية عبد خذله الله وأضله وأعماه وأصمه وأذله، وبذلك صوح الأئمة الذين بينوا فساد أهوال وكذب أقواله. ومن راد ذلك فعليه بمطالعة كلام أبي الحسن السبكي... والحاصل أن لا يقام لكلامه وزن. بل يرمي في كل وعر وحزن. ويعتقد فيه أنه مبتدع ضال ومضل. جاهل غال. عامله الله بعدله وأجره من مثل طريقتة وعقيدته وفعله أمين ⁽³⁾. وذكر ابن حجر عقيدة ابن تيمية وفيها: أن ربنا محل الحوادث وأنه مركب تفتقر ذاته افتقار الكل للجزء. ويقول بالجسمية والجهة والانتقال. وأن الله بقدر العرش لا أصغروا أكبر. ويقول: أن النار تفتنى وأن الأنبياء غير معصومين. وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا جاء له. ولا يتوسل به.

وأن إنشاء السفر إليه بسبب الزيلة معصية. وأن التوراة والإنجيل لم تبدل

ألفاظهما وإنما بدلت معانيهما.. وبعد أن عد ابن حجر عقائد ابن تيمية قال: أنه قال بالجهة وله في إثباتها جزء، ويلزم أهل هذا المذهب الجسمية والمحاذاة والاستقرار ⁽¹⁾. وقال ابن حجر: وأدى اعتقاد ابن تيمية إلى قيامه بتبديع كل من خالفه، ولا

زال يتتبع الأكابر حتى تمالأ عليه أهل عصوه ففسقوه وبدعوه بل كوه كثير منهم ⁽²⁾. ولم يقف عدلته على أكابر أهل

عصوه. وأخبر عنه بعض السلف إنه ذكر علي بن أبي طالب في مجلس فقال: إن عليا أخطأ في أكثر من ثلاثمائة مكان،

ويعلق ابن حجر على ذلك بقوله: فيا ليت شعوي من أين يحصل لك الصواب إذا أخطأ علي زعمك رضي الله عنه .
وقال ابن حجر: عقيدة إمام السنة أحمد بن حنبل موافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة.. وما اشتهر بين جهلة المنسويين إلى هذا الإمام من أنه قائل بشئ من الجهة أو نحوها فكذب وبهتان وافتراف عليه. ولقد بين الإمام ابن الجزي من أئمة مذهبه أن كل ما نسب إليه من ذلك كذب عليه وافتراف... وإياك أن تصغي إلى ما في كتب ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وغوهما ممن اتخذ إليه هواه. وأضله الله على علم. وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشوة (4) .
وفيما يتعلق بعدم شرعية زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، كما تقول عقيدة ابن تيمية يقول الشيخ أبو زهرة: ولقد خالف ابن تيمية بقوله هذا جمهور المسلمين، بل تحادهم في عنف بالنسبة لزيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم... ونحن نخالفه مخالفة تامة في زيارة الروضة الشريفة، وذلك لأن الأساس الذي بني عليه منع الزيارة هو خشية الوثنية. وأن ذلك خوف في غير مخاف. فإنه إذا كان في ذلك تقديس لرسول الله صلى الله عليه وسلم،

(1) المصدر السابق 116، 117.

(2) المصدر السابق 115.

(3) المصدر السابق 116.

(4) المصدر السابق 203.

الصفحة 416

فهو تقديس لنبي الوجدانية وتقديس نبي الوجدانية إحياء لها. إذ هو تقديس للمعاني التي بعث بها.. وقد روى ابن تيمية نفسه أن السلف الصالح كانوا يسمون على النبي صلى الله عليه وسلم كلما مروا على الروضة الشريفة، ونحن لنعجب من استذكاره لزيارة الروضة مع ما رواه عن الأئمة الأعلام من تسليمهم على النبي كلما مروا بقوه (1) .

ج - من مقدمات الإفورات الفكرية:

لقد سيطرت السياسة على جميع الشؤون حتى الدينية منها، وذلك لأن للسياسة طابعها الديني. ومن أجل ذلك كان الحكام يشعرون بالحاجة الماسة إلى الدعم الديني لإغواء الجماهير بشوعية حكمهم، ومن غير الممكن أن يجنوا هم وأعوانهم بين النصوص الدينية من كتاب أو سنة. ما يشعر ولو من بعيد بشوعية حكم يقوم على الظلم والجور واغتصاب الحقوق والاستهتار بالمقدسات وحرية الفرد والجماعة، وليس أدل على ذلك من تحوير مفهوم الخلافة عمليا ونظريا إلى حكم فودي يستمد قوته وبقائه من الاسواف في بذل الأموال. وإراقة الدماء لا من النصوص الإسلامية ولا من رغبة الشعب وإرادة الجماهير. وقد ظهرت بوادر هذا النظام في مطلع العهد الأموي.

فهذا النظام بدأ في استمال أعوانه لتحوير الحقائق وخلق المبررات لتصرفاته وإعطائها صفة الشرعية، وكانت الدولة الأموية في أمس الحاجة لشواء الضمائر وتسخير المرتوفة والحاقدين لينسجوا لهم ثوبا من الفضائل والمكرامات ليستروا به ماضيهم الأسود وحاضرهم الملوث عن أعين الناس، الذين لا يملكون من الوعي والتفكير ما يفوقون بين الناقاة والجمال. ومع وجود

داؤة الحاقدين الذي عملوا من أجل تثبيت الحزب الأموي برزت نوائر أخرى، باثوت وضع الحديث لأهداف أخرى لا تختلف كثرا عن أهداف بني أمية. وقد أوجز القاضي عياض الحالة التي وصل إليها الحديث في العصر الأموي والنوافع على

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية 205 / 1.

الصفحة 417

الكذب فيه بما حاصله: أن الوضاعين على حد تعبوه، كانوا أقساما. فمنهم من كان يضع على النبي توفعا واستخفافا كالزنادقة وأشباههم. ومنهم من كان يضع خشية وتدينا كجهلة المتعبدین الذين وضعا الأحاديث في الرغائب. ومنهم من كان يضع الحديث إغرابا وسمعة وتعصبا كفسقة المحدثين ومتعصبي المذاهب.

ومنهم من كان يضع الحديث تنفيذا لوجبة الحكام وطلب العذر لهم فيما ارتكوه من الجرائم والمنكوات. ومنهم من كان يأخذ كلام العرب والصحابة وينسبه إلى الرسول لهوى في نفسه (1). ولا يمكن إغفال دور القص الذي وضعه كعب الأخبار، فالقصاصون كانت لهم مقرة ورواية في العوض، وخيالاً واسعاً في التصوير والإغواء. قل أن تجد أسطورة من أساطيرهم بدون سند يربطها بصحابي يسندها إلى النبي. وحتى لا يتسرب الشك إلى هذه الموضوعات، وتبقى عنصراً مؤثراً على العامة. ساعدت الدولة هذا الصنف وفتحت له المساجد والنواصي ووفرت لهم الهبات والعطاء.

وبعد أن دق الوضاعون أوتاد الأحاديث الموضوععة. وظهرت الأحزاب السياسية والعقائدية، لتدلي بالدلو وتوج ما يؤيد اتجاهها الذي يتفق بصورة أو بأخرى مع اتجاه الحزب الحاكم الذي يعرض الحاكم الشوعي علي بن أبي طالب، بعد كل هذا جاء الفقهاء ووضعوا خيمة على على هذا كله، تحت عنوان "تقديس الصحابة" ومنهم من تطرف في عنوانه فقال: "تقديس أصحاب القرون الثلاثة الأولى". وعلى فكة تقديس الصحابة درس العلماء الحديث ووضعوا أصوله وقواعده. وهذا الاسواف بالغلو في تترية جميع الصحابة عن الكذب ووضعهم في مستوى القديسين والملائكة الأوار جاء بنتائج شوهت معالم السنة، وقامت بتحسين البغاة والقتلة والمجرمين في حصن منيع لا يجوز الاقواب منه، لأن البغاة في خيمة القديسين والملائكة الأوار. وأصحاب اللافتة المرفوعة.

يعلمون جيداً، أن المعاصرين للنبي من الصحابة لم يكونوا في مستوى واحد، وكانوا كغورهم من سائر الناس في مختلف العصور. فمنهم الصديقون الأوار

(1) الموضوعات في الآثار والأخبار / هاشم معروف 147.

الصفحة 418

الذين طهرت نفوسهم الصحبة من الفجور والآثام. ومنهم المسلم الذي لم يبلغ مرتبة هؤلاء، ومنهم المتستر بالإسلام الذي يستبيح كل شئ في سبيل تحقيق أهدافه ورغباته. وأصحاب اللافتة يعلمون أحاديث الارتداد التي اتفق عليها الشيخان البخري ومسلم. والتي تنص على أن هناك من رتد عن الدين بعد النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينج منهم إلا مثل همل النعم كما جاء

في بعض مرويات الشيخين الجليلين. ويعلم أصحاب اللافتة أيضا أن بعض الصحابة أمثال معاوية، ومروان، والمغيرة، وابن العاص، وولده عبد الله، وطلحة، والزيبر، اللذين رَعما حركة المعارضة لخلافة علي بن أبي طالب. بقيادة السيدة عائشة، وكان من نتائجها أن استشهد ما يقرب من خمسين ألفا أكثرهم من المسلمين الأبرياء الذي غررتهم السيدة عائشة بوقوفها هذا الموقف الذي حوَّها منه الرسول في أكثر من مناسبة، يعلم أصحاب اللافتة أن الكثير من الصحابة كانوا مدخلا لتحريف السنة وتجاهل أحكام الدين، ونحن نسأل: إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم جعل أصحابه دون استثناء فوق البشر من حيث العدالة والصدق والإخلاص إلى غير ذلك. وإذا افترضنا أن الساحة لم يكن بها منافقون.

وأن الجميع أطهار. فبأي من هؤلاء نقندي. بالذين بايعوا أبو بكر أم بالذين تخلفوا عنه؟ بمن يمكن الاقتداء بالذين كانوا مع عثمان أم الذين أنكروا عليه أعماله؟ ومن المسؤول عن سفك الدماء يوم الجمل وبأي الويقين نقندي؟ وابن آكلة الأكباد وقوينة ابن العاص الذين نسوا أنفسهم إلى الصحبة فحاضوا في دماء المسلمين، فبمن نقندي؟ بأمر المؤمنين أم بالقاسطين وكلهم صحابة؟

بمن نقندي بالحكم بن العاص وكعب الأبحار وأمثالهم من الذين بشروا بملك بني أمية، أم بأبي ذر وحذيفة وغوهم من الذين حذروا من ملك بني أمية؟ بمن نقندي بالمقتول حجر بن عدي، أم بالقاتل معاوية بن أبي سفيان؟ والخلاصة: لو صح حديث أصحابي كالنجوم. فلا شك أنه لم يرد به العموم. وإنما يرد به الذين كالنجوم في ظلمة الليل يحذرون ويبشرون، لكي يعيد الناس ترتيب أوراقهم وتنظيم حركتهم، لأن الله ينظر إليهم كيف يعملون.

إن لافطة القداسة جعلت للوأن ثقلا آخر هو الصحابة. كيف؟ وفي حبل

الصفحة 419

هذا الثقل الذين أدلوا الأمة ودفعوها إلى دائرة المقهور. وفيه الذين كذبوا على الرسول ووضعوا مئات الأحاديث ليدعموا بها فريقا أورأيا أو ليشوشوا على الإسلام ومبادئه والقوآن الكريم شن عليهم حملات عنيفة، ووصفهم بالنفاق والفسق. وفضح مؤامرتهم ودسائسهم التي كانوا يحيكونها في الظلام للقضاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته. فضلا إلى عشرات الأحاديث التي وصفتهم بالارتداد عن الدين والتعود على أصوله ومبادئه.

لقد وضع الحزب الأموي الصحابة داخل هالة من القداسة. ومنحهم صفة العداة. وأشاع ذلك بين الناس على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم. وجوا في تثبتها وتكزها في النفوس بالمال والسلاح وكل المغريات. وظلت هذه الفكرية تسير مع الأجيال جيلا بعد جيل. إلى أن جاء نور المؤلفين من الرجال وأحوال الرواة في عصر يختلف عن أي عصر مضى. من حيث الصواع الفكري والعقائدي الذي شاع وانتشر بين أوساط المسلمين خلال القرن الثاني من الهجرة، فوجد هؤلاء أن محاكمة الصحابة وتوجيههم كغوهم يؤدي إلى الإطاحة بأكثر المرويات عن الرسول. لأن أكثرها مروي بواسطةهم، وفي ذلك انتصرا للعناصر الأخرى التي لم ترض للعقل بأن يبقى بعيدا عن المسوح. وأعطوا للعقل الحق في أن يتدخل في كل شيء، ما لم يكن من الضرورات التي لا تقبل الشك والمراجعة، هذا بالإضافة إلى أن السياسيين وغوهم يعلمون أن انتقاد الصحابة ومحاكمتهم

كغورهم، يؤدي بالنتيجة إلى انتقاد الخلافة الإسلامية بالنحو الذي سرت عليه، لأن عدالة الصحابة وعدم اجتماعهم على ضلال كما زعمون. من أوفر الأدلة حفا على شوعيتها، فإذا الترموا بأنهم كغورهم من سائر الناس وضورهم في قفص الاتهام، كان ذلك انتصرا للحرز المعروض لخرافة الثلاثة، وبالتالي تبطل خرافة الأمويين من أساسها حتى على منطقم الذي ضلوا به الجماهير المغلوبة على أورها.

فبعد أن وضعت الأحاديث ونصبت خيمة القداسة وظهرت فوق وجاء عصر التنوين، اهتم القائمين على هذا الأمر بأحاديث الأحكام. وتجاهلوا التيريات المتضربة والآراء الغريبة عن تعاليم الإسلام، والافروضات التي أيدتها

الصفحة 420

وروجتها بعض الفرق والأحزاب التي لبست المروح ومضت تفلسف المعقنات والمبادئ الإسلامية. إلى غير ذلك من الاتجاهات التي كان لها أكبر الأثر في تحويل الحقائق والتلاعب في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بالإضافة إلى نور القصاصين والمروقة الذين اتخنوا القصص مهنة. فأخذ القائمين على هذا الأمر هذه المرويات ودونوها من غير تعديل أو تمحيص، ولهذا كثوا ما نجد بين الرواة الكثير من الذين ينتسبون إلى هذه التيريات من جوية وقرية وموجئة وغورهم، وعلى سبيل المثال فغم الهالة التي للبخري وجامعه في نفوس آلاف العلماء والمحدثين، فقد تعرض للنقد وأبى الباحثون المنصفون إلا أن ينظروا إلى البخري كمحدث اجتهد في جمع الحديث وتنوينه يخطئ ويصيب، وإلى كتابه كغوره من مجاميع الحديث التي جمعت الغث والسمين والصحيح والفساد. والبخري روى عن مروان بن الحكم، وأبا سفيان، ومعاوية وعمر بن العاص، والمغورة بن شعبة، وعبد الله بن عمرو، والنعمان بن بشير. الذي لآرم معاوية وولده يؤيدا إلى اللحظة الأخيرة من حياته. واشتوك معهما في جميع العرائم والفتن. ولم يذكر البخري الحسن والحسين في جملة من روى من الصحابة، مع العلم بأنهما يخضعان لقاعدة تعريف الصحابي. وأكثر ما روى عنه البخري أبو هرة، وعائشة، وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر. وقد روي عن أبي هرة أربعائة وستة وأربعين حديثا، وعن عبد الله بن عمر مائتين وسبعين حديثا، وعن عائشة مائتين واثنين وأربعين حديثا. ولم يرو عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا حديثا واحدا. وروي عن علي بن أبي طالب تسعة وعشرين حديثا. وروي عن أبي موسى الأشعوي سبعة وخمسين حديثا، وروي عن معاوية ثمانية أحاديث. وعن المغورة بن شعبة أحد عشر حديثا، وعن النعمان بن بشير ستة أحاديث. ولم يرو عن المقداد بن الأسود إلا حديثا واحدا. ولا عن عمار بن ياسر إلا أربعة أحاديث ولا عن سليمان الفرسى إلا أربعة. وروي عن عبد الله بن عباس نحو من مائتين

الصفحة 421

وسبعة عشر حديثا (1). وقد صحت عنده أحاديث عبد الله لأن أكؤها جاء عن طويق عكومة.. المتهم باعتناق فكرة الخورج (2).

وذكر في مقدمة فتح البلي أن أكثر من أربعائة من رواة الصحيح تضربت فيهم رآء المحدثين، من حيث وثافتهم وهواز الاعتماد على مروياتهم، ونحن هنا سنلقي الضوء على البعض منهم من الذين لهم علاقة بالإفورات الفكية التي طفحت على

منهم: (حصن بن نمير أبو محصن الواسطي)، قال ابن معين ليس بشئ⁽³⁾ ، وقال فيه جماعة: أنه كان ناصبيا يشتم عليا⁽⁴⁾ : (ومحمد بن زياد الالهامي الحمصي) قال الحاكم: وهو ممن اشتهر عنهم النصب⁽⁵⁾ (وعبد الله بن سالم الأشعوي) قال أبو داود: كان يذم علي. يعني أنه ناصبي⁽⁶⁾ .

ومنهم: (ثور بن زيد)، اتهمه محمد بن الوقي بالقدر⁽⁷⁾ ، (وثور بن يزيد الكلاعي) قال ابن معين: مارأيت أحد يشك أنه قروي. وقال أحمد بن حنبل:

كان ثور روى القدر⁽⁸⁾ . وقد نهى ابن المبرك والأوزاعي عن كتابة حديثه والاعتماد عليه⁽⁹⁾ . (ووهب بن منبه) صاحب

القصص قال الذهبي: من أخبار علماء التابعين... كثير النقل من كتب الإسوائليات. قال الجزجاني: كتب كتابا في القدر. وقال أحمد بن حنبل: كان يتهم بشئ من القدر.

(1) ضحى الإسلام 111، 112 / 2، الباعث الحديث ص 25، مقدمة فتح الباري 248، 249 / 3.

(2) أنظر المعرف لابن قتيبة ص 201.

(3) موزان الاعتدال / الذهبي ص 554 / 1.

(4) (رواسات في الحديث والمحدثون / هاشم معروف ص 178.

(5) موزان الاعتدال 551 / 3 ، رواسات في الحديث 184.

(6) موزان الاعتدال 426 / 2 ، رواسات في الحديث 186.

(7) موزان الاعتدال 373 / 1.

(8) موزان الاعتدال 374 / 1.

(9) موزان الاعتدال 274 / 1.

(1) ثم رجع .

ومنهم: (سالم بن عجلان الأفطس) قال أبو حاتم: صدوق مروجى. وقال الفسوي: مروجى معاند، وقال ابن حبان: تغرر بالمعضلات عن الثقات. ويقلب الأخبار⁽²⁾ (وعبد الحميد بن عبد الرحمن أبو يحيى)، قال النسائي: ليس بالقوي. وضعفه أحمد وقال أبو داود: كان داعيا في الأرجاء⁽³⁾ .

ومنهم: (داود بن الحصين أبو سليمان) قال ابن حبان كان يذهب مذهب الشواة - يعني الخوارج كعكومة.. تجب مجانية حديثهم⁽⁴⁾ ، (والوليد بن كثير) قال أبو داود: كان أباضي⁽⁵⁾ . وقيل: كان خلجيا⁽⁶⁾ (وعمران بن حطان السدوسي البصوي الخلجي) قال العقيلي: كان خلجيا⁽⁷⁾ . وعمران هذا هو الذي قال شعوا يشيد فيه بابن ملجم قاتل علي بن أبي طالب.

فهؤلاء رواة اعتمد عليهم البخاري في صحيحه. وغير هؤلاء كثير. وقد ذكر ابن حجر في مقدمة البخاري أكثر من

رُبعمائة من رواية الصحيح تضلّبت فيهم رآء المحدثين. وهذا أمام الباحث المنصف ليس فيه ذم للبخري. ولا لغوه من الذين جمعوا الحديث وبنوه. فهؤلاء قاموا بعمل لم يقم به الصحابة بعد وفاة الرسول. ولم يقل البخري أو غيره عليكم بكتابي وقدسوه. ولم يفوضه على الذين جاؤوا من بعده. وهؤلاء المؤلفون كانوا يعتمدون على اجتهادهم حيناً. وعلى غورهم ممن يحسنون به الظن حيناً آخر. فيخطئون ويصيبون ككل إنسان لم يعصمه الله من الخطأ والأول. وعلى الرغم من أن مجاميع الحديث جمعت الغث والسمين والصحيح والفساد. فإننا نعترف لأصحابها بالفضل

(1) ميزان الاعتدال 353 / 4.

(2) ميزان الاعتدال 112 / 2.

(3) ميزان الاعتدال 542 / 2.

(4) ميزان الاعتدال 6 / 2.

(5) ميزان الاعتدال 345 / 4.

(6) نواسات في الحديث 190.

(7) ميزان الاعتدال 235 / 3.

الصفحة 423

والعمل الطيب والجهد المثمر. لأنهم وضعوا أمام الباحثين عن الحقيقة مادة غنية يستطيعون بها أن يميزوا بين الغث والسمين وأن يحدنوا الطريق إلى الصواب المستقيم. رحم الله البخري ومسلم وأحمد والتزمذي وأبا دلوود والحاكم وابن ماجة وابن عساكر وأبا نعيم والديلمي والبغوي ونعيم بن حماد والبيهقي وابن حبان وابن خزيمة والضياء والسيوطي وغورهم من الذين جمعوا لنا الأحاديث كي ننظر فيها نظرة الرواية التي تقود إلى الحقيقة.

د - روايا عالم الرواية:

لم يتوك النبي صلى الله عليه وسلم أمته هملاً. فالقوان الذي بين يدي الناس في يومنا هذا هو القوان الذي جمع في عهده صلى الله عليه وسلم.

وليس صحيحاً أن القوان تم جمعة وترتيبه بعد وفاة الرسول. وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يبين تفسير كل آية ويأمر بكتابة ما راه من هذا التفسير. لقد فسر صلى الله عليه وآله وسلم المعرف الإلهية والأحكام التشريعية وأظهر الفضائل الخلقية والمبادئ الإنسانية. وبما أن الكتاب وحي من الله تعالى فإن السنة هي أيضاً وحي من الله تعالى. قال صلى الله عليه وسلم: " أوتيت القوان ومثله معه " فسنة النبي وتفسوه لآيات الكتاب تبين بحمل القوان وتخصص عامة وتقبيد مطلقه. والكتاب والسنة ينظمان كل نواحي الحياة. ففيهما العقائد والعبادات والفضائل والنظم الاجتماعية والاقتصادية والتربوية ونظام الحكم والسياسة.

فالسنة لم تتوك شيئاً إلا وبينته. ونصوص الكتاب والسنة جاءت منفصلة وموضحة كل المسائل التي لا تختلف باختلاف

الزمان والمكان. فليس لأحد أن يزيد عليها أو ينقص منها⁽¹⁾. والكتاب والسنة لا يخاطبان جنسيا دون جنس ولا شعبا دون شعب. وإنما يخاطبان الناس جميعا في كل زمان ومكان. ومن الدليل أن القآن جمع في عهد النبي وأنه تم تفسيره للصحابة لإقامة الحجة عليهم، قوله تعالى:

(إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه)⁽²⁾،

(1) سورة القيامة: الآية 17 / 19.

(2) أي العصب.

الصفحة 424

فالجمع والبيان وحي من الله ينطق على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ووى في حركته. ومن الثابت أن بعض الصحابة كانوا يكتبون الوحي للنبي.

كعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبي بن كعب، يقول الشيخ سيد سابق: فكان كلما تولت آية دعاهم وأمرهم بكتابتها ورأشدهم إلى موضعها من السورة التي يريد أن يلحقها بها. وكان بعض الصحابة يكتبون ما يقول من القآن من تلقاء أنفسهم... وكان الغرض من الكتابة تقوية ما علق بالذاكرة، وكانوا يكتبون في جريد النخل⁽¹⁾ وصفائح الحجلة⁽²⁾ والوقاع⁽³⁾ والأقتاب⁽⁴⁾ والأكتاف⁽⁴⁾.

وكان النبي يأمرهم بحفظ آيات القآن وما بينه لهم من أحكام وتفسير قال تعالى: (لا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا)⁽⁵⁾، قال سيد سابق: أي بيانا. وفي الاصطلاح. علم يفهم به معاني كلام الله ويستخرج به أحكامه⁽⁶⁾، والبيان يقتضي أن يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خفي عليهم من ألفاظ القآن ومعانيه. قال تعالى: (وأوتينا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون)⁽⁷⁾، يقول سيد سابق: وقد امتثل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيبين للأمة ما هو في حاجة إلى بيان. روي عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القآن. أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القآن والعلم والعمل جميعا⁽⁸⁾.

مما سبق علمنا أن جمع القآن وبيان ما خفي من ألفاظه كان بوحى

(1) أي اللخاف.

(2) أي الخشب الذي يوضع على ظهر البعير.

(3) أي عظم البعير أو الشاة.

(4) سورة الفرقان: الآية 33.

(5) مصادر التشريع 39.

(6) سورة النحل: الآية 44.

(7) مصادر التشريع 45.

(8) سورة الحشر: الآية 7.

الصفحة 425

من الله. وأن النبي صلى الله عليه وسلم بين للناس ما أتول إليهم. وأمر بكتابة القآن والعلم وأن الصحابة كانوا يتعلمون

القآن والسنة جنباً إلى جنب لأمر الله تعالى بأن يأخذوا بما أتى به الرسول وأن ينتهوا عما نهى عنه قال تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ⁽¹⁾ ، وقال: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ⁽²⁾ ، وقال: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر...) ⁽³⁾ .

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. توغ الإمام علي لجمع القآن وتفسره بعد أحداث السقيفة. وكان هناك من الصحابة من جمع القآن كله ومنهم: علي، وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ⁽⁴⁾ . ورأى عمر بن الخطاب في خلافة أبي بكر أن يجمع القآن ليكون في خزينة الدولة.

روى البخاري أن أبا بكر قال: أتاني عمر فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقواء القآن. وإنني أخشى أن يستحر القتل بالقواء في المواطن فيذهب كثير من القآن. وإنني أريد أن تأمر بجمع القآن فقلت لعمر: كيف نعمل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هو والله خير. قال أبو بكر. فلم يزل واجعني حتى شوح الله صوري لذلك ⁽⁵⁾ .

وبدأت عملية الجمع. وأثناء هذه العملية سقط الكثير من تفسير الآيات التي تحذر من الفتن. بل وسقط تفسير بعض آيات الأحكام. ولذا وجدنا عمر بن الخطاب يقول أثناء خلافته فيما رواه البخاري: إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق وأتول عليه الكتاب. فكان مما أتول آية الوجم. فقواناها وعقلناها ووعيناها. رجم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ورجمنا

بعده

(1) سورة النساء: الآية 80.

(2) سورة الأحزاب: الآية 21.

(3) مصادر التشريع الإسلامي / سيد سابق ص 35 ط دار الفتح للإعلام.

(4) مصادر التشريع 16.

(5) البخاري باب جمع القآن (الصحيح 225 / 3).

الصفحة 426

فأخشى إن طال الناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الوجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أتولها الله. ألا وإن

الوجم حق على من زنى وقد أحصن.... ⁽¹⁾ ، وما ذكوه عمر كان من التفسير وليس من القآن. ولم يجده عمر لأن عملية الجمع سقط منها كثير من التفسير. وقول عمر هذا اشتهر على أنه يقصد به القآن الكريم.

ولكن الحقيقة تخالف ذلك، فالآية من مقام البيان والتفسير. وهذا المقام كان قد استهدف بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. عندما نقل الصحابة ما كان في الوقاع والأكتاف والعصب وجمعه في مصحف واحد. ويقول الشيخ سيد سابق عن هذا الجمع: كان الجمع مقتصوا على ما لم تتسخ تلاوته ⁽²⁾ !!

وبينما كان الإمام علي متوغا لجمع القرآن والتفسير. كان ابن عباس يعلم تفسير بعض الآيات في المصحف الذي جمعه الصحابة في عهد أبي بكر. بينما كان عمر يجهل هذا التفسير. روى البيهقي بسند صحيح أن عمر بن الخطاب سأل ابن عباس فقال: رأيت قول الله تعالى لأزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ولا توجن توج الجاهلية الأولى"، هل كانت جاهلية غير واحدة؟

فقال ابن عباس: ما سمعت بأولى إلا ولها آخوه، قال عمر: فأنتي من كتاب الله مما يصدق ذلك، فقال ابن عباس: قوله تعالى: (وجاهدوا في الله حق جهاده)، كما جاهدتم أول مرة. قال عمر: من أمرنا أن نجاهد؟ فقال ابن عباس: مخزوم وعبد شمس ⁽³⁾، فالجهاد آية في القرآن ومخزوم وعبد شمس تفسير لهذه الآية. وبعد أن استقر عمر من ابن عباس عن الذين أمرهم الله بجهادهم. روي أن عمر قال لعبد الرحمن بن عوف: أما علمت أنا كنا نؤأ (وجاهدوا في الله حق جهاده)، في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله. فقال عبد الرحمن: ومتى ذلك؟ قال عمر: إذا كان بنو أمية الأمراء وبنو المغرة

(1) البخاري (الصحيح 4 / 179).

(2) مصادر التشريع الإسلامي ص 20.

(3) رواه البيهقي وذكره ابن كثير في البداية 215 / 6. ورواه الخطيب كنز العمال 271 / 11.

الصفحة 427

الوزراء ⁽¹⁾، وما ذكره عمر ما هو إلا تفسير للآية المذكورة. وإذا كانت الآية في كتاب الله الذي تولى الله حفظه. وإذا كان التفسير قد سقط عند جمع المصحف بعد ذلك. فإن السنة الشريفة بينت هذا التفسير عند الحفاظ الذين احتفظوا بالتفسير داخل عقولهم وليس في صناديق بني أمية أو بني المغرة. فعن أبي سعيد الخوي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أهل بيتي سيلقون بعدي من أمتي قتلا وتشويدا وإن أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغرة وبنو مخزوم ⁽²⁾، فهذا تفسير جامع بابه طويل وعريض.

وروي أن المصحف الذي جمعه أبو بكر كان عنده حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته. ثم عند حفصة بنت عمر ⁽³⁾، وعندما جاء عهد عثمان سليل الأمويين. أرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ⁽⁴⁾. وروى البخاري أن حفصة أرسلت بها إلى عثمان.

فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث. فنسخوها في المصاحف. ورد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا. وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق

وقيل إن عثمان فعل ذلك عندما اختلف الناس في تلاوته نظراً لأن القرآن يشمل على الأحرف السبعة. ولقد اختلف العلماء فيما هو المقصود بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً⁽⁶⁾ ، فمنهم من قال: الأحرف السبعة. سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد. واللغات السبع هي: لغات قريش

(1) رواه أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه (كنز العمال 480 / 2).

(2) رواه نعيم بن حماد والحاكم (كنز العمال 169 / 11).

(3) البخاري باب مجمع القرآن (الصحيح 225 / 3).

(4) البخاري (الصحيح 225 / 3).

(5) البخاري باب جمع القرآن (الصحيح 226 / 3).

(6) مصادر التشريع الإسلامي 29.

الصفحة 428

وهذيل وثقيف وهوزان وكنانة وتميم واليمن⁽¹⁾ . ومنهم من قال: قول بلغة قريش وهذيل وتيم والأرد وربيعة وهوزان وسعد . فاختلف التلاوة كان باعثة لعثمان لكي ينسخ من المصاحف مصحفه. ليقضي على أصول الخلاف. ولا ننوي إذا كان الله قد أمر بنزول كتابه على الأحرف السبعة فهل يجوز أن يلغى أي مخلوق هذا الأمر؟ وإذا اختلف الناس فهل يكون العيب إلا في الناس. وهل يقتضي رالة هذا العيب أن تمتد الأيدي إلى الأصول أم إلى تعليم الناس ووضعهم على طريق اللامبالاة. إن ربط الأحرف السبعة بالأسنة القبائل عنوان لا يهضمه عالم التدبر..

والذي يمكن قبوله ما روي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان الكتاب الأول يقول على حرف واحد. وأقول القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه وأمثال، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتهم عنه.

واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا " ⁽³⁾ .

أما ما قيل بأن الأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب. فإن القرآن يردده، قال تعالى في كتابه: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين له)، ومعنى هذا أن الوصل إنما تبعث بالأسنة قومها لا بالأسنة من سواها. ولقد بين القرآن الكريم أن اللسان الذي بعث به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، هو لسان قومه. أي لسان قريش لا من سواه من الألسنة العربية. وكان قومه الرادون بذلك هم قريشا لا من سواهم. ومن ذلك قوله تعالى: (وانه لذكر لك ولقومك) يعني قريشا لا سواهم.

(1) مصادر التشريع الإسلامي 29.

(2) المصدر السابق 29.



فالقَوَانِ تَوَلَّى بَلْغَةَ قَرِيشٍ، وَمِنْ هَذِهِ اللُّغَةِ خَرَجَ العِلْمُ وَتَمَدَّدَ عَلَى صَفْحَةِ الأَرْضِ. وَعُثْمَانُ نَفْسَهُ قَالَ لِلَّذِينَ نَسَخُوا المَصَاحِفَ. " اَكْتُوهُ بِلِسَانِ قَرِيشٍ فَإِنَّمَا تَوَلَّى بِلِسَانِهِمْ " (1) ، وَنَحْنُ لَا نُوَدِّي إِذَا كَانَ قَدْ تَوَلَّى بِلِسَانِ قَرِيشٍ فَكَيْفَ يَكْتُبُ بِلِسَانِ قَرِيشٍ؟ وَمِنْ الثَّابِتِ وَالمَحْفُوظِ أَنَّ عِبْدَ اللَّهِ بِنَ مَسْعُودٍ تَصَدَّى لِقَوَارِ عُثْمَانَ فِي هَذَا الشَّأْنِ. يَقُولُ مَحِبُّ الدِّينِ الخَطِيبُ وَهُوَ مِنَ المَتَحَمِّسِينَ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ: أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يَكْتُبُ مَا يُوحَى مِنَ القَوَانِ فِي مَصْحَفِهِ كَمَا بَلَّغَهُ تَزْوِيلُ آيَاتِ مِنْهُ. وَقَدْ أَثْنَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَسَنِ تَلَاوَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ لِلقَوَانِ. وَقَدْ تَسَلَّعَ أَبُو بَكْرٍ وَعَمْرٌ لِيُوصِلَا لِابْنِ مَسْعُودٍ هَذَا الثَّنَاءَ النُّوِيَّ (2) . وَكَانَتْ تَغْلِبُ عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ لَهْجَةُ قَوْمِهِ. وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَخَّصَ لَهُ أَنْ يَقُولَ بِلَهْجَتِهِمْ (3) . وَعِنْدَمَا صَدَرَ قَوَارِ عُثْمَانَ بِحَرْقِ المَصَاحِفِ يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ بِنَ العَرَبِيِّ وَهُوَ أَيْضًا مِنَ المَتَحَمِّسِينَ لِلدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ:

كَانَ فِي بَقَائِهَا فِسَادٌ. أَوْ كَانَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنَ القَوَانِ. أَوْ مَا نَسَخَ مِنْهُ. أَوْ عَلَى غَيْرِ نِظْمِهِ. إِلَّا أَنَّهُ رَوَى عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ خَطَبَ بِالكُوفَةِ فَقَالَ: أَمَا بَعْدَ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ)، وَإِنِّي غَالٌ مَصْحَفِي فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَغْلَ مَصْحَفَهُ فَلْيَفْعَلْ. وَرَأَى ابْنَ مَسْعُودٍ أَنْ يَأْخُذَ مَصْحَفَهُ فَأَكْرَهُهُ عُثْمَانُ عَلَى رَفْعِ مَصْحَفِهِ. وَمَحَارَسُومُهُ فَلَمْ تَنْتَبِ لَهُ قِوَاءَةً أَبَدًا. وَنَصَرَ اللَّهُ عُثْمَانَ وَالحَقَّ يَمُوحُهَا مِنَ الأَرْضِ (4) . وَفِي تَعْلِيقٍ لِمَحِبِّ الدِّينِ الخَطِيبِ يَقُولُ: إِنَّ عُثْمَانَ كَانَ عَلَى حَقٍّ فِي غَسْلِ المَصَاحِفِ كُلِّهَا وَمِنْهَا مَصْحَفُ ابْنِ مَسْعُودٍ لِأَنَّ تَوْحِيدَ كِتَابَةِ المَصْحَفِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ مَا كَانَ فِي اسْتَطَاعَةِ البَشَرِ. وَهُوَ مِنَ الأعْظَمِ أَعْمَالِ عُثْمَانَ (5) . وَمِنْ المَعْلُومِ أَنَّ عُثْمَانَ ضَرَبَ ابْنَ مَسْعُودٍ خِلَالَ هَذِهِ الأَحْدَاثِ. وَعَلَى أَيِّ حَالٍ فَقَدْ تَمَّ تَوْرِيقُ القَوَانِ مِنَ التَّفْسِيرِ. أَمَا المَصَاحِفُ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ

(1) البخاري (الصحيح 226 / 3).

(2) مسند أحمد 1 / 25، 26.

(3) (العواصم من القواصم / ابن العربي تحقيق محب الخطيب 71.

(4) (العواصم من القواصم / ابن العربي ص 71.

(5) المصدر السابق ص 64.

حَفْصَةَ. فَقَدْ ظَلَّتْ عِنْدَهَا حَتَّى مَاتَتْ. وَيَقُولُ الشَّيْخُ سَيِّدُ سَابِقٍ: ثُمَّ أَخَذَتْ المَصَاحِفَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَغَسَلَتْ غَسْلًا وَقِيلَ: إِنَّ مِرْوَانَ بِنَ الحَكَمِ أَخَذَهَا وَأَحْرَقَهَا (1) .

وَهَكَذَا أَحْرَقَتْ أَحَادِيثَ عِنْدَ المَقْدَمَةِ، ثُمَّ جَاءَ مِرْوَانَ بِنَ الحَكَمِ الَّذِي لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ وَبَدَأَ عَمَلِيَّةَ حَرْقِ جَدِيدَةٍ. وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ. يَقُولُ تَعَالَى: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (2) ، وَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) (3) .

وعندما جاء عهد الإمام علي كان يحتج على البغاة والمخالفين بالقوآن والسنة. وكان القوم قد تعمقوا في عالم التأويل

وتوغلوا في عالم إطفاء السنة.

وروي أنه قال لابن عباس حينما بعثه إلى الخوارج: لا تخصمهم بالقوآن. فإنه حمال أوجه. ولكن حاججهم بالسنة. فإنهم

لن يجنوا عنها محيصا " (4) ، ولكن عالم الحريق لم يفسح المجال الكافي لتلقي هذا الحوار. ولم ينصت لابن عباس إلا قليلا.

إن القوآن والسنة وحي من الله تعالى. فالقوآن محفوظ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. والسنة ترجمان له وعلى

طريقها يكون الامتحان ويترتب على الامتحان الثواب والعقاب كما نص القوآن وعلى طريق السنة يمكن أن تمتد الأيدي لتبدل

أو تحرف ولكن الأيدي ليس لها أن تفعل ذلك مع القوآن. ولهذا ساق النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى القوآن فقال:

" يا أيها الناس أتول الله كتابه على لسان نبيه وأحل حلاله. وحرم حرامه.

(1) مصادر التشريع ص 25.

(2) سورة النور: الآية 63.

(3) سورة الأحزاب: الآية 36.

(4) مصادر التشريع الإسلامي 62.

الصفحة 431

فما أحل في كتابه على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة. وما حرم في كتابه على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة "

(1) ، وقال: " لا يمكن الناس علي شيئا، إني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه. ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه " (2) ، وقال: "

ستكون عني رواية يروون الحديث فاعرضوه على القوآن. فإن وافق القوآن فخذوه وإلا فدعوه " (3) ، وقال: " سئلت اليهود عن

موسى فأكثرنا فيه وزاوا ونقصوا حتى كفروا - وفي رواية - وسئلت النصرى عن عيسى فأكثرنا فيه وزاوا ونقصوا حتى

كفروا - وإنه ستفشو عني أحاديث فما أتاكم من حديث فاقولوا كتاب الله واعتبروه فما وافق كتاب الله فأنأ قلته وما لم يوافق

كتاب الله فلم أقله " (4) .

فالقوآن هو العمود الفقري لحركة السنة. والقوآن وحي يتحكم في وحي السنة المتحركة. والقوآن والسنة نور. والنور لا

وى ولكن ترى به الأشياء. فلو لم يك حولنا نوات وأجسام في هذا الكون مارأينا النور ولكننا زاه! إذا انعكست أشعة النور

على هذه المواد. ولقد علمنا أن موسى عليه السلام سأل ربه الرؤية فكان الجواب (قال لن زاني ولكن انظر إلى الجبل فإن

استقر مكانه فسوف زاني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا...) (5) ، فنور الله له معالم تدل عليه. وكذلك نور السنة. ومن المعالم

التي ينعكس عليها نور السنة نوات الإيمان والعمل الصالح. فعلى هذه النوات فقط يمكن أن ترى نور السنة قال تعالى وهو

يخاطب الذين آمنوا: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا بوسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به) (6) ،

وقال تعالى: (ومن

(1) أبو نصر السجزي في الإبانة وحسنة (كنز العمال 196 / 1).

(2) رواه الشافعي وابن سعد والبيهقي (كنز العمال 195 / 1).

(3) رواه ابن عساكر (كنز العمال 197 / 1).

(4) رواه الطواني (كنز العمال 196 / 1).

(5) سورة الأعراف: الآية 143.

(6) سورة الحديد: الآية 28.

الصفحة 432

لم يجعل الله له نورا فما له من نور⁽¹⁾.

إن النور في دأوة العباد لن يتحقق إلا بتقوى الله والإيمان برسوله. فهنا فقط يعمل نور السنة ويكشف للعباد طريقهم الذي يمشون فيه. وكما أن الأنبياء والرسول عليهم السلام يهدون الناس إلى نور الله. فكذا الأئمة والأوصياء الذين عينهم الله عليه لسان رسله يهدون الناس إلى نور سنة الأنبياء. وهكذا كان لكل نور طريق يقود الناس إلى صراط العزيز الحميد. والذي حدث في عهد الرسالة. أن الرسول اهتم بأهل بيته تربية وتنقيفا وتأهيلا وتفضيلا. ولم يكن هذا الاهتمام عاطفيا أو خاضعا لآصرة الدم أو العرق. وإنما كان تنفيذا لأمر إلهي أوحى به إليه. وما على الرسول إلا البلاغ المبين. وكان من المتوقع أن يعرف الوعيل الأول لتلك الصفة قروها. وأن يضع تلك الأوامر الإلهية الولدة بحقهم نصب عينيه. غير أنه من المؤسف أن يذهل عنها ويضوب بها عرض الجدار، وقدرأينا من التريخ أن آل محمد صلى الله عليه وسلم قد لاقوا الكثير من البطش والاضطهاد وتوعوا الكثير من المحن والويلات وفي خضم ذلك كله كانوا صابرين محتسبين مقربين للنور الرسالي المنوط بهم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر بهذا كله وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا. وعلى إثر المذابح التي أقيمت لأهل البيت، رفعت رايات الأنظمة السياسية الفاسدة المستبدة التي تمثلت في الدولة الأموية وتحت هذه الرايات ظهرت الفوق والمذاهب والتشؤم والتخرب. كل حزب بما لديهم فحون. وكان الحكام يقومون بتغذية تلك النوة داخل الأمة وإنكاء نوانها. وفي هذه الموجات ظهر الغلاة والمتصوفة وأصحاب الشطحات.

واجتاحت الأمة ثقافات غريبة دخيلة وفلسفات يونانية وهندية وفلسية قديمة.

وذلك بعد أن تم ترجمة العديد منها إلى اللغة العربية مما أدى إلى تهيئة المناخ لظهور الدهريين والجدليين والملحديين

والمشككين. فصار هناك من يتكلمون في الذات الإلهية والأسماء والصفات والجوهر والعرض. وهل القوان مخلوق أم غير

(1) سورة النور: الآية 40.

الصفحة 433

مخلوق إلى غير ذلك من قضايا منطقة الصفر.

وعلى امتداد الثورات والانقلابات كان الغالب الأعم يتجه إلى العلماء ولم يجروا عالم على نقد معالم الشنوذ لأن هناك قاعدة

تربطه تقول: القاتل والمقتول في الجنة والمجتهد إن أخطأ له حسنة وإن أصاب فله عثرة، وإن العدالة ليست شرطا لقبول الحاكم المتغلب لأن الأصل: أطيحوا البر والفاجر. ولا شئ في ركوب قطار الإمام الفاسق لأن كل القطارات تصل إلى أهداف الله. وفي داخل منطقة الصفر غوس في نفوس العامة الكثير من الآراء والمقالات وصوف الناس عن الاجتماع حول كلمة واحدة ورأي واحد وعندما جاء القون الرابع. تصدى للإفتاء فقهاء قالوا المسورة نحو إغلاق باب الاجتهاد. نظرا لحالة الفوضى التي سادت القضاء والإفتاء في ذلك الحين. وعلى هذا زى أنهم عالجوا الفوضى والاستغلال والفساد. بالجمود لا بالتنظيم القويم. فكان النواء شوا من الداء.

ويقول الشيخ خلاف عن هذه الفترة: إن العلماء فشيت فيهم أراض خلقية. جالت بينهم وبين سمو إلى مرتبة الاجتهاد. فقد ظهر بينهم التحاسد والأناية. فكانوا إذا طرق أحدهم باب الاجتهاد فتح على نفسه أبوابا من التشهير به وحط أوانه من قوه، وإذا أفتى في واقعة وأيه. تصدوا إلى تسفيهه؟ رأيه وتفنيده ما أفتى به بالحق وبالباطل (1).

وكان من آثار الجمود لدى بعض العلماء أنهم تعصوا لأئمتهم وأقولوا أقوال إمامهم مكانا فوق ما للوآن والسنة من مقام... وانصرفوا عن الأساس التشريعي الأول وهو الوآن والسنة بحيث أصبحوا لا يرجعون إلى نص قرآني أو حديث إلا ليلتمسوا فيه ما يؤيد مذهبهم ولو بضوب من التعسف في الفهم والتأويل (2)، والواقع أن الجمود يتعرض مع طبائع الأشياء ومع سنة التطور الذي يعد بمثابة قانون يخضع له كل ما في الوجود حتى الصخور كما يقرر علماء

(1) علم أصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامي / عبد الوهاب خلاف ص 327.

(2) أزمة الفكر السياسي الإسلامي / د. عبد الحميد متولي 129.

(1) الجيولوجيا، والجمود يؤدي دائما إلى الالتجاء للحيل التي توصف بالحيل الشرعية. للتخلص من اتباع أحكام الشريعة. بل وتعاليم الإسلام بوجه عام. بل والإقدام على ارتكاب بعض المحرمات وأنواع الفساد. وفي ذلك يقول ابن القيم: إن إقفال باب الاجتهاد أدى إلى التحايل. حتى وضعت الكتب في الحيل والمخولج للهروب من كل التوام. حتى تحايل بعضهم في إسقاط حد السرقة.

وبعضهم لأخذ أموال الناس وظلمهم في نفوسهم وسفك دمائهم وإبطال حقوقهم وإفساد ذات بينهم " (2). ومع الجمود الذي جاء نتيجة لجفاف نهر العلم في مدرسة رفعت للوأي والأهواء أعلاما. ومع الحيل التي تزين كل شنود في عالم الفقيه الفاسق والإمام الجائر وقف الجميع تحت مظلة العذاب وهذه المظلة تجمع من ضوبهم الخسف فلا يستطيعون مضيا ولا يرجعون. والخسف لا يضوب إلا الذين استقالوا من حركة الحياة وجلسوا في منطقة الصفر يهتفون للسلطان أمام كل مصلوب ويضربون بالدف حول كل قود يأتيهم الدجال وهم على هذا الحال. يقول أبو حامد الغوالي: إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها. فإذا أعلنت ولم تغير أضوت بالعامه " (3) وفي هذا الوقت في دولة بني العباس كانت الكلمة قد تمزقت.

وانقسمت ممالك الأرض. وحكم الناس بالعسف والظلم والجور⁽⁴⁾ ، وكان هذا كله مقدمة لمجئ التتار والسبب الرئيسي لهجوم التتار هو التعصب المذهبي بين الشافعية والحنفية⁽⁵⁾ . وعندما جاء التتار أحاطوا بدار الخلافة ورشقوها بالنبال من كل جانب وقتل هولاكو الخليفة العباسي رفسا بالأقدام⁽⁶⁾

(1) المصدر السابق 130.

(2) أعلام الموقعين / ابن القيم 254 / 2.

(3) إحياء علوم الدين 1195 / 8.

(4) تريخ الخلفاء 240.

(5) مجلة المنار عدد السنة 1318 هـ ، 1319 هـ ، بحثا بعنوان: القول الصحيح في الود على الشبهات ص 205 وما بعدها، أزمة الفكر السياسي الإسلامي ص 127.

(6) تريخ الخلفاء 434.

الصفحة 435

(1) وبدولة بني العباس توقفت الجماعة .

والنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد أخبر بالغيب عن ربه وذكر هذا الهجوم التتاري الذي يسلمه الله على الظالمين. فقال: " يوشك خيل الترك مخرمة أن تربط بسعف نخل نجد " (2) ، وقال: " لتتول طائفة من أمتي رُضا يقال لها البصرة، يكثر بها عددهم ويكثر بها نخلهم ثم يجيء بنو قنطراء عواض الوجوه صغار العيون حتى يتولوا على جسر لهم يقال لها دجلة (3) ، وفي رواية: كأن وجوههم المجان المطوقة. ينتعلون الشعر ويتخذون الرق حتى يربطوا خيولهم بالنخل " (4) .

ومن الطريف أن يقال إن الجماعة توقفت بدولة بني العباس. ووجه الطرافة أن الذين ضيعوا الصلاة واتبعوا الشهوات قد توقفوا من زمن طويل حتى قبل مجئ دولة بني العباس. وكيف تكون هناك جماعة تحت رايات الجبرية والموجئة. وسلاطين الاستبداد والظلم! إن الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم رفض شريحة زمنية على امتداد تريخ الأمة. فلقد قيل له: يا رسول

الله:

أي الناس خير؟ قال: أنا ومن معي. فقيل له: ثم من؟ قال: الذي على الأثر فقيل له: ثم من؟ فرفضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " (5) ، فهل معاوية وعمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعبد الله بن أبي السوح ومروان بن الحكم كانوا معه؟ وهل بسر بن رطأة وسورة بن جندب وي زيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وعبد الملك بن مروان. كانوا على الأثر؟ هل الناكثون والقاسطون والملقون كانوا معه أو كانوا على الأثر؟ كيف أمر بقتالهم إذن؟ هل أبناء عام ستين وما بعدها الذين ضيعوا لصلاة وأمر النبي بالاستعادة بالله منهم

(1) المصدر السابق 240.

(2) رواه ابن قانع (كنز العمال 239 / 14).

(3) رواه أحمد (كنز 239 / 14).

(4) رواه أحمد وابن حبان وابن ماجه (كنز العمال 206 / 14).

(5) رواه أحمد ومسلم (الفتح الرباني 219 / 23).

الصفحة 436

كانوا على الأثر؟ كيف أمر بالاستعاذة إذن؟

إن الجماعة لم يرفع أعلامها البغاة، ومن الطريف أيضا أن الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب سأل ابن المبرك. من الجماعة؟ فقال ابن المبرك: أبو بكر وعمر. قال علي بن الحسين: قد مات أبو بكر وعمر. فقال ابن المبرك: فلان وفلان، فقال له: قد مات فلان وفلان. فقال ابن المبرك:

أبو حفصة السكوي جماعة! قال الترمذي: وأبو حفصة هو محمد بن ميمون وكان شيخا صالحا. وإنما قال هذا في حياته " (1) .
إن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " يد الله مع الجماعة " (2) ، فبيد من قتل عمار وحجر بن عدي والحسين ومن معه وعلى يد من تم اجتياح المدينة وحصرت مكة ورمي البيت بالحجارة؟ إن الذين كانوا مع النبي هو الذين لم يرفعوا السلاح في وجه حبل النبي وسبيله وساروا من بعده على الأثر وظهروا تحت شعاع نور السنة، فالنور لا يرى ولكن ترى به الأشياء.
إن الأمة بجميع فرقها ومذاهبها متفقة على الكتاب والسنة. ورغم ذلك اختلفت الأمة ضروبا من الاختلاف في الأصول والفروع. وتتوزع فيها فنونا من التنوع في الواضح والمشكل من الأحكام والحلال والحرام والتفسير والتأويل والعيان والخبر والعادة الاصطلاح. والعمود الفقري لهذا الاختلاف ينحصر في:

ممن تأخذ السنة؟ فهناك مدرسة تأخذ السنة من الصحابة. والصحابة عند هذه المدرسة ثقة عدول. والقوان يود على هذه المدرسة قولها. قال تعالى في نفر من الصحابة: (إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسوه شوا لكم بل هو خير لكم لكل امريئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كوه منهم له عذاب عظيم) (3) ، فالصحابة الذين رموا فاش رسول الله هل يستبعد عليهم أن يكذبوا على رسول الله؟ كيف يدخل دائرة العدول من أدخله الله في دائرة الإثم

(1) رواه الترمذي (الجامع 467 / 4).

(2) رواه الترمذي (الجامع 466 / 4).

(3) سورة النور: الآية 11.

الصفحة 437

وأعد من تولى كوه منهم عذابا عظيما؟ ويقول تعالى في طائفة أخرى منهم:

(وإذ أروا تجرة أو لهما انفضوا إليها وتكوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجرة والله خير الزائقين) (1) ، فهل

يدخل دائرة العدول من ترك الصلاة وراء رسول الله يوم الجمعة وتوكله قائما وانطلق إلى الطبل والتجرة؟ وروى البخاري

حديث الارتداد وقد ذكرناه فيما سبق وفيه: " فأقول يا رب أصحابي أصحابي فيقال إنك لا تنوي ما أحدثوا بعدك " (2) ، وروى أيضا: " إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك. إنهم ارتدوا على أدبارهم القهوى " (3) ، فهل المرتد ثقة؟ هل المرتد في دأوة العدول؟ وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) (4) ، فهل يجوز للذي لم يأت منه الله على نبأ. أن تأتمنه الأمة على قيادتها؟ هل الفاسق يمكن أن يقود الناس إلى صراط الله؟ هل يجوز للفاسق أن يعلم الناس تأويل القرآن؟

وهناك مدرسة لا ترفع إلا أعلام النبي صلى الله عليه وسلم وتأخذ بسنته من الذين عينهم الله على لسان نبيه، وتوى على طرف هذه المدرسة دوع أبي بن كعب وأبي ذر الغفري والمقداد وسلمان الفارسي وتوى عليها أيضا دماء عمار وحجر بن عدي، وتوى أعلام الحسين ومن معه، وإذا كان هؤلاء جميعا حججا على الجيل الأول. وإذا كانت حركتهم دعوة للنجاة لينظر الله تعالى إلى عباده في القون الأول كيف يعملون. فإنهم أيضا حجج على الحاضر وعلى المستقبل. لأن التلرخ وحدة واحدة تنقسم إلى ماض وحاضر ومستقبل فإذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فورها كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فوضيها كان كمن شهدها (5) ، فالحاضر يشرك الماضي في الإثم وإن بعدت المسافة بينهما. ولهذا كان حجج الجيل الأول كمفتاح في يد الحاضر يفتح به

(1) سورة الجمعة: الآية 11.

(2) البخاري (الصحيح 141 / 4) ومسلم (الصحيح 59 / 17).

(3) البخاري (الصحيح 142 / 4).

(4) سورة الحوات: الآية 6.

(5) رواه أبو دلوود حديث 4345.

الصفحة 438

قراءة الماضي لبحث فيها عن الحقيقة، والحقيقة في يديه، وهذا من فضل الله عليه.

وهناك مدرسة ولدت في عالم الجمود وسهر عليها أساتذة التبشير والصهيونية. وهذه المدرسة تكتفي بإطلاق الأسماء الإسلامية على أبنائها في أغلب الأحيان. الإسلام عندهم اسم والقرآن رسم إذ ارتلوا القرآن فانظر حولهم. حتما ستجد أما قوا أو سوادق غواء أو حفلة من حفلات النفاق التي يلبسون بها على شعوبهم. وتلاميذ هذه المدرسة عندهم جواب لكل سؤال. وكل جواب لبنة في صوحهم العتيق الذي أقاموه للصد عن سبيل الله. ولا يطلقون إجاباتهم إلا إذا اعتمدت من أساتذة التعقيم اليهود والنصرى وإذا كان أساتذة التعقيم قديما اعتموا مذهب الجورية والموجئة. فهم اليوم يتحركون بملابس نظيفة ويحملون حقائب أنيقة فيها جميع الأسئلة والأجوبة التي هدفها الصد عن سبيل الله ولكن تحت شعار حقوق الإنسان وتقديم الخدمات الاجتماعية. ونحن نطلق على أتباع هذه المدرسة اسم " الروبيضة " لأن مجال عملهم هو ساحة الذين لا يعلمون. الذين قتلوا العلم فأصابهم الجمود. والذين تركوا الطهر فوقوا في الرجس ليلتقطهم النجس ثم ليقودهم النجس بعد ذلك إلى

المسيح الدجال الذي ما صنعت فتنة منذ خلقت الدنيا إلا استصعب في إنائه آخر الزمان يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " إن أمام الدجال سنين خداعة يكذب فيها الصادق ويصدق فيها الكاذب. ويخون فيها الأمين ويؤتمن فيها الخائن. ويتكلم فيها الروبيضة "، قالوا: وما الروبيضة يا رسول الله؟ قال: التافه يتكلم في شؤون العامة " (1) ، وفي رواية: الفاسق يتكلم في شؤون العامة (2) ، وفي رواية: السفه يتكلم في شؤون العامة " (3) .

(1) رواه الحاكم دائرة الذهبى (المستدرک 461 / 4).

(2) رواه أحمد (كنز العمال 229 / 14).

(3) رواه الحاكم وأقوه الذهبى (المستدرک 512 / 4).

الصفحة 439

ثانيا - آراء وشهود

على امتداد هذا الكتاب علمنا أن تزيخ الإسلام هو تزيخ الدفاع عن الفطرة. ولم يتوك النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلا وقد بين لهم حركة الأمم الماضية ليتدبروا فيها وليعلموا أن الإسلام منصور منصور منصور، فإذا رأوا أن يقفوا تحت رايات هذا النصر فما عليهم إلا أن يتحركوا الحركة التي تستقيم معه، أما إذا رأوا غير ذلك فما قوم فوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة منهم ببعيد، والدجال على الطويق، وعلمنا أيضا أن تزيخ المسلمين كان كغوه من تزيخ بني الإنسان فيه ضعف الإنسان وخوفه وفيه أيضا أصحاب النفس اللوامة الذين يتذكرون حركتهم فيلومون أنفسهم ويوبون أنهم تحركوا الحركة التي يحبون أن ينظر الله إليهم وهم على طريقتها.

ويخطئ من يظن أن حركة المسلمين على صفحة التزيخ لم تقدم جديدا للبشرية، فلقد رأينا حركة الذين دافعوا عن الفطرة وهذا في حد ذاته دفاع عن البشرية، وعلمنا حركة الذين نشروا الإسلام في روع العالم بوسائلهم البسيطة، فبعملهم هذا أقاموا ينابيع الماء الطاهر الذي يوفر الارتواء ويدعو إلى البحث، وعالم البحث لا يكون في دائرة مغلقة على الإيجابيات والمناقب، وإنما وجد البحث ليفتش بين الإيجابيات وبين السلبيات، وهذا في حد ذاته حركة بين الماضي والحاضر والمستقبل حركة تقو في أصول الإسلام وتنتظر في حركة المسلمين، وليس هذا من أجل محاكمة التزيخ وإنما من أجل ضوب الباطل.

الصفحة 440

حتى يزوج الحق من جنبه، لأن الإسلام لا يجامل أحدا وطويقه إما إلى جنة وإما إلى نار. وهناك فوق بين حركة المسلمين عبر تزيخهم وبين حركة أهل الكتاب على امتداد تزيخهم. روي أن بعض اليهود قال للإمام علي بن أبي طالب: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه. فقال له الإمام: إنما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفت رجليكم من البحر حتى قلت لربيكم " اجعل لنا إله كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون " (1) ، إن الفوق يكمن في داوة (عنه) وليس في داوة (فيه) وهذا فوق جوهري عند المقلنة بين تزيخ

المسلمين وبين تزيخ اليهود والنصرى. ونحن في هذا الباب سنقدم بعض آراء علماء المسلمين حول الأحداث التي ذكرناها على امتداد هذا الكتاب. ومنها نعلم كيف كانوا ينظرون إلى التزيخ. هل كانوا ينظرون إليه بعين السلطان وفقهائه؟ أم كانوا ينظرون إليه من ثوب الخوف أم نظروا إليه من خلال تزيخ الإسلام وخفقات الفطرة؟ ثم نقدم بعد ذلك أقوال الشهود الذين عاصروا هذه الأحداث.

1 - آراء....:

* تلقي الضوء هنا على رأي شيخ المسلمين أحمد بن تيمية في الأحداث التي عصفت بالأمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. ولقد بين رأي الشيخ أبي زهرة في ابن تيمية حامل لواء مذهب السلفية. وكذا رأي ابن حجر الهيتمي (909 - 974 هـ) الذي ذكر أن ابن تيمية قال: إن علياً أخطأ في أكثر من ثلاثمائة مكان⁽²⁾ ، وقبل أن نقدم رأي ابن تيمية في الأحداث زى من الضروري أن تلقي بعض الضوء على حركته في عصوره. ذكر ابن كثير في البداية والنهاية:

أن العلماء كان منهم من يحسده لتقدمه عند الدولة ومنهم من كان يبغضه لآرائه، وذكر أنه خلال اجتياح التتار لدمشق اجتمع ابن تيمية مع أعيان البلد واتفقوا على

(1) الكشاف / للزمخشري 2 / 150 ، نهج البلاغة خطبة 4 / 317 .

(2) الفتوى الحديثية 116 .

المسير إلى القائد التتاري وأخذ الأمان منه لاهل دمشق، وأعطاه القائد الأمان، وتولت خيول التتار إلى المدينة وطلبوا السلاح والأموال المخبأة عند الناس من جهة الدولة، وعندما قام التتار بالتخريب في المدينة وما حولها ذهب ابن تيمية إلى ملك التتار وعاد بعد يومين، وفي هذه الفترة كان التتار قد قتلوا الكثير من الفقهاء والمشايخ وعلى وجه الخصوص في دير الحنابلة⁽¹⁾ . ويقول ابن كثير:

وفي جمادى الأولى وقع بيد نائب سلطان المسلمين كتاب فيه: إن الشيخ تقي الدين بن تيمية والقاضي شمس الدين بن الحروي. وجماعة من الأواء والخواص الذين بباب السلطنة يناصحون التتار ويكاتبونهم، ويريدون تولية قبحق على الشام. وأن الشيخ كمال الدين الزمكاني يعلمهم بأحوال الأمير. ثم ذكر ابن كثير أن هذا الكتاب مزور⁽²⁾ . فويلات ابن تيمية كلها للتتار كانت في صالح الإسلام والمسلمين. وذكر ابن كثير: عندما حضر ابن تيمية إلى القاهرة، اشتكى منه الصوفية ورووا الأمر في ذلك إلى القاضي الشافعي. فعقد له مجلساً. وفي أثناء ذلك قال ابن تيمية: لا يستغاث إلا بالله ولا يستغاث بالنبي. فأى القاضي الشافعي أن هذا فيه قلة أدب، وحضوت رسالة إلى القاضي أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة. فقال القاضي: " قد قلت له ما يقال لمثله "⁽³⁾ .

ورأى ابن تيمية في الأحداث نبأه من عقيدته في أهل البيت. يقول: آية التطهير ليس فيها إخبار بطهارة أهل البيت وذهاب الوجس عنهم⁽⁴⁾ ، وقال في حديث الكساء: إن مضمون هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهم بأن يذهب عنهم

الرجس ويطهروهم تطهروا. وغاية ذلك أن يكون دعا لهم بأن يكونوا من المتقين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهروهم تطهروا. واجتتاب الرجس واجب على المؤمنين والطهارة مأمور بها كل مؤمن⁽⁵⁾ ، والسابقون

(1) البداية والنهاية 7، 8، 9، 22، 45 / 14.

(2) وهذه التهمة ظلت لصيقة بابن تيمية وعالقة في أذهان شوخ عسوه.

(3) المصدر السابق 49 / 14.

(4) منهاج السنة 117 / 2.

(5) المصدر السابق 4 / 3.

الصفحة 442

الأولون لا بد وأن يكونوا قد فعلوا المأمور وتركوا المحذور. وحينئذ فيكون ذهاب الرجس عنهم وتطهروهم من الذنوب بعض صفاتهم⁽¹⁾ ، ثم يقول في آية المودة: (قل لا أسألكم عليه أحرأ إلا المودة في القربى)⁽²⁾ ، قال: إيجاب المودة غلط⁽³⁾ ثم بدأ يفسر حتى استقر عند قوله: ثبت أن الصديق كان أتقى الأمة بالكتاب والسنة وقواتر عن النبي أنه قال: لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، وقال في آية المباهلة: (قل تعالوا ندع أبناءنا) لا يقتضي أن يكون من باهل بهم الرسول أفضل من جميع الصحابة⁽⁴⁾ .

ثم يقول في الأحداث ميرا لاقتحام أبي بكر لبيت فاطمة بعد أحداث السقيفة: غاية ما يقال: إنه كبس البيت لينظر هل فيه شئ من مال الله الذي يقسمه لكي يعطيه لمستحقه، ثم رأى أنه لو تركه لهم لجاز فإنه يجوز أن يعطيهم من مال الفئ⁽⁵⁾ . لاحظ أن ابن تيمية لا يقول إلا رأيا ولا يستند في ذلك على حديث أو أثر وهذا من شأنه في رؤيته للتاريخ. ثم يقول عن عهد عمر: كان عمر يسوغ التفضيل من الصحابة في العطاء للمصلحة. فهو الذي ضرب الله الحق على لسانه وقبلة⁽⁶⁾ ، ثم يقول في قتل عمر: وما فعله أبو لؤلؤة كرامة في حق عمر. وهو أعظم مما فعله ابن ملجم بعلي وما فعله قتلة الحسين به. فإن أبا لؤلؤة كافر قتل عمر. وهذه الشهادة أعظم من شهادة من يقتله مسلم⁽⁷⁾ . وقال:

إن عمر لما فتح الأمصار بعث علماء الصحابة إليهم لبث العلم. واتصل العلم من أولئك إلى سائر المسلمين. ولم يكن ما بلغه علي بن أبي طالب للمسلمين أعظم مما بلغه ابن مسعود ومعاذ وأمثالهما. ولو لم يحفظ الدين إلا بالنقل عن

(1) المصدر السابق 4 / 3.

(2) سورة الشورى: الآية 23.

(3) منهاج السنة 8 / 1.

(4) منهاج السنة 35 / 4.

(5) المصدر السابق 220 / 4.

علي بن أبي طالب لبطل عامة الدين لأنه لم ينقل عن علي إلا أمر قليل لا يحصل به المقصود⁽¹⁾.

وإذا كان ابن تيمية يعتقد بأن الله أذهب الوجس من الصحابة وطوهم تطهروا على الرغم من قول الله تعالى للذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه)⁽²⁾، وقوله في أئمة الكفر: (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم)⁽³⁾، وعلى الرغم من أن بعض الصحابة رموا فؤاد رسول الله بحديث الإفك وعلى الرغم من حديث البخاري الذي يصوح بلرتداد بعضهم بعد وفاة الرسول، فإن ابن تيمية فتح أبواب الجنة واعتبر أن جميع الحرائم التي حدثت بعد وفاة الرسول. كانت نابعة من الاجتهاد ولا عقاب على الذين ارتكبوها يوم القيامة، وهذا تطرف في الرأي يفوق تطرف الموجئة في رأينا على الأقل، يقول ابن تيمية: إن أهل السنة عندهم أن أهل بدر كلهم في الجنة... وأهل السنة يقولون: إن أهل الجنة ليس من شرطهم سلامتهم عن الخطأ بل ولا عن الذنب. بل يجوز أن يذنب الرجل منهم ذنبا صغرا أو كبيرا ويتوب منه، ولو لم يتب فالصغائر تمحى باجتتاب الكبائر. بل أن الكبائر تحمى بالحسنات التي هي أعظم منها⁽⁴⁾، وقال: الواجب على كل مسلم أن يعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء الصحابة⁽⁵⁾. فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار ويدور مع الصحابة حيث داروا فإذا اجتمعوا لم يجتمعوا على خطأ قط⁽⁶⁾.

ويقول على عهد عثمان: أمارد عثمان للحكم بن أبي العاص فغاية ذلك

(1) منهاج السنة 272 / 3.

(2) سورة الفتح: الآية 10.

(3) سورة التوبة: الآية 12.

(4) منهاج السنة 184 / 2.

(5) المصدر السابق 66 / 3.

(6) المصدر السابق 66 / 3.

(1) أن يكون اجتهادا اجتهده عثمان، وفي رده لصاحبه أجر مغفور له، أو ذنب له أسباب كثرة توجب غوانه⁽¹⁾. ويقول: عثمان ولى من يعلم أن غوه أصلح منه، وهذا من الاجتهاد، أو يقال إن محبته لأقربه ميلته إليهم حتى صار يظنهم أحق من غوهم. وإن ما فعله كان ذنبا وإن ذنبه لا يعاقب عليه في الآخرة!!⁽²⁾.

ويقول: في خلافة عثمان توسع الأغنياء حتى زاد كثير منهم على قدر المباح في المقدار والنوع. وتوسع أبو ذر في الانكار

(3) واحتج أبو ذر بما لا حجة فيه من الكتاب والسنة (4) . وكان أبو ذر يريد أن يوجب على الناس ما لم يوجب الله عليهم .
 ويذمهم على ما لم يذمهم الله عليه (5) . وليس معنى أن أبا ذر أصدق الناس أنه أفضل من غيره... فأهل الشورى مؤمنون
 أقوياء وأبو ذر وأمثاله مؤمنون ضعفاء (6) . ثم يقول عن جريمة مروان بن الحكم التي أدت إلى قتل عثمان: غاية ما قيل: إن
 مروان كتب كتابا بغير علم عثمان، وإن أهل مصر طالبوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فامتنع، فإن كان قتل مروان لا يجوز فقد
 فعل عثمان الواجب، وإن كان يجوز ولا يجب فقد فعل عثمان الجائز، وإن كان قتله واجبا فعدم تسليمه من مولد الاجتهاد (7) .
 وغاية الأمر أن يكون مروان قد أذنب في رادته قتلهم، ولكن لم يتم غرضه، ومن سعى في قتل إنسان ولم يقتله لم يجب قتله،
 فما كان يجب قتل مروان بمثل هذا (8) .

ثم يقول عن دور عائشة في الأحداث: هب أن عائشة قالت: اقتلوا نعتلا، فإن هذا القول لا نكوة فيه، فليس القول قدحا فلا
 إيمان القائل ولا المقول له،

(1) المصدر السابق 236 / 3.

(2) المصدر السابق 187 / 3.

(3) منهاج السنة 199 / 3.

(4) المصدر السابق 198 / 3.

(5) المصدر السابق 199 / 3.

(6) المصدر السابق 199 / 3.

(7) المصدر السابق 188 / 3.

(8) المصدر السابق 190 / 3.

الصفحة 445

بل كلاهما ولي الله من أهل الجنة (1) . وقال: إذا ثبت أن عائشة أو عمرا أو غوهما كوا آخر من الصحابة عثمان أو
 غيره. أو أباح قتله على وجه التأويل.

لم يقدر ذلك فلا إيمان واحد منهم ولا في كونه من أهل الجنة (2) .

ويقول ابن تيمية في علي بن أبي طالب: لم يكن لعلي في الإسلام أثر حسن إلا ولغوه مثله ولبعضهم آثار أعظم من آثاره
 . وقال: كثير من الصحابة أشجع من علي وأبو بكر وعمر كانا أكثر جهادا منه (4) . وعلي تعلم من أبي بكر السنة ولم يتعلم
 أبو بكر من علي شيئا (5) . وأبو بكر وعمر لا يضاهايهما أحد في الزهد وكانوا فوق علي في ذلك (6) . وقال: إن الله أخبر أنه

سيجعل للذين آمنوا وعملوا الصالحات ودا وهذا وعد منه صادق ومعلوم. والله قد جعل للصحابة مودة في قلب كل مسلم لا
 سيما الخلفاء أبو بكر وعمر فإن عامة الصحابة والتابعين كانوا يودونهم وكانوا خير القرون، ولم يكن ذلك علي بن أبي طالب
 فإن كثروا من الصحابة والتابعين كانوا ييغضونه ويسبونهم ويفاتلونهم (7) ، وقال عن ثقافة السب: فهذا كله سواء كان ذنبا أو

اجتهادا أو مخطئا أو عاصيا، فإن مغفرة الله ورحمته تتناول ذلك بالتوبة والحسنات الماضية ⁽⁸⁾ . وقال: كان علي صغوا ليلة
المواج لم يحصل له هجرة ولا جهاد، والأنبياء السابقون لم يذكروا عليا في كتبهم، بل ذكر أن المقوقس كان عنده تابوت به
صور الأنبياء وصورة أبي بكر وعمر مع صورة النبي!! ⁽⁹⁾ .

(1) المصدر السابق 188 / 2 .

(2) المصدر السابق 189 / 2 .

(3) المصدر السابق 54 / 4 .

(4) المصدر السابق 166 / 4 .

(5) المصدر السابق 137 / 4 .

(6) المصدر السابق 130 / 4 .

(7) المصدر السابق 38 / 4 .

(8) المصدر السابق 224 / 2 .

(9) المصدر السابق 46 / 4 .

الصفحة 446

وقال عن يوم الجمل: لم يكن قتال علي يوم الجمل وصفين بأمر النبي ⁽¹⁾ وإنما كان رأيارآه ⁽²⁾ . وعندما خرجت عائشة
يوم الجمل لم تتزوج توج الجاهلية. والأمر بالاستقرار في البيوت لا ينافي الخروج لمصلحة مأمور بها ⁽³⁾ .
ثم وصف القتال فقال: لم يكن يوم الجمل لؤلاء قصد في القتال، ولكن وقع الاقتتال بغير اختيلهم، لقد خشى القتلة أن يتفق
علي مع عائشة، فحملوا على معسكر طلحة والزبير، فظن طلحة أن عليا حمل عليهم، فحملوا دفعا عن أنفسهم، فظن علي أنهم
حملوا عليه، فحمل دفعا عن نفسه، فوقع الفتنة بغير اختيلهم وعائشة راكبة!! ⁽⁴⁾ ، ثم يقول شيخ المسلمين: يوم الجمل إذا
كان قد وقع خطأ أو ذنب من أحد الفريقين أو كليهما، فقد عرفنا أن هذا لا يمنع ما دل عليه الكتاب والسنة من أنهم خيار أولياء
الله المتقين وعباده الصالحين وأنهم من أهل الجنة ⁽⁵⁾ .

ثم يقول عن صفين: كان علي عاجزا عن الحق والعدل، وليس لأهل الشام أن يبايعوا عاجزا عن العدل ⁽⁶⁾ . لقد بادر علي
بعزل معاوية ولم يكن يستحق العزل ⁽⁷⁾ . إن أهل الشام خير الناس للإسلام. ومعاوية كان خوا من كثير: فلم يكن يستحق أن
يعزل ويولى من هو نونه ⁽⁸⁾ . وقال شيخ المسلمين: من قاتل عليا إن كان باغيا فليس ذلك بمخرجه من الإيمان ولا موجبا له
النوان ولا مانعا له من

(1) أخرج أحمد والحاكم بسند صحيح قول النبي لعلي: " إنك تقاتل علي القرآن كما قاتلت علي تنزله ."

(2) المصدر السابق 231 / 2 .

(3) المصدر السابق 186 / 2.

(4) المصدر السابق 185 / 2.

(5) المصدر السابق 241 / 3.

(6) المصدر السابق 203 / 2.

(7) المصدر السابق 222 / 2.

(8) المصدر السابق 223 / 2.

(1) الجنان ، وقال: القول بأن أول من يدخل النار مبغض علي وأن أول من يدخل الجنة محبه...، هل تعلق السعادة والشقوة بمجرد حب علي نون حب الله ورسوله إلا كتعلقها بحب أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية رضي الله عنهم (2) .

وقال: إن عليا ليس قائدا لكل البررة ولا هو أيضا قاتلا لكل الكوفة، وكذلك القول: منصور من نصوه فهو خلاف الواقع... فمن المعلوم أن الأمة كانت منصورة في عصور الخلفاء الثلاثة... فلما قتل عثمان... لم يكن الذين قاتلوا مع علي منصورين.. بل أولئك الذين انتصروا عليه عندما صار الأمر إليهم لما تولى معاوية انتصروا على الكفار وفتحوا البلاد (3) والعسكر الذين قاتلوا مع معاوية ما خذلوه قط في قتال علي. فكيف يكون النبي قال له: اللهم اخذل من خذله؟ (4) ، ولو كان حرب علي حربا للرسول والله تعالى لوجب أن يغلب محارب رسول الله، ولم يكن الأمر كذلك، فقد طالب علي مسالمة معاوية ومهادنته وأن يكف عنه (5) . إن عليا قاتل على الخلافة حتى غلب وسفك الدماء بسبب المنزعة التي بينه وبين منزله، ولم يحصل بالقتال لا مصلحة الدين ولا مصلحة الدنيا (6) . واجتهاد علي في سفك دماء المسلمين بعضهم بعضا ذل المؤمنين (7) . إن الخلفاء الثلاثة اتفق المسلمون عليهم، وكان السيف في زمانهم مسلولاً على الكفار أما علي بن أبي طالب فلم يتفق المسلمون عليه وكان السيف في مدهته مكفوفاً عن الكفار مسلولاً على أهل الإسلام (8) . إن الله أظهر الدين على أيدي الخلفاء الثلاثة وعلي لم يظهر الدين في خلافته (9) . ولم يكن في

(1) المصدر السابق 205 / 2.

(2) المصدر السابق 107 / 4.

(3) المصدر السابق 6 / 4.

(4) المصدر السابق 17 / 4.

(5) السابق 234 / 2.

(6) المصدر السابق 121 / 4.

(7) المصدر السابق 223 / 2.

(8) المصدر السابق 148 / 2.

خلافة علي للمؤمنين الرحمة التي كانت في زمن عمر وعثمان، بل كانوا يقتتلون ولم يكن لهم على الكفار سيف، فكيف يظن مع هذا تقدم علي في هذا الوصف على أبي بكر وعمر وعثمان⁽¹⁾. ثم قال: وبعد علي لم يعرف أحد إلا أهل السنة الذين نصرُوا دين الله⁽²⁾.

ثم يقول شيخ المسلمين عن قتل معاوية للحسن: إن كان معاوية دس السم للحسن فهو من باب قتال بعضهم بعضاً، وقتال المسلمين بعضهم بعضاً بتأويل باب عظيم - أي لا يمنعهم من دخول الجنة⁽³⁾. ثم يقول عن استخلاف يزيد:

أهل السنة يعتقدون أن يزيد ملك جمهور المسلمين وكان خليفتهم في زمانهم⁽⁴⁾. ولقد كان كل واحد من الخلفاء إماماً وخليفة وسلطاناً⁽⁵⁾. وأهل السنة إذا اعتقوا إمامة واحد من هؤلاء يزيد أو عبد الملك أو المنصور كان بهذا الاعتبار، ومن نزع في هذا فهو شبيه بمن نزع في ولاية أبي بكر وعمر وعثمان⁽⁶⁾. وقال: إن يزيد غم ما فيه من ظلم وقتل وفعل ما فعل يوم الحرة، فإنه لا يخرج عليه لأن من لم يكن مطيعاً لولاة الأمور مات ميتة جاهلية⁽⁷⁾.

وقال شيخ المسلمين في قتل الحسين: قالوا للحسين: لا تخرج. وهم بذلك قاصدون نصيحته ومصالحة المسلمين والله ورسوله يأمر بالصلاح لا بالفساد، فتبين أن الأمر على ما قاله هؤلاء، إذ لم يكن في خروج الحسين مصلحة لا في دين ولا في دنيا⁽⁸⁾، وقال عن جهاد الحسن والحسين: جهاد

(1) المصدر السابق 228 / 2.

(2) المصدر السابق 138 / 2.

(3) المصدر السابق 225 / 2.

(4) المصدر السابق 239 / 2.

(5) المصدر السابق 239 / 2.

(6) المصدر السابق 24 / 2.

(7) المصدر السابق 37 / 1.

(8) المصدر السابق 241 / 2.

الحسينين في سبيل الله كذب عليهما⁽¹⁾. وقال عن قتل الحسين: قتل الحسين لم يجلب فساداً على الأمة⁽²⁾. وقال: لم يعظم إنكار الأمة لقتل الحسين كما عظم لقتل عثمان، ولا انتصر له جيوش كالجيوش التي انتصرت لعثمان، ولا انتقم أعوانه من أعدائه كما انتقم أعوان عثمان من أعدائه، ولا حصل بقتله من الفتن والشور والفساد ما حصل بقتل عثمان ولا كان قتله أعظم إنكاراً عند الله ورسوله وعند المؤمنين من قتل عثمان⁽³⁾. وقال: "إن عثمان أعظم أجراً. وقتلته أعظم إثماً ممن لم يكن متولياً

فخرج يطلب الولاية ولم يتمكن حتى قتل، ولا ريب أن قتال الدافع عن نفسه وولايته أقرب من قتال الطالب لأن يأخذ الأمر من غوه، وعثمان ترك القتال دفعا عن نفسه وولايته أقرب من الحسين ⁽⁴⁾ .

ثم يقول: من قال إن عثمان كان مباح الدم، لم يمكنه أن يجعل عليا معصوم الدم ولا الحسين، فإن عصمة دم عثمان أظهر من عصمة دم الحسين، وعثمان أبعد من موجبات القتل من علي والحسين، وشبهة قتل عثمان أضعف بكثير من شبهة قتل علي والحسين فإن عثمان لم يقتل مسلما ولا قاتل أحدا على ولايته ⁽⁵⁾ . ثم يقول: كان المنتصرون لعثمان معاوية وأهل الشام، والمنتصرون من قتلة الحسين المختار، ولا يشك عاقل أن معاوية خير من المختار ⁽⁶⁾ .

وعمر بن سعد قائد السرية التي قتلت الحسين لم يصل في الجرم إلى ما وصل إليه المختار الذي تتبع قتلة الحسين ⁽⁷⁾ . وفي الختام يقول: إن عثمان تاب توبة ظاهرة من الأمور التي صاروا يذكرونها ويظهر له أنها منكوة. وكذلك عائشة ندمت على مسوها إلى البصوة وكانت إذا ذكrote تبكي حتى تبل خمرها، وطلحة

(1) المصدر السابق 118 / 2.

(2) المصدر السابق 164 / 1.

(3) المصدر السابق 188 / 2.

(4) المصدر السابق 188 / 2.

(5) المصدر السابق 129 / 3.

(6) المصدر السابق 188 / 2.

(7) المصدر السابق 165 / 1.

الصفحة 450

والزبير ندما على مسير يوم الجمل ⁽¹⁾ . ولم يقل لنا الشيخ لماذا كان الندم؟ هل لأنهم كانوا على حق أم أن خصمهم هو صاحب الحق؟

كان هذا مجمل رأي ابن تيمية وفي إمكاننا أن نعرضه بالأدلة التي لا تدفع ولا تؤد، ولقد ذكرنا على امتداد هذا الكتاب ما فيه كفاية للود على هذا الكلام وغوه، ولقد حرصت على أن أعرض وجهة نظر الشيخ حتى يعلم الحاضر حقيقة الأمور من حوله وهو يأخذ بخيوط البحث عن الحقيقة، ولقد تبين لنا أن ابن تيمية يصادر الأصول ولا يقيم لها وزنا إذا تعرضت مع رأيه. وقد وصفه الشيخ ناصر الدين الألباني بأنه " متسوع في تضعيف الأحاديث قبل أن يجمع طرقها ويدقق النظر فيها " ⁽²⁾ ، وقال في حديث استنكوه ابن تيمية: " استنكوه شيخ الإسلام ولو صحت عن رسول الله لم نعبأ باستنكوهه " ⁽³⁾ ، ويقول الشيخ محمد الكوثري قاضي الدولة العثمانية عن تضعيف ابن تيمية للأحاديث وعن رأيه التي تخالف النصوص: فمثل هذا الشيخ الحواني لا يمكن أن يوزن في كفة وأئمة علوم شتى المذاهب في كفة أخرى، إن ما ألفه ابن تيمية في أواخر عمره متوغل في الفساد ⁽⁴⁾ .

ولقد أخذ ابن تيمية على عاتقه التشكيك في كل حديث يتعلق بأهل البيت حتى ولو كان هذا الحديث في الصحاح، وعلى سبيل المثال قال في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن علي " إنه لعهد النبي الأمي إلي أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق "، قال: في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق (بغض الأنصار). وقال: لا يبغض الأنصار رجل مؤمن بالله واليوم الآخر. فإن هذه الأحاديث أصح مما يروى عن علي أنه قال: لعهد النبي الأمي إلي... "، فإن هذا الحديث رواه مسلم.

(1) المصدر السابق 181 / 3.

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة 344 / 4 ط المكتب الإسلامي.

(3) المصدر السابق 400 / 4.

(4) صفات الوهان / الكوثر ص 30.



والبخري أعرض عنه بخلاف أحاديث الأنصار... وأهل العلم شكوا في حديث علي⁽¹⁾. ولم يذكر الشيخ من هم أهل العلم الذين شكوا في أحاديث الإمام مسلم؟ ولو صح هذا لانهدم جانب كبير من السنة، وقال الشيخ أيضا في حديث الثقلين كتاب الله فذكر كتاب الله وحض عليه ثم قال: وعرتي أهل بيتي أذكركم الله - ثلاثا. قال الشيخ: هذا مما انفرد به مسلم ولم يروه البخري، والحديث الذي رواه مسلم إذا كان النبي قد قاله، فليس فيه إلا الوصية باتباع كتاب الله، وهذا أمر قد تقدمت الوصية به في حجة الوداع قبل ذلك، وهو لم يأمر باتباع العزة!!⁽²⁾.

وإذا كان ابن تيمية يرد كل شئ إلى البخري ويشكك في الحديث الذي يرويه مسلم ولم يروه البخري، فإننا نجده يشكك في البخري نفسه عندما روى حديثا لم يصادف هو ابن تيمية. روى البخري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ويح عمار. تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار"، فقال الشيخ: حديث عمار "تقتلك الفئة الباغية"، رواه مسلم ورواه البخري، ولكن البخري في كثير من النسخ لم يذكره تاما⁽³⁾. وعندما لم يجد موا قال: ولكن لا يختلف أهل العلم بالحديث أن هذه الزيادة "يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار" هي في الحديث⁽⁴⁾. لقد وضع الشك ولا ليتراجح الباحث بين الحقيقة والخيال. وشكك أيضا في أقوال أحمد بن حنبل فقال:

وأحمد بن حنبل لم يقل إنه صح لعلي من الفضائل ما لم يصح لغوه، بل أحمد أجل من أن يقول مثل هذا الكذب⁽⁵⁾. وشكك في حديث "وأندر عشوتك الأوبين" الذي رواه أحمد وغوه بسند صحيح كما ذكرنا من قبل، وطعن في الترمذي

والنسائي وقال: روبا أحاديث ضعيفة في فضل

(1) منهاج السنة ص 40 / 4.

(2) منهاج السنة 85 / 4.

(3) منهاج السنة 210 / 2.

(4) المصدر السابق 211 / 2.

(5) المصدر السابق 99 / 4.

علي⁽¹⁾، وطعن في تفسير ابن جرير وابن أبي حاتم والثعلبي والبخري⁽²⁾.
والواحدي وابن حميد وعبد الرزاق⁽³⁾، وأبي نعيم⁽⁴⁾ والكلبى⁽⁵⁾ والديلمي⁽⁶⁾ والحاكم وابن عبد ربه وابن عقدة⁽⁷⁾ وابن خلويه⁽⁸⁾ وابن عساكر⁽⁹⁾ وابن إسحاق⁽¹⁰⁾ وجريمة هؤلاء جميعا في نظر ابن تيمية أنهم رخوا أحاديث في فضل أهل البيت. حتى أنه قال في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسند صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد حسن وحسين وقال: من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما فهو معي في توجتي يوم القيامة"، قال الشيخ:

وبتقدير أن يكون أحمد روى الحديث فمجرد رواية أحمد لا توجب أن يكون صحيحا يجب العمل به، بل الإمام أحمد روى

أحاديث كثيرة ليعرف ويبين للناس ضعفها!!⁽¹¹⁾ مما سبق نعلم أن الشيخ لجم العقل ولم يجعل فيه نافذة مفتوحة إلا لاستقبال رأيه فقط، ونحن فيما سبق دعونا الله أن يرحم العلماء الذين جمعوا لنا الحديث لأنهم بهذا العمل وضعوا أمام العقل في كل مستقبل المادة العنصرية التي من خلالها يتم البحث عن الحقيقة، ولكن الأمر مختلف عن ابن تيمية. لقد جاهد من أجل أن يري الناس ما واه مبينا لهم أن أي حديث لا يعرفه هو فليس بحديث، وعلى أي حال إذا كانت هذه المحاولة قد حققت نجاحا في فتوة من

(1) المصدر السابق 48 / 4.

(2) المصدر السابق 80 / 4.

(3) المصدر السابق 4 / 4.

(4) المصدر السابق 10 / 4.

(5) المصدر السابق 18 / 4.

(6) المصدر السابق 38 / 4.

(7) المصدر السابق 99 / 4.

(8) المصدر السابق 106 / 4.

(9) المصدر السابق 111 / 4.

(10) المصدر السابق 48 / 4.

(11) المصدر السابق 106 / 4.

الصفحة 453

الزمان، ألا أنه بالتأكيد لن يكتب له الخلود.

* ويقتضي الأمر أن نبين رأي المعتولة في الأحداث كما بينا الرأي السلفي الذي يمثله ابن تيمية. يقول ابن أبي الحديد المعتولي.

فأما علي كرم الله وجهه فإنه عندنا بمقتولة الرسول في تصويب قوله والاحتجاج بفعله ووجوب طاعته، ومتى صح عنه أنه قد وى من أحد من الناس برئنا منه كائنا من كان، ولكن الشأن في تصحيح ما يروى عنه فقد كثر الكذب عليه... وأما راعته كرم الله وجهه من المغيرة وعمرو بن العاص ومعاوية فهو عندنا معلوم جار مجرى الأخبار المتواترة، فلذلك لا يؤلاهم أصحابنا، ولا يثنون عليهم، وهم عند المعتولة في مقام غير محمود⁽¹⁾، وقال ابن أبي الحديد:

فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الإمامة قبله فلو أنه أنكر إمامتهم وغضب عليهم وسخط فعلهم فضلا عن أن يشهر عليهم السيف أو يدعو إلى نفسه لقلنا: إنهم من الهالكين كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه قد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: " حربك حربي وسلمك سلمي " وقال: " اللهم والي من والاه وعادي من عاداه

"، وقال: " لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق "، ولكنارأيناه رضي إمامتهم فلم يكن لنا أن نتعدى فعله ولا نتجاوز ما اشتهر عنه، إلا ترى أنه لما روى من معلوية برئنا منه ولما لعنه لعناه، ولما حكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص وعبد الله ابنه وغورهما حكما أيضا بضلالهم، والحاصل: أنا لم نجعل بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلابرتبة النوبة.

وأعطيناها كل ما عدا ذلك من الفضل والمشارك "، ولم نطعن في أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم، وعاملناهم بما عاملهم به .⁽²⁾

قال ابن أبي الحديد: لو نزع عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسل سيفه لحكنا بهلاك كل من خالفه وتقدم عليه، كما حكنا بهلاك

(1) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد 764 / 5.

(2) المصدر السابق 881 / 5.

الصفحة 454

من نزع حين أظهر نفسه، ولكنه مالك الأمر وصاحب الخلافة، إذا طلبها وجب علينا القول بتنسيق من ينزعه فيها، وإذا أمسك عنها وجب القول بعدالة من أغضى له عليها، وحكمه في ذلك حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه قد ثبت عنه في الأخبار الصحيحة أنه قال: " علي مع الحق والحق مع علي يدور حيثما دار " وقال له غير مرة: " حربك حربي وسلمك سلمي " وهذا المذهب هو عدل المذاهب عندي وبه أقول .⁽¹⁾

وقال: ومذهب أصحابنا من البغداديين أنه الأفضل والأحق بالإمامة وأنه لولا ما يعلمه الله ورسوله من أن الأصلح للمكلفين من تقديم المفضول عليه لكان من تقدم عليه هالكا، فوسول الله صلى الله عليه وسلم أخوه أن الإمامة حقه، وأنه أولى بها من الناس أجمعين، وأعلمه أنه في تقديم غوره وصوره على التأخر عنها مصلحة راجعة إلى المكلفين، وأنه يجب عليه أن يمسك عن طلبها ويغض عنها لمن هو دون مرتبته، فامتثل ما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يخرجته تقدم من تقدم عليه من كونه الأفضل والأولى والأحق .⁽²⁾

ومعنى هذا أن قول النبي صلى الله عليه وسلم: " من كنت هولاه فعلي هولاه " فيه إشارة إلى مخاطبة داوة الاختيار والإرادة عند الصحابة. بمعنى إذا ردتكم سلوك طريقي والنجاة من الفتن التي حدثتكم عنها فهذا هو طريق ولا إجار في دين الله، وهذا أصل في حكمة الوجود وخلافة الوجود وخلافة الإنسان في الأرض، فحركة الإنسان تنور في فلك عظيم لينظر الله كيف يعملون ويترتب على هذا العمل إما الثواب وإما العقاب وليس معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: " من كنت هولاه فعلي هولاه " أنه اكتفى بمخاطبة داوة الاختيار عن الصحابة، لا فلقد روى في أحاديث صحيحة قوله: " فإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي " فهناك خاطب ملكة الاختيار وهنا ثبت الأمر في هذه الملكة.

وقال ابن أبي الحديد في حروب الإمام: كان لا يستعمل في حربه إلا ما

وافق الكتاب والسنة، وكان معلومة يستعمل خلاف الكتاب والسنة ويستعمل جميع المكاييد حلالها وحرامها ويسير في الحرب بسوة ملك الهند إذا لاقى كسوى، وعلي يقول: لا تبدؤهم بالقتال حتى يبدؤكم ولا تتبعوا مدوا ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا بابا مغلقا.. فعلي كان ملجما بالهرع من جميع القول إلا ما هو الله عز وجل رضا، وممؤع اليدين من كل بطش إلا ما هو لله رضا، ولا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ويحبه، ولا يرى الرضا إلا فيما دل عليه الكتاب والسنة⁽¹⁾.

وبعد أن ألقينا شعاعا من الضوء على رأي المعتولة في الخطوط العريضة للأحداث نقدم هنا رأي الأستاذ سيد قطب صاحب " في ظلال القرآن " ورأيه الذي سنقدمه جاء في كتاب " كتب وشخصيات " ⁽²⁾ ، وفي هذا الكتاب يعلق سيد قطب على بعض الكتب المختارة فيقول: حلقة من سلسلة (أقوأ) استعرض فيها الأستاذ شفيق جوي بعض الواقف والمواقع من تزيخ صدر الإسلام وتزيخ بني أمية مبرزاً فيها العنصر النفسي الذي قامت عليه ليكشف عن نواية صاحب الموقف أو الموقعة بذلك العنصر النفسي أو عدم نوايته وعن أثر العلم بهذا العنصر أو الجهل به في هذا الموقف أو الموقعة، ويقول سيد قطب عن إحدى ملاحظات الكاتب:

" أما الملاحظة الثانية فتبدو على أتمها في الحكم على موقف عمر بن الخطاب من العهد بالخلافة، وندع المؤلف يبين رأيه في هذه السطور: " موز رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه الذي قبض فيه، فأمر أبا بكر أن يصلي، بالناس... ثم كان أمر السقيفة ما كان... ثم موز أبو بكر الموز الذي مات فيه، فاستخلف على المسلمين عمر بن الخطاب، ثم طعن عمر، فدخلوا عليه وهو في البيت وسألوه أن يستخلف عليهم، فجعل الخلافة شورى بين هؤلاء الستة من المهاجرين الأولين... وكل هذا يدل على الارتباك، ولقد كانت هذه

الطريقة سبيلا إلى المخاصمة، فقد تشاح أصحاب الشورى على الخلافة، وأخروا إوام الأمر، ورجا كل واحد منهم أن يكون خليفة... وكاد يؤدي هذا الأمر إلى الفتنة، فقد تطلع الناس إلى معرفة خليفهم وإمامهم، واحتاج من أقام لانتظار ذلك من أهل البلدان إلى الرجوع إلى أوطانهم، ولسنا نوري ما الذي حمل سيدنا عمر على الوقوع في هذا الارتباك، وقد كان قاوا على أن يستخلف أصلح القوم، وهو يعرفهم واحدا واحدا، ويعرف عيوبهم وفضائلهم، ولكنه عدل عن ذلك، وإذا لجأت إلى الحرية في الكلام قلت: خاف التبعة ففر منها، فإنه جعل الأمر شورى بين جماعة كل واحد منهم يريد الخلافة لنفسه مخالفا للقواعد النفسية

في السياسة، ولقد أنقذ الله المسلمين من فتنة الشورى، وكانوا في غنى عنها لو حزم عمر... ففكرة عمر في أن يجعل أمر المسلمين شورى بين ستة يتوَّاحمون على الخلافة غلطة نفسية، وقد أترك معاوية هذه الغلطة، ومثله لا يكاد يفوته شيء من أسوار السياسة النفسية، فقد ذكروا أن زيادا أوفد ابن حصين إلى معاوية، فأقام عنده ما أقام، ثم إن معاوية بعث إليه ليلاً فخلا به، فقال له:

يا ابن حصين قد بلغني أن عندك ذهنًا و عقلاً فأخبرنا عن أي شيء أسألك عنه؟

قال: سلني عما بدا لك، قال: أخبرني ما الذي شئت أمر المسلمين وملاهم وخالف بينهم؟ قال ابن حصين: نعم، قتل الناس عثمان، فقال معاوية: ما صنعت شيئاً. قال: فمسير علي إليك وقتاله إياك. فقال: ما صنعت شيئاً، قال ابن حصين: فمسير طلحة والزبير وعائشة وقتال علي إياهم، فقال: ما صنعت شيئاً. قال: ما عندي غير هذا يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: فأنا أخوك، إنه لم يشتت بين المسلمين، ولا فوق أهواءهم إلا الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر.... فلم يكن رجل منهم إلا رجاها لنفسه وجاها له قومه وتطلعت إلى ذلك نفسه، ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك خلاف... وعلى هذا فالشورى غلطة نفسية رحم الله من غلطها.

ويعلق سيد قطب على هذا الكلام فيقول:... إن الشخصية التي يصدر عليها مثل هذا الحكم السريع شخصية جلييلة ضخمة فذة في تزيخ الإسلام...

على أنني لست من أنصار القداسة المطلقة للشخصيات الإسلامية، ولست أعني

الصفحة 457

مما تقدم أن أحرم المعاصرين حق الحكم على هذه الشخصيات، ولكني أريد أن تتوافر أسباب الحكم كاملة... وليس ما نقله الأستاذ من أقوال معاوية حجة، فمعاوية كان يريد بهذا القول التمهيد لاستخلاف ابنه يزيد، وهنا عنصر نفسي فات الأستاذ جوي ملاحظته، ولست أجزم الجرم القاطع وأبي هذا، كما فعل الأستاذ في تخطئة عمر، ولكني أريد فقط ألا نسولع إلى الحكم القاطع وبين أيدينا كفتا الموزان على الأقل تتلَّجان (1).

ثم يتطرق الكاتب إلى معركة صفين، فوصف الإمام بأنه كان يجهل العناصر النفسية في صراعه مع معاوية فقال: لم تكن معرفته بالأمور النفسية على قدر صوابه، فإذا لم تتجح سياسته النجاح كله، فهذا سببه أنه لم يخطر على باله أن طلب الحقوق يستلزم كثرة من حسن المورد والمصادر... ولم يدر الإمام أن الناس عامة إنما همهم حطام هذه الدنيا، فكان يعز عليه أن يعتقد أن الناس يورون كيف دلَّت مصالحهم ومنافعهم، فلم يعاملهم كنا يجب أن يعاملهم رجل السياسة، وإنما عاملهم كما يعاملهم رجل الأخلاق، فكان من عواقب هذه المعاملة شكوه منهم في كل كلام وفي كل خطبة.

ويعلق سيد قطب فيقول: وهكذا يحكم على علي كرم الله وجهه بأنه كان يجهل النفس البشرية لمجرد أنه لم يستخدم الوسائل السياسية التي استخدمها خصمها معاوية وعمرو بن العاص، وأبسط نظرة تكشف أن هناك فوقاً كبيراً بين معرفة السلاح واستخدام هذا السلاح، فلم يكن الفرق بين علي وبين خصميه أنه يجهل النفس البشرية وأنهما يعرفانها، إنما كان الفرق في

حقيقته هو الرضى باستخدام كل سلاح يرضاه الخلق العالى أو يأباه، فعلى لم تكن تتقصه الخوة بوسائل الغلبة ولا بفوز ع
النفوس البشرية وأهوائها، ولكنه لم يكن يتدنى لاستخدام الأسلحة القوية جميعا، وفي رده على من أشاروا عليه بتوزيع المال
لوشوة الضمائر ما يكفي " أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من الإسلام. فوالله لا أفعل ذلك ما لاح في
السماء نجم "

(1) أي كفة الغلطة النفسية لعمر. وكفة الغلطة النفسية لمعاوية.

الصفحة 458

فحين قالها لم يكن جاهلا أن الناس عامة همهم حطام هذه الدنيا، ولكنه كان متوقفا عن استخدام سلاح تستنقوه نفسه
الكريمة ويستخدمه خصمه بلا توج وكذلك رده على ابن عباس. حينما استصوب إشلة المغوة بن شعبة على علي بأن يولي
الزبير البصوة ويولي طلحة الكوفة يدل على هذا، فلقد قال: ولو كنت مستعملا أحدا لضوه ونفعه لاستعملت معاوية على الشام
، فهو إذن لم يكن بجهل ما يضر وما ينفع، ولكنه كان يأبى ويتوقع. ثم يقول سيد قطب رحمه الله:
إن معاوية وزميله عمرو لم يغلبا عليا لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس وأخبر منه بالتصرف النافع في الظروف المناسب،
ولكن لأنهما طليقان في استخدام كل سلاح، وهو مقيد بأخلاقه في اختيار وسائل الصواع، وحين يوكن معاوية وزميله إلى
الكذب والغش والخديعة والنفاق والوشوة وشواء الذمم. لا يملك علي أن يتدنى إلى هذا الترك الأسفل. فلا عجب ينجحان
ويفشل، وإنه لفشل أشرف من كل نجاح، على أن غلبة معاوية على علي كانت لأسباب أكبر من الرجلين، كانت غلبة جيل علي
جيل، وعصر على عصر، واتجاه على اتجاه، كان مد الروح الإسلامي العالى قد أخذ ينحسر، ولتد الكثيرون من العوب إلى
المنحدر الذي رفعهم منه الإسلام، بينما بقي علي بن أبي طالب في القمة لا يتبع هذا الانحسار، ولا يرضى بأن يجرفه التيار،
من هنا كانت هزيمته، وهي هزيمة أشرف من كل انتصار ثم يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله.

لقد كان انتصار معاوية هو أكبر كلثة دهمت روح الإسلام التي لم تتمكن بعد من النفوس، ولو قد قدر لعلي أن ينتصر،
لكان انتصلوه فزوا لروح الإسلام الحقيقية، الروح الخلقية العادلة المتوقعة التي لا تستخدم الأسلحة القوية في النضال، ولكن
انهاوم هذه الروح ولما يمض عليها نصف قرن كامل، وقد قضى عليها فلم تقم لها قائمة بعد - إلا سنوات على يد عمر بن
عبد العزيز - ثم انطفأ ذلك السواج، وبقيت الشكليات الظاهرية من روح الإسلام الحقيقية. قد تكون رقعة الإسلام قد امتدت
على يدي معاوية ومن جاء بعده، ولكن روح الإسلام قد تقلصت، وهزمت، بل انطفأت، فإن يهش إنسان لهزيمة الروح

الإسلامية الحقيقية في مهدها وانطفاء شعلتها بقيام ذلك الملك العضوض، فتلك غلطة نفسية

الصفحة 459

وخلقية لا شك فيها.

ثم يقول رحمه الله: على أننا لسنا في حاجة يوما من الأيام أن ندعو الناس إلى خطة معاوية، فهي جزء من طبائع الناس
عامة، إنما نحن في حاجة لأن ندعوهم إلى خطة علي بن أبي طالب، فهي التي تحتاج إلى ارتفاع نفسي يجهد الكثيرون أن

ينالوه، وإذا احتاج جيل لأن وعى إلى خطة معاوية، فلن يكون هو الجيل الحاضر على وجه العموم، فروح " مكيافيلي " التي سيطرت على معاوية قبل مكيافيلي بقرون هي التي تسيطر على أهل هذا الجيل، وهم أخبر بها من أن يدعوهم أحد إليها، لأنها روح " النفعية " التي تظلل الأواد والجماعات والأمم والمحكومات.

ثم يقول رحمه الله: وبعد، فلست " شيعيا " لأقرر هذا الذي أقول، إنما أنا أنظر إلى المسألة من جانبها الروحي الخلفي، ولن يحتاج الإنسان أن يكون شيعيا لينتصر للخلق الفاضل المترفع عن الوصلية الهابطة المتدنية، ولينتصر لعلي بن أبي طالب على معاوية وعمرو، إنما ذلك انتصار للرفع والنظافة والاستقامة..... (1) .

2 - الشهود:

بعد أن قدمنا الآراء حول الأحداث، نقدم الشهود على هذه الأحداث بمعنى أن كل مساحة تليخية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم سنقدم شاهدا منها، وفي النهاية يمكن أن نحكم على المسورة بوجه عام، وهؤلاء الشهود اعتوهم من المولدين التي يوزن بها الأحداث التي رصدتها في هذا الكتاب، فشهادة الشهود هنا تلتقي مع النتيجة التي انتهى إليها هذا البحث. وشهود الفترة من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى مقتل عثمان هم

(1) كتب وشخصيات / سيد قطب ص 235، 236، 237، 238، 240، 241، 242، 243.

الصفحة 460

أبي بن كعب وحذيفة بن اليمان، فأما شهادة أبي بن كعب فلقد سجلت حب الناس للدنيا في عهد عمر. روى مسلم عن عبد الله بن الحرث قال: كنت واقفا مع أبي بن كعب فقال: لا زال الناس مختلفة أعناقهم في طلب الدنيا " (1)، وأما شهادة حذيفة فلقد سجلت ظهور النفاق، روى البخاري عنه أنه قال: " إنما كان النفاق على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان " (2)، وقال فيما رواه البخاري أيضا: " إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون " (3) وروى الزوار بسند صحيح عن أبي وائل قال: قلت لحذيفة النفاق اليوم شر أم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فضرب على جبهته وقال: أوه، هو اليوم ظاهر إنهم كانوا يستخفون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم " (4) .

أما الحلقة الثانية من الشهود فتتمتد حتى عهد الوليد بن عبد الملك. فأبو برة الأسلمي سجلت شهادته القتال على الملك خلال هذه الفترة. عن أبي المنهال قال: لما كان ابن زياد ومروان بالشام ووثب ابن الزبير بمكة ووثب القواء بالبصرة، انطلقت مع أبي إلى أبي برة الأسلمي فقال أبي: يا أبا برة ألا ترى ما وقع فيه الناس؟ فقال: إني احتسبت عند الله أني أصبحت ساخطا على أحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذلة والقلّة والضلالة، وإن الله أنقذكم بالإسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم حتى بلغ ما ترون، وهذه الدنيا أفسدت بينكم، إن ذلك الذي بالشام والله إن يقاتل إلا على الدنيا، وإن هؤلاء الذين بين أظهركم والله إن يقاتلون إلا على الدنيا، وإن ذلك الذي بمكة والله إن يقاتل إلا على الدنيا " (5) .

(1) رواه مسلم ك الفتن (الصحيح 19 / 18).

(2) البخاري ك الفتن (الصحيح 231 / 4).

(3) البخاري ك الفتن (الصحيح 230 / 4).

(4) رواه الزوار (فتح البلي 74 / 13).

(5) رواه البخاري (الصحيح 230 / 4).

الصفحة 461

وبعد شهادة القتال على الدنيا تأتي شهادة جابر بن عبد الله التي سجل فيها خروج الناس من دين الله أفواجا بعد أن دخلوه

أفواجا، فعن أبي عمار قال:

حدثني جار لجابر بن عبد الله قال: قدمت من سفر فجاعني جابر يسلم علي، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا،

فجعل جابر يبكي ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه

أفواجا⁽¹⁾، ومات جابر بن عبد الله في عهد عبد الملك، وبعد شهادة جابر تأتي شهادة أنس بن مالك التي سجل فيها ضياع كل

شيء، روى البخاري عن الوهي أنه دخل على أنس فوجده يبكي فقال: ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئا مما أركت إلا هذه

الصلاة. وهذه الصلاة قد ضيعت"، وعن ابن عمران الجوفي قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ما أعرف شيئا اليوم مما كنا

عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلنا: فأين الصلاة قال:

أولم تصنعون في الصلاة ما قد علمتم⁽²⁾ .

وقد يقول قائل: ما معنى ضياع الصلاة على الرغم من أن الناس يصلون؟

فنقول: إن معنى الضياع هو تويغ الصلاة من الخشوع كما في غ الوآن. من التفسير، والخشوع يبهت إذا ابتعد الإنسان عن

المصدر الذي يعله الكتاب والحكمة، ومعنى الضياع أيضا أن يتقرب الإنسان بها إلى الله وهو يعتقد أن الإله يمكن أن يرى وأن

له أعضاء ويضحك ويبكي إلى غير ذلك. فالصلاة هنا مصورها الوحيد عالم الضياع الذي ينتهي إلى هباء ضائع في خلاء،

ومن معاني الضياع إدخال ما ليس من الصلاة في الصلاة أو سوقيتها، وأول من وضع وتد السوقة من الصلاة معاوية بن أبي

سفيان وما زالت سوقيته جلية إلى يومنا هذا، يقول الإمام فخر الدين الرازي في تصنيف له في سورة الفاتحة:

روى الشافعي بإسناده أن معاوية قدم المدينة فسلم بهم ولم يقرأ " بسم الله الرحمن الرحيم " ولم يكبر عند الخفض إلى

الركوع والسجود، فلما سلم ناداه

(1) رواه أحمد والسيوطي في الجامع ورمز له بالحسن (الفتح الرباني 7 / 24).

(2) رواه أحمد والتومذي من غير وجه عن أنس (الفتح الرباني 99 / 1).

الصفحة 462

المهاجرين والأنصار: يا معاوية سوقت الصلاة. أين بسم الله الرحمن الرحيم؟

أين التكبير عند الركوع والسجود؟ فأعاد الصلاة مع للتسمية والتكبير. قال الإمام الشافعي لولا أمر الجهر بالبسملة كان كالأمر المتقرر عند الصحابة من المهاجرين والأنصار لما قدروا على إظهار الإنكار عليه بسبب تركه، وهو حديث حسن أخرجه الحاكم والدارقطني وقال: إن رجاله ثقاة. وقد بينا أن هذا يدل على أن الجهر بهذه الكلمة كالأمر المتواتر فيما بينهم " (1)

وإذا كان معلوية قد أعاد الصلاة في المدينة، إلا أنه بالشام كان يقودهم إلى عالم ضياع الصلاة، وما فعله معلوية كان خطوة أكمل مسيرتها يزيد وعبيد الله بن زياد، وعبد الملك والحجاج بن يوسف، وأصول خطوات الضياع نجدها في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد. عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لينقض الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتتي تليها. فأولهن نقضا الحكم وآخهن الصلاة " (2).

فبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بفترة قصيرة كان صحابته الأوفياء يصلون سوا. روى البخاري عن حذيفة أنه قال: ابتلينا حتى أن الرجل ليصلي وحده وهو خائف " (3) ، وفي رواية عند أحمد ومسلم " فابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سوا " (4) ، وعندما جاء عصر الوليد لم يكن الأمر يحتاج إلى أي سر لأن كل شيء قد ضاع وأصبح كل إنسان خائف، والله الأمر والحكم، إنه الطريق الذي ضاعت عليه الصلاة هو نفس الطريق الذي تم فيه.

عزل الواسخون في العلم عن القآن، ثم تويغ القآن نفسه بعد ذلك من تفسير النبي صلى الله عليه وسلم، والطريق الذي ضاعت فيه الصلاة تم تويغ القآن فيه هو نفس الطريق الذي رفعت على أعلام اللارواية عن

(1) تبسيط علوم الحديث / نجيب المطيعي ص 68.

(2) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم (كنز العمال 238 / 1).

(3) رواه البخاري (الصحيح 180 / 2) ك الجهاد والسير.

(4) رواه أحمد (الفتح الوباني 40 / 23) مسلم (الصحيح 179 / 2).

الصفحة 463

رسول الله، فبعد كل هذا لا عجب إذ أريت النتيجة بعد ستين سنة من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم: " يكون خلف بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا. ثم يكون خلف يقوون القآن لا يعدو واقبيهم، ويقو القآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر " (1).

أنظر إلى قوله: " يكون خلف " ثم تدبر القول، وعندئذ ستري طابرا طويلا يعرف بعضهم بعضا وإن لم يلتقوا، ثم انظر إلى قوله: " يقوون القآن لا يعدو واقبيهم " ثم رجع وتدبر عملية الغزل والتويغ، وعندئذ ستعلم أن هؤلاء نتيجة لا غبار عليها لمقدمة لا غبار عليها، ثم انظر إلى قوله: " ويقو القآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر "، ثم رجع وتدبر المعرك من أجل إقامة الدين والمعرك من أجل طلب الدنيا. أنظر! إن الجميع هنا وهناك يقوون القآن، ولكن لكل قواء قبله، فالمنافق كافر به، والفاجر يتأكل منه، والمؤمن يؤمن به. الجميع يقفون على أرض واحدة وتحت أعلام الإسلام، ولكن الأهداف تحت الأعلام

نعم. إن الجميع يؤأون القرآن، ولكن هل القرآن شفاء للجميع؟ عليك أن تتدبر قوله تعالى: (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسرا) (2) ، هل تدبرت؟ إن كل حركة في هذا الكون تخضع لرواية، وكل ساكن في هذا الكون منظور، وما تسقط من ورقة إلا ويعلمها الذي خلقها، وكذلك الذين توقعوا لن يجدي عنهم قاءة القرآن الذي لا يجاوز واقبيهم، فهم تحت الوقابة ينظر الله كيف يعملون. وسبحانه يعلم من قبل أن يتوقروا أنهم سيتوقرون وأن طريق الافتراق سيفودهم إلى سنن الذين من قبلهم، وهناك تراهم على منحوات الأودية كالغشاء العفن قال النبي صلى الله عليه

(1) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد 231 / 6) وقال ابن كثير تفرد به أحمد وإسناده جيد قوي (البداية 228 / 6) ولم يتفرد به أحمد كما زعم ابن كثير. ورواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرک 507 / 4) ورواه البيهقي (الخصائص الكبرى 236 / 2) ورواه ابن حبان في صحيحه (كنز 195 / 11).

(2) سورة الإسراء: الآية 82.

الصفحة 464

وسلم: " إن بني إسرائيل توفقت إحدى وسبعين فرقة، فهلك سبعون فرقة خلصت فرقة واحدة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة تهلك إحدى وسبعون وتخلص فرقة. قيل يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال: الجماعة الجماعة " (1) .
أنظر إلى قوله: " الجماعة الجماعة " ثم انظر إلى الساحة التي يؤأ القرآن فيها ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر، ثم تدبر الأحداث والوائر هل رأيت الجماعة؟

دعنا نكرر النظر ونعيد البحث، وهيا ننظر من جديد.

والقرآن وتفسير النبي أخوا بأن بعد الاختلاف والافتراق يكون الطريق مفتوحا إلى سنن الأمم السابقة. قال تعالى: (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم * كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قررة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حببتم أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) (2) ، إن المنافقين والكفار في صدر الآية، فافهم ذلك، أما تفسير النبي لهذه الآيات رواه ابن جرير عن الربيع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية:

حزركم الله أن تحدثوا في الإسلام حدثا، وقد علم أنه سيفعل ذلك أقوام من هذه الأمة، إنما حسبوا أن لا يقع بهم من الفتنة ما وقع ببني إسرائيل قبلهم، وأن الفتنة عائدة كما بدأت. وروى ابن جرير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لتأخذن كما أخذ الأمم من قبلكم فزاعا بزواع وشوا بشبر وباعا بباع.

حتى لو أن أحد من أولئك دخل حجر ضب لدخلتموه " (3) ، وروى ابن كثير عن ابن عباس أنه قال: ما أشبه الليلة بالبلحة

" كالذين من قبلكم " هؤلاء بنو إسرائيل

(1) رواه أحمد (الفتح الرباني 6 / 24) والترمذي وصححه (الجامع 45 / 4) وابن أبي عاصم وقال الألباني صحيح وله ست طرق عن أنس وشواهد من جميع الصحابة (كتاب السنة 32 / 1).

شبهنا بهم، والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم حجر ضب لدخلتموه " (1) لقد شهد ابن عباس " ما أشبه الليلة بالبلحة " ويا لها من شهادة!.

وإذا أردنا أن نوصد شهادة على المساحة الزمنية الممتدة حتى عام 161 هـ فلن نجد أفضل من شهادة سفيان الثوري، فلقد جاء في زمن لا يوري فيه القاتل في أي شيء قتل ولا يوري المقتول في أي شيء قتل (2) . يقول ابن كثير: سفيان الثوري أحد أئمة الإسلام وعبادهم والمقتدى به، وقال يحيى بن معين وغير واحد: هو أمير المؤمنين في الحديث وقال شعبة: ساد الناس بالرع في زمانه وقال أحمد: لا يتقدمه في قلبي أحد (3) . وكان سفيان كثير الحط على المنصور لظلمه ورأد المنصور قتله مما أمهله الله (4) . وحول المهدي إغواؤه بالمال والمنصب وكتب له على قضاء الكوفة، فمى سفيان الكتاب في دجلة وهرب (5) . وكان يقول: من لاق لهم نواة أو رى لهم قلما فهو شريكهم في كل دم (6) . وعندما قوا حديث " هلاك أمتي على أيدي غلطة من قريش سفهاء " قال:

ما أشبه طعامهم إلا بطعام الدجال (7) . وكان يقول ليوسف بن أسباط: يا يوسف لا تكن من قواء الملوك، ولا تكن فقيه السوق، وما أقبح قواءة ليس معها زهد، وأن دعاك الملوك على أن تقوا عليهم (قل هو الله أحد) فلا تفعل (8) . وقال له: ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الواسة، ترى الرجل زهد في المال والثياب والمطعم، فإذا نزع في الوياسة، جابى عليها وعادى (9) .

(1) ابن جرير في تفسيره 2 / 368 .

(2) الحديث رواه مسلم (الصحيح 34 / 18).

(3) البداية والنهاية 134 / 10 ، شوات الذهب / ابن العماد 250 / 1 .

(4) شوات الذهب 250 / 1 .

(5) شوات الذهب 250 / 1 .

(6) كتاب الرع / أحمد بن حنبل ص 93 .

(7) المصدر السابق ص 94 .

(8) المصدر السابق 95 .

(9) المصدر السابق 96 .

كانت هذه حركة سفيان حتى وفاته عام 161 هـ وإذا أردنا أن نقدم شهادة سفيان فإننا في الوقت نفسه نقدم حركته. وفي

شهادته على عهده سألوه معاملة الأتراء أحب إليك أم غوهم؟ فقال: معاملة اليهود والنصرى أحب إلي من معاملة هؤلاء الأتراء (1) . وقال: القبول مما في أيديهم من استحلال المحرم، والتبسم في وجوههم علامة الرضا بفعالهم، وإدمان النظر إليهم يميت القلب (2) . وقال: لا تنتظروا إلى الأئمة المضلين إلا بإنكار قلوبكم عليهم لئلا تحبط أعمالكم (3) .

هذا هو سفيان الثوري الذي وصف بأنه أمير المؤمنين في الحديث، ولكن أين ذهب فقه هذا الشيخ؟ وقد قال عنه ابن العماد: ومات سفيان بالبصرة مؤتولياً، وكان صاحب مذهب، وقال ابن رجب: وجد في آخر القرن الرابع سفيانيون ومناقبه تحتمل مجلدات " (4) ، في الحقيقة ما كان لفقه الباحث عن الحقيقة أن يبقى في عالم طعامه أشبه بطعام الدجال. لقد رفسوا فقهه بعد مماته بعد أن رفسوه في حياته، ولقد تتبعت رحلة البحث لهذا الشيخ فما وجدت عليها إلا التعقيم الشديد، الأمر الذي دعاني للبحث عنه في مصادر عديدة كي أقف على ما وصل إليه، وفي بحار الأتوار قُوت أن سفيان الثوري سمع حديثاً يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: نعتت إلى نفسي.... نصر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها وبلغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهم قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين واللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محيطية من ورائهم، أيها الناس إنني ترك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا ولن تزلوا كتاب الله وعتوتي أهل بيتي، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علي

(1) المصدر السابق 96.

(2) المصدر السابق 96.

(3) المصدر السابق 96.

(4) شتوات الذهب 1 / 251.

الصفحة 467

الحوض " (1) ، وعندما سمع سفيان الثوري هذا الحديث الذي جاءه عن طريق أهل البيت قال لصاحبه: كما أنت حتى أنظر في هذا الحديث. فقال صاحب سفيان: ثلاث لا يغل عليهم قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل قد عرفناه والنصيحة لأئمة المسلمين، من هؤلاء الأئمة الذين يجب علينا نصيحتهم؟

معلوية بن أبي سفيان ويؤيد معلوية ومروان بن الحكم وكل من لا تجوز شهادته عندنا ولا تجوز الصلاة خلفهم. وقوله: واللزوم لجماعتهم، فأني جماعة؟ موجئ يقول: من لم يصل ولم يصم ولم يغتسل من جنابة وهدم الكعبة ونكح أمه فهو على إيمان جبريل وميكائيل، أو قروي يقول: لا يكون ما شاء الله عز وجل ويكون ما شاء إبليس، أو حروري يوأ من علي بن أبي طالب وشهد عليه بالكفر، أو جهمي يقول: إنما هي معرفة الله وحده ليس الإيمان شئ غوها (2) . فقال له سفيان: ويحك وأي شئ يقولون قال: يقولون: إن علياً والله الإمام الذي يجب علينا نصيحتته ولزوم جماعة أهل بيته " (3) .

وسمع سفيان حديث " من قاتلنا آخر الزمان فكأنما قاتلنا مع الدجال " (4) .

عندئذ علم سفيان أن الأتراء ما أشبه طعامهم إلا بطعام الدجال (5) . وبدأ يمسك بخيط البحث عن الحقيقة. روى أبو الفوج

الأصفهاني عن أبي عوانة قال: فرقني سفيان على أنه زيدي (6). وانطلق الشيخ في رحلة البحث، واندثر فقهه ومذهبه، وما عند الله خير وأبقى.

وفي داوة الشهود أمامنا العديد من الرجال والكثير من الأحاديث، وكل داوة فيها شهادة وكل شهادة حجة بذاتها، وإليك حديثا جاء على لسان أرواء

(1) الرسول تحدث بهذا الحديث في غدیر خم. ثم حدث به في مسجد الخيف قبل أن يلقى الرقيق الأعلى (بحار الأنوار 69 - 27).

(2) أي إيمان بلا عمل.

(3) بحار الأنوار 27 / 70.

(4) بحار الأنوار 27 / 205.

(5) الورع / أحمد بن حنبل ص 94.

(6) مقاتل الطالبين ص 141.

الصفحة 468

المؤمنين ليكون شاهدا عليهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. عن إواهيم بن سعيد الجوهري قال: حدثني أمير المؤمنين المأمون حدثني أمير المؤمنين الوشيد حدثني أمير المؤمنين المهدي قال: دخل علي سفيان الثوري، فقلت: حدثني بأحسن فضيلة عندك لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب، فقال سفيان: حدثني سلمة بن كهيل عن حجية عن علي بن أبي طالب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى (1). وعن موسى الجهني قال: دخلت على فاطمة بنت علي، فقال لها رفيقي أبو سهل: كم لك؟ قالت: ست وثمانون سنة. قال: ما سمعت من أبيك شيئا؟ قالت: حدثتني أسماء بنت عميس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس بعدي نبي " (2)

فهذا الحديث في هذه الأمانة حجة على الخاص والعام، وبين أيدينا أيضا حديث رواه أبناء الصحابي الجليل عمار بن ياسر، ونقدمه هنا في داوة الشهود فعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه عن جده قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: أوصي من آمن بي وصدقني ولاية علي بن أبي طالب، فمن ولاه فقد وُلاني، ومن وُلاني فقد تولى الله، ومن أحبه. فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل " (3)، وعنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم من آمن بي وصدقني فليتول علي بن أبي طالب، فإن ولايته ولايتي وولايتي ولاية الله " (4).

وبين أيدينا حديث رواه أبناء الصحابي أبي رافع، نقدمه أيضا في داوة الشهود، عن محمد بن عبد الله بن أبي رافع عن

أبيه عن جده قال: قال رسول الله

(2) رواه أحمد والطواني ورجال أحمد ثقات (الفتح الرباني 129 / 27).

(3) رواه الطواني في الكبير وابن عساكر (كنز العمال 610 / 11).

(4) رواه الطواني في الكبير (كنز 611 / 11).

صلى الله عليه وسلم: " من أحب علياً فقد أحبني. ومن أحبني فقد أحب الله. ومن أبغضه فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله " (1).

وهكذا التقى البدء مع الختام وكل نتيجة سقطت على مقدمتها، وعلى امتداد الرحلة كانت النتائج تتطرق بلسان فصيح وكانت المقدمات تشع لآها العصور البعيدة، وعلى امتداد الزمان كان هناك رجال ينكلمون من كلامهم تتكشف حقائق أمام الباحثين الذي يبحثون عن المقدمات أو الذين يتأملون في النتائج، ومن هذه الأقوال قول الحسن البصري: أفسد أمر الناس اثنان عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف فحملت... فلا زال هذا التحكيم إلى يوم القيامة، والمغوة بن شعبة الذي بث في معاوية البيعة لزيد من بعده، ثم خرج يقول: وضعت رجل معاوية في غرز نحس لا زال فيه إلى يوم القيامة. ثم قال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم " (2)، وروي أن الحسن كان ينقم على معاوية أربعة أشياء: قتاله علياً، وقتله حجر بن عدي واستلحاقه زياد بن أبيه ومبايعته لزيد ابنه " (3)، فهذه شهادة الحسن البصري على بعض أحداث عصوره ويمكن بتتبعها أن يصل الباحث إلى مقدماتها، وهناك أيضاً شهادة عروة بن بلحة قال: أول ذل دخل على العرب قتل الحسين بن علي وادعاء زياد (4). وفي رواية عن أبي إسحاق نزيادة: وقتل حجر بن عدي (5). وهذه كلها مقدمات لفحص معاوية وفتح خزانته، أما التصنم أمام قول ابن كثير: " إن معاوية هو ستر الصحابة، فإذا كشف الستر اجترأ على ما وراءه " (6)، فإنه لن يقيد باحثاً، فالصحابية أجل من أن يندثروا بوداء وستر معاوية وأتباعه. وفي داوة الشهود نستمتع إلى قول الحافظ الذهبي في تزيخ الإسلام،

(2) تزيخ الخلفاء 192.

(3) البداية والنهاية 130 / 8، الطوي 157 / 6.

(4) رواه الطواني ورجاله ثقات (الزوائد 196 / 9).

(5) مقاتل الطالبين 83، ابن أبي الحديد 18 / 4.

(6) البداية والنهاية 139 / 8.

حيث يقرر أن علماء الحوحد والتعديل ابتعدوا عن أي قول من الأهواء وأبناء الأهواء خوفاً من السيف، وعلى هذا يمكن

القول إن كلمة الحق كانت ترتعش على السطور في تلك الأرملة، ولم تفسح السطور إلا لما يريد النظام، فبينما لا تكتب كلمة واحدة في الأمراء وأبنائهم، نجدهم يجرحون علماء الراية الذين لا ينامون أمام خرائن السلطان، على سبيل المثال جاء في ترجمة جعفر بن سليمان كما ذكر صاحب كتاب التقييد: جعفر بن سليمان الضبيعي أبو سلمان البصوي صدوق زاهد لكنه كان يتشيع. وقال في التهذيب: كان جعفر إذا ذكر معلوية شتمه وإذا ذكر عليا قعد يبكي⁽¹⁾. وكان هذا البكاء كافيا لوفسه كما رفس سفيان الثوري من قبل.

وفي الختام أقول: هيا نتفق على أن الجميع خلفاء بما فيهم خلفاء الدولة الأموية والدولة العباسية ومن جاء بعدهم. الجميع بلا استثناء خلفاء ونحن نفر هنا بذلك، ولكن الأهم من هذا كله ممن نأخذ السنة؟ فهنا كما يقولون موبط الفوس. إن العمل بالسنة صفحته القوان فأبي حبل نأخذ به شوط أن يكون قوينا للقوان؟ إنا هنا لانتصر للقبايل والأحزاب، ولكننا نريد دثار الإسلام وحده، نريد أن نسير في ظلاله، وإذا كانت هناك كلمة، فإني لوجهها للباحثين فأقول:

أقدموا على الإسلام وهو ليس غائبا عنكم، هو فيكم ومعكم حجة عليكم، ولكي تنصهروا فيه فلا بد أن تنتقلوا من دائرة الشعار إلى دائرة الشعور، فدائرة الشعور هي نفسها دائرة الغباء، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغباء "⁽²⁾ ، قال النووي: أي أن الإسلام بدأ في آحاد من الناس وقلة ثم انتشر وظهر، ثم سيلحقه النقص والإخلال حتى لا يبقى إلا في آحاد وقلة أيضا كما بدأ⁽³⁾. وقيل: ظهر في الغربة وسيعود من بلاد الغربة...

(1) تحفة الأحوازي 214 / 10.

(2) رواه مسلم وابن ماجه والطواني (كنز العمال 177 / 2).

(3) مسلم بشوح النووي 177 / 2.

الصفحة 471

كونوا في دائرة الغباء. والغربي هو الذي يفر من مدينة إلى مدينة ومن قلة إلى قلة ومن بلد إلى بلد ومن بر إلى بحر ومن بحر إلى بر، ومن أوراق إلى أوراق حتى يسلم وأني له بالسلامة مع هذه النوان التي طافت بالشرق والغرب وأتت على الحرث والنسل، فكممت الأفواه وأسكتت كل ناطق وحيوت كل لبيب!! ومع هذا كله فالغريب يسير وهو قابض على الجمر، كونوا في دائرة الغباء لأن هذه الدائرة فيها إخوان النبي صلى الله عليه وسلم. قال السيد المصطفى عليه الصلاة والسلام: " متى ألقى إخواني. قالوا: ألسنا إخوانك؟ قال:

بل أنتم أصحابي، وإخواني الذين آمنوا بي ولم يروني، أنا إليهم بالأشواق "⁽¹⁾.

وفي الختام أقدم الشاهد الأخير. قال النبي صلى الله عليه وسلم:

يجئ يوم القيامة المصحف والمسجد والعتوة، فيقول المصحف: يارب حرقوني ومزقوني، ويقول المسجد: يارب خربوني

وعطلوني وضيعوني، وتقول العتوة: يارب طودونا وقتلونا وشودونا. قال النبي: وأجثو بركبتي للخصومة، فيقول الله: ذلك

إلي وأنا أولى بذلك "⁽²⁾.

وأصلي وأسلم على خاتم النبيين محمد النبي الأمي العربي القوشي الهاشمي المكي المدني صلى الله عليه وسلم الطيبين
الطاهرين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.
القاهرة 19 صفر 1414 هـ
8 أغسطس 1993 م

(1) رواه أبو يعلى عن أنس وابن عساكر عن البراء (كنز العمال 184 / 12) ورواه أحمد بلفظ: وددت أني لقيت إخواني الذين آمنوا بي ولم
يروني (كنز العمال 164 / 12).

(2) رواه الديلمي عن جابر. وأحمد والطواني عن أبي أمامة (كنز العمال 193 / 11).

الصفحة 472

الصفحة 473

المراجع

- 1 - جامع البيان في تفسير القرآن - لابن جرير الطوي، ط دار الويان 1987.
- 2 - التفسير الكبير - فخر الدين الوري، ط دار الكتب العلمية، بيروت 1990.
- 3 - تفسير الكشاف - الزمخشوي، ط ولاق 1281.
- 4 - تفسير القرآن العظيم - ابن كثير، ط دار التّواث بحلب 1950 ، المنار القاهرة 1947.
- 5 - صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل البخاري، ط الحلبي القاهرة بتفسير السندي.
- 6 - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج ط إحياء التّواث بيروت 1972، ط استانبول 1329.
- 7 - الجامع الصحيح - أبو عيسى الترمذي ط الحلبي 1975 القاهرة.
- 8 - سنن أبي دلوود - أبو دلوود السجستاني، ط دار الفكر بيروت.
- 9 - سنن ابن ماجة - أبو عبد الله محمد القزويني ط، دار إحياء التّواث بيروت.
- 10 - الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد - أحمد البناء، ط دار التّواث العربي بيروت ط ثانية.
- 11 - المستدرک - أبو عبد الله الحاكم، ط دار الفكر 1978 بيروت.
- 12 - كتاب السنة - أبو بكر بن أبي عاصم، ط المكتب الإسلامي 1980 بيروت.
- 13 - التاج الجامع للأصول - منصور ناصف ط، دار الفكر بيروت 1981. 14 - 14 - كنز العمال - علاء الدين المنقي، ط مؤسسة الرسالة بيروت 1979.
- 15 - مجمع الزوائد - علي بن أبي بكر الهيثمي ط مكتبة القدس القاهرة.
- 16 - كشف الخفاء - إسماعيل بن محمد العجلوني ط مؤسسة الرسالة بيروت.

17 - سلسلة الأحاديث الصحيحة - ناصر الدين الألباني ط، المكتب الإسلامي.

الصفحة 474

- 18 - سلسلة الأحاديث الضعيفة - ناصر الدين الألباني ط، المكتب الإسلامي 1399.
- 19 - الخصائص الكبرى / جلال الدين السيوطي، ط المكتبة السلفية بالمدينة 1964.
- 20 - تحفة الأحراري / محمد المبركفوري، ط المكتبة السلفية بالمدينة 1964.
- 21 - فتح الباري / ابن حجر، ط الحلبي 1978 ، ط الريان القاهرة.
- 22 - الورع / أحمد بن حنبل، ط دار الكتب العلمية بيروت 1983.
- 23 - نظم المتناثر من الحديث المتواتر - محمد بن جعفر الكتاني، ط دار الكتب السلفية مصر.
- 24 - موضوعات الصغاني - الحسن بن محمد الصغاني، دار نافع مصر 1401.
- 25 - كتاب الموضوعات - أبو الفوج بن الجوزي، ط مكتبة ابن تيمية القاهرة.
- 26 - المنار المنيف في الصحيح والضعيف / ابن القيم، ط دار المسلم مصر 1983.
- 27 - تريب الولوي - جلال الدين السيوطي، ط دار الفكر بيروت.
- 28 - المجروحين - محمد بن حبان، ط دار الوعي بطلب 1402.
- 29 - مزان الاعتدال - أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، ط دار المعرفة بيروت.
- 30 - الحرح والتعديل - ابن أبي حاتم الولوي، ط دار إحياء التراث بيروت 1952.
- 31 - تبسيط علوم الحديث / محمد نجيب المطيعي، ط دار حسان القاهرة توزيع الاعتصام.
- 32 - كتاب الموطأ - مالك بن أنس، ط دار الآفاق الجديدة بيروت 1985.
- 33 - المغني - عبد الله بن أحمد بن قدامة، ط مكتبة الجمهورية العربية القاهرة.
- 34 - الاعتبار في الناسخ والمنسوخ - أبو بكر بن موسى الهمداني، ط دار النعي حلب 1983.
- 35 - مشكل الآثار - أبو جعفر الطحاوي، ط دار صادر بيروت ط 1333.
- 36 - منهاج السنة / أحمد بن تيمية، ط دار الفكر بيروت 1980.

الصفحة 475

- 37 - الفتاوى الحديثية / ابن حجر الهيتمي، ط الحلبي 1970.
- 38 - مصادر التشريع الإسلامي - سيد سابق، ط دار الفتح للإعلام العربي مصر.
- 39 - خلاصة تزيخ التشريع الإسلامي / عبد الوهاب خلاف، ط دار الأنصار القاهرة.
- 40 - الإصابة في تمييز الصحابة / ابن حجر العسقلاني، ط دار العلوم الحديثية 1328، ط دار الكتب العلمية.
- 41 - الإستهيعاب / أبو عمر يوسف بن عبد البر. هامش الإصابة، ط دار العلوم الحديثية 1328.

- 42 - الإستبصار في نسب الأنصار - ابن قدامة المقدسي، ط دار الفكر بيروت.
- 43 - شذوات الذهب في أخبار من ذهب - ابن العماد الحنبلي، ط دار الفكر بيروت 1979.
- 44 - تزيخ الأمم والملوك - بن جوير الطوي، ط دار الفكر بيروت 1979.
- 45 - الطبقات الكبرى - محمد بن سعد، ط دار صادر بيروت.
- 46 - مروج الذهب - علي بن الحسين بن علي المعودي، ط دار الكتب العلمية بيروت 1986، مكتبة الرياض 1981.
- 47 - التنبيه والإثواف - علي بن الحسين المسعودي، ط مكتبة الهلال بيروت 1981.
- 48 - البداية والنهاية - الحافظ بن كثير، ط دار المعرف 1981.
- 49 - الموافقات - الزبير بن بكار برواية ابن أبي الحديد في شوح نهج البلاغة ط مكتبة الحياة 1983.
- 50 - شوح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد، ط دار مكتبة الحياة بيروت 1983.
- 51 - فوح البلدان - أبو جعفر أحمد البلازي، ط القاهرة 1319.
- 52 - أنساب الأثواف - أبو جعفر البلازي، ط القدس 1936.
- 53 - الأخبار الطوال - لأبي حنيفة أحمد بن الدينوري، ط وزارة الثقافة مصر.
- 54 - الأغاني - لأبي الفرج الأصفهاني، ط مصر 1323.

الصفحة 476

- 55 - مقاتل الطالبين - لأبي الفرج الأصفهاني، ط مؤسسة الأعلمي 1987.
- 56 - العقد الفريد - أحمد بن محمد بن عبدربه، ط لجنة التأليف والنشر مصر 1950.
- 57 - تزيخ دمشق - ابن عساكر أبي القاسم علي بن الحسن، ط المجمع العلمي العربي دمشق ط.
- 58 - الكامل في التزيخ - لابن الأثير عز الدين علي بن محمد، ط دار صادر بيروت 1966.
- 59 - نول الإسلام - أبو عبد الله الذهبي، ط مؤسسة الأعلمي بيروت 1985.
- 60 - تزيخ الخلفاء - جلال الدين السيوطي، ط دار الفكر بيروت.
- 61 - رسائل بن حزم - تحقيق إحسان عباس، ط المؤسسة العربية للدراسات بيروت 1981.
- 62 - أسد الغابة في معرفة الصحابة - ابن الأثير، ط القاهرة 1280 هـ .
- 63 - العواصم من القواصم - أبو بكر بن العربي، تحقيق محب الدين الخطيب، ط المكتبة السلفية 1399.
- 64 - زمة الفكر السياسي الإسلامي - وعبد الحميد متولي، ط الهيئة العامة للكتاب القاهرة 1985.
- 65 - نهاية الفلسفة الإسلامية - السيد الزنجاني، ط مؤسسة البلاغ بيروت 1987.
- 66 - تزيخ المذاهب الإسلامية - محمد أبوزهرة، ط دار الفكر العربي القاهرة.
- 67 - تزيخ الفرق الإسلامية - محمد خليل، ط مؤسسة الأعلمي 1985. 68 - تزيخ الشعر في الكوفة - د. يوسف

خليف، دار الكتاب مصر 1968.

- 69 - العصر العباسي الأول - د. شوقي صنيف، دار المعرف مصر.
- 70 - طبقات سلاطين الإسلام - استانلي بول، ط الدار العالمية بيروت 1986.
- 71 - كتب وشخصيات - سيد قطب، ط دار الشروق.
- 72 - عبوية الإمام علي - عباس العقاد، ط المكتبة العصرية بيروت.